Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK

GENERAL
LIBRARY

كتاب

عِلْمِ الأَدَب

مقالات

لِمَشَاهِيرِ العَرَب

على الجزء الثاني

من

عِلْمِ الأَدَب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

حق الطبع محفوظ للمطبعة

طُبع في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين

ببيروت سنة ١٨٨٩

893.741
C41
Voe 4

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

PJ
6161
.C5
v.4

AIGMUJOO
YTIRAVIMU
YRAANBIJ

مقالات

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

القسم الأول

في علم الخطابة

الفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليه بوجه الاجمال

(عن كليات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْخَطَابَةُ فِي اللُّغَةِ كَالْخِطَابِ وَهِيَ اَلْمُكَالَمَةُ اَوِ اللَّفْظُ اَلْمُتَوَاضَعُ عَلَيْهِ اَلْمَقْصُودُ بِهِ اِفْهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى اَلْكَلَامِ اَلنَّفْسِيِّ اَلْمُوَجَّهِ نَحْوَ اَلْغَيْرِ لِلْاِفْهَامِ . وَعِنْدَ اَلْحُكَمَاءِ اَلْخَطَابَةُ هِيَ اَلْقِيَاسُ اَلْمُفِيدُ تَرْغِيبَ اَلْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى اَلْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ اَنْ

252064

COLUMBIA UNIVERSITY

يشتغل بها من المقالات. ولما ظهر ارسطو في يونان وهذب مباحث المنطق ورتب مسائله وفصوله وجعله اول العلوم الحكمية وفاتحتها جعل الخطابة احد اقسامه الثمانية. وهذه الاقسام تشتمل على ثمانية كتب اربعة منها في صورة القياس وهي كتب المقولات والعبارة والقياس والبرهان واربعة في مادته وهي كتب الجدل والسفسطة والخطابة والشعر. وذلك ان المطالب التصديقية على انحاء فمنها ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه وهو تشتمل عليه الكتب الاربعة الاولى. ومنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهذا تشتمل عليه الكتب الاربعة الاخرى. وفيها تدخل الخطابة. وترجمت كلها في الملة الاسلامية وكتبها وتداولها فلاسفة الاسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الاندلس. ولابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة كلها. ثم جاء المتاخرون فغيروا اصطلاح المنطق وحصروا مطالبه في كتب خمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربما يلم بعضهم باليسير منها الماما واغفلوها كان لم تكن هي المهم المعتمد في الفن. واما الذي يشتمل عليه كتاب الخطابة فهو تعريف المقاييس الخطابية البلاغية النافعة في مخاطبات الجمهور على سبيل المشاورات والمحاصمات في المشاجرات او المدح او الذم او الحيل النافعة في الاستعطاف والاستمالة والاغراء وتصغير الامر وتعظيمه ووجوه المعاذير والمعاتبات ووجوه ترتيب الكلام في كل قصة وخطبة

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قالَ) اَلْخَطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَتَكَلَّفُ اَلْاِقْنَاعَ اَلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ اَلْمُفْرَدَةِ . وَنَعْنِي (بِاَلْقُوَّةِ) اَلصِّنَاعَةَ اَلَّتِي تَفْعَلُ فِي اَلْمُتَقَابِلَيْنِ . وَلَيْسَ تَتْبَعُ غَايَتُهَا فِعْلَهَا ضَرُورَةً . وَنَعْنِي (بِتَتَكَلَّفُ) اَيْ تَبْذُلُ مَجْهُودَهَا فِي اَسْتِقْصَاءِ فِعْلِ اَلْاِقْنَاعِ اَلْمُمْكِنِ فِي ذٰلِكَ اَلشَّيْءِ اَلَّذِي فِيهِ اَلْقَوْلُ وَذٰلِكَ يَكُونُ بِغَايَةِ مَا يُمْكِنُ فِيهِ . وَنَعْنِي بِقَوْلِهِ : (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ اَلْمُفْرَدَةِ) اَيْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ اَلْمُفْرَدَةِ اَلْمَوْجُودَةِ فِي مَقُولَةٍ مِنَ اَلْمَقُولَاتِ اَلْعَشْرِ (١) . وَهٰذَا هُوَ اَلْفَصْلُ اَلَّذِي تَنْفَصِلُ بِهِ هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةُ عَنْ سَائِرِ اَلصَّنَائِعِ اَلَّتِي يُظَنُّ اَنَّهَا قَدْ تُقْنِعُ فِي اَلْاُمُورِ اَلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا . وَذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ اِنَّمَا هِيَ مُعَلِّمَةٌ اَيْ مُبَرْهِنَةٌ وَمُقْنِعَةٌ فِي اَلْجِنْسِ اَلَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ اَلْاَجْنَاسِ . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ اَلطِّبَّ اِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

(١) المقولة لغةً المفعول من القول والتاء للمبالغة بمعنى الملفوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنهُ القول وأبرز فيهِ الحكم من الاجناس العالية المجردة عن المحسوسات التي ليس فوقها جنس . والمقولات عشر : الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لهما يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لهما متى واين) والهيئة والوضع (ويقال لهما ان يكون لهُ والموضوع)

ٱلْبُرْهَانِ وَيُقْنِعُ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْمَرَضِ وَفِي أَنْوَاعِهِمَا . وَكَذٰلِكَ ٱلْهَنْدَسَةُ إِنَّمَا تُعَلَّمُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبُرْهَانِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْإِقْنَاعِ فِي ٱلْأَعْظَامِ وَٱلْأَشْكَالِ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْأَجْسَامِ . وَأَمَّا ٱلْخَطَابَةُ فَهِيَ تَتَكَلَّفُ ٱلْإِقْنَاعَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ فِي أَيِّ مَقُولَةٍ كَانَتْ وَأَيِّ جِنْسٍ كَانَ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ تُنْسَبُ إِلَى جِنْسٍ خَاصٍّ

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(قَالَ) إِنَّ صِنَاعَةَ ٱلْخَطَابَةِ تُنَاسِبُ صِنَاعَةَ ٱلْجَدَلِ . وَذٰلِكَ أَنَّ كِلَيْهِمَا يَؤُمَّانِ غَايَةً وَاحِدَةً وَهِيَ مُخَاطَبَةُ ٱلْغَيْرِ إِذْ كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُهُمَا ٱلْإِنْسَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ بَلْ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُمَا مَعَ ٱلْغَيْرِ وَتَشْتَرِكَانِ بِنَحْوٍ مِنَ ٱلْأَنْحَاءِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ إِذْ كَانَ كِلَاهُمَا يَتَعَاطَى ٱلنَّظَرَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ وَيُوجَدُ ٱسْتِعْمَالُهُمَا مُشْتَرَكًا لِلْجَمِيعِ . أَعْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْتَعْمِلُ بِٱلطَّبْعِ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْجَدَلِيَّةَ وَٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْخُطَبِيَّةَ . وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا عِلْمًا مِنَ ٱلْعُلُومِ مُفْرَدًا بِذَاتِهِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعُلُومَ لَهَا مَوْضُوعَاتٌ خَاصَّةٌ وَيَسْتَعْمِلُهَا أَصْنَافٌ مِنَ ٱلنَّاسِ خَاصَّةٌ . وَلٰكِنْ مِنْ جِهَةِ أَنَّ هٰذَيْنِ (أَيِ ٱلْخَطَابَةَ وَٱلْجَدَلَ) يَنْظُرَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَجَمِيعُ ٱلْعُلُومِ تَنْظُرُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَقَدْ

تُوجَدُ جَمِيعُ ٱلْعُلُومِ مُشَارِكَةً لَهُمَا بِنَحْوٍ مَا . وَإِذَا كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ مُشْتَرَكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِيهِمَا لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِ

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرَّى للتصديق اكثر منها للتأثير

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَأَى مَنْ رَأَى أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي ٱلتَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُرَادُ تَثْبِيتُهَا بِطَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلصَّوَابُ . وَخَلِيقٌ إِنِ ٱسْتَعْمَلَ أَحَدٌ هٰذَا أَنْ يَكُونَ بِٱسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَبِيبًا أَدِيبًا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلَّذِي يَرُومُ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُثْبِتَ أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ . وَذٰلِكَ إِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ ٱلشَّرِيعَةِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلشَّكْوَى عَظِيمٌ أَوْ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ . وَإِمَّا أَنْ يُثْبِتَ ٱلْأَمْرَيْنِ وَذٰلِكَ إِذَا لَمْ تُحَدِّدِ ٱلشَّرِيعَةُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ . فَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ فَغَيْرُ مُمْكِنٍ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلِٱنْفِعَالَ بِٱلرَّحْمَةِ أَوِ ٱلْبُغْضَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لِشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَٱلْعَدْلُ

وَٱلْجَوْرُ أُمُورٌ كُلِّيَّةٌ. وَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ فَلَهُ فِي ذٰلِكَ تَأْثِيرٌ لٰكِنَّهُ لَيْسَ يُوجِبُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ بِٱلذَّاتِ بَلْ إِنَّمَا يُمِيلُ ٱلْحُكَّامَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ صَدَقَ فِيمَا ٱدَّعَى أَوْ لَمْ يَصْدُقْ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْدُثَ لِلْحَاكِمِ أَوِ ٱلْمُنَاظِرِ بِذٰلِكَ تَصْدِيقٌ زَائِدٌ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ

(قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلسُّنَنُ هِيَ ٱلَّتِي تُحَدِّدُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ وَتُفَوِّضُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وُجِدَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يُوجَدْ إِلَى ٱلْحُكَّامِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَتُفَوِّضُ إِلَيْهِمِ ٱلْأُمُورَ ٱلْيَسِيرَةَ وَذٰلِكَ لِشَيْئَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) أَنَّهُ قَلَّ مَا يُوجَدُ حَاكِمٌ يَقْدِرُ أَنْ يُمَيِّزَ ٱلْأُمُورَ عَلَى كُنْهِهَا فَيَضَعَ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ وَهٰذَا عَدْلٌ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَأَكْثَرُ ٱلْحُكَّامِ ٱلْمَوْجُودِينَ فِي ٱلْمُدُنِ لَيْسَ لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْقُدْرَةُ. (وَٱلثَّانِي) فَلِأَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى أَنَّ ٱلشَّيْءَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ يَحْتَاجُ فِيهِ وَاضِعُ ٱلسُّنَنِ إِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ وَذٰلِكَ لَا يُمْكِنُ فِي ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَاظُرُ فِي ٱلشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَلِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ يَصْعُبُ أَنْ يُفَوَّضَ إِلَى ٱلْحُكَّامِ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ نَافِعٌ أَوْ ضَارٌّ بَلْ إِنَّمَا يُفَوَّضُ إِلَيْهِمْ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وَقَعَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يَقَعْ وَذٰلِكَ لِإِمْكَانِهِ وَلِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَهُ صَاحِبُ ٱلسُّنَّةِ

البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قال) وَلِلْخَطَابَةِ مَنْفَعَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ يَحُثَّ اَلْخَطِيبُ اَلْمُدَنِيِّينَ عَلَى اَلْاَعْمَالِ اَلْفَاضِلَةِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ بِالطَّبْعِ يَمِيلُونَ اِلَى ضِدِّ اَلْفَضَائِلِ اَلْعَادِلَةِ فَاِذَا لَمْ يُضْبَطُوا بِالْاَقَاوِيلِ اَلْخُطَبِيَّةِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ اَضْدَادُ اَلْاَفْعَالِ اَلْعَادِلَةِ. وَذٰلِكَ شَيْءٌ مَذْمُومٌ يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ اَلتَّأْنِيبَ وَالتَّوْبِيخَ اَعْنِي اَلَّذِي يَمِيلُ اِلَى ضِدِّ اَلْاَفْعَالِ اَلْعَادِلَةِ اَوِ اَلْمُدَبِّرَ اَلَّذِي لَا يَضْبِطُ اَلْمُدَنِيِّينَ بِالْاَقَاوِيلِ اَلْخُطَبِيَّةِ عَلَى اَلْفَضَائِلِ اَلْعَادِلَةِ اَلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ بَيْنَ اَلْاِنْسَانِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ اَعْنِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَلْمُشَارِكِ لَهُ فِي اَيِّ شَيْءٍ كَانَتِ اَلشَّرِكَةُ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. (وَاَلْمَنْفَعَةُ اَلثَّانِيَةُ) اَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ اَلنَّاسِ يَنْبَغِي اَنْ يُسْتَعْمَلَ مَعَهُمُ اَلْبُرْهَانُ فِي اَلْاَشْيَاءِ اَلنَّظَرِيَّةِ اَلَّتِي يُرَادُ مِنْهُمُ اعْتِقَادُهَا. وَذٰلِكَ اِمَّا لِاَنَّ اَلْاِنْسَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى مَشْهُورَاتٍ تُخَالِفُ اَلْحَقَّ فَاِذَا سَلَكَ بِهِ نَحْوَ اَلْاَشْيَاءِ اَلَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا سَهُلَ اِقْنَاعُهُ. وَاِمَّا لِاَنَّ فِطْرَتَهُ لَيْسَتْ مُعَدَّةً لِقَبُولِ اَلْبُرْهَانِ اَصْلًا. وَاِمَّا لِاَنَّهُ لَا يُمْكِنُ بَيَانُهُ لَهُ فِي ذٰلِكَ اَلزَّمَانِ اَلْيَسِيرِ اَلَّذِي يُرَادُ مِنْهُ وُقُوعُ اَلتَّصْدِيقِ فِيهِ. فَلِهٰذَا قَدْ نَضْطَرُّ اِلَى اَنْ نُحَصِّلَ اَلتَّصْدِيقَ بِالْمُقَدِّمَاتِ اَلْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ اَلْمُخَاطَبِ اَعْنِي

بِالْمَحْمُودَاتِ. وَهٰذِهِ الْمَنْفَعَةُ تُشَارِكُ هٰذِهِ الصِّنَاعَةُ فِيهَا صِنَاعَةَ الْجَدَلِ كَمَا ذَكَرْنَا ذٰلِكَ فِي كِتَابِ الْجَدَلِ. وَهٰذِهِ الصِّنَاعَةُ يُمْكِنُهَا الْإِقْنَاعُ فِي الْمُتَضَادَّيْنِ جَمِيعًا كَمَا يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي الْقِيَاسِ الْجَدَلِيِّ. وَذٰلِكَ أَنَّا قَدْ نُقْنِعُ فِي الْجَانِي أَنَّهُ أَسَاءَ وَأَنَّهُ لَمْ يُسِئْ وَلَسْتُ أَعْنِي أَنَّا نَفْعَلُ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ نَفْعَلُ هٰذَا فِي وَقْتٍ وَهٰذَا فِي وَقْتٍ بِحَسَبِ الْأَنْفَعِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ الشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ وَضِدُّهُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ آخَرَ. وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُثْبِتُ الشَّيْءَ وَضِدَّهُ عِنْدَنَا عَتِيدَةً وَسَمِعْنَا مُتَكَلِّمًا قَدْ أَقْنَعَ فِي الضِّدِّ الَّذِي لَيْسَ بِعَدْلٍ أَمْكَنَّا بِهٰذِهِ الْقُوَّةِ أَنْ نَنْقُضَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ. فَهَاتَانِ الْمَنْفَعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْقُدْرَةِ الَّتِي فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ عَلَى الْإِقْنَاعِ فِي شَيْءٍ مِنَ الصَّنَائِعِ الْقِيَاسِيَّةِ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا مُهَيَّأَتَانِ بِالطَّبْعِ وَعَلَى السَّوَاءِ لِلْإِقْنَاعِ فِي كِلَا الْمُتَقَابِلَيْنِ. أَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا تُوجَدُ أَشَدَّ اسْتِعْدَادًا لِلْإِقْنَاعِ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ مِنْهَا فِي الْآخَرِ بَلِ الِاسْتِعْدَادُ الْمَوْجُودُ فِيهَا عَلَى الْإِقْنَاعِ فِي الْمُتَقَابِلَيْنِ هُوَ عَلَى السَّوَاءِ. فَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الْمَوْضُوعَةُ لِهَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ أَعْنِي الْأَشْيَاءَ الَّتِي فِيهَا تُقْنِعُ فَلَيْسَ اسْتِعْدَادُهَا لِقَبُولِ الْإِقْنَاعِ عَلَى السَّوَاءِ لٰكِنْ إِذَا كَانَتِ الْأُمُورُ الَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا صَادِقَةً كَانَتِ الْأَقَاوِيلُ الْخَطَابِيَّةُ وَالْجَدَلِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَفْضَلَ وَأَبْلَغَ... فَقَدِ اسْتَبَانَ مِنْ هٰذَا أَنَّ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ لَيْسَ تَنْظُرُ فِي أَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ وَلٰكِنَّهَا تَنْظُرُ فِيهِمَا عَلَى السَّوَاءِ كَالْحَالِ فِي الْجَدَلِ وَأَنَّهَا نَافِعَةٌ لِهٰذَا جِدًّا. وَلَيْسَ عَمَلُ

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ تُقْنِعَ وَلَا بُدَّ . اَعْنِي اَنَّهُ لَيْسَ يَتْبَعُ فِعْلَهَا ٱلْاِقْنَاعُ ضَرُورَةً كَمَا يَتْبَعُ فِعْلَ ٱلنَّجَّارِ وُجُودُ ٱلْكُرْسِيِّ ضَرُورَةً اِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ عَائِقٌ مِنْ خَارِجٍ بَلْ عَمَلُهَا هُوَ اَنْ تُعَرِّفَ جَمِيعَ ٱلْمُقْنِعَاتِ فِي ٱلشَّيْءِ وَتَأْتِيَ بِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ وَاِنْ لَمْ يَقَعْ اِقْنَاعٌ . وَٱلْحَالُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ صِنَاعَةِ ٱلطِّبِّ فَاِنَّهُ لَيْسَ فِعْلُهَا ٱلْاِبْرَاءَ وَلَا بُدَّ . بَلْ اِنَّمَا فِعْلُهَا اَنْ تَبْلُغَ مِنْ ذٰلِكَ غَايَةَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُمْكِنِ فِعْلُهُ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلْاِبْرَاءِ . وَلِذٰلِكَ قَدْ يُشَارِكُ فِي اَفْعَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ مَنْ لَيْسَ مِنْ اَهْلِهَا مِثْلَ اَنْ يُبْرِئَ مَنْ لَيْسَ بِطَبِيبٍ وَيُقْنِعَ مَنْ لَيْسَ بِخَطِيبٍ لٰكِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْحَقِيقِيَّ اِنَّمَا هُوَ لِصَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْغَايَةَ تَتْبَعُ فِعْلَ هٰذَا عَلَى ٱلْاَكْثَرِ وَذٰلِكَ عَلَى ٱلْاَقَلِّ . وَكَمَا اَنَّ فِي ٱلْجَدَلِ مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ كَذٰلِكَ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَا هُوَ مُقْنِعٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مُقْنِعٌ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَكُونَ كَذٰلِكَ . لٰكِنْ لَمَّا كَانَ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ لَيْسَ اِنَّمَا يَكُونُ سُوفِسْطَائِيًّا مِنْ قِبَلِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَفْعَلُ ٱلْاَقَاوِيلَ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةَ بَلْ اِنَّمَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ مِنْ قِبَلِ مَا يَقْصِدُهُ بِتِلْكَ ٱلْاَقَاوِيلِ مِنَ ٱلْكَرَامَةِ وَٱلْخَيْرَاتِ ٱلْخَارِجَةِ وَذٰلِكَ لِاِيهَامِهِ اَنَّهُ حَكِيمٌ وَكَانَ ٱلْجَدَلِيُّ اِنَّمَا هُوَ جَدَلِيٌّ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ لَهُ عَنِ ٱلصِّنَاعَةِ فَبِٱلْوَاجِبِ لَمْ تَكُنِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ اَعْنِي ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مَقَايِيسُ جَدَلِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ اَنْ تَكُونَ جَدَلِيَّةً

اذا استعملت نحو هذه الغاية . واما اذا استعملت على طريق الامتحان فهي جزء منها . واما الخطيب فلما كان خطيبا من اجل الامور التي من خارج مثل الكرامة وغير ذلك من سائر الخيرات او من قبل ملكة هذه الصناعة كانت الاقاويل التي يظن بها انها مقنعة وليست بمقنعة جزءا من هذه الصناعة . لان المقصود بهذه الاقاويل في هذه الصناعة قد يكون بعينه مقصود السوفسطائي . وانما كان ذلك كذلك لان المقصود بهذه الصناعة من الذي يراد اقناعه انما هو الفعل او الانفعال فاذا حصل ذلك منه فلا فرق بين ان يكون حصوله عن اقاويل هي مقنعة في الحقيقة او عن اقاويل يظن بها انها مقنعة وليست بمقنعة . فان كان هذا الفعل المقصود من المخاطب او الانفعال ربما له لا للخطيب كانت الاقاويل التي يظن بها انها مقنعة وليست بمقنعة داخلة في هذه الصناعة بالجهة التي دخلت في صناعة الجدل الاقاويل التي يظن بها انها جدلية اذ لم يقصد بها مقصد السفسطة . وان كان مقصد الخطيب خيرا ينالهُ من الخيرات التي يقصدها السوفسطائيون كان القول الذي يظن به انهُ مقنع وليس بمقنع من جهة ما هو سوفسطائي جزءا من هذه الصناعة اذ قد يشارك الخطيب السوفسطائي في غايته . فلذلك قد تدخل الاقاويل السوفسطائية في هذه الصناعة ولا تدخل في صناعة الجدل

البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعِدًّا لِنَحْوٍ مَا مِنْ أَنْحَاءِ ٱلْبَلَاغَةِ وَمُنْتَهِيًا مِنْهَا إِلَى مِقْدَارٍ مَا وَذٰلِكَ فِي صِنْفَيِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱللَّذَيْنِ أَحَدُهُمَا ٱلْمُنَاظَرَةُ وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْلِيمُ وَٱلْإِرْشَادُ . وَأَكْثَرُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْخَاصَّةِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ ٱلشِّكَايَةِ وَٱلِٱعْتِذَارِ وَسَائِرِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ . وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ بِهٰذَا ٱلْفِعْلِ . فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ بِٱلِٱتِّفَاقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ بِٱلِٱعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَفْعَلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِٱلِٱتِّفَاقِ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي بِهِ يَفْعَلُ فِعْلَهُ يَكُونُ أَتَمَّ وَأَفْضَلَ . وَهٰذَا أَمْرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجُمْهُورُ فَضْلًا عَنِ ٱلْخَوَاصِّ . وَلِذٰلِكَ كَانَ وَاجِبًا أَنْ تُثْبَتَ أَجْزَاءُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذٰلِكَ بِٱلطَّبْعِ فَقَطْ وَلَا بِٱلِٱعْتِيَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ



الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

قَالَ مَعْمَرٌ اَبُو ٱلْاَشْعَثِ قُلْتُ لِبَهْلَةَ ٱلْهِنْدِيِّ اَيَّامَ ٱجْتَلَبَ يَحْيَى ٱبْنُ خَالِدٍ اَطِبَّاءَ ٱلْهِنْدِ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ عِنْدَ اَهْلِ ٱلْهِنْدِ. قَالَ بَهْلَةُ : عِنْدَنَا فِي ذٰلِكَ صَحِيفَةٌ مَكْتُوبَةٌ وَلٰكِنَّنِي لَا اُحْسِنُ تَرْجَمَتَهَا وَلَمْ اُعَالِجْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ فَاَثِقَ مِنْ نَفْسِي بِٱلْقِيَامِ بِخَصَائِصِهَا وَلَطِيفِ مَعَانِيهَا. (قَالَ اَبُو ٱلْاَشْعَثِ) فَتَلَقَّيْتُ تِلْكَ ٱلصَّحِيفَةَ ٱلْمُتَرْجَمَةَ فَاِذَا فِيهَا : اَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَذٰلِكَ اَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَاْشِ سَاكِنَ ٱلْجَوَارِحِ مُتَخَيِّرًا لِلَّفْظِ لَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ ٱلْاُمَّةِ بِكَلَامِ ٱلْاُمَّةِ وَٱلْمُلُوكَ بِكَلَامِ ٱلسُّوقَةِ وَيَكُونُ فِي كَلَامِهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ وَلَا يُدَقِّقُ ٱلْمَعَانِيَ كُلَّ ٱلتَّدْقِيقِ وَلَا يُنَقِّحُ ٱلْاَلْفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنْقِيحِ وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ وَلَا يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتَّى يُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا. وَمَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَاِسْقَاطَ مُشْتَرَكَاتِ ٱلْاَلْفَاظِ وَنَظَرَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ عَلَى جِهَةِ

ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبَالَغَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلْاَعْرَاضِ (١) وَٱلتَّصَفُّحِ وَلَا عَلَى وَجْهِ ٱلِاسْتِظْرَافِ وَٱلتَّظَرُّفِ (٢) لَهَا . (قَالَ) وَٱعْلَمْ اَنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ ٱلِاسْمُ لَهُ طَبْقًا وَتِلْكَ ٱلْحَالُ وَفْقًا وَلَا يَكُونَ ٱلِاسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضَمَّنًا وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَصَادِرِ كَلَامِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونَ لَفْظُهُ مُؤْنِقًا وَمَعْنَاهُ نَيِّرًا وَاضِحًا وَمَدَارُ ٱلْاَمْرِ عَلَى اِفْهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ وَٱلْحَمْلِ عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَاَنْ تُؤَاتِيَهُ آلَتُهُ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ اَدَاتُهُ وَيَكُونَ فِي ٱلتُّهَمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ ٱلظَّنِّ اَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ ٱلْآمِنِينَ وَاِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَقِّ فِي ٱلتُّهَمَةِ ظَلَمَهَا وَاَوْدَعَهَا ذُلَّ ٱلْمَظْلُومِينَ وَلِكُلِّ ذٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ : (اَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ اِجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ) اَيْ اَوَّلُ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ جُودَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَطَلَاقَةُ ٱللِّسَانِ وَذٰلِكَ مِنْ فِعْلِ ٱللهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ ٱلْعَبْدُ عَلَى ٱكْتِسَابِهِ لِنَفْسِهِ وَٱجْتِلَابِهِ لَهَا . وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ اِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَاَعْمَلَ فِكْرَهُ اَتَى بِٱلْبَيَانِ ٱلْعَجِيبِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْبَدِيعِ ٱلْمُصِيبِ وَٱسْتَخْرَجَ ٱلْمَعْنَى ٱلرَّائِقَ وَجَاءَ بِٱللَّفْظِ ٱلرَّائِعِ . وَاِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ قَصَّرَ وَتَاَخَّرَ فَحَقُّ هٰذَا اَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِاَرْتِجَالِ ٱلْخُطَبِ وَلَا يُجَارِيَ اَصْحَابَ ٱلْبَدَايِهِ فِي مَيْدَانِ ٱلْقَرِيضِ وَيَكْتَفِيَ بِنَتَائِجِ فِكْرِهِ وَٱلنَّاسُ فِي

(١) ويروى على جهة الاعتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والتطرُّف
(٣) ويروى في اقدار

صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ عَلَى طَبَقَاتٍ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ أَبْلَغَ وَأَجَادَ وَإِذَا كَتَبَ وَأَمْلَى أَخَلَّ وَتَكَلَّفَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَمْلَى بَرَّزَ وَإِذَا حَاوَرَ وَكَتَبَ قَصَّرَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا كَتَبَ أَحْسَنَ وَإِذَا حَاوَرَ وَأَمْلَى أَسَاءَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هٰذِهِ ٱلْحَالَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسِيءُ فِيهَا كُلِّهَا فَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُسِيءِ ٱلْإِمْسَاكُ وَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُحْسِنِ ٱلتَّوَسُّطُ فَإِنَّ ٱلْإِكْثَارَ يُورِثُ ٱلْإِمْلَالَ وَقَلَّ مَا يَنْجُو صَاحِبُهُ مِنَ ٱلزَّلَلِ وَٱلْعَيْبِ وَٱلْخَطَلِ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمُحْسِنِ فِي أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلْمُسِيءِ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجَاوَزَ مَا هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ فَإِنِ ٱضْطُرَّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ إِلَى تَجَاوُزِهِ فَخَيْرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصْدُ ٱلْإِخْتِصَارِ وَتَجَنُّبُ ٱلْإِكْثَارِ وَٱلْإِهْذَارِ لِيَقِلَّ ٱلسَّقَطُ فِي كَلَامِهِ وَلَا يَكْثُرَ ٱلْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقِيلَ لِٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلْقَصَائِدَ . قَالَ : لَوْ أَطَلْتُهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا . يُرِيدُ أَنَّ ٱلْمُحْدَثَ يَتَشَبَّهُ بِٱلْقَدِيمِ فِي ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِذَا طَالَ ٱخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلَامٌ مَوْلُودٌ عَلَى أَنَّ ٱلسَّابِقَ فِي مَيَادِينِ ٱلْبَلَاغَةِ إِذَا كَثُرَ سَقَطَ فَكَيْفَ ٱلْمُقَصِّرُ عَنْ غَايَتِهَا وَٱلْمُتَخَلِّفُ عَنْ أَمَدِهَا . وَمِنْ تَمَامِ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلتَّوَسُّعُ فِي مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ ٱلْإِسْتِعْمَالِ لَهَا وَٱلْعِلْمِ بِفَاخِرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَسَاقِطِهَا وَمُتَخَيَّرِهَا وَرَدِيئِهَا وَمَعْرِفَةِ ٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ

وَقَوْلُهُ : (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلنَّفْسِ) هٰذَا لِأَنَّ ٱلْخِيرَةَ وَٱلدَّهَشَ يُورِثَانِ ٱلْحُبْسَةَ وَٱلْحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا ٱلِٱرْتَاجِ

وَٱلِافحام . وَبَلَغَكَ مَا اَصَابَ عُثمَانَ بْنَ عَفَّانَ اَوَّلَ مَا صَعِدَ ٱلْمِنبَرَ فَارْتَجَ عَلَيهِ فَقَالَ : اِنَّ ٱلَّذَيْنِ قَبلِي كَانَا يُعِدَّانِ لِهٰذَا ٱلْمَقَامِ مَقَالًا وَاَنتُمْ اِلَى اِمَامٍ عَادِلٍ اَحْوَجُ مِنكُمْ اِلَى اِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَأْتِيكُمُ ٱلْخُطبَةُ عَلَى وَجْهِهَا . وَصَعِدَ بَعْضُ ٱلْعَرَبِ مِنبَرًا بِخُرَاسَانَ فَارْتَجَ عَلَيهِ فَقَالَ حِينَ نَزَلَ :

فَاِنْ لَمْ اَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَاِنَّنِي بِسَيْفِي اِذَا جَدَّ ٱلْوَغَى لَخَطِيبُ

وَمِنْ حُسْنِ ٱلِاعْتِذَارِ عِندَ ٱلِارْتَاجِ مَا اَخْبَرَنَا اَبُو اَحْمَدَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (اَمَّا بَعْدُ) اَمْتَنَعَ عَلَيهِ ٱلْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : اَمَّا بَعْدُ فَقَدْ يَجِدُ ٱلْمُعْسِرُ وَيُعْسِرُ ٱلْمُوسِرُ وَيُفَلُّ ٱلْحَدِيدُ وَيَقْطَعُ ٱلْكَلِيلُ . وَاِنَّمَا ٱلْكَلَامُ بَعْدَ ٱلِافحَامِ كَٱلِاشْرَاقِ بَعْدَ ٱلظَّلَامِ وَقَدْ يَعْزُبُ ٱلْبَيَانُ وَيَعْتَقِمُ ٱلصَّوَابُ وَاِنَّمَا ٱللِّسَانُ مُضْغَةٌ مِنَ ٱلْاِنْسَانِ يَعْثُرُ بِفُتُورِهِ (١) اِذَا نَكَلَ وَيَثُوبُ بِاَنْبِسَاطِهِ اِذَا ٱرْتَجَلَ . اَلَا وَاِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا وَلَا نَسْكُتُ حَصَرًا بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ . وَنَحْنُ بَعْدَ ذٰلِكَ اُمَرَاءُ ٱلْقَوْلِ فِينَا وَشَجَتْ اَعْرَاقُهُ وَعَلَيْنَا عُطِفَتْ اَغْصَانُهُ وَلَنَا تَهَدَّلَتْ ثَمَرَتُهُ فَنَتَخَيَّرُ مِنهُ مَا اَحْلَوْلَى وَعَذُبَ وَنَطْرَحُ مِنهُ مَا اَمْلَوْلَحَ وَخَبُثَ . وَمِنْ بَعْدِ مُقَامِنَا هٰذَا مُقَامٌ وَمِنْ بَعْدِ اَيَّامِنَا اَيَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ نَفْسِ ٱلْخَطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَأْشِهِ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى جَأْشُهُ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى اَنْطَقُ ٱلنَّاسِ قَدْ جَمَعَ ٱلْهُدُوَّ

(١) ويروى : يعثر بعثوره

وَٱلتَّسَهُّلَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلْحَلَاوَةَ وَلَوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ نَاطِقٌ يَسْتَغْنِي عَنِ ٱلْإِشَارَةِ لَكَانَهُ

وَقَوْلُهُ : (مُتَخَيِّرَ ٱلْأَلْفَاظِ) فَلِأَنَّ مَدَارَ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَخَيُّرِ ٱللَّفْظِ وَتَخَيُّرُهُ أَصْعَبُ مِنْ جَمْعِهِ وَتَأْلِيفِهِ. وَقَوْلُهُ : (وَيَكُونَ فِي قَوْلِهِ فَضْلُ ٱلتَّصَرُّفِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَانِعُ ٱلْكَلَامِ قَادِرًا عَلَى جَمِيعِ ضُرُوبِهِ مُتَمَكِّنًا مِنْ جَمِيعِ فُنُونِهِ لَا يَعْتَاصُ عَلَيْهِ قِسْمٌ مِنْ أَقْسَامِهِ فَإِنْ كَانَ شَاعِرًا تَصَرَّفَ فِي وُجُوهِ ٱلشِّعْرِ مَدِيحِهِ وَهِجَائِهِ وَمَرَاثِيهِ وَصِفَاتِهِ وَمَفَاخِرِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِهِ. وَلِٱخْتِلَافِ قُوَى ٱلنَّاسِ فِي ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ مَا قِيلَ : كَانَ أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ أَشْعَرَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَكِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ. وَكَذٰلِكَ ٱلْكَاتِبُ رُبَّمَا تَقَدَّمَ فِي ضَرْبٍ مِنَ ٱلْكِتَابَةِ وَتَأَخَّرَ فِي غَيْرِهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ نَوْعٌ مِنْهَا وَعَسُرَ نَوْعٌ آخَرُ وَأَخْبَرَ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ قَالَ : أَمَرَنِي ٱلْمَأْمُونُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى ٱلنَّوَاحِي فِي ٱلِٱسْتِكْثَارِ مِنَ ٱلْقَنَادِيلِ فِي ٱلْمَسَاجِدِ. فَبِتُّ لَا أَدْرِي كَيْفَ أَحْتَذِي فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي فَقَالَ : قُلْ فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ عِمَارَةً لِلْمَسَاجِدِ وَأُنْسًا لِلسَّابِلَةِ وَإِضَاءَةً لِلْمُتَهَجِّدِينَ وَنَفْيًا لِمَكَامِنِ ٱلرِّيَبِ وَتَنْزِيهًا لِبُيُوتِ ٱللّٰهِ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ وَحْشَةِ ٱلظُّلَمِ. فَٱنْتَبَهْتُ وَقَدِ ٱنْفَتَحَ لِي مَا أُرِيدُ فَٱبْتَدَأْتُ بِهٰذَا وَأَتْمَمْتُ عَلَيْهِ. وَٱلْمُقَدَّمُ فِي صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ هُوَ ٱلْمُسْتَوْلِي عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ٱلْمُتَمَكِّنِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَبِهٰذَا فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى ٱلْفَرَزْدَقِ وَقَالُوا : كَانَ لَهُ فِي ٱلشِّعْرِ ضُرُوبٌ لَا يَعْرِفُهَا ٱلْفَرَزْدَقُ. وَسُئِلَ

بَعْضُهُمْ عَنْ اَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فَذَكَرَ اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ اَشْعَرُ لِتَصَرُّفِهِ فِي وُجُوهِ الشِّعْرِ وَكَثْرَةِ مَذَاهِبِهِ فِيهِ. (قَالَ) وَمُسْلِمٌ جَارٍ عَلَى وَتِيرَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْهَا. وَاَبْلَغُ مِنْ هٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ اَنْ يَتَفَنَّنَ صَانِعُ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ اَيْ يَأْتِي مَرَّةً بِالْجَزْلِ وَاُخْرَى بِالسَّهْلِ فَيَلِينُ اِذَا شَاءَ وَيَشْتَدُّ اِذَا اَرَادَ. وَمِنْ هٰذَا الْوَجْهِ فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى الْفَرَزْدَقِ وَاَبَا نُوَاسٍ عَلَى مُسْلِمٍ . . .

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ الْاَمَةِ بِكَلَامِ الْاَمَةِ وَلَا الْمَمْلُوكَ بِكَلَامِ السُّوقَةِ) لِاَنَّ ذٰلِكَ جَهْلٌ بِالْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ الْكَلَامِ. وَقَدْ اَحْسَنَ الَّذِي قَالَ: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. وَرُبَّمَا غَلَبَ سُوءُ الرَّأْيِ وَقِلَّةُ الْعَقْلِ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ فَيُخَاطِبُونَ السُّوقِيَّ وَالْمَمْلُوكَ الْاَعْجَمِيَّ بِاَلْفَاظِ اَهْلِ نَجْدٍ وَمَعَانِي اَهْلِ السَّرَاةِ. كَابِي عَلْقَمَةَ اِذْ قَالَ لِحَجَّامِهِ: اَشْدُدْ لِقَصَبِ الْمَلَازِمِ وَاَرْهِفْ ظُبَاتِ الْمَشَارِطِ وَاَمِرَّ الْمِسْحَ وَاَسْحِلِ الرَّشْحَ وَخَفِّفِ الْوَطْءَ وَعَجِّلِ النَّزْعَ وَلَا تُكْرِهَنَّ آبِيًا وَلَا تُمْنَعَنَّ آتِيًا. فَقَالَ لَهُ الْحَجَّامُ: لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِالْحُرُوبِ. وَاَخْبَرَ اَبُو الْمَغَازِلِ الضَّبِّيُّ عَنْ اَبِيهِ قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ بِالْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ اِلَّا بِالْغَرِيبِ فَخَرَجَ اِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حِمَارٍ مَعَهَا مُهْرٌ. فَاَفْلَتَتْ فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مُهْرُهَا فَخَرَجَ يَسْاَلُ عَنْهَا فَمَرَّ بِخَيَّاطٍ فَقَالَ: يَا ذَا الْنِّصَاحِ وَذَاتِ الْسُّمِّ الطَّاعِنِ بِهَا فِي غَيْرٍ وَغًى لِغَيْرِ عِدًى هَلْ رَاَيْتَ الْخَيْفَانَةَ الْقَبَّاءَ يَتْبَعُهَا الْحَالِسُ الْمُسَرْهَفُ (١) كَانَّ

(١) ويروى: الحالس المرهف

غُرَّتَهُ ٱلْقَمَرُ ٱلْأَزْهَرُ يُنِيرُ فِي حُضْرِهِ كَٱلْحُلَّبِ ٱلْأَجْرَدِ (١). فَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ أَطْلُبُهَا فِي بَرِّ لَخْمٍ (٢). فَقَالَ: وَيْلَكَ وَمَا تَقُولُ قَبَّحَكَ ٱللهُ فَمَا أَعْلَمُ رَطَانَتَكَ. فَقَالَ: لَعَنَ ٱللهُ أَبْغَضَنَا لَفْظًا وَأَخْطَأَنَا مَنْطِقًا

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُدَقِّقَ ٱلْمَعَانِيَ كُلَّ ٱلتَّدْقِيقِ) قَالَ أَبُو هِلَالٍ: لِأَنَّ ٱلْغَايَةَ فِي تَدْقِيقِ ٱلْمَعْنَى سَبِيلٌ إِلَى تَعْمِيَتِهِ وَتَعْمِيَةُ ٱلْمَعْنَى لُكْنَةٌ إِلَّا إِذَا أُرِيدَ بِهِ ٱلْإِلْغَازُ وَكَانَ فِي تَعْمِيَتِهِ فَائِدَةٌ مِثْلُ إِثْبَاتِ (٣) ٱلْمَعَانِي وَمَا يَجْرِي مَعَهَا مِنَ ٱللُّحُونِ ٱلَّتِي ٱسْتَعْمَلُوهَا وَكَنَوْا بِهَا عَنِ ٱلْمُرَادِ لِبَعْضِ ٱلْغَرَضِ. فَأَمَّا مَنْ أَرَادَ ٱلْإِبَانَةَ فِي مَدِيحٍ أَوْ صِفَةِ شَيْءٍ فَأَتَى بِإِغْلَاقٍ دَلَّ عَلَى عَجْزِهِ فِي ٱلْإِبَانَةِ وَقُصُورِهِ عَنِ ٱلْإِفْصَاحِ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُنَقِّحَ ٱلْأَلْفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنْقِيحِ) فَتَنْقِيحُ ٱللَّفْظِ أَنْ يُبْنَى مِنْهُ بِنَاءٌ لَا يَكْثُرُ فِي ٱلِٱسْتِعْمَالِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ ٱلْوُزَرَاءِ: أَحْسَنَ ٱللهُ إِبَانَتَكَ. فَقَالَ لَهُ ٱلْوَزِيرُ: عَجَّلَ ٱللهُ إِمَاتَتَكَ. وَيَدْخُلُ فِي تَنْقِيحِ ٱللَّفْظِ ٱسْتِعْمَالُ وَحْشِيِّهِ وَتَرْكُ سَلِسِهِ. وَقَدْ أَخَذَ ٱلرُّوَاةُ عَلَى زُهَيْرٍ قَوْلَهُ:

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكَثِّرْ غَنِيمَةً بِنَهْكَةِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَلَا بِمُحَلَّدِ

فَٱسْتَبْشَعُوا (ٱلْمُحَلَّدَ) وَهُوَ ٱلسَّيِّئُ ٱلْخُلُقِ وَقَالُوا: لَيْسَ فِي لَفْظِ زُهَيْرٍ أَنْكَرُ مِنْهُ. قَالَ أَبُو عُثْمَانَ: رَأَيْتُهُمْ يَزِيدُونَ فِي كُتُبِهِمْ هٰذَا ٱلْكَلَامَ فَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا رَوَوْهُ وَدَوَّنُوهُ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَقَدْ

---

(١) وفي رواية: ينير في خضره كالحلب الاخرز (٢) ويروى: في تمر بلخ
(٣) وفي رواية: ابيات المعاني

بَاعَدَهُ ٱللهُ مِنْ صِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَبْيَاتٌ مِنْ شِعْرِ ٱلْحَجَّاجِ وَٱلطِّرِمَّاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ ٱلرَّصْفِ ٱلْحَسَنِ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ ٱلْأَصْمَعِيَّ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْكَلَامِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضَهُ وَهٰذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ ٱلْبُلَغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ) فَتَصْفِيَتُهُ تَعْرِيَتُهُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ وَنَفْيُ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْهُ وَتَهْذِيبُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ ٱلرَّدِيِّ ٱلْمَرْذُولِ وَٱلسُّوقِيِّ ٱلْمَرْدُودِ فَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَسَمَحَ بِحَقٍّ يَجِبُ لَهُ وَقَبِلَ وَاضِحَ ٱلْعُذْرِ وَٱسْتَكْثَرَ قَلِيلَ ٱلشُّكْرِ لَا زَالَتْ أَيَادِيكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَائِكَ وَنِعْمَةُ ٱللهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا ٱنْتَهَى إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بِرِّكَ فَلَا زَالَتْ أَيَادِيكَ مَمْدُودَةً بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تُحَقِّقُهُ حَتَّى تَتَسَلَّى مِنَ ٱلْأَعْمَارِ أَطْوَلُهَا وَتَنَالَ مِنَ ٱلدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمُنَا يَوْمٌ لَيِّنُ ٱلْحَوَاشِي وَطِيءُ ٱلنَّوَاحِي وَهٰذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّلَتْ بِوُدْقِهَا وَضَحِكَتْ لِعَابِسِ غَيْمِهَا وَلَامِعِ بَرْقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ ٱلسُّرُورِ وَنِظَامُ ٱلْأُمُورِ فَلَا تَغِبْ عَنَّا فَنَعِلَّ (١) وَلَا تُفْرِدْنَا (٢) فَنَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ ٱلْحَبِيبَ بِحَبِيبِهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ وَقَوْلُهُ (وَلَا تَفْعَلَ ذٰلِكَ حَتَّى تُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

(١) وفي رواية: فنقل (٢) ويروى: ولا تفرّد عنّا

تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَنْ نَظَرَ فِي ٱلْمَنْطِقِ عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلِٱسْتِطْرَافِ وَٱلتَّطَرُّفِ لَهَا) فَنَقُولُ يَنْبَغِي اَنْ يَتَكَلَّمَ بِفَاخِرِ ٱلْكَلَامِ وَنَادِرِهِ وَرَصِينِهِ وَمُحْكَمِهِ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُهُ عَنْهُ وَيَقْبَلُهُ مِنْهُ مِمَّنْ عَرَفَ ٱلْمَعَانِيَ وَٱلْأَلْفَاظَ عِلْمًا شَافِيًا لِنَظَرِهِ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعَانِي عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا كَمَنِ ٱسْتَطْرَفَ شَيْئًا مِنْهَا فَنَظَرَ فِيهِ نَظَرًا غَيْرَ كَامِلٍ اَوْ اَخَذَ مِنْ اَطْرَافِهِ وَتَنَاوَلَ مِنْ اَطْرَارِهِ فَتَحَلَّى بِأَسْيِهِ وَخَلَا مِنْ وَسْيِهِ. فَإِذَا سَمِعَ لَمْ يَفْقَهْ وَإِذَا سُئِلَ لَمْ يَنْقَهْ وَإِذَا تَكَلَّمَ عِنْدَ مَنْ هٰذِهِ صِفَتُهُ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ كَلَامِهِ وَضَاعَتْ مَنْفَعَةُ مَنْطِقِهِ. لِأَنَّ ٱلْعَامِيَّ إِذَا كَلَّمْتَهُ بِكَلَامِ ٱلْعِلِّيَّةِ سَخِرَ مِنْكَ وَزَرَى عَلَيْكَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ اَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ ٱلْعَامَّةِ: بِمَ كُنْتُمْ تَنْتَقِلُونَ ٱلْبَارِحَةَ (يَعْنِي عَلَى ٱلنَّبِيذِ). فَقَالَ: بِٱلْحَمَالِينَ. وَلَوْ قَالَ لَهُ: (اَيْشْ كَانَ نَقْلُكُمْ) لَسَلِمَ مِنْ سُخْرِيَتِهِ. فَيَنْبَغِي اَنْ يُخَاطِبَ كُلَّ فَرِيقٍ بِمَا يَعْرِفُونَ وَيَتَجَنَّبَ مَا يَجْهَلُونَ

وَاَمَّا قَوْلُهُ: (مَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ الخ) هُوَ اَنْ يُسْقِطَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ ٱلْكَلَامُ مَعَ إِسْقَاطِهِ تَامًّا غَيْرَ مَنْقُوصٍ وَلَا يَكُونُ فِي زِيَادَتِهِ فَائِدَةٌ). وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْ مُعَاوِيَةَ اَنَّهُ قَالَ لِصُحَارٍ ٱلْعَبْدِيِّ: مَا ٱلْبَلَاغَةُ فَقَالَ: اَنْ تَقُولَ فَلَا تُخْطِئَ وَتُسْرِعَ فَلَا تُبْطِئَ. ثُمَّ قَالَ: اَقِلْنِي هَوَانَ (لَا تُخْطِئَ وَلَا تُبْطِئَ). فَاَلْقَى ٱللَّفْظَتَيْنِ لِأَنَّ فِي ٱلَّذِي اَبْقَى غِنًى عَنْهُمَا وَعِوَضًا مِنْهُمَا.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي زِيَادَةِ ٱلْأَلْفَاظِ فَائِدَةٌ فَذٰلِكَ مَحْمُودٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلتَّذْيِيلِ. وَقَوْلُهُ: (وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْأَلْفَاظِ) فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْإِبَانَةَ عَنْ مَعْنًى فَيَأْتِيَ بِٱلْأَلْفَاظِ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ خَاصَّةً بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُ مَعَانٍ أُخَرُ فَلَا يَعْرِفُ ٱلسَّامِعُ أَيَّهَا أَرَادَ. وَرُبَّمَا أَشْتَبَهَ ٱلْكَلَامُ فِي نَوْعٍ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ حَتَّى لَا يُوقَفَ عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ. فَمِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَوَّلِ قَوْلُ جَرِيرٍ:

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ يَوْمَ ٱلرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ

فَوَجْهُ ٱلِٱشْتِرَاكِ فِي هٰذَا أَنَّ ٱلسَّامِعَ لَا يَدْرِي إِلَى أَيِّ شَيْءٍ أَشَارَ مِنْ أَفْعَالِهِ فِي قَوْلِهِ: (فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ) أَأَرَادَ أَنْ يَبْكِيَ إِذَا رَحَلُوا أَوْ يَهِيمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ ٱلْغَمِّ ٱلَّذِي لَحِقَهُ أَوْ يَتْبَعَهُمْ فِي ٱلْمُضِيِّ عَلَى عَزْمَةِ ٱلرَّحِيلِ أَوْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ شَيْئًا يَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ أَوْ يَدْفَعَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ بِهِ أَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَهُ ٱلْخَلِيلُ عِنْدَ فِرَاقِ أَحِبَّتِهِ. فَلَمْ يُبِنْ عَنْ غَرَضِهِ وَأَحْوَجَ إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا أَرَادَ فِعْلَهُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ. وَلَيْسَ هٰذَا كَقَوْلِهِمْ: (لَوْ رَأَيْتَ عَلِيًّا بَيْنَ ٱلصَّفَّيْنِ). لِأَنَّ دَلِيلَ ٱلْبَسَالَةِ وَٱلنِّكَايَةِ فِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ بَيِّنٌ وَأَمَارَةُ ٱلنُّقْصَانِ فِي بَيْتِ جَرِيرٍ وَاضِحَةٌ فَمَنْ يَسْمَعُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ يَسْتَبْرِدُهُ وَيَسْتَغِثُّهُ وَيَسْتَرْجِحُ ٱلْآخَرَ وَيَسْتَجِيدُهُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ ٱلْأَزْدِيِّ

فَإِنَّكَ لَوْ لَاقَيْتَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ لَلَاقَيْتَ مِنْهُ بَعْضَ مَا كَانَ يَفْعَلُ

فَلَمْ يُبِنْ عَمَّا أَرَادَ بِقَوْلِهِ: (لَلَاقَيْتَ) أَخَيْرًا أَرَادَ أَمْ شَرًّا إِلَّا

اَنْ تَسْمَعَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَيَتَبَيَّنَ مَعْنَاهُ وَاَمَّا فِي نَفْسِ الْبَيْتِ فَلَا يَتَبَيَّنُ مَغْزَاهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

وَقُمْنَا فَقُلْنَا بَعْدَ اَنْ اُودِعَ الثَّرَى بِهِ مَا يُقَالُ فِي السَّحَابَةِ تُقْلِعُ

فَقَوْلُ النَّاسِ فِي السَّحَابِ اِذَا اَقْلَعَ عَلَى وُجُوهٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْدَحُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَذُمُّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحِبُّ اِنْقِلَاعَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ اِقْشَاعَهُ عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ حَالَاتُهَا عِنْدَهُمْ وَمَوَاقِعُهَا مِنْهُمْ فَلَمْ يُبَيِّنْ بِقَوْلِهِ مَعْنًى يَعْتَمِدُهُ السَّامِعُ . عَلَى اَنَّ الْمُحْتَجَّ لَهُ لَوْ قَالَ : اِنَّ اَكْثَرَ الْعَادَةِ فِي السَّحَابِ اَنْ يُحْمَدَ اَثَرُهُ وَيُثْنَى عَلَيْهِ بَعْدَهُ لَمَّا كَانَ مُبْعِدًا . وَلَمْ اُرِدْ عَيْبَ اَبِي تَمَّامٍ بِمَا قُلْتُ وَاِنَّمَا اَرَدْتُ الْاِخْبَارَ عَنْ وُجُوهِ الْاِشْتِرَاكِ وَذِكْرِ مَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ بَابِهِ وَيَنْظُرُ اِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ اَوْ بَعِيدٍ . وَمِنَ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

وَخَبِّرْ مَا يُخَبَّرُ مِنْ آخِرٍ مِنْهُ وَلِلطَّاعِنِ اَمْهَارُ (١)

اَلْاَمْهَارُ هَا هُنَا جَمْعُ مَهْرٍ مِنْ قَوْلِهِمْ : مَهَرَ يَمْهَرُ مَهْرًا . وَالْمَصَادِرُ لَا تَجْتَمِعُ وَلَا يَشُكُّ سَامِعُ هٰذَا الْكَلَامِ اَنَّهُ يُرِيدُ جَمْعَ مُهْرٍ فَيُشْكِلُ الْمَعْنَى عَلَيْهِ . وَخَطَّبَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَقَالَ فِي صِفَةِ اللّٰهِ تَعَالَى : لَا يُقَاسُ بِالْقِيَاسِ وَلَا يُدْرَكُ بِالْاَلْمَاسِ . اَرَادَ جَمْعَ لَمْسٍ فَاَصَابَ السَّجْعَ وَاَخْطَاَ الْمَعْنَى . وَاَمَّا مَا بَيْنَهُمْ فَلَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ اِلَّا بِالتَّوَهُّمِ . وَمِنَ الْكَلَامِ الْخَالِي مِنَ الْاِشْتِمَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِاَخٍ لَهُ اَرَادَ فِرَاقَهُ :

---

(١) كذا في الاصل وفي ديوان ابي نوّاس :

وخبّر ما يخبّر من بعدهِ منهُ وللطاعن امهار

لَمَّا تَصَفَّحْتُ اَخْلَاقَكَ فَوَجَدْتُهَا مُبَايِنَةً لِمُشَاكَلَتِي زَائِغَةً عَنْ قَصْدِ طَرِيقَتِي صَرَتْ عَلَيْهَا رِيَاضَةً لِنَفْسِي عَلَى الصَّبْرِ لِمَسَاوِئِ اَخْلَاقِ اَلْمُعَاشِرِينَ وَلِعِلْمِي بِكَامِنِ اَلْعُدْوَانِ فِي جَمِيعِ اَلْعَالَمِينَ. وَاَلَّذِي رَجَوْتُ مِنْ مَرَّمَّةِ خِصَالِكَ بِمَا اُقَابِلُهَا بِهِ مِنَ اَلتَّجَاوُزِ وَاَنْحَبُ عَنْ سُوءِ آثَارِهَا اذْيَالَ اَلتَّغَاضِي. وَاَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ لَا تُقَوِّمُ اُعْوِجَاجَ مَذَاهِبِكَ وَلَا يَعْطِفُ بِكَ اَلرَّأْيُ عَلَى رُشْدِكَ . فَلَمَّا فَنِيَتْ حِيلَتِي فِيكَ وَاَنْقَطَعَتْ اَسْبَابُ اَمَلِي مِنْكَ وَرَاَيْتُ اَلدَّاءَ لَا يَزِيدُ عَلَى اَلتَّعَهُّدِ بِالدَّوَاءِ اِلَّا فَسَادًا وَاَلْخَرْقَ عَلَى اَلتَّرْقِيعِ اِلَّا اِتِّسَاعًا قَدَّمْتُ اَلْيَأْسَ مِنْكَ عَلَى اَلرَّجَاءِ فِيكَ فَاحْتَسَبْتُ اَيَّامِي اَلسَّالِفَةَ فِي اَسْتِصْلَاحِي لَكَ

وَقَوْلُهُ : (وَحَقُّ اَلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ لَهُ اَلْاِسْمُ طِبْقًا) اَيْ يَكُونَ اَلْاِسْمُ طِبْقًا لِلَّفْظِ بِقَدْرِ اَلْمَعْنَى غَيْرَ زَائِدٍ عَلَيْهِ وَلَا نَاقِصٍ عَنْهُ فَكَانَ كَالطَّبَقِ عَلَى اَلْاِنَاءِ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ

وَقَوْلُهُ : (وَلَا يَكُونَ اَلْاِسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا) فَهٰذَا دَاخِلٌ فِي اَلْاَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ : وَحَقُّ اَلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ لَهُ اَلْاِسْمُ طِبْقًا . وَمِثَالُ اَلْفَاضِلِ مِنَ اَللَّفْظِ عَنِ اَلْمَعْنَى قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ اُذَيْنَةَ :

وَاَسْقِ اَلْعَدُوَّ بِكَاْسِهِ وَاَعْلَمْ لَهُ بِاَلْغَيْبِ اَنْ قَدْ كَانَ قَبْلُ سَقَاكَهَا
وَاَجْزِ اَلْكَرَامَةَ مَنْ تَرَى اَنْ لَوْ لَهُ يَوْمًا بَذَلْتَ كَرَامَةً لَجَزَاكَهَا

وَمَعْنَى هٰذَا اَلْكَلَامِ مَحْصُورٌ تَحْتَ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ : اِجْزِ كُلًّا بِفِعْلِهِ . وَكَانَ اَلسُّكُوتُ لِعُرْوَةَ خَيْرًا مِنْهُ . وَمِنَ اَلْكَلَامِ اَلْفَاضِلِ عَنْ مَعْنَاهُ قَوْلُ اَبِي اَلْعِيَالِ اَلْهُذَلِيِّ .

ذَكَرْتُ اَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصَبُ

فَذِكْرُ الرَّأْسِ مَعَ الصُّدَاعِ فَضْلٌ

وَالْمُقَصِّرُ مِنَ الْكَلَامِ مَالَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ اِيَّاهُ وَيُحْوِجُكَ اِلَى شَرْحِ كَبَيْتِ الْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَالْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ النُّوكِ مِمَّنْ رَامَ كَدَّا

وَقَوْلُهُ : (وَلَا مُضَمَّنًا) اَلتَّضْمِينُ اَنْ يَكُونَ الْفَصْلُ الْاَوَّلُ مُفْتَقِرًا اِلَى الْفَصْلِ الثَّانِي وَالْبَيْتُ الْاَوَّلُ مُحْتَاجًا اِلَى الْاَخِيرِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

كَاَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلَى الْعَامِرِيَّةِ اَوْ يُرَاحُ

نَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

فَلَمْ يَتِمَّ الْمَعْنَى اِلَّا فِي الْبَيْتِ الثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثَالُهُ مِنْ نَثْرِ الْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذًا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ وَيُدْعَى بِهِ فِي الْاَعْيَادِ بِاَجْزَلِ الْاَقْسَامِ وَاَوْفَرِ الْاَعْدَادِ

وَقَدْ تُسَمَّى اَسْتِعَارَتُكَ الْاَنْصَافَ وَالْاَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ وَاِدْخَالُكَ اِيَّاهُ فِي اَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةَ الْمُتَكَلِّمِ لَا صِفَةَ الْكَلَامِ اِلَّا قَوْلَهُ : (وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَاْتِي عَلَى الْكَلَامِ فِي هٰذَا وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَصْلِ الْمَقَاطِعِ وَالْمَبَادِئِ

البحث الثاني

في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

اَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱلتَّصْدِيقَاتِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَمِنْهَا مَا هِيَ صِنَاعِيَّةٌ وَتِلْكَ هِيَ ٱلَّتِي وُجُودُهَا لِاَخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا وَنَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ صِنَاعِيَّةٍ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ وُجُودُهَا لِاَخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا مِثْلُ ٱلشُّهُودِ وَٱلتَّعْذِيبِ وَٱلْعُقُودِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ ٱلَّتِي نَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا مِنْهَا اَشْيَاءُ قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُنَا فَصَنَعَهَا مِثْلَ ٱلِاحْتِجَاجِ بِٱلْاَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ ٱلَّتِي قَدْ وُضِعَتْ وَٱشْتَهَرَتْ وَمِنْهَا مَا نَخْتَرِعُهَا نَحْنُ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْاِقْنَاعُ وَنَسْتَنْبِطُهَا. فَاَمَّا ٱلتَّصْدِيقَاتُ ٱلَّتِي نَفْعَلُهَا نَحْنُ وَنَخْتَرِعُهَا فَهِيَ ثَلَاثَةُ اَنْوَاعٍ: (اَحَدُهَا) اِثْبَاتُ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا اَهْلًا اَنْ يُصَدَّقَ وَاَنْ يَكُونَ عِنْدَ ٱلتَّكَلُّمِ بِهَيْئَةٍ فِي وَجْهِهِ وَاَعْضَائِهِ شَأْنُهَا اَنْ تُوقِعَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلْمُتَكَلَّمِ فِيهِ مِثْلَ ٱلتُّؤَدَةِ وَٱلْوَقَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَٱلْفَضِيلَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هِيَ ٱلَّتِي يَعْنِي اَرِسْطُو بِٱلْكَيْفِيَّةِ. وَٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِي بِٱلسَّمْتِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ لِلْفَضِيلَةِ تَاْثِيرًا فِي ٱلتَّصْدِيقِ اَنَّ ٱلصَّالِحِينَ ٱلْفَاضِلِينَ يُصَدَّقُونَ سَرِيعًا

دُونَ قَوْلٍ يَتَكَلَّفُونَهُ فِي ٱلشَّيْءِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلظَّاهِرَةِ لِلْحِسِّ ٱلَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحَسُّوهَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ شَرِبَ أَوْ قَتَلَ. فَأَمَّا إِخْبَارُهُمْ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْخَفِيَّةِ عِنْدَ ٱلْحِسِّ وَهِيَ ٱلَّتِي يُظَنُّ أَنَّهُ خَفِيَ عَنْهُمْ مَا أَحَسُّوا مِنْ ذٰلِكَ أَوْ وَهَمُوا فِيهِ إِذَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ مُمْكِنًا أَنْ يَهِمَ فِيهِ ٱلْحِسُّ فَلَيْسَ يُصَدَّقُونَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَدَّعُونَهَا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ دُونَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا فِي تَثْبِيتِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْقَوْلَ. وَعَلَيْهِ قَدْ أَخْطَأَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي ٱلْخَطَابَةِ فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْأَنَاةَ إِنَّمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِي بَابِ ٱلِٱنْفِعَالِ فَقَطْ. وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِي يَكُونُ بِأَنْ يَكْسِبَ ٱلسَّامِعُ بِٱلْقَوْلِ ٱنْفِعَالًا مَا يُوجِبُ لَهُ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَصْدِيقُنَا بِٱلشَّيْءِ وَإِقْرَارُنَا بِهِ وَنَحْنُ فِي حَالِ ٱلْفَرَحِ أَوِ ٱلْحُزْنِ تَصْدِيقًا وَاحِدًا. وَكَذٰلِكَ إِذَا كُنَّا فِي حَالِ ٱلسُّخْطِ عَلَى ٱلشَّيْءِ أَوْ حَالِ ٱلرِّضَا عَنْهُ. وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكَلَّمَ فِيهَا أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّالِثُ مِنْ هٰذِهِ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ تَثْبِيتُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْكَلَامِ ٱلْمُقْنِعِ أَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ وَذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ ٱلَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ. وَإِذَا كَانَتِ ٱلتَّصْدِيقَاتُ إِنَّمَا تَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُقْنِعَ ٱلْإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِنَّمَا هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ عَالِمًا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: (أَوَّلُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ. (وَثَانِيهَا)

مَعْرِفَةُ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْفَضَائِلِ . (وَثَالِثُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ (١)
وَذَٰلِكَ بِأَنْ يَعْرِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ أَيِّ
شَيْءٍ يَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ. وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ
فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ وَٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ
أَعْنِي ٱلْمَدَنِيَّةَ. وَإِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَوْلٌ مُسْتَوْفٍ فِي أَجْزَائِهَا
إِمَّا مِنْ قِبَلِ جَهْلِهِمْ وَإِمَّا مِنْ قِبَلِ أَنَّهُمْ ضَنُّوا عَلَى غَيْرِهِمْ وَبَخِلُوا
عَلَيْهِمْ بِمَا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ لِمَكَانِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ.
فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلْجَدَلِ
فِي أَنَّهَا تَنْظُرُ فِي كِلَا ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ وَفِي أَنَّهُمَا لَيْسَا يَنْظُرَانِ فِي شَيْءٍ
مَحْدُودٍ نَظَرًا يَبْلُغَانِ بِهِ ٱلْيَقِينَ لٰكِنْ إِنَّمَا يَبْلُغَانِ مِنَ ٱلنَّظَرِ مَا
دُونَ ٱلْيَقِينِ

---

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطاليس كل من تكلموا في الخطابة. وناهيك بهِ من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرنج يدعون هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, mœurs oratoires, passions)

الفصل الثالث

في الاقاويل المقنعة

البحث الاوّل

في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة القياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

مِنْ اَجْلِ اَنَّهُ مَعْلُومٌ اَنَّ الْاَشْيَاءَ الْمَنْسُوبَةَ اِلَى هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ اِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا التَّصْدِيقُ وَالْاِعْتِرَافُ مِنَ الْمُخَاطِبِ بِالشَّيْءِ الَّذِي فِيهِ الدَّعْوَى وَذٰلِكَ لَا يَكُونُ اِلَّا بِتَثْبِيتِ الشَّيْءِ عِنْدَ الْمُعْتَرِفِ بِهِ. وَذٰلِكَ اَنَّا اِنَّمَا نَعْتَرِفُ بِالشَّيْءِ الَّذِي رَاَيْنَا اَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَنَا وَالشَّيْءُ الَّذِي تَثْبُتُ بِهِ الْاَشْيَاءُ عَلَى طَرِيقِ الْخَطَابَةِ هُوَ الضَّمِيرُ (١) لِاَنَّ هٰذَا هُوَ اَصْلُ التَّصْدِيقِ وَعَمُودُهُ فِي الْاُمُورِ الَّتِي تُوقِعُ هٰذَا النَّحْوَ مِنَ التَّصْدِيقِ اَعْنِي التَّصْدِيقَ الْبَلَاغِيَّ. وَالضَّمِيرُ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْقِيَاسِ وَمَعْرِفَةُ الْقِيَاسِ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ اِمَّا فِي كُلِّهَا وَاِمَّا فِي اَجْزَاءٍ مِنْهَا. وَبَيِّنٌ اَنَّ الَّذِي يَعْرِفُ الْقِيَاسَ مِنْ كَمْ شَيْءٍ يَلْتَئِمُ وَيَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ فَهُوَ اَقْدَرُ عَلَى عَمَلِ الضَّمِيرِ مِمَّنْ يَعْرِفُ الضَّمِيرَ فَقَطْ دُونَ اَنْ

(١) يريد بالضمير القياس الاضماري (Enthymème) وهو القياس الذي قدّرت احدى مقدّمتيهِ اما الكبرى واما الصغرى

تعرف القياس الذي هو جنسه. والذي يزيد على هذا فيعلم لماذا تعمل الضمائر والفصول التي بين الضمير وبين سائر المقاييس التي تستعمل في الصنائع الاخر فهو اقدر من ذينك. والمعرفة بهذا كله انما هو لصناعة المنطق. فان للقوة الواحدة بعينها اعني للصناعة الواحدة بعينها ان تعرف الشيء الذي هو حق والذي هو شبيه بالحق والتصديقات الخطبية وان لم تكن حقا فهي شبيهة بالحق وايضا فان الناس متهيئون بطبيعتهم كل التهيئة نحو الوقوف على الحق نفسه. وهم اكثر ذلك يرومونه ويفعلون عنه. والمحمودات وهي التي تكون منها الضمائر شبيهة بالحق من قبل انها نابتة عند الجمهور مناب الحق. والشبيه بالحق قد يدخل في علم الحق الذي هو علم المنطق. واذا كان الامر هكذا فقد استبان ان قصور هؤلاء فيما تكلموا فيه من امر الخطابة انما كان من اجل انه لم يكن عندهم علم بالمنطق وان سائر من تكلم في الخطابة ومن يستعمل الاقاويل الخطبية فقط من غير ان يتقدموا فيعرفوا هذه الاشياء التي هي عمود البلاغة انهم انما يتكلمون في اشياء تجري من البلاغة مجرى التزيين والتنميق الذي يكون في ظاهر الشيء وصفحته لا في الاشياء التي تتنزل منها منزلة ما به قوام الشيء ووجوده وان كان قد يظن بما فعلوا من ذلك انهم قد بلغوا الغاية من الاقاويل الاقناعية وجروا في ذلك على طريق الصواب والعدل

المبحث الثاني

في الطريق اي الدليل وتقسيمهِ (*)

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

(راجع صفحة ١١ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلطَّرِيقُ هُوَ اَلْمُوَصِّلُ اِلَى اَلْمَقْصُودِ وَحَدُّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ اَلتَّوَصُّلُ بِصَحِيحِ اَلنَّظَرِ فِيهِ اِلَى مَطْلُوبٍ. وَلَمَّا كَانَ اَلْإِدْرَاكُ اِمَّا تَصَوُّرًا اَوْ تَصْدِيقًا فَكَذَا اَلْمَطْلُوبُ. فَاِنْ كَانَ تَصَوُّرًا سُمِّيَ طَرِيقُهُ مُعَرِّفًا وَاِنْ كَانَ تَصْدِيقًا سُمِّيَ دَلِيلًا وَهُوَ يَشْمَلُ اَلظَّنِّيَّ وَاَلْقَطْعِيَّ وَقَدْ يُخَصُّ بِالْقَطْعِيِّ. وَيُسَمَّى اَلظَّنِّيُّ اِمَارَةً وَقَدْ يُخَصُّ بِمَا يَكُونُ مِنَ اَلْمَعْلُولِ عَلَى اَلْعِلَّةِ وَيُسَمَّى عَكْسُهُ تَعْلِيلًا

شرح هذه المقالة للسيد الجرجاني

(*) قال : (الطريق) اي ما يقع فيهِ النظر (وهو الموصل الى المقصود) بتوسط النظر. (وحدُّهُ) اي تحديده وتقسيمه الى اقسامه الاولية (هو) اي الطريق (ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيهِ الى مطلوب) اعتبر الامكان لان الطريق لا يخرج عن كونه طريقًا بعدم التوصل بل يكفيه امكانهُ. وقيَّد النظر بالصحيح لان الفاسد لا يستلزم المطلوب فلا يمكن ان يتوصل بهِ اليهِ اذ ليس في نفسه وسيلة لهُ. واراد بالنظر فيهِ ما يعمُّ النظر في نفسهِ والنظر في احواله ليتناول المفرد الذي من شانه انه اذا نظر في احواله اوصل الى المطلوب كالعالم مثلًا فانه يسمى عندهم دليلًا. ويتناول ايضًا التصورات المتعددة غير مأخوذة مع الترتيب وحينئذٍ يلزم تناولهُ للمقدمات اذ لم تؤخذ مع ترتيبها . واطلق المطلوب

البحث الثالث

في المواضع

(عن تلخيص كتاب ارسطو في الخطابة لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قالَ) كُلُّ مَا كَانَ ٱلْقَوْلُ اَكْثَرَ عُمُوماً كَانَ اَكْثَرَ مُؤَانَاةً وَتَاَتِّيهَا لِاَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي اَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . وَكُلَّمَا كَانَ اَقَلَّ عُمُوماً كَانَ اَحْرَى اَنْ يَكُونَ جُزْءاً مِنْ صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ . وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْمَوَاضِعُ مِنَ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخَطَابِيَّةِ وَٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْجَدَلِيَّةِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْمَوَاضِعَ تُوجَدُ تَعُمُّ ٱلْاُمُورَ ٱلْمَنْطِقِيَّةَ وَٱلطَّبِيعِيَّةَ وَٱلسِّيَاسِيَّةَ اَعْنِي ٱلْاِرَادِيَّةَ . وَذٰلِكَ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْاَقَلِّ وَٱلْاَكْثَرِ (*) فَاِنَّهَا لَيْسَ

(*) يريد بمواضع الاقل والاكثر المقابلة في غير الاضداد (راجع الجزء الثاني من علم الادب صفحة ٢٩

ليتناول المطلوب التصوري والتصديقي . (ولما كان الادراك اما تصوراً او تصديقاً فكذا المطلوب) الادراكي الذي يطلب بالنظر . (فان كان) المطلوب (تصوراً سمي طريقهُ) الذي يمكن ان يتوصل بالنظر فيه اليهِ (معرفاً) . (وان كان) المطلوب (تصديقاً سمي) طريقهُ (دليلاً وهو) اي الدليل بالمعنى المذكور (يشمل الظني) الموصل الى الظن كالعلم الرطب الموصل الى ظن المطر . (والقطعي) الموصل الى الجزم والقطع كالعالم الموصل الى العلم بوجود الصانع . (وقد يخص) الدليل (بالقطعي) . (ويسمى الظني امارة وقد يخص) الدليل ايضاً مع التخصيص الاول (بما يكون) الاستدلال فيهِ (من المعلول) كالحمى (على العلة) كتعفن الاخلاط ويسمى هذا برهاناً انياً (ويسمى عكسه) وهو ما يستدل فيهِ من العلة على المعلول (تعليلاً) وبرهاناً لمياً

تُعمَلُ مِنها ٱلمقاييسُ في صِناعَةٍ واحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثلاثِ ٱلَّتي ذَكَرْنا بَلْ في جَميعِها اِذْ كانَتْ لا تُستَعمَلُ نَفسُها وَاِنَّما تُستَعمَلُ قُوَّتُها. وَاَمّا ٱلأنواعُ فَهِيَ ٱلمُقدَّماتُ ٱلخاصَّةُ بِصِناعَةٍ صِناعَةٍ مِنَ ٱلصَّنائِعِ ٱلجُزئِيَّةِ مِثلُ ٱلمُقدَّماتِ ٱلَّتي تُعمَلُ مِنها ٱلمقاييسُ في ٱلأُمورِ ٱلطَّبيعِيَّةِ فَاِنَّها لا تُعمَلُ مِنها ٱلمقاييسُ في ٱلأُمورِ ٱلخُلقِيَّةِ وَلا ٱلَّتي في ٱلأُمورِ ٱلخُلقِيَّةِ تُعمَلُ مِنها ٱلمقاييسُ في ٱلأُمورِ ٱلطَّبيعِيَّةِ. وَاِذا كانَ ٱلأَمرُ هٰكَذا فَاِذَنِ ٱلمَواضِعُ لا يُؤلَّفُ مِنها قِياسٌ في صِناعَةٍ مَخصوصَةٍ اِذْ ما يُتَصَوَّرُ مِنها هُوَ عامٌّ لِأَكثَرَ مِنْ صِناعَةٍ واحِدَةٍ. وَاَمّا ٱلأنواعُ فَهِيَ ٱلَّتي تُؤلَّفُ مِنها ٱلمقاييسُ ٱلَّتي تَلتَئِمُ مِنها ٱلصِّناعَةُ ٱلَّتي تِلكَ ٱلأنواعُ مَخصوصَةٌ بِها. لٰكِنَّ ٱلأنواعَ ٱلَّتي نَحنُ عازِمونَ في هٰذا ٱلكِتابِ عَلى ذِكرِها لَيسَتْ هِيَ مُقدَّماتٍ يَقينِيَّةً لِأَنَّهُ لَو كانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لَكانَتِ ٱلمقاييسُ ٱلخُطبِيَّةُ مَقاييسَ يَقينِيَّةً وَلَم تَكُنْ مَقاييسَ جَدَلِيَّةً فَضلًا عَنْ خُطبِيَّةٍ. وَٱلضَّمائِرُ ٱلمَعمولَةُ في هٰذِهِ ٱلصِّناعَةِ أَكثَرُ ذٰلِكَ اِنَّما تُؤلَّفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلأنواعِ ما كانَ مِنها خاصًّا بِجِنسٍ جِنسٍ مِنْ أَجناسِ ٱلخَطابَةِ ٱلثَّلاثَةِ وَما كانَ مِنها عامًّا لِلأَجناسِ ٱلثَّلاثَةِ ٱلَّتي تُحَدَّدُ بَعدُ

البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للايجي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

اَلتَّعْرِيفُ عِنْدَ اَهْلِ اَلْعَرَبِيَّةِ هُوَ جَعْلُ اَلذَّاتِ مُشَارًا بِهَا اِلَى خَارِجٍ اِشَارَةً وَضْعِيَّةً وَيُقَابِلُهَا اَلتَّنْكِيرُ. وَعِنْدَ اَلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ اَلطَّرِيقُ اَلْمُوصِلُ اِلَى اَلْمَطْلُوبِ اَلتَّصَوُّرِيِّ وَيُسَمَّى مُعَرِّفًا وَقَوْلًا شَارِحًا اَيْضًا وَيُسَمَّى حَدًّا اَيْضًا عِنْدَ اَلْاُصُولِيِّينَ. وَذٰلِكَ اَلْمَطْلُوبُ اَلتَّصَوُّرِيُّ يُسَمَّى مُعَرَّفًا وَمَحْدُودًا. وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمُعَرِّفُ مَا يُكْتَسَبُ بِهِ اَلتَّصَوُّرُ فَخَرَجَ مَا يَحْصُلُ بِطَرِيقِ اَلْحَدْسِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ اَلْمَلْزُومَاتِ اَلْبَيِّنَةِ مِنَ اَلْعِلْمِ بِاللَّوَازِمِ فَاِنَّ اَلْاِكْتِسَابَ اِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ. وَقَالَ اَلْمَنْطِقِيُّونَ: لَا بُدَّ فِي اَلْمُعَرِّفِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ اَلْمُمَيِّزُ ذَاتِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ حَدًّا وَاِنْ كَانَ عَرَضِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ رَسْمًا. وَقَالَ اَلْمُتَقَدِّمُونَ: اِنَّ اَلرَّسْمَ مِنْهُ تَامٌّ يُمَيِّزُ اَلْمَرْسُومَ مِنْ كُلِّ مَا يُغَايِرُهُ وَهُوَ يَتَرَكَّبُ مِنَ اَلْجِنْسِ اَلْقَرِيبِ وَالْخَاصَّةِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِالْحَيَوَانِ اَلضَّاحِكِ. وَمِنْهُ نَاقِصٌ يُمَيِّزُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُغَايِرُهُ وَيَكُونُ بِالْخَاصَّةِ وَحْدَهَا اَوْ بِهَا وَبِالْجِنْسِ اَلْبَعِيدِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِالضَّاحِكِ اَوْ بِالْجِسْمِ اَلضَّاحِكِ اَوْ بِعَرَضِيَّاتٍ تَخْتَصُّ جُمْلَتُهَا بِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِنَا فِي

تَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ : إِنَّهُ مَاشٍ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ ٱلْأَظْفَارِ بَادِي ٱلْبَشَرَةِ مُسْتَقِيمُ ٱلْقَامَةِ ضَحَّاكٌ بِٱلطَّبْعِ . وَصَرَّحُوا بِأَنَّ ٱلْمُسَاوَاةَ شَرْطٌ لِجَوْدَةِ ٱلرَّسْمِ وَجَوَّزُوا ٱلرَّسْمَ بِٱلْأَعَمِّ وَٱلْأَخَصِّ وَأَيَّدَ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱلْمُعَرِّفَ لَا بُدَّ أَنْ يُفِيدَ ٱلتَّمْيِيزَ عَنْ بَعْضِ ٱلْأَغْيَارِ كَمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ لِلْمُعَرَّفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتَهُ . فَإِنَّ ٱلْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِي ٱلتَّمْيِيزَ فِي ٱلْجُمْلَةِ . وَأَمَّا ٱلتَّمْيِيزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِأَنَّ ٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْمُكْتَسَبَةَ كَمَا قَدْ تَكُونُ بِوَجْهٍ خَاصٍّ بِٱلشَّيْءِ إِمَّا ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ كَذٰلِكَ تَكُونُ بِوَجْهٍ عَامٍّ ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ . فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَاسِبُ كُلٍّ مِنْهُمَا مُعَرِّفًا فَٱلْمُسَاوَاةُ شَرْطٌ لِلْمُعَرِّفِ ٱلتَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ أَوْ رَسْمًا

قَالَ ٱلْإِيجِيُّ : (*) ٱلْمُعَرِّفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ ٱلْمُعَرَّفِ فَيَكُونُ غَيْرَهُ أَوْ أَجْلَى مِنْهُ فَلَا يُعَرَّفُ بِمَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ أَوْ أَكْثَرَ .

شرح مقالة الايجي للجرجاني

يقول : (المعرِّف تجب معرفتهُ قبل) معرفة (المعرَّف) لان معرفتهُ طريقٌ الى معرفتهِ وسبب لها فلا بد ان تتقدمها . (فيكون غيرهُ) اذ لو كان عينه لزم كون الشيء معلوماً قبل ان يكون معلوماً (او) يكون ايضاً (اجلى منه) اذ لو ساواه في الجلاء او كان اخفى منهُ لم يكن معلوماً قبله . (فلا يعرَّف) هذا تفريع على كونه اجلى اي لا يعرَّف الشيء (بما لا يُعرَف الا بهِ) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دوراً صريحاً كقولك : الشمس كوكب نهاري والنهار زمان كون الشمس طالعة . (او اكثر) ويسمى دوراً مضمراً كقولك : الحركة خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدريج والتدريج وقوع الشيء في زمان والزمانُ مقدار الحركة . (ولا بد) اشارةٌ الى شرط آخر للمعرِّف اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) بهِ (التمييز) . (اذ لولاه)

وَلَا بُدَّ اَنْ يُسَاوِيَهُ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْخُصُوصِ لِيَحْصُلَ ٱلتَّمَيُّزُ اِذْ لَوْلَاهُ لَدَخَلَ فِيهِ غَيْرُ ٱلْمُعَرَّفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطَّرِدًا . اَوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ اَفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُنْعَكِسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ ذَاتِيًّا سُمِّيَ حَدًّا وَاِلَّا سُمِّيَ رَسْمًا . وَعَلَى ٱلتَّقْدِيرَيْنِ فَاِنْ ذُكِرَ فِيهِ تَمَامُ ٱلذَّاتِيِّ ٱلْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْجِنْسِ ٱلْقَرِيبِ فَتَامٌّ وَاِلَّا فَنَاقِصٌ . وَٱلْمُرَكَّبُ يُحَدُّ دُونَ ٱلْبَسِيطِ فَاِنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا حُدَّ بِهِمَا وَاِلَّا فَلَا . وَكُلُّ كَسْبِيٍّ لَهُ خَاصَّةٌ بَيِّنَةٌ يُرْسَمُ وَاِلَّا فَلَا .

اي لو لا كونهُ مساويًا (لدخل فيه غير المعرَّف) على تقدير كونه اعمَّ مطلقًا او من وجهٍ (فلم يكن مانعًا) من دخول غير المعرف فيهِ (و) لا (مطردًا) وهو ان يكون بحيث كلما صدق على شيء صدق عليهِ المعرَّف ايضًا. (او خرج عنهُ بعض افراده) على تقدير كونه اخص امَّا مطلقًا او من وجه (فلم يكن جامعًا) لجميع افراد المعرَّف (و) لا (منعكسًا) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرَّف. واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق ما ذهب اليهِ المتأخرون اذ حينئذٍ يحصل التميز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرف عن جميع ما عداها ولايلتبس شيء منها بغيرها . . . (ولا بد فيهِ) اي في المعرِّف (من مميز) مساوٍ للمعرَّف (فان كان) المميز (ذاتيًا سمي) المعرِّف (حدًّا) (والا سمي رسمًا. وعلى التقديرين فان ذكر فيهِ تمام الذاتي المشترك بينهُ وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتامٌّ) إمَّا حد تامٌّ مركب من الجنس والفصل القريبين واما رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب. (والا فناقص) امَّا حد ناقص سواء كان بالفصل وحده او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوِّز اخذه في الحد. واما رسم ناقص بالخاصَّة وحدها او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذهُ في الرسم. (والمركب) اذا لم يكن بديهيَّ التصور (يحد) باجزائه حدًّا تامًّا وناقصًا (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا جزء لهُ (فان تركب عنهما) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير بديهي التصور (حدَّ بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور (كسبي) مركب او بسيط (لهُ خاصة) شاملة لازمة (بينة) بحيث يكون تصورها

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمْكَنَ رَسْمُهُ ٱلتَّامُّ وَإِلَّا فَٱلنَّاقِصُ. وَهٰهُنَا نَوْعَانِ آخَرَانِ مِنَ ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَوَّلُ بِٱلْمِثَالِ وَهُوَ بِٱلْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِٱلْمُشَابَهَةِ. فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْرِيفُ ٱللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ ٱللَّفْظُ

مستلزمًا لتصوره (يرسم. والا) اي وان لم تكن لهُ خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فان كان) ذلك الكسبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التام) بتركيب جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الاول) التعريفُ (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرَّف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب او لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كالنور والجهل كالظلمة. (وهو بالحقيقة تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرَّف وبين المثال. (فان كانت) تلك المشابهة (مفيدة للتميز فهي خاصة) لذلك المعرَّف (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا) داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة للمعرَّف (والَّا) اي وان لم تكن تلك المشابهة مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) بها فليس التعريف بالمثال قسيمًا على حدة. ولما كان استيناس العقول القاصرة بالامثلة اكثر شاع في مخاطبات المتعلمين التعريفات بها. (والثاني التعريف اللفظي. وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (فيفسَّر بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنفر الاسد. وليس هذا تعريفًا حقيقيًا يراد بهِ افادة تصور غير حاصل. انما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين سائر المعاني ليلتفت اليهِ ويعلم انهُ موضوع بازائهِ. فآلهُ الى التصديق وهو طريقة اهل اللغة وخارج عن المعرَّف الحقيقي واقسامهِ الاربعة التي ذكرت. وحقهُ ان يكون بالفاظ مفردة مرادفة. فان لم يوجد ذكر مركب يقصد بهِ تعيين المعنى لا تفصيلهُ. واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد بهِ تحصيل ما ليس بحاصل من التصورات ينقسم الى قسمين: احدهما ما يقصد بهِ تصور مفهومات غير معلومة الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم. فاذا عُلم مثلًا مفهوم الجنس اجمالًا واريد تصورهُ بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومهِ باجزائه كان ذلك حدًّا له اسميًا. وان ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسميًا. والثاني ما يقصد بهِ تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة اما حدًّا او رسمًا ...

وَاضِحَ ٱلدَّلَالَةِ فَيُفَسَّرَ بِلَفْظٍ اَوْضَحَ دَلَالَةً. ثُمَّ اِنَّهُ يُقَدَّمُ فِي ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْاَعَمُّ وَيُحْتَرَزُ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ ٱلْمُشْتَرَكِ وَٱلْمَجَازِ بِلَا قَرِينَةٍ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والجزئي

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسية

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

ٱلْكُلِّيُّ عِنْدَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلْمَفْهُومُ ٱلَّذِي لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ وُقُوعِ شَرِكَةٍ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ اِلَى اَجْزَاءٍ. وَٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْكُلِّيِّ اِمْكَانُ فَرْضِ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سَوَاءٌ كَانَ صَادِقًا اَوْ لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءٌ فَرَضَ ٱلْعَقْلُ صِدْقَهُ اَوْ لَمْ يَفْرِضْ قَطُّ. وَيُقَابِلُهُ

(ثم انهُ يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقديمهُ اولى ولان الاخص قيد لهُ مخصِّص اياه فكان تقديمه عليه انسب وما يقال من انه واجب في الحد التام حصل لجزئه الصوري حتى اذا أُخِّر الجنس فيه كان حدًّا ناقصًا فليس بشيء اذ ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المنحصرة في الجنس والفصل. (ويحترز) فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها فتطول المسافة ولذلك مما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم مشهورة عند ارباجا غريبة عند غيرهم. (وعن المشترك والمجاز بلا قرينة) ظاهرة فيتردد السامع حينئذٍ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في المجاز الى غيره. (وبالجملة فعن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه يصدر الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

ٱلْجُزْئِيُّ وَهُوَ ٱلْمَفْهُومُ مِمَّا يَتَرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ شَيْءٌ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ فِي ٱلْعَقْلِ. وَلِلْكُلِّيِّ تَقْسِيمَاتٌ فَهُوَ اِمَّا حَقِيقِيٌّ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَّ تَحْدِيدُهُ. وَاِمَّا اِضَافِيٌّ وَهُوَ مَا ٱنْدَرَجَ تَحْتَهُ شَيْءٌ آخَرُ فِي نَفْسِ ٱلْاَمْرِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنَ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْحَقِيقِيِّ. وَٱلْكُلِّيُّ اَيْضًا اِمَّا جِنْسٌ اَوْ نَوْعٌ اَوْ فَصْلٌ اَوْ خَاصَّةٌ اَوْ عَرَضٌ عَامٌّ. وَيُقْسَمُ اَيْضًا اِلَى كُلِّيٍّ طَبِيعِيٍّ اَوْ عَقْلِيٍّ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ يَفْتَرِضُهُ ٱلْعَقْلُ وَٱعْلَمْ اَنَّ كُلَّ مَفْهُومٍ آخَرَ سَوَاءٌ كَانَا كُلِّيَّيْنِ اَوْ جُزْئِيَّيْنِ اَحَدُهُمَا كُلِّيًّا وَٱلْآخَرُ جُزْئِيًّا فَٱلنِّسْبَةُ بَيْنَهُمَا مُنْحَصِرَةٌ فِي اَرْبَعٍ: ٱلْمُسَاوَاةُ. وَٱلْعُمُومُ مُطْلَقًا. وَٱلْعُمُومُ مِنْ وَجْهٍ. وَٱلْمُبَايَنَةُ ٱلْكُلِّيَّةُ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ لَمْ يَتَصَادَقَا عَلَى شَيْءٍ اَصْلًا فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ تَبَايُنًا كُلِّيًّا. وَاِنْ تَصَادَقَا فَاِنْ تَلَازَمَا فِي ٱلصِّدْقِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَاِلَّا فَاِنِ ٱسْتَلْزَمَ صِدْقُ اَحَدِهِمَا صِدْقَ ٱلْآخَرِ فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا: (اَعَمُّ) مِنَ ٱلْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ شَامِلًا لِلْآخَرِ وَلِغَيْرِهِ. (وَاَخَصُّ) مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ مَشْمُولًا لِلْآخَرِ فَٱلْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُمَا اَنْ يَصْدُقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِٱلْفِعْلِ عَلَى كُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ ٱلْآخَرُ سَوَاءٌ وَجَبَ ذٰلِكَ ٱلصِّدْقُ اَوْ لَا

وَٱعْلَمْ اَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ مَوْقِعًا لِلْكُلِّيِّ وَٱلْجُزْئِيِّ. وَعِنْدَ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَوْعٌ يَعْرِفُونَهُ بِحَصْرِ ٱلْجُزْئِيِّ وَاِلْحَاقِهِ بِٱلْكُلِّيِّ. فَحَصْرُ ٱلْجُزْئِيِّ هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِلَى نَوْعٍ مِنَ

ٱلْأَنْوَاعِ فَيَجْعَلُهُ جِنْسًا تَعْظِيمًا لَهُ وَتَفْخِيمًا لِأَمْرِهِ بَعْدَ أَنْ يَحْصُرَ جَمِيعَ أَقْسَامِهِ. وَٱلْمُرَادُ عِنْدَهُمْ بِٱلنَّوْعِ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا عَلَى مُتَعَدِّدٍ ذِهْنًا كَمَا هُوَ ٱلنَّوْعُ ٱلْمَعْهُودُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْمَنْطِقِ أَوْ لَا يَصْدُقُ إِلَّا عَلَى فَرْدٍ وَاحِدٍ كَٱلْجُزْئِيِّ ٱلْمَعْرُوفِ عِنْدَهُمْ. وَٱلْمُرَادُ بِٱلْكُلِّيِّ ٱلْجِنْسُ وَهُوَ مَا صَدَقَ عَلَى مُتَعَدِّدٍ ٱخْتَلَفَتْ حَقِيقَةُ أَفْرَادِهِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

هِيَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَقْصَى وَرُؤْيَتُكَ ٱلْمُنَى
وَمَنْزِلُكَ ٱلدُّنْيَا وَأَنْتَ ٱلْخَلَائِقُ

فَقَدْ قَصَدَ تَعْظِيمَ مَمْدُوحِهِ فَجَعَلَ مَنْزِلَهُ ٱلَّذِي هُوَ جُزْئِيٌّ كُلِّيًا وَهُوَ ٱلدُّنْيَا وَجَعَلَ ذَاتَهُ ٱلَّتِي هِيَ جُزْئِيَّةٌ كُلِّيَّةً وَهِيَ ٱلْخَلَائِقُ. وَأَمَّا حَصْرُ أَقْسَامِ ٱلْجُزْئِيِّ فَلِأَنَّ ٱلْعَالَمَ عِبَارَةٌ عَنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ وَجَمَادٍ. وَٱلْمَنْزِلُ شَامِلٌ لَهَا

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الآمدي وشرح الشمسية والنجاة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

ٱلْجِنْسُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلضَّرْبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلنَّوْعِ. يُقَالُ: ٱلْإِنْسَانُ نَوْعٌ وَٱلْحَيَوَانُ جِنْسٌ. وَيُرَادُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلْمَاهِيَّةُ. وَكُلُّ مَا دَلَّ عَلَى شَيْءٍ وَعَلَى كُلِّ مَا أَشْبَهَهُ وَبِٱلنَّظَرِ إِلَى

هٰذَا قِيلَ اَسْمُ ٱلْجِنْسِ اِسْمٌ مَوْضُوعٌ لِلْمَاهِيَّةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ . وَٱلْجِنْسُ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّيٍّ مَقُولٍ عَلَى كَثِيرِينَ مُخْتَلِفِينَ بِٱلْأَغْرَاضِ دُونَ ٱلْحَقَائِقِ . وَقِيلَ اَيْضًا ٱلْجِنْسُ هُوَ ٱلْمَقُولُ عَلَى اَفْرَادٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْاَحْكَامِ . وَٱلنَّوْعُ كُلِّيٌّ مَقُولٌ عَلَى اَفْرَادٍ مُتَّفِقَةٍ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْاَحْكَامِ مُخْتَلِفِينَ بِٱلْعَدَدِ فَقَطْ كَٱلْاِنْسَانِ فَاِنَّهُ مَقُولٌ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ فِي جَوَابِ مَا هُوَ . وَرُبَّمَا اُطْلِقَ ٱلْجِنْسُ عَلَى ٱلْاَمْرِ ٱلْعَامِّ سَوَاءٌ كَانَ جِنْسًا عِنْدَ ٱلْفَلَاسِفَةِ اَوْ نَوْعًا . كَٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدِ مَثَلًا فَهُمَا نَوْعَانِ يَنْدَرِجَانِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ وَيَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْاِنْسَانِيَّةِ . ثُمَّ اِنَّ ٱلْجِنْسَ يُقْسَمُ اِلَى قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ لِاَنَّهُ اِنْ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنِ ٱلْمَاهِيَّةِ وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ وَاحِدًا فَهُوَ قَرِيبٌ . وَيَكُونُ ٱلْجَوَابُ ذٰلِكَ ٱلْجِنْسَ فَقَطْ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلْاِنْسَانِ وَعَنْ جَمِيعِ مَا يُشَارِكُهُ فِي ٱلْحَيَوَانِيَّةِ كَٱلْفَرَسِ وَٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ وَنَحْوِهَا . وَاِنْ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنْهَا وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ مُتَعَدِّدًا فَهُوَ بَعِيدٌ وَيَكُونُ ٱلْجَوَابُ هُوَ غَيْرُهُ كَٱلْجِسْمِ ٱلنَّامِي بِٱلنِّسْبَةِ اِلَى ٱلْاِنْسَانِ فَاِنَّهُ جَوَابٌ عَنِ ٱلْاِنْسَانِ وَعَنْ بَعْضِ مُشَارِكَاتِهَا فِيهِ كَٱلنَّبَاتَاتِ . . وَٱلْاَجْنَاسُ تَتَرَتَّبُ مُتَصَاعِدَةً وَٱلْاَنْوَاعُ مُتَنَازِلَةً اِلَى اَنْ تَبْلُغَ اِلَى جِنْسٍ لَيْسَ فَوْقَهُ جِنْسٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلْجِنْسُ ٱلْعَالِي وَاِلَى نَوْعٍ لَيْسَ تَحْتَهُ نَوْعٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلْجِنْسُ ٱلْمُفْرَدُ

البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اِعْلَمْ اَنَّ اَلْعِلِّيَّةَ وَاَلْمَعْلُولِيَّةَ مِنَ اَلْعَوَارِضِ اَلشَّامِلَةِ لِلْمَوْجُودَاتِ عَلَى سَبِيلِ اَلتَّقَابُلِ كَالْاِمْكَانِ وَاَلْوُجُوبِ. وَتَصَوُّرُ اَحْتِيَاجِ اَلشَّيْءِ اِلَى غَيْرِهِ ضَرُورِيٌّ. فَاَلْمُحْتَاجُ اِلَيْهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَاَلْمُحْتَاجُ مَعْلُولًا. وَاَلْعِلَّةُ اِمَّا جُزْءُ اَلشَّيْءِ اَوْ خَارِجٌ عَنْهُ. (وَاَلْاَوَّلُ) اِنْ كَانَ بِهِ اَلشَّيْءُ بِالْفِعْلِ كَالْهَيْئَةِ لِلسَّرِيرِ فَهُوَ اَلصُّورَةُ. وَاِنْ كَانَ بِالْقُوَّةِ كَالْخَشَبِ لَهُ فَهُوَ اَلْمَادَّةُ. وَلَهَا اَسْمَاءٌ بِاَعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ: فَمَادَّةٌ اِذْ تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا اَلصُّوَرُ اَلْمُخْتَلِفَةُ. وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةِ اَسْتِعْدَادِهَا لِلصُّوَرِ. وَعُنْصُرٌ اِذْ مِنْهَا يُبْتَدَأُ اَلتَّرْكِيبُ. وَاِسْطُقُسٌ اِذْ اِلَيْهَا يَنْتَهِي اَلتَّحْلِيلُ. وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ لِلْمَاهِيَّةِ كَمَا اَنَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلْوُجُودِ فَيُخَصَّانِ بِاَسْمِ عِلَّةِ اَلْمَاهِيَّةِ. (وَاَلثَّانِي) اِمَّا مَا بِهِ اَلشَّيْءُ كَالنَّجَّارِ لِلسَّرِيرِ وَهُوَ اَلْفَاعِلُ. وَاِمَّا لِاَجْلِهِ اَلشَّيْءُ كَالْجُلُوسِ عَلَيْهِ لَهُ وَهُوَ اَلْغَايَةُ. وَهَاتَانِ تُخَصَّانِ بِاَسْمِ عِلَّةِ اَلْوُجُودِ. وَاَلْاُولَيَانِ لَا تُوجَدَانِ اِلَّا لِلْمُرَكَّبِ. وَاَلْغَايَةُ لَا تَكُونُ اِلَّا لِفَاعِلٍ بِالْاِخْتِيَارِ. وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعْلِ اَلْمُوجِبِ غَايَةً اَيْضًا تَشْبِيهًا. وَاَلْغَايَةُ مَعْلُولَةٌ فِي اَلْخَارِجِ وَاِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي اَلذِّهْنِ فَلَهَا عَلَاقَةٌ

ٱلعِلِّيَّةِ وَٱلمَعْلُولِيَّةِ. وَيُسَمَّى جَمِيعُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّيْءُ عِلَّةً تَامَّةً وَهِيَ قَدْ تَكُونُ عِلَّةً فَاعِلِيَّةً أَوْ مَعَ ٱلغَايَةِ كَمَا فِي ٱلبَسِيطِ. وَقَدْ تَكُونُ مُجْتَمِعَةً مِنَ ٱلأَرْبَعِ كَمَا فِي ٱلمُرَكَّبِ... وَٱلفَرْقُ بَيْنَ ٱلعِلَّةِ وَٱلشَّرْطِ أَنَّ ٱلعِلَّةَ مُطَّرِدَةٌ فَحَيْثُمَا وُجِدَتْ وُجِدَ ٱلحُكْمُ وَتَأْثِيرُهَا بِٱلذَّاتِ. أَمَّا ٱلشَّرْطُ فَيَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ تَأْثِيرُ ٱلمُؤَثِّرِ لَا ذَاتُهُ كَيُبُوسَةِ ٱلحَطَبِ لِلِاحْرَاقِ إِذِ ٱلنَّارُ لَا تُؤَثِّرُ فِي ٱلحَطَبِ بِٱلِاحْرَاقِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ يَابِسًا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الاوّل

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَعْلَمْ أَنَّ لِلْكَلَامِ آدَابًا إِنْ أَغْفَلَهَا ٱلْمُتَكَلِّمُ أَذْهَبَ رَوْنَقَ كَلَامِهِ وَطَمَسَ بَهْجَةَ بَيَانِهِ وَلَهَا ٱلنَّاسَ عَنْ مَحَاسِنِ فَضْلِهِ بِمَسَاوِئِ أَدَبِهِ فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِبِهِ. (فَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَإِنْ كَانَتِ ٱلنَّزَاهَةُ عَنِ ٱلذَّمِّ كَرَمًا. وَٱلتَّجَاوُزُ فِي ٱلمَدْحِ مَلَقًا يَصْدُرُ عَنْ مَهَانَةٍ وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلذَّمِّ ٱنْتِقَامًا

يَصْدُرُ عَنْ شَرٍ. وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ ٱلْكَذِبِ. عَلَى أَنَّ ٱلسَّلَامَةَ مِنَ ٱلْكَذِبِ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِ مُتَعَذِّرَةٌ لَاسِيَّمَا إِذَا مَدَحَ تَقَرُّبًا وَذَمَّ تَحَنُّقًا. وَحُكِيَ عَنِ ٱلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ سَهِرْتُ لَيْلَتِي أُفَكِّرُ فِي كَلِمَةٍ أُرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي فَمَا وَجَدْتُهَا. وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيَخْرُجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ. قِيلَ: وَكَيْفَ ذٰلِكَ. قَالَ: يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ. وَسَمِعَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا وَيُبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا مَا وَصَفْتَ ٱمْرَءًا لِٱمْرِئٍ ... فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَٱقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ ٱلظُّنُو ... نَ فِيهِ إِلَى ٱلْأَمَدِ ٱلْأَبْعَدِ
فَيُضَالُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ ... لِفَضْلِ ٱلْمَغِيبِ عَلَى ٱلْمَشْهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا تَبْعَثَهُ ٱلرَّغْبَةُ وَٱلرَّهْبَةُ عَلَى ٱلِٱسْتِرْسَالِ فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَعْجَزُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِهِمَا. فَإِنَّ مَنْ أَطْلَقَ بِهِمَا لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهِمَا عِنَانَهُ وَلَمْ يَسْتَثْقِلْ مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَسْتَثْقِلُهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا. (وَمِنْ آدَابِهِ) إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ فَإِنَّ إِرْسَالَ ٱلْقَوْلِ ٱخْتِيَارٌ وَٱلْعَمَلَ بِهِ ٱضْطِرَارٌ وَلَئِنْ يَفْعَلْ مَا لَمْ يَقُلْ أَجْمَلُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱلْكَلَامِ أَيْ يَكْتَفِي بِٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْقَوْلِ. وَقَالَ مَحْمُودٌ ٱلْوَرَّاقُ:

اَلْقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ اَلْفِعْلُ وَاَلْفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ اَلْعَقْلُ
لَا يَثْبُتُ اَلْقَوْلُ اِذَا لَمْ يَكُنْ يُقِلُّهُ مِنْ تَحْتِهِ اَلْاَصْلُ

(وَمِنْ آدَابِهِ) اَنْ يُرَاعِيَ مَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ وَاَغْرَاضِهِ فَاِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِاللِّينِ وَاللُّطْفِ. وَاِنْ كَانَ تَرْهِيبًا خَلَطَهُ بِالْخُشُونَةِ وَالْعُنْفِ. فَاِنَّ لِينَ اللَّفْظِ فِي التَّرْهِيبِ وَخُشُونَتَهُ فِي التَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعِهِمَا وَتَعْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهِمَا فَيَصِيرُ الْكَلَامُ لَغْوًا وَالْغَرَضُ الْمَقْصُودُ لَهْوًا. وَقَدْ قَالَ اَبُو الْاَسْوَدِ الدِّيلِيُّ لِاِبْنِهِ: يَا بُنَيَّ اِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فَيَمْقُتُوكَ. وَلَا بِكَلَامِ مَنْ هُوَ دُونَكَ فَيَزْدَرُوكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) اَنْ لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنْكَرًا وَلَا يَتْرُكَ لَهُ اَثَرًا عَاجًا مُسْتَهْجَنًا وَلْيَكُفَّ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا. فَاِنَّ نَقْصَ الطَّيْشِ اَكْثَرُ مِنْ فَضْلِ الْبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ اَنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ لِاَعْرَابِيٍّ: اَخَطِيبٌ اَنَا. قَالَ: نَعَمْ لَوْلَا اَنَّكَ تُكْثِرُ الرَّدَّ وَتُشِيرُ بِالْيَدِ وَتَقُولُ اَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) اَنْ يَتَجَافَى هُجْرَ الْقَوْلِ وَمُسْتَقْبَحَ الْكَلَامِ وَلْيَعْدِلْ اِلَى الْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ صَرِيحُهُ وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ الْغَرَضَ وَلِسَانُهُ تَرِهٌ وَاَدَبُهُ مَصُونٌ كَمَا اَنَّهُ يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَهٰكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعَهُ فَلَا يَسْمَعُ خَنًا وَلَا يُصْغِي اِلَى فُحْشٍ فَاِنَّ سَمَاعَ الْفُحْشِ دَاعٍ اِلَى اِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةٌ اِلَى اِنْكَارِهِ وَاِذَا وُجِدَ عَنِ الْفُحْشِ مُعْرِضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ اِعْرَاضُهُ اَحَدَ النَّكِيرَيْنِ كَمَا اَنَّ سَمَاعَهُ اَحَدُ الْبَاعِثَيْنِ. وَاَنْشَدَنِي اَبُو الْحَسَنِ

ابنُ الحارثِ الهاشميُّ :

تحرَّ منَ الطُّرقِ اوساطَها وعُدْ عنِ الموضعِ المُشتبهْ
وسمعُكَ صُنْ عنْ قبيحِ الكلامِ كصونِ اللسانِ عنِ النُّطقِ بهِ
فانَّكَ عندَ استماعِ القبيحِ شريكٌ لقائلِهِ فانتبهْ

ومِمَّا يجري مجرى فحشِ القولِ وهُجرِهِ في وجوبِ اجتنابِهِ ولزومِ تنكُّبِهِ ما كانَ شنيعَ البديهةِ مُستنكرَ الظاهرِ وانْ كانَ عُقبَ التأمُّلِ سليمًا وبعدَ الكشفِ والرَّويَّةِ مُستقيمًا كالذي رواهُ الازديُّ عنِ الصَّوليِّ لبعضِ المُتكلِّمينَ منَ الشُّعراءِ :

انَّني شيخٌ كبيرٌ كافرٌ باللهِ سيري
انتِ ربّي والهي رازقُ الطفلِ الصغيرِ

يُريدُ بقولِهِ (كافرٌ) اي لابسٌ لانَّ الكُفرَ التغطيةُ . ولذلكَ سُمِّيَ الكافرُ باللهِ كافرًا لانَّهُ قد غطَّى نعمةَ اللهِ بمعصيتِهِ . وقولُهُ : (باللهِ سيري) يُقسِمُ عليها انْ تسيرَ . وقولُهُ : (انتِ ربّي) يعني ربّي ولدكِ منَ التربيةِ . والهي رازقُ الطفلِ الصغيرِ كما انَّهُ رازقُ الولدِ الكبيرِ . فانظُرْ الى هذا التكلُّفِ الشنيعِ والتعمُّقِ البشيعِ ما اعتاضَ منْ حيثُ البديهةِ اذا سلمَ بعدَ الفكرِ والرَّويَّةِ الا لؤمًا انْ حسُنَ فيهِ الظنُّ او ذمًّا انْ قويَ فيهِ الارتيابُ . وقلَّما يكونُ ذلكَ الا منْ خليعٍ بطرٍ او مُرتابٍ اشرٍ

البحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والغزالي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

اِنَّ اَلْخَطِيبَ اَلْحَرِيَّ بِالْاِرْشَادِ مَنْ قَدِ اَسْتَكْمَلَتْ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ : (اِحْدَاهُنَّ) عَقْلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجْرِبَةٍ سَالِفَةٍ فَاِنَّ بِكَثْرَةِ اَلتَّجَارِبِ تَصِحُّ اَلرَّوِيَّةُ . وَقَدْ جَاءَ فِي اَلْحَدِيثِ : اَسْتَرْشِدُوا اَلْعَاقِلَ تُرْشَدُوا وَلَا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا . وَقَالَ عَبْدُ اَللّٰهِ بْنُ اَلْحَسَنِ لِاَبْنِهِ مُحَمَّدٍ : اُحْذَرُوا مَشُورَةَ اَلْجَاهِلِ وَاِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تُحْذَرُ عَدَاوَةُ اَلْعَاقِلِ اِذَا كَانَ عَدُوًّا فَاِنَّهُ يُوشِكُ اَنْ يُوَرِّطَكَ بِمَشُورَتِهِ فَيَسْبِقُ اِلَيْكَ مَكْرُ اَلْعَاقِلِ وَتَوْرِيطُ اَلْجَاهِلِ . وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْسٍ : مَا اَكْثَرَ صَوَابَكُمْ . قَالَ : نَحْنُ اَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَاَنَّا اَلْفُ حَازِمٍ . وَكَانَ يُقَالُ اِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ رَجُلَيْنِ شَابٍّ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ قَلِيلِ اَلتَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ اَوْ كَبِيرٍ قَدْ اَخَذَ اَلدَّهْرُ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا اَخَذَ مِنْ جِسْمِهِ . وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ اَلْحِكَمِ : كُلُّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ اِلَى اَلْعَقْلِ وَاَلْعَقْلُ يَحْتَاجُ اِلَى اَلتَّجَارِبِ . وَلِذٰلِكَ قِيلَ : اَلْاَيَّامُ تَهْتِكُ لَكَ عَنِ اَلْاَسْتَارِ اَلْكَامِنَةِ . وَقَالَ بَعْضُ اَلْحُكَمَاءِ : اَلتَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ وَاَلْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ . وَقَالَ بَعْضُ اَلْحُكَمَاءِ : مَنِ اَسْتَعَانَ بِذَوِي اَلْعُقُولِ فَازَ بِدَرْكِ اَلْمَأْمُولِ . وَقَالَ اَبُو اَلْاَسْوَدِ اَلدِّيلِيُّ :

وَمَا كُلُّ ذِي نُصْحٍ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ وَلَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ فَحُقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

(وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ) اَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ ذَا دِينٍ وَتُقًى فَاِنَّ ذٰلِكَ عِمَادُ كُلِّ صَلَاحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ الدِّينُ فَهُوَ مَأْمُونُ السَّرِيرَةِ مُوَفَّقُ الْعَزِيمَةِ. (وَالْخَصْلَةُ الثَّالِثَةُ) اَنْ يَكُونَ نَاصِحًا وَدُودًا فَاِنَّ النُّصْحَ وَالْمَوَدَّةَ يُصْدِقَانِ الْفِكْرَةَ وَيُخْلِصَانِ الرَّأْيَ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ اِلَّا الْحَازِمَ غَيْرَ الْحَسُودِ وَاللَّبِيبَ غَيْرَ الْحَقُودِ وَاِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَاِنَّ رَأْيَهُنَّ اِلَى الْاَفْنِ وَعَزْمَهُنَّ اِلَى الْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ الْاُدَبَاءِ مَشُورَةُ الْمُشْفِقِ الْحَازِمِ ظَفَرٌ وَمَشُورَةُ غَيْرِ الْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

اَضِفْ ضَمِيرًا لِمَنْ تُعَاشِرُهُ وَاسْكُنْ اِلَى نَاصِحٍ تُشَاوِرُهُ
وَارْضَ مِنَ الْمَرْءِ فِي مَوَدَّتِهِ بِمَا يُؤَدِّي اِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفِ النَّاسَ لَمْ يَجِدْ اَحَدًا تَنْصَحُ مِنْهُمْ لَهُ سَرَائِرُهُ
اَوْشَكَ اَنْ لَا يَدُومَ وَصْلُ اَخٍ فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

(وَالْخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ) اَنْ يَكُونَ سَلِيمَ الْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ وَغَمٍّ شَاغِلٍ. فَاِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرَهُ شَوَائِبُ الْهُمُومِ لَا يَسْلَمُ لَهُ رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِسْرَى اِذَا دَهَمَهُ اَمْرٌ بَعَثَ اِلَى مَرَازِبَتِهِ فَاسْتَشَارَهُمْ فَاِنْ قَصَّرُوا بِالرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتَهُ وَقَالَ: اَبْطَأْتُمْ بِاَرْزَاقِهِمْ فَاَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُّوسِ:

وَلَا مُشِيرَ كَذِي نُصْحٍ وَمَقْدُرَةٍ فِي مُشْكِلِ الْاَمْرِ فَاخْتَرْ ذَاكَ مُنْتَصِحَا

(وَالْخَصْلَةُ الْخَامِسَةُ) اَنْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي الْاَمْرِ الْمُسْتَشَارِ غَرَضٌ يُتَابِعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَاِنَّ الْاَغْرَاضَ جَاذِبَةٌ وَالْهَوَى صَادٌّ وَالرَّأْيَ اِذَا عَارَضَهُ الْهَوَى وَجَاذَبَتْهُ الْاَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنُ عُتْبَةَ بْنُ اَبِي لَهَبٍ :

وَقَدْ يُحْكِمُ الْاَيَّامُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا
وَيُرْدِي الْهَوَى ذَا الرَّأْيِ وَهُوَ لَبِيبُ
وَيُحْمَدُ فِي الْاَمْرِ الْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ
وَيُعْذَلُ فِي الْاِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبُ

فَاِذَا اسْتَكْمَلَتْ هٰذِهِ الْخِصَالُ الْخَمْسُ فِي رَجُلٍ كَانَ اَهْلًا لِلْاِرْشَادِ وَالْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ اسْتِشَارَتِهِ اعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ. فَاِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي الْحَاجَةِ اَسْلَمُ وَهُوَ مِنَ الصَّوَابِ اَقْرَبُ لِخُلُوصِ الْفِكْرِ وَخُلُوِّ الْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ الْهَوَى وَارْتِفَاعِ الشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: اِنَّ رَأْسَ الْعَقْلِ بَعْدَ الْاِيمَانِ بِاللّٰهِ التَّوَدُّدُ اِلَى النَّاسِ وَمَا اسْتَغْنَى مُسْتَبِدٌّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ اَحَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ فَاِذَا اَرَادَ اللّٰهُ بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ اَوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ اَبِي طَالِبٍ: اَلْاِسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهِدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ لِاِبْنِهِ شَاوِرْ. مَنْ جَرَّبَ الْاُمُورَ فَاِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا قَامَ عَلَيْهِ بِالْغَلَاءِ وَاَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : نِصْفُ رَأْيِكَ مَعَ اَخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمُلَ الرَّأْيُ

البحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ ٱلطُّفُولِيَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلْاَوَّلُ لِحَيَاةِ ٱلْانْسَانِ. وَٱلْغَلْوَةُ ٱلْاُولَى فِي طَرِيقِ ٱلزَّمَانِ. حَيْثُمَا يُقَالُ لِلدَّاخِلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ. وَلِلْخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْانْسَانُ فِي هٰذَا ٱلْمَدْخَلِ عَدِيمَ ٱلْبَصِيرَةِ. خَالِيَ ٱلسَّرِيرَةِ. عَارِيًا مِنْ كُلِّ ٱلْكَمَالَاتِ ٱلْاَدَبِيَّةِ. غَيْرَ حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلْعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَرَى اِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ. وَلَا يَشْعُرُ اِلَّا بِمَا يَسْتَعْطِفُ قَلْبَهُ. فَيَلْعَبُ بِٱلتُّرَابِ وَيَذْرِيهِ. وَيَعْبَثُ بِٱلْتِبْرِ وَيُزْرِيهِ. وَيَسْخَرُ بِٱلْمَقْبُولَاتِ وَٱلْمَرْدُودَاتِ. وَيَضْحَكُ عَلَى كُلِّ ٱلْمَوْجُودَاتِ. فَلَا يَهْتَمُّ اِلَّا بِطَلَبِ ٱلْغِذَاءِ. وَلَا يَخْفِلُ اِلَّا بِمَا يُورِثُ ٱلْاَذَى. وَاِذْ لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِخِفَّةِ بُنْيَتِهِ. وَضَائِعًا فِي تِيهِ نِيَّتِهِ. فَلَا يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ ٱلْعَوَالِمِ. وَلَا رَوِيَّ قَوَافِي ٱلْعَظَائِمِ. بَيْنَمَا يَكُونُ بَاكِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَفَوَاعِلِهَا. وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ جَوَازِمِهَا وَعَوَامِلِهَا. وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ اِلَى ٱلدُّخُولِ فِي اَبْوَابِهَا. وَٱلْغَوْصِ فِي عُبَابِهَا. فَلَيْتَ عَيْنَهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ ٱلْاَوْصَابِ. وَمَا يَسْتَنْظِرُهُ مِنَ ٱلْاَتْعَابِ. فَمَا ٱلشَّذْيُ اِلَّا رَمْزُ ٱلرَّدَى فِي طَلَبِ ٱلْقُوتِ. وَمَا ٱلْمَهْدُ اِلَّا اِشَارَةُ ٱلتَّابُوتِ

(حالُ ٱلفُتُوَّةِ) هٰذا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلثّانِي لِلحَياةِ ٱلإنسانِيَّةِ. وَٱلمَساحَةُ ٱلأُولى لِٱنتِشارِ ٱلقُوى ٱلعَقلِيَّةِ اَوِ ٱلتَّلُّ ٱلأَوَّلُ فِي طَرِيقِ ٱلأَجَلِ. وَمَسلَكِ ٱلعَمَلِ. فَيَصعَدُ ٱلإنسانُ عَلَيهِ وَيَنظُرُ ٱلعالَمَ بِعَينَيهِ. فَيَراهُ مَشهَدًا بَدِيعَ ٱلجَمالِ. وَمَلعَبًا تَلعَبُ بِهِ ٱلآمالُ. وَتَرقُصُ فِيهِ ٱلمَلَذّاتُ وَٱلأَمانِي. وَتَحُومُ حَولَهُ ٱلبَشائِرُ وَٱلتَّهانِي. فَتَشمَلُهُ شُمُولُ هٰذا ٱلظُّهُورِ. وَتَلعَبُ بِرَأسِهِ حُمَيَّةُ هٰذِهِ ٱلأُمُورِ. فَيَبِيتُ سَكرانَ بِٱلأَفراحِ. وَمَأخُوذًا بِرَنِينِ تِلكَ ٱلأَقداحِ. فَيَنسَى مَدَى ٱلأَوقاتِ. وَلا يَعلَمُ مَا ٱلآفاتُ. اِذ يَظَلُّ مُلتَفًّا بِكِساءِ ٱلآمالِ. وَمُختَفِيًا بِأَوهامِ ٱلأَعمالِ. فَلا يَنظُرُ اِلّا اِلى ذاتِهِ. وَلا يَحفِلُ اِلّا بِصِفاتِهِ. هائِمًا فِي مَلاهِي دُنياهُ. وَمُتَهافِتًا عَلى حَداثَةِ قُواهُ. وَهٰكَذا يَهبِطُ فِي وادِي هٰذا ٱلعالَمِ ٱلمُلِمِّ. وَيَخبِطُ فِي ذٰلِكَ ٱلبَحرِ ٱلخِضَمِّ. وَلا يَزالُ بَينَ هُبُوبٍ وَٱنكِبابٍ. اِلى اَن يَنشُلَهُ ٱلصَّوابُ. وَيُدرِكَهُ ٱلشَّبابُ

(حالُ ٱلشُّبُوبِيَّةِ) اَمّا ٱلشُّبُوبِيَّةُ فَهِيَ ٱلدَّوْرُ ٱلثّالِثُ لِلأَجَلِ. وَمَحَلُّ ٱلكَدِّ وَٱلعَمَلِ. وَمَوقِعُ ٱليَأسِ وَٱلأَمَلِ. حَيثُما يُوجَدُ ٱلإنسانُ ضائِعًا فِي مَفازَةِ ٱلعُمرِ. حائِرًا فِي تَنُوفَةِ ٱلنَّهيِ وَٱلأَمرِ. فَيَرَى نَفسَهُ قائِمًا فِي وَسَطِ هٰذِهِ ٱلدُّنيا. مُنطَقًا بِكافَّةِ ٱلأَشياءِ. مُلتَطِمًا بِأَمواجِ ٱلعالَمِ وَاَهوائِهِ. مَصرُوعًا وَمَأخُوذًا بِضَجَّاتِهِ وَضَوضائِهِ. وَهٰكَذا تَنهَضُ فِي قَلبِهِ ثَورَةُ ٱلحَواسِّ. وَتَشُبُّ فِي دِماغِهِ نارُ ٱلوَسواسِ. وَتَصفِرُ فِي سَرِيرَتِهِ رِيحُ ٱلأَهجاسِ. فَيَندَفِعُ اِلى مُنازَلَةِ ٱلأَقدارِ وَٱلأَيّامِ. وَمُقاتَلَةِ ٱلحَقائِقِ وَٱلأَوهامِ. فَتارَةً تَهُبُّ بِهِ ٱلآمالُ اِلى اَوجِ ٱلأَفراحِ وَٱلمَسَرّاتِ.

وَطَوْرًا تَكُبُّ بِهِ ٱلْخَيْبَاتُ فِي حَضِيضِ ٱلْأَتْرَاحِ وَٱلْحَسَرَاتِ. يَرَى ٱلْعَالَمَ قَرِيبَ ٱلْمَنَالِ. فَيَنْدَفِعُ وَرَاءَهُ عَلَى مُتُونِ ٱلْأَهْوَالِ. حَتَّى إِذَا مَا ظَفِرَ بِٱلْبَعْضِ طَمِعَ بِٱلْكُلِّ. وَإِذَا فَازَ بِٱلشَّجَرِ رَغِبَ فِي ٱلظِّلِّ. فَلَا يَكُونُ إِلَّا مُضْغَةً فِي أَفْوَاهِ ٱلْمَطَامِعِ. وَكُرَةً تَتَلَقَّفُهَا ٱلْقَوَامِعُ. وَذٰلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ مُهْبِطًا لِحَوَادِثِ ٱلْحَدَثَانِ. وَمُسْقِطًا لِعَاثِرِ ٱلزَّمَانِ. وَلَا تَزَالُ زَهْرَةُ هٰذَا ٱلشَّبَابِ ٱلزَّاهِي بَيْنَ ذُبُولٍ وَٱفْتِرَارٍ. وَلَا يَبْرَحُ بَدْرُ هٰذَا ٱلْعَصْرِ ٱلْبَاهِي بَيْنَ خُسُوفٍ وَٱسْفِرَارٍ. إِلَى أَنْ تَنْثُرَ ٱلشَّيْخُوخَةُ تَاجَ تِلْكَ ٱلزَّهْرَةِ. وَيَصْفَعَ ٱلْهَرَمُ وَجْهَ هَاتِيكَ ٱلْقَمَرَةِ. حَيْثُمَا يَسْقُطُ ٱلشَّبَابُ مِنْ فَرْشِهِ. وَيَرْتَفِعُ ٱلْمَشِيبُ عَلَى عَرْشِهِ

(حَالُ ٱلشَّيْخُوخَةِ) فَلَا يَزَالُ ٱلْإِنْسَانُ سَائِرًا فِي طَرِيقِ عُمْرِهِ سَيْرَ ٱلْمُسَافِرِ فِي ٱلْقِفَارِ. إِلَى أَنْ يَبْلُغَ رَابِعَ ٱلْأَدْوَارِ. وَهُوَ دَوْرُ ٱلدَّثَارِ. هٰذَا إِذَا أَمْكَنَهُ ٱلْخَلَاصُ مِنْ لُصُوصِ ٱلْحَوَادِثِ. وَٱلْمَنَاصُ مِنْ أُسْدِ ٱلْكَوَارِثِ. وَنُهْبَةِ ٱلْأَعْرَاضِ. وَقَتَلَةِ ٱلْأَمْرَاضِ فَيَلْبَثُ هُنَاكَ مَنْهُوكًا مِنْ تَعَبِ ٱلْمَسِيرِ. وَمَضَضِ ٱلتَّأْثِيرِ. إِذْ يَعُودُ مُنْحَنِيًا تَحْتَ أَحْمَالِ ٱلْحَيَاةِ وَأَثْقَالِهَا. وَمَرْمُوضًا مِنْ صَدَمَاتِ ٱلدُّنْيَا وَأَهْوَالِهَا. فَتَصْمُتُ ضَوْضَاءُ حَوَاسِّهِ وَهَوَاجِسِهِ. وَيَخْرَسُ رَنِينُ أَنْفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ. فَيَكِفُّ بَصَرُهُ. وَتَجِفُّ فِكْرُهُ. وَيَقِلُّ ذَوْقُهُ. وَيَكْثُرُ شَوْقُهُ. وَيَخْجَلُ حَتَّى بِٱلْفَلْسِ. وَيَزِيدُ حِرْصُهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ. وَيَجُودُ بِٱلْقَلْسِ. فَإِذَا ٱلْتَفَتَ إِلَى وَرَائِهِ وَرَأَى ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي قَطَعَهَا. وَٱلطَّرِيقَ ٱلَّتِي تَتَبَّعَهَا. ظَهَرَتْ لَهُ ٱلْأَشْيَاءُ أَشْبَاحَ أَحْلَامٍ. وَمَلَاعِبَ أَوْهَامٍ. وَكُلُّهَا تَجْرِي نَظِيرَهُ إِلَى ٱلزَّوَالِ.

كَالطَّيْفِ وَالْخَيَالِ. فَيَضْحَكُ عَلَى الْجَمِيعِ. ضَحِكَ الطِّفْلِ الرَّضِيعِ. اَمَّا اِذَا الْتَفَتَ اِلَى الْاَمَامِ. وَطَمِعَ بِبَقِيَّةِ الْاَيَّامِ. حَنَّ اِلَى الْوُجُودِ. وَهَامَ بِحُبِّ الْخُلُودِ. وَلَا يَزَالُ الْمَاضِي يَدْفَعُهُ. وَالْحَاضِرُ يَرُدَّعُهُ. وَالْمُسْتَقْبِلُ يُطْمِعُهُ. حَتَّى تَخْتَطِفَ يَمَامَةَ نَفْسِهِ بُزَاةُ الْمَنِيَّةِ. وَتَسْلُبَهُ كُلَّ بُغْيَةٍ وَاُمْنِيَّةٍ. فَيَهْبِطَ هُبُوطَ الْبُنْيَانِ. وَيَغُورَ فِي قَبْرِ النِّسْيَانِ. حَيْثُمَا تَسْتَرْجِعُ الْكُلِّيَّاتُ جُزْئِيَّاتِهَا. وَتَسْتَرِدُّ الْمَجْمُوعَاتُ مُفْرَدَاتِهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

اِنَّ الْخَطِيبَ اِذَا مَا اَرَادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحُسْنَ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ فِي اُمُورِهِ فَلْيَتَوَخَّ طِبَاعَهُمْ وَتَلَوُّنَ اَخْلَاقِهِمْ وَتَبَايُنَ اَحْوَالِهِمْ. قَالَ اَفْلَاطُونُ: لِكُلِّ اَمْرٍ حَقِيقَةٌ. وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ. وَلِكُلِّ اِنْسَانٍ خَلِيقَةٌ. فَعَامِلِ النَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِمْ وَالْتَمِسْ مِنَ الْاُمُورِ حَقَائِقَهَا وَاجْرِ مَعَ الزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهِ (اه). وَهٰذِهِ قَوَانِينُ تَنْفَعُ الْخَطِيبَ فِي مُتَصَرَّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ اَهْلِ طَبَقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ عَلَى سَبِيلِ الْاِيجَازِ وَالْاِخْتِصَارِ. عَلَى اَنَّهُ لَا يَمْنَعُ قَوْلُنَا هٰذَا مِنْ ذِكْرِ مَا يَخْتَصُّ بِاَسْتِعْمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ

دُونَ وَقْتٍ ومَعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ. اِذِ ٱلْوَاحِدُ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يُمْكِنُهُ اَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ اَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ ٱلسِّيَاسَاتِ. وَنُقَدِّمُ لِذٰلِكَ مُقَدَّمَاتٍ مِنْهَا اَنْ نَقُولَ اِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَتَى مَا رَجَعَ اِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ اَحْوَالَهَا وَاَحْوَالَ غَيْرِهِ مِنْ فِئَاتِ ٱلنَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتْبَةٍ يَشْرَكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ. وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةً هُمْ اَعْلَى مَنْزِلَةً مِنْهُ بِجِهَةٍ اَوْ جِهَاتٍ. وَوَجَدَ دُونَهَا طَائِفَةً هُمْ اَوْضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ اَوْ جِهَاتٍ. لِاَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْاَعْظَمَ مَثَلًا وَاِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِاَحَدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَنْزِلَةً اَعْلَى مِنْ مَنْزِلَتِهِ فَاِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعَمًا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْضُلُهُ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلْفَضْلِيَّةِ اِذْ لَيْسَ فِي اَجْزَاءِ ٱلْعَالَمِ مَا هُوَ كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْوَضِيعُ ٱلْخَامِلُ ٱلذِّكْرِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ اَشْيَاءَ لَمْ يَفُزْ بِهَا مَنْ هُوَ فَوْقَهُ. فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا. وَيَنْتَفِعُ ٱلْخَطِيبُ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلطَّبَقَاتِ ٱلثَّلَاثِ... وَنَقُولُ اَيْضًا اِنَّ اَنْفَعَ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يَسْلُكُهَا ٱلْخَطِيبُ فِي ذٰلِكَ تَأَمُّلُ اَحْوَالِ ٱلنَّاسِ وَاَعْمَالِهِمْ وَمُتَصَرَّفَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا مِمَّا سَمِعَهُ وَتَنَامَى اِلَيْهِ مِنْهَا وَاَنْ يُمْعِنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ مَحَاسِنَهَا وَمَسَاوِئَهَا وَبَيْنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ لَهُمْ مِنْهَا. ثُمَّ لِيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّمَسُّكِ بِمَحَاسِنِهَا وَحَضِّ ٱلنَّاسِ عَلَى طَلَبِهَا لِيَنَالُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّنْكِيبِ عَنْ مَسَاوِئِهَا لِيَأْمَنَ مِنْ مَضَارِّهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا مِثْلَ مَا سَلِمُوا. وَنَقُولُ اَيْضًا اِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنْ اَشْخَاصِ

ٱلنَّاس قُوَّتَيْنِ اِحْدَاهُمَا نَاطِقَةٌ وَٱلْاُخْرَى بَهِيمِيَّةٌ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا نِزَاعٌ غَالِبٌ. فَنِزَاعُ ٱلْقُوَّةِ ٱلْبَهِيمِيَّةِ نَحْوَ ٱللَّذَاتِ ٱلْعَاجِلَةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ مِثْلَ اَنْوَاعِ ٱلْغِذَاءِ وَنِزَاعُ ٱلْقُوَّةِ ٱلنُّطْقِيَّةِ نَحْوَ ٱلْاُمُورِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلْعَوَاقِبِ.. فَعَلَى كُلِّ مَنْ يَرْشُدُ ٱلْجُمْهُورَ وَيَحُضُّهُمْ عَلَى نَيْلِ ٱلْفَضَائِلِ اَنْ لَا يَتَغَافَلَ عَنْ تَحْرِيضِهِمْ عَلَى مَا هُوَ اَصْلَحُ لَهُمْ وَاَنْ لَا يُهْمِلَهُمْ فَاِنَّهُ مَتَى مَا اَهْمَلَهُمْ تَحَرَّكُوا نَحْوَ ٱلطَّرَفِ ٱلْآخَرِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْبَهِيمِيُّ. وَاِذَا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ تَشَبَّثُوا بِبَعْضٍ مِنْهُ حَتَّى اِذَا اَرَادَ رَدَّهُمْ عَمَّا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ لَحِقَهُ مِنَ ٱلنَّصَبِ اَضْعَافُ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ اِذَا لَمْ يَكُنْ اَهْمَلَهُمْ.

وَنَقُولُ اَيْضًا اِنَّ ٱلْخَطِيبَ لَا يَنْبُو فِي جَمِيعِ مُتَصَرَّفَاتِهِ مِنْ اَنْ يَلْقَى ٱلْجُمْهُورَ مَائِلًا اِلَى اَمْرٍ مَحْمُودٍ اَوْ اَمْرٍ مَذْمُومٍ. وَلَهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْاَمْرَيْنِ فَائِدَةٌ وَمَوْضِعُ رِيَاضَةٍ لِلتَّصَرُّفِ وَهُوَ اَنْ يُحَاوِلَ دَفْعَ ٱلسَّامِعِينَ اِلَى ذٰلِكَ ٱلْاَمْرِ ٱلْمَحْمُودِ ٱلَّذِي يَلْقَاهُ اِنْ وَجَدَ ٱلسَّبِيلَ اِلَى ٱلدَّفْعِ اِلَيْهِ وَيُنَبِّهَهُمْ عَلَى فَضِيلَتِهِ وَيُوجِبَ عَلَيْهِمِ ٱلتَّمَسُّكَ بِهَا مَتَى وَجَدَ ٱلْفُرْصَةَ لِذٰلِكَ. وَاِذَا يَلْقَاهُ ٱلْاَمْرُ ٱلْمَذْمُومُ فَلْيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّحْذِيرِ مِنْهُ وَٱلتَّجْنِيبِ مِنْهُ. وَاِنْ لَمْ يَجِدْ اِلَى ذٰلِكَ سَبِيلًا فَلْيُنَبِّهْهُمْ عَلَى ٱلْاِعْتِبَارِ بِمَنْ نَالَهُمْ مَضَارُّ مِثْلِهَا. فَقَدْ ظَهَرَ اَنَّ لِلْخَطِيبِ فِي جَمِيعِ اَحْوَالِهِ جُلَّهَا وَدِقَّهَا خَيْرَهَا وَشَرَّهَا مَوْضِعَ ٱلرِّيَاضَةِ لِنَفْسِهِ وَاِرْشَادِ ٱلْجُمْهُورِ. وَاِذَا تَيَقَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ يُقَدِّمَ عَلَى سِيَاسَةِ ٱلْاَحْوَالِ بِقَلْبٍ قَوِيٍّ وَنِيَّةٍ صَادِقَةٍ وَصَدْرٍ وَاسِعٍ وَثِقَةٍ اَنَّ مَا يَأْتِيهِ مِنْ ذٰلِكَ وَاِنْ قَلَّ يُجْدِي عَلَيْهِ نَفْعًا يَجُلُّ. وَنَبْدَأُ بِتَعَهُّدِ ٱلْخَطِيبِ لِلرُّؤَسَاءِ اِنَّهُ

يَجِبُ عَلَيْهِ اَنْ يَكُونَ مُلَازِمًا لِمَا هُوَ فِي صَدَدِهِ مُوَاظِبًا عَلَى مَا فُوِّضَ
اِلَيْهِ وَلَا يَخْشَى اَلْمَلَالَ وَخُصُوصًا مِنَ اَلْمُلُوكِ. وَاَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا فِي
طَلَبِ وُجُوهِ حِسَانٍ لِكُلِّ مَا يَطْلُبُهُ مِنْهُمْ اِذْ لَا شَيْءَ مِنَ اَلْاُمُورِ
فِي اَلْعَالَمِ اِلَّا وَلَهُ وَجْهَانِ اَحَدُهُمَا جَمِيلٌ وَاَلْآخَرُ قَبِيحٌ فَلْيَطْلُبْ لِكُلِّ
اَمْرٍ مِنْ اُمُورِهِ وَجْهًا جَمِيلًا يَصْرِفُهُ اِلَيْهِ وَيَتَكَلَّفُ لِذِكْرِهِ بِحَضْرَتِهِ
فَاِنَّ اَلْخَطِيبَ اَلْمُفَوَّضَ اِلَيْهِ تَدْبِيرُ ذٰلِكَ اَلرَّئِيسِ كَالسَّيْلِ اَلْمُنْحَدِرِ مِنَ
اَلرُّبْوَةِ اِنْ اَرَادَ اَلْمَرْءُ اَنْ يُوَاجِهَهُ اَهْلَكَ نَفْسَهُ وَاَتَى عَلَيْهِ اَلسَّيْلُ
فَاَغْرَقَهُ. وَاِنْ سَعَى مَعَهُ وَعَلَى جَانِبَيْهِ وَتَلَطَّفَ لِيَصْرِفَهُ اِلَى اَلنَّاحِيَةِ
بِاَنْ يَطْرَحَ فِي بَعْضِ جَوَانِبِهِ مِقْدَارًا مِنَ اَلسَّدِّ وَيَطْرُقَ لَهُ مِنَ
اَلْجَانِبِ اَلْآخَرِ لَا يَنْشَبُ اَنْ يَصْرِفَهُ اِلَى حَيْثُ شَاءَ. فَيَنْبَغِي لَهُ كَذٰلِكَ
اَنْ يَسْتَعْمِلَ مَعَ اَلرَّئِيسِ فِي صَرْفِ وَجْهِهِ عَمَّا يُرِيدُ صَرْفَهُ عَنْ اَمْرٍ
يُرِيدُ اَنْ يُجْرَى مَعَهُ فِيمَا هُوَ جَارٍ نَحْوَهُ وَلَا يُوَاجِهُهُ وَاِنْ كَانَ فِي
غَايَةِ اَلْاِنْبِسَاطِ مَعَهُ وَلَا يُقِرَّ بِمَا يُلْقِي مِنْهُ اِلَى اَلنَّاسِ مِمَّا يُسْتَقْبَحُ
فَسِيَّانِ بَيْنَ اَلْخَبَرِ وَالْاِقْرَارِ.. وَيَنْبَغِي اَنْ يَتَلَطَّفَ كُلَّ اَلتَّلَطُّفِ فِي
مِثْلِ اَلْمَنَافِعِ مِنْ جِهَةِ اَلرُّؤَسَاءِ بِاَنْ لَا يُلِحَّ فِي اَلسُّؤَالِ وَلَا يُدِيمَهُ
وَلَا يُظْهِرَ اَلطَّمَعَ وَالشَّرَهَ مِنْ نَفْسِهِ وَيَجْتَهِدَ فِي اَنْ يَطْلُبَ مِنَ
اَلرُّؤَسَاءِ اَسْبَابَ اَلْمَنَافِعِ لَا اَلْمَنَافِعَ اَنْفُسَهَا.. وَلْيَجْتَهِدْ فِي اَنْ يُظْهِرَ
فِي كُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ اَنَّهُ اِنَّمَا يَفْعَلُهُ زِينَةً وَجَمَالًا لِلرَّئِيسِ لَا
لِنَفْسِهِ وَاَنَّهُ يُرِيدُ وَجْهَ اَلصَّلَاحِ فِي خِلَافِ مَا يَأْبَاهُ وَيَذْكُرُ لَهُ فِي
اَلْوَقْتِ بَعْدَ اَلْوَقْتِ عَلَى سَبِيلِ اَلْحِكَايَاتِ عَنْ غَيْرِهِ وَاَلْحِيَلِ اَللَّطِيفَةِ

بَعْضَ مَا يَعْرِضُ مِمَّا هُوَ فِيهِ. فَإِنَّهُ مَتَى مَا اسْتَعْمَلَ هٰذِهِ الطَّرِيقَ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَعُودَ الْحَالُ بِرُادِهِ.. وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِلرُّؤَسَاءِ هِمَمًا يَنْفَرِدُونَ بِهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنَ النَّاسِ وَهِيَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي جَمِيعِ مَنْ دُونَهُمُ الْاِسْتِخْدَامَ وَالْاِسْتِعْبَادَ وَفِي أَنْفُسِهِمِ الْاِعَابَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتُونَ وَإِنَّمَا يَحْدُثُ هٰذَا بِهِمَّتِهِمْ لِكَثْرَةِ مَدْحِ النَّاسِ لَهُمْ وَإِطْرَائِهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَتَصْوِيبِهِمْ آرَاءَهُمْ

فَهٰذِهِ قَوَانِينُ يَنْتَفِعُ بِاسْتِعْمَالِهَا الْخَطِيبُ فِي مَعَاشِرِ الرُّؤَسَاءِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا الْمَرْءُ مَعَ الْأَكْفَاءِ فَسَنَذْكُرُ مِنْهَا جُمَلًا وَنَقُولُ إِنَّ الْأَكْفَاءَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَصْدِقَاءَ أَوْ أَعْدَاءَ أَوْ لَيْسُوا بِأَصْدِقَاءَ وَلَا أَعْدَاءَ. وَالْأَصْدِقَاءُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا الْأَصْفِيَاءُ الْمُخْلِصُونَ فِي الصَّدَاقَةِ فَيَنْبَغِي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يُدِيمَ مُلَاطَفَتَهُمْ وَتَعَهُّدَ أَسْبَابِهِمْ وَإِهْدَاءَ مَا يَسْتَحْسِنُهُ وَمَا يَتَيَسَّرُ لَهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وَيُحْيِيَ الْحَالُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِذٰلِكَ بِغَيْرِ أَنْ يُظْهِرَ مِنْهُ مَلَالًا أَوْ تَقْصِيرًا وَيَجْتَهِدَ فِي الْإِكْثَارِ مِنْهُمْ غَايَةَ الْجُهْدِ فَإِنَّ الصَّدِيقَ زَيْنُ الْمَرْءِ وَعَضُدُهُ وَعَوْنُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُذِيعُ فَضَائِلِهِ وَكَاتِمُ هَفَوَاتِهِ وَمُخْفِي زَلَّاتِهِ وَمَهْمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ أَكْثَرَ كَانَتْ أَحْوَالُ الْخَطِيبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَحْسَنَ وَأَقْوَمَ. وَالصِّنْفُ الْآخَرُ أَيِ الْأَصْدِقَاءُ فِي الظَّوَاهِرِ عَنْ لَا صِدْقٍ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ بَلْ بِتَشَبُّهٍ وَتَصَنُّعٍ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمُدَارَاةٍ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَلَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ وَخُصُوصًا مِنْ عُيُوبِهِ. وَلْيَجْتَهِدْ فِي اسْتِمَالَتِهِمْ وَالصَّبْرِ مَعَهُمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ

دُونَ اَخذِهِمْ بِالْبَاطِلِ وَلَا يَأْخُذَهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فَاِنَّهُ مَهْمَا عُمِلَ ذٰلِكَ يُرْجَى صَلَاحُهُمْ وَرُجُوعُهُمْ اِلَى مُرَادِهِ وَلَعَلَّهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتْبَةِ الْاَصْفِيَاءِ لَهُ . اَمَّا الْاَكْفَاءُ الْاَعْدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يَتَجَلَّدَ لَهُمْ وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلَ نِيَّاتِهِمْ . وَاَمَّا سَائِرُ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِصَدِيقٍ وَلَا عَدُوٍّ فَهُمْ طَبَقَاتٌ سَنَذْكُرُ جُلَّهَا فَمِنْهُمُ النُّصَحَاءُ الَّذِينَ يَتَبَرَّعُونَ بِالنَّصِيحَةِ فَالْوَاجِبُ اَنْ لَا يَذْكُرَ كُلَّ مَا يُنْهَى اِلَيْهِ وَيَعْزِمَ عَلَى قَبُولِهِ اَوَّلًا بِاَنْ لَا يَغْتَرَّ بِكُلِّ قَوْلٍ يَسْمَعُهُ بَلْ يَتَاَمَّلَ اَقَاوِيلَهُمْ وَيَتَعَرَّفَ اَغْرَاضَهُمْ غَايَةَ التَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعْرِفَةِ اَغْرَاضِهِمْ عَلَى حَقِيقَةِ اَقَاوِيلِهِمْ فَاِذَا لَاحَ لَهُ وَجْهُ الصَّوَابِ حَقِيقَةً بَادَرَ اِلَى اِنْفَاذِ الْاَمْرِ . وَمِنْهُمُ الصُّلَحَاءُ وَهُمْ اُنَاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِاِصْلَاحِ مَا بَيْنَ النَّاسِ فَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ اَنْ يَمْدَحَهُمْ اَبَدًا عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ وَاَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي جَمِيعِ اَحْوَالِهِ فَاِنَّ مَذَاهِبَهُمْ مَرْضِيَّةٌ عِنْدَ كُلِّ النَّاسِ وَمَهْمَا مَالَ الْخَطِيبُ اِلَيْهِمْ عُرِفَ بِالْخَيْرِ وَحُسْنِ النِّيَّةِ . وَمِنْهُمُ السُّفَهَاءُ فَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ اَنْ لَا يُؤَاتِيَهُمْ وَلَا يُقَابِلَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ اَبَدًا بِحِلْمٍ رَزِينٍ وَسُكُونٍ بَلِيغٍ لِيَاْيَسُوا مِنْ مَنَالَاتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤْذُوهُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَتَى يَلْقَوْهُ بِالْمُشَاتَمَةِ فَيَجِبُ اَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقِلَّةِ الْاِكْتِرَاثِ . وَمِنْهُمْ اَهْلُ الْكِبْرِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَيَجِبُ اَنْ يُقَابِلَهُمْ بِمِثْلِهِ لِاَنَّهُ اِنْ تَوَاضَعَ لَهُمْ اَحَسُّوا مِنْهُ بِضُعْفٍ وَتَوَهَّمُوا اَنَّ فِعْلَهُمْ ذٰلِكَ صَوَابٌ وَاَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوَاضُعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ الْمَرْءُ عَلَيْهِمْ

وَكاثرهم في الأحوالِ وتأذوا به علموا أنَّ الذنبَ في ذلكَ لهم ورجعوا إلى التواضعِ

وأمَّا الذي ينبغي للخطيبِ أنْ يستعملهُ معَ مَنْ دونهُ منَ الناسِ فإنا نصفُ منهُ ما تيسَّرَ ونقولُ : فمنهم الضعفاءُ فيجبُ أنْ يتعهدَهم بالمواساةِ ورقةِ الكلامِ بغايةِ ما أمكنهُ منْ غيرِ أنْ يخلَّ بأحوالِ نفسهِ. ومنهم المتعلمونَ فإنْ كانوا أولي طبائعَ رديئةٍ يقصدونَ العلومَ ليستعملوها في الشرورِ فعلى الخطيبِ أنْ يحملَهم على تهذيبِ الأخلاقِ ولا يعلمهم شيئاً يعلمُ أنهم يستعملونهُ فيما لا يجبُ ويجتهدُ في كشفِ ما هم عليهِ منْ رداءةِ الطبعِ ليحذرَهم منهُ. ومنهم البلداءُ الذينَ لا يُرجى ذكاؤهم وبراعتهم فينبغي أنْ يحثَّهم على ما هو أعودُ عليهم . ومنهم المتعلمونَ ذوو الأخلاقِ الطاهرةِ والطبائعِ الجيدةِ فيجبُ أنْ لا يدخرَهم شيئاً مما عندهُ منَ العلومِ.. فهذهِ أصولٌ وقوانينُ متى ما استعملها الخطيبُ في كلامهِ وقاسَ عليها في متصرفاتِ أمورهِ وأسبابهِ استقامتْ بهِ أحوالهُ ونجعَ في القومِ كلامهُ

الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

اِنَّ اَلْخُلُقَ هُوَ حَالٌ بِهِ يَفْعَلُ اَلْاِنْسَانُ اَفْعَالَهُ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا اِخْتِيَارٍ. وَاَلْخُلُقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ اَلنَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبْعًا وَفِي بَعْضِ اَلنَّاسِ لَا يَكُونُ اِلَّا بِاَلرِّيَاضَةِ وَاَلِاجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ اَلنَّاسِ بِغَيْرِ رِيَاضَةٍ وَلَا تَعَلُّمٍ كَاَلشَّجَاعَةِ وَاَلْحِلْمِ وَاَلْعِفَّةِ وَاَلْعَدْلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ اَلْاَخْلَاقِ اَلْمَحْمُودَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ اَلنَّاسِ مَنْ يُوجَدُ فِيهِمْ ذٰلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ اِلَيْهِ بِاَلرِّيَاضَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَى عَادَتِهِ وَيَجْرِي عَلَى مَسِيرَتِهِ. فَاَمَّا اَلْاَخْلَاقُ اَلْمَذْمُومَةُ فَاِنَّهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ اَلنَّاسِ كَاَلْبُخْلِ وَاَلْجُبْنِ وَاَلتَّشَرُّرِ فَاِنَّ هٰذِهِ اَلْعَادَاتِ غَالِبَةٌ عَلَى اَكْثَرِ اَلنَّاسِ مَالِكَةٌ لَهُمْ مُتَسَلِّطَةٌ عَلَيْهِمْ بَلْ قِيلَ لَا يُوجَدُ فِي اَلنَّاسِ مَنْ يَخْلُو مِنْ خُلُقٍ مَكْرُوهٍ وَيَسْلَمُ مِنْ جَمِيعِ اَلْعُيُوبِ وَلٰكِنَّهُمْ يَتَفَاضَلُونَ

فِي ذٰلِكَ كَمَا يَتَفَاضَلُونَ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ بِٱلتَّفَاضُلِ إِلَّا أَنَّ ٱلْمَجْبُولِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَٱلْمُبْغِضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. فَأَمَّا ٱلْمَجْبُولُونَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلسَّيِّئَةِ فَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ لِأَنَّ ٱلْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلشَّرُّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا ٱسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمِلِ ٱلْفِكْرَ وَلَا ٱلتَّمْيِيزَ وَلَا ٱلْحَيَاءَ وَلَا ٱلتَّحَفُّظَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ أَخْلَاقَ ٱلْبَهَائِمِ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلْبَهَائِمِ بِٱلْفِكْرِ وَٱلتَّمْيِيزِ فَقَطْ فَإِذَا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُمَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي عَادَاتِهَا وَٱلشَّهَوَاتُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهِ وَٱلْحَيَاءُ غَائِبٌ عَنْهُ وَٱلْغَضَبُ مُسْتَقِرٌّ بِهِ وَٱلسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَٱلْحِرْصُ وَٱلِٱحْتِشَادُ دَيْدَنُهُ وَٱلشَّرَهُ لَا يُفَارِقُهُ. وَإِذَا كَانَ ٱلنَّاسُ مَطْبُوعِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ ٱلدَّنِيئَةِ وَقَعَ ٱلِٱفْتِقَارُ إِلَى ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسُّنَنِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَعَظُمَ ٱلِٱنْتِفَاعُ بِٱلْمُلُوكِ ٱلْحِسَانِ ٱلسِّيرَةِ لِيَرْدَعُوا ٱلظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَمْنَعُوا ٱلْغَاصِبَ عَنْ غَصْبِهِ وَيُعَاقِبُوا ٱلْفَاجِرَ عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْمَعُوا ٱلْجَائِرَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى ٱلِٱعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ.

أَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي طِبَاعِ ٱلنَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِهَا وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا وَهُمْ أَشْرَارُ ٱلنَّاسِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجُودَةِ ٱلْفِكْرِ وَقُوَّةِ ٱلتَّمْيِيزِ عَلَى قُبْحِهَا فَيَأْنَفُ مِنْهَا وَيَتَصَنَّعُ لِٱجْتِنَابِهَا (١) وَذٰلِكَ يَكُونُ عَنْ طَبْعٍ كَرِيمٍ وَنَفْسٍ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

(١) ويروى: ويتضع لاجتنابها

اِذَا نُبِّهَ عَلَيْهِ اَحَسَّ بِقُبْحِهِ فَرُبَّمَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ اِذَا تَنَبَّهَ اِلَى مَا فِيهِ مِنَ ٱلنَّقَائِصِ اَوْ نُبِّهَ عَلَيْهَا وَرَامَ ٱلْعُدُولَ عَنْهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ وَلَوْ كَانَ مُؤْثِرًا لِلْعُدُولِ عَنْهَا مُجْتَهِدًا فِي ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ تَحْتَاجُ اَنْ تُرْشَدَ اِلَى طَرِيقِ ٱلتَّدَرُّبِ وَٱلتَّعَلُّمِ بِٱلْعَادَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ حَتَّى تَصِيرَ اِلَيْهَا عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ اِذَا تَنَبَّهَ عَلَى ٱلْاَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ اَوْ نُبِّهَ عَلَيْهَا فَلَا يَحِنُّ اِلَى تَجَنُّبِهَا وَلَا تَسْمَحُ نَفْسُهُ بِمُفَارَقَتِهَا بَلْ يُؤْثِرُ ٱلْاِصْرَارَ عَلَيْهَا مَعَ عِلْمِهِ بِرَدَاءَتِهَا وَقُبْحِهَا وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ لَيْسَ اِلَى تَهْذِيبِهَا طَرِيقٌ اِلَّا بِٱلْقَهْرِ وَٱلْعُقُوبَةِ اِنْ لَمْ يَرْدَعْهَا ٱلتَّخْوِيفُ وَٱلتَّرْهِيبُ. فَاَمَّا ٱلْاَخْلَاقُ ٱلْمَحْمُودَةُ فَاِنَّهَا وَاِنْ كَانَتْ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزِيَّةً فَلَيْسَتْ فِي جَمِيعِهِمْ فَعَلَى ٱلْبَاقِينَ اَنْ يَصِيرُوا اِلَيْهَا بِٱلتَّدَرُّبِ وَٱلرِّيَاضَةِ وَيَرْتَقُوا اِلَيْهَا بِٱلْاِعْتِيَادِ وَٱلتَّاَلُّفِ وَقَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ مَنْ لَا يَقْبَلُ طَبْعُهُ ٱلْعَادَاتِ ٱلْحَسَنَةَ وَلَا ٱلْاَخْلَاقَ ٱلْجَمِيلَةَ وَذٰلِكَ يَكُونُ لِرَدَاءَةِ جَوْهَرِهِ وَخُبْثِ عُنْصُرِهِ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْاَشْرَارِ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى صَلَاحُهُمْ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقْبَلُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَيَأْنَفُ طَبْعُهُ عَنْ بَعْضِهَا فَلَا يُعَدُّ هٰذَا شِرِّيرًا بَلْ تَكُونُ رُتْبَتُهُ فِي ٱلْخَيْرِ وَٱلتَّهْذِيبِ بِحَسَبِ مَحَاسِنِهِ

البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَمَّا اَلْاَخْلَاقُ اَلَّتِي تُعَدُّ فَضَائِلَ فَاِنَّ مِنْهَا (اَلْعِفَّةَ) وَهِيَ ضَبْطُ اَلنَّفْسِ عَنِ اَلشَّهَوَاتِ وَقَسْرُهَا عَلَى اَلْاِكْتِفَاءِ بِمَا يُقِيمُ اَوَدَ اَلْجَسَدِ وَيَحْفَظُ صِحَّتَهُ فَقَطْ وَاَجْتِنَابُ اَلسَّرَفِ وَالتَّقْصِيرِ فِي جَمِيعِ اَللَّذَّاتِ وَقَصْدِ اَلْاِعْتِدَالِ . وَاَنْ يَكُونَ مَا يُقْتَصَرُ عَلَيْهِ مِنَ اَلشَّهَوَاتِ عَلَى اَلْوَجْهِ اَلْمُسْتَحَبِّ اَلْمُتَّفَقِ عَلَى اَلِارْتِضَاءِ بِهِ وَفِي اَوْقَاتِ اَلْحَاجَةِ اَلَّتِي لَا غِنَاءَ عَنْهَا وَعَلَى اَلْقَدْرِ اَلَّذِي لَا يَحْتَاجُ اِلَى اَكْثَرَ مِنْهُ . وَهٰذِهِ اَلْحَالَةُ هِيَ غَايَةُ اَلْعِفَّةِ

(وَمِنْهَا اَيْضًا اَلْقَنَاعَةُ) وَهِيَ اَلْاِقْتِصَارُ عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ اَلْعَيْشِ وَاَلرِّضَى بِمَا تَسَهَّلَ مِنَ اَلْمَعَاشِ وَتَرْكُ اَلْحِرْصِ عَلَى اَكْتِسَابِ اَلْاَمْوَالِ وَطَلَبِ اَلْمَرَاتِبِ اَلْعَالِيَةِ مَعَ اَلرَّغْبَةِ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَاِيثَارِهِ وَاَلْمَيْلِ اِلَيْهِ وَقَهْرِ اَلنَّفْسِ عَلَى ذٰلِكَ وَاَلْقَنَعِ بِاَلْيَسِيرِ مِنْهُ . وَهٰذَا اَلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ اَوَاسِطِ اَلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ فَاَمَّا اَلْمُلُوكُ وَاَلْعُظَمَاءُ فَلَيْسَ ذٰلِكَ مُسْتَحْسَنًا مِنْهُمْ وَلَا تُعَدُّ اَلْقَنَاعَةُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ

(وَمِنْهَا اَلتَّصَوُّنُ) وَهُوَ اَلتَّحَفُّظُ مِنَ اَلتَّبَذُّلِ . فَمِنَ اَلتَّصَوُّنِ اَلتَّحَفُّظُ

مِنَ ٱلْهَزْلِ ٱلْقَبِيحِ وَمُخَالَطَةِ ٱهْلِهِ وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ وَضَبْطُ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلْفُحْشِ وَذِكْرِ ٱلْخَنَا وَٱلْمَزْحِ وَٱلتَّخْيِيفِ وَخَاصَّةً فِي ٱلْمَحَافِلِ وَمَجَالِسِ ٱلْمُحْتَشِمِينَ اِذْ لَا اٰبَهَةَ لِمَنْ يُسْرِفُ فِي ٱلْمَزْحِ وَيُفْحِشُ فِيهِ. وَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلِٱنْقِبَاضُ عَنْ اَدْنِيَاءِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ وَمُصَادَقَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَٱلتَّحَرُّزُ مِنَ ٱلْعِشْرَةِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱكْتِسَابِ ٱلْاَمْوَالِ مِنَ ٱلْوُجُوهِ ٱلْخَسِيسَةِ وَٱلتَّرَفُّعُ عَنْ طَلَبِ ٱلْحَاجَاتِ مِنْ لِئَامِ ٱلنَّاسِ وَسَفِلَتِهِمْ وَٱلتَّوَاضُعِ لِمَنْ لَا قَدْرَ لَهُ وَٱلْاِقْلَالُ مِنَ ٱلْبُرُوزِ اَعْنِي ٱلطَّوَافَ مِنْ غَيْرِ اَضْطِرَارٍ وَٱلتَّبَذُّلَ بِٱلْجُلُوسِ فِي ٱلْاَسْوَاقِ وَقَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ حَيْثُ اِنَّ ٱلْاِكْثَارَ مِنْ ذٰلِكَ لَا يَخْلُو مِنَ ٱلْعُيُوبِ فَاِنَّ اَعْظَمَ ٱلنَّاسِ قَدْرًا كَمَا قِيلَ مَنْ ظَهَرَ اَسْمُهُ وَخَفِيَ جِسْمُهُ

(وَمِنْهَا ٱلْحِلْمُ) وَهُوَ تَرْكُ ٱلِٱنْتِقَامِ عِنْدَ شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ذٰلِكَ وَهٰذَا ٱلْحَالُ مَحْمُودٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ اِلَى ثَلْمِ جَاهٍ اَوْ فَسَادِ سِيَاسَةٍ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ اَحْسَنُ لِاَنَّهُمْ اَقْدَرُ عَلَى ٱلِٱنْتِقَامِ مِنْ مُغْضِبِيهِمْ. وَلَا يُعَدُّ فَضِيلَةً حِلْمُ ٱلصَّغِيرِ عَلَى ٱلْكَبِيرِ وَاِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى مُقَابَلَتِهِ فِي ٱلْحَالِ فَاِنَّهُ وَاِنْ اَمْسَكَ عَنْهُ فَاِنَّمَا يُعَدُّ ذٰلِكَ مِنْهُ خَوْفًا لَا حِلْمًا

(وَمِنْهَا ٱلْوَقَارُ) وَهُوَ ٱلِٱمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَٱلْعَتْبِ وَكَثْرَةِ ٱلْاِشَارَةِ وَٱلْحَرَكَةِ فِيمَا يُسْتَغْنَى عَنِ ٱلتَّحَرُّكِ فِيهِ وَقِلَّةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلْاِصْغَاءِ عِنْدَ ٱلِٱسْتِفْهَامِ وَٱلتَّوَقُّفُ عِنْدَ ٱلْجَوَابِ وَٱلتَّحَفُّظُ عِنْدَ ٱلسُّرْعَةِ وَٱلْمُبَادَرَةِ فِي جَمِيعِ ٱلْاُمُورِ. وَمِنْ قَبِيلِ ٱلْوَقَارِ اَيْضًا ٱلْحَيَاءُ وَهُوَ غَضُّ ٱلطَّرْفِ وَٱلِٱنْقِبَاضُ مِنَ ٱلْكَلَامِ حِشْمَةً لِلْمُسْتَحْيَيْنَ مِنْهُ وَهٰذِهِ

ٱلعَادَةُ مَحْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ اَوْ عَجْزٍ

(وَمِنْهَا ٱلْوُدُّ) وَهُوَ ٱلْمَحَبَّةُ ٱلْمُعْتَدِلَةُ مِنْ غَيْرِ إِتِّبَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلنُّبْلِ وَذَوِي ٱلْوَقَارِ وَٱلْأُبَّهَةِ وَٱلْمُتَمَيِّزِينَ مِنَ ٱلنَّاسِ. فَأَمَّا ٱلتَّوَدُّدُ إِلَى ٱرَاذِلِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ وَاَهْلِ ٱلْخَلَاعَةِ وَمَا شَابَهَهُمْ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا. وَحُسْنُ ٱلْوُدِّ مَا نَسَجْتَهُ عَلَى مِنْوَالِ مُنَاسِبٍ لِلْفَضَائِلِ وَهُوَ اَوْثَقُ ٱلْوُدِّ وَاَثْبَتُهُ فَاَمَّا مَا كَانَ ٱبْتِدَاؤُهُ ٱجْتِمَاعًا عَلَى هَزْلٍ اَوْ طَلَبِ لَذَّةٍ وَمَا شَابَهَ ذٰلِكَ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٍ وَرُبَّمَا ٱفْضَى إِلَى ٱلشَّرِّ

(وَمِنْهَا ٱلرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلُقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوُدِّ وَٱلْجَزَعِ وَٱلرَّحْمَةُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خِلَّةٌ مَكْرُوهَةٌ إِمَّا نَقِيصَةٌ فِي نَفْسِهِ وَإِمَّا مِحْنَةٌ عَارِضَةٌ لَهُ. فَٱلرَّحْمَةُ هِيَ مَحَبَّةٌ لِلْمَرْحُومِ مَعَ جَزَعٍ مِنَ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي رُحِمَ لِأَجْلِهَا. وَهٰذِهِ ٱلْحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٌ مَا لَمْ تُخْرِجْ بِصَاحِبِهَا عَنِ ٱلْعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَهِ بِهِ إِلَى ٱلْجَوْرِ وَإِلَى فَسَادِ ٱلسِّيَاسَةِ. وَلَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ ٱلْقَاتِلِ عِنْدَ ٱلْقَوَدِ وَٱلْجَانِي عِنْدَ ٱلْقِصَاصِ

(وَمِنْهَا ٱلْوَفَاءُ) وَهُوَ ٱلصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْذُلُهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَرْهَنُ بِهِ لِسَانَهُ وَعَدَمُ ٱلْخُرُوجِ مِمَّا يَضْمَنُهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرِطًا وَلَا يُعَدُّ وَفِيًّا مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ بِوَفَائِهِ اَذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا اَضَرَّ بِهِ ٱلدُّخُولُ تَحْتَ مَا حُكِمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ اَبْلَغَ فِي ٱلْوَفَاءِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ مَنْ عُرِفَ بِٱلْوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولَ ٱلْقَوْلِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

الجاه الا ان انتفاع الملوك بهذا الخلق انفع وحاجتهم اليه اشد لانه متى عرف منهم قلة الوفاء لم يوثق بمواعيدهم ولم تتم اغراضهم ولم تسكن اليهم جندهم واعوانهم

(ومنها اداء الامانة) وهو التعفف عما يتصرف الانسان فيه من مال غيره وما يوثق به عليه من الاعراض والحرم مع القدرة عليه وردّ ما يستودع الى مودعه

(ومنها كتمان السر) وهذا الخلق مركب من الوقار واداء الامانة. فان اظهار السر من فضول الكلام. وليس بوقور من تكلم بالفضول والفضولي ناقص الشرف. فكما ان من استودع مالا فاخرجه الى غير مودعه قد حقر الامانة كذلك من استودع سرا فاخرجه الى غير صاحبه فقد حقر الامانة ايضا. وكتمان السر محمود من جميع الناس وخاصة من يصحب السلطان واولياء الامور فان اخراجه اسرارهم قبيح في نفسه يؤدي الى ضرر عظيم وبلاء جسيم

(ومنها التواضع) وهو ترك الترؤس واظهار الخمول وكراهية التعظيم والزيادة في الاكرام وان يتجنب الانسان المباهاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالمال والجاه وان يتحرز من الاعجاب والكبر. ولا يحمد التواضع الا من اكابر الناس ورؤسائهم واهل الفضل والعلم. واما ما سوى هؤلاء فلا يكونون متواضعين بالتواضع لان الضعة هي محلهم ومرتبتهم ولو كانوا غير متضعين

(وَمِنْهَا ٱلْبِشْرُ) وَهُوَ إِظْهَارُ ٱلسُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَوِدَّائِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَمَعَارِفِهِ وَٱلتَّبَسُّمُ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ لِأَنَّ ٱلْبِشْرَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُلَاةِ تَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْأَعْوَانِ وَٱلْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا إِلَيْهِمْ وَلَا يُعَدُّ سَعِيدًا مِنَ ٱلْمُلُوكِ أَوِ ٱلْوُلَاةِ مَنْ كَانَ مُبْغَضًا لِرَعِيَّتِهِ لِأَنَّ ذٰلِكَ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى فَسَادِ أَمْرِهِ وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ ٱللَّهْجَةِ) وَهُوَ ٱلْإِخْبَارُ عَنِ ٱلشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ ٱلْإِنْسَانِ إِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ ٱرْتَكَبَهَا فَإِنَّهُ لَا يَفِي حُسْنُ صِدْقِهِ بِمَا يَلْحَقُهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَارِ وَٱلْمَنْقَصَةِ ٱلْبَاقِيَةِ ٱللَّازِمَةِ. وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَحْسُنُ صِدْقُهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَجِيرٍ ٱسْتَجَارَهُ فَأَخْفَاهُ وَلَا إِنْ سُئِلَ عَنْ جِنَايَةٍ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوقِبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةً مُؤْلِمَةً. وَٱلصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ فَلَا يَسَعُهُمُ ٱلْكَذِبُ مَا لَمْ يَعُدِ ٱلصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بِضَرَرٍ

(وَمِنْهَا سَلَامَةُ ٱلنِّيَّةِ) وَهُوَ ٱعْتِقَادُ ٱلْخَيْرِ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَتَنَكُّبُ ٱلْخُبْثِ وَٱلْغِيلَةِ وَٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ يَصْلُحُ لِلْمُلُوكِ ٱلتَّخَلُّقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ ٱلْحُكْمُ إِلَّا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْحِيَلِ وَٱلِٱغْتِيَالِ مَعَ ٱلْأَعْدَاءِ وَلٰكِنْ لَا يَحْسُنُ بِهِمُ ٱسْتِعْمَالُهُ مَعَ أَخِصَّائِهِمْ وَأَصْفِيَائِهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ

(ومنها السخاء) وهو بذل المال من غير مسألة ولا استحقاق. وهذا الخلق مستحسن ما لم ينته الى السرف والتبذير فان من بذل جميع ما يملكه لمن لا يستحقه لا يسمى سخيا بل يسمى مبذرا ومضيعا. والسخاء في سائر الناس فضيلة مستحسنة واما في الملوك والاولياء فامر واجب لان البخل يؤدي الى الضرر العظيم في الاحكام. والسخاء والبذل ترتبط بهما قلوب الرعية والجند والاعوان فيعظم الانتفاع به

(ومنها الشجاعة) وهي الاقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة الى ذلك وثبات الجأش اي القلب عند المخاوف والاستهانة بالموت. وهذا الخلق مستحسن من جميع الناس وهو بالملوك واعوانهم ألبق واحسن بل ليس يستحق الملك من عدم هذه الخلة. واكثر الناس اخطارا واحوجهم الى اقتحام الغمرات هم الملوك والحكام فالشجاعة اذا من اخلاقهم الخاصة بهم

(ومنها المنافسة) وهي منازعة النفس الى التشبه بالغير فيما يراه ويرغب فيه لنفسه والاجتهاد في الترقي الى درجة اعلى من درجته. وهذا الخلق محمود اذا كانت المنافسة في الفضائل والمراتب العالية او فيما يكسب مجدا وسؤددا فاما في غير ذلك من اتباع الشهوات والمباهاة باللذات والزينة وغير ذلك فمكروه جدا

(ومنها الصبر عند الشدائد) وهذا الخلق مركب من الوقار والشجاعة وهو مستحسن جدا ما لم يكن الجزع نافعا والحزن والقلق

مُجْدِيًا وَٱلِٱجْتِهَادُ دَافِعَةَ ضَرَرِ تِلْكَ ٱلشَّدَائِدِ فَمَا ٱحْسَنَ ٱلصَّبْرَ إِذَا عَدِمَتِ ٱلْحِيلَةَ وَمَا ٱقْبَحَ ٱلْجَزَعَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مُفِيدًا

(وَمِنْهَا عِظَمُ ٱلْهِمَّةِ) وَهُوَ ٱسْتِصْغَارُ مَا دُونَ ٱلنِّهَايَةِ مِنْ مَعَالِي ٱلْأُمُورِ وَطَلَبُ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسَّامِيَةِ وَٱسْتِحْقَارُ مَا يَجُودُ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ عِنْدَ ٱلْعَطِيَّةِ وَٱلِٱسْتِخْفَافُ بِأَوَاسِطِ ٱلْأُمُورِ وَطَلَبِ ٱلْغَايَاتِ وَٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَمْلِكُهُ وَبَذْلُهُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ مِنْ غَيْرِ ٱمْتِنَانٍ وَلَا ٱعْتِدَادٍ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ وَقَدْ يَحْسُنُ بِٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَمَنْ تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ . وَمِنْ عِظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ. فَٱلْأَنَفَةُ هِيَ بُعْدُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلدَّنِيَّةِ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ مَعًا وَٱلْغَضَبُ عِنْدَ ٱلْإِحْسَاسِ بِٱلنَّقْصِ. وَتَلْحَقُ ٱلْإِنْسَانَ ٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرَمِ لِأَنَّ فِي ٱلتَّعَرُّضِ لَهُنَّ عَارًا وَمَنْقَصَةً فَإِنَّ ٱلْمُتَعَرِّضَ لِلْحَرَمِ مُهْتَضِمٌ لِصَاحِبِهَا وَمُتَصَرِّفٌ فِي غَيْرِ حَقٍّ لَهُ وَٱلِٱهْتِضَامُ نَقِيصَةٌ وَمِنْ أَعْظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ مِنْهُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلْعَدْلُ) وَهُوَ ٱلتَّقَسُّطُ ٱللَّازِمُ لِلِٱسْتِوَاءِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَوُجُوهِهَا وَمَقَادِيرِهَا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْصِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ

البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

فَأَمَّا ٱلاخْلَاقُ ٱلرَّدِيئَةُ ٱلَّتِي تُعَدُّ نَقَائِصَ وَمَعَايِبَ فَانَّ مِنْهَا ٱلْفُجُورَ وَهُوَ ٱلاِنْهِمَاكُ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلاِسْتِكْثَارُ مِنْهَا وَإِيثَارُ ٱللَّذَّاتِ وَٱلاِدْمَانُ عَلَيْهَا وَٱرْتِكَابُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِهَا وَبِٱلْجُمْلَةِ ٱلسَّرَفُ فِي جَمِيعِ ٱلشَّهَوَاتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا يَهْدِمُ ٱلْحَيَاءَ وَيَذْهَبُ بِمَاءِ ٱلْوَجْهِ وَيَخْرُقُ حِجَابَ ٱلْحِشْمَةِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّرَهُ) وَهُوَ ٱلْحِرْصُ عَلَى ٱكْتِسَابِ ٱلْاَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَطَلَبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَوْ قَبُحَ طَرِيقُ ٱكْتِسَابِهَا وَٱلْمُلَاوَشَةُ عَلَيْهَا وَٱلاِسْتِكْثَارُ مِنَ ٱلْقُنْيَةِ وَٱدِّخَارُ ٱلْاَعْرَاضِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ اِلَّا مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ فَانَّ كَثْرَةَ ٱلْاَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ وَٱلْاَعْرَاضِ تُعِينُهُمْ وَتَزِيدُهُمْ هَيْبَةً فِي نُفُوسِ رَعِيَّتِهِمْ وَاَعْوَانِهِمْ وَاَعْدَائِهِمْ وَاَضْدَادِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلتَّبَذُّلُ) وَهُوَ اِطِّرَاحُ ٱلْحِشْمَةِ وَتَرْكُ ٱلتَّحَفُّظِ وَٱلاِكْثَارُ مِنَ ٱلْهَزْلِ وَٱللَّهْوِ وَمُخَالَطَةُ ٱلسُّفَهَاءِ وَحُضُورُ مَجَالِسِ ٱلسَّخَفِ وَٱلْهَزْلِ وَٱلْفُحْشِ وَٱلتَّفَوُّهُ بِٱلْخَنَا وَذِكْرُ ٱلْاَعْرَاضِ وَٱلْمَزْحِ وَٱلْجُلُوسُ فِي ٱلْاَسْوَاقِ وَعَلَى قَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ وَٱلتَّكَسُّبُ بِٱلْمَعَايِشِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱلتَّوَاضُعُ

لِلسُّفَلَاءِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلسَّفَهُ) وَهُوَ ضِدُّ ٱلْحِلْمِ وَهُوَ سُرْعَةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلطَّيْشِ عِنْ يَسِيرِ ٱلْأُمُورِ وَٱلْمُبَادَرَةُ فِي ٱلْبَطْشِ وَٱلْإِيقَاعُ بِٱلْمُؤْذِي وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلْعُقُوبَةِ وَٱنْهِمَارُ ٱلْجَزَعِ مِنْ أَدْنَى ضَرَرٍ وَٱلسَّبُّ ٱلْفَاحِشُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّهُ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ أَقْبَحُ مِنْهُ بِغَيْرِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْخُرْقُ) وَهُوَ كَثْرَةُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْحَرَكَةُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَشِدَّةُ ٱلضَّحِكِ وَٱلْمُبَادَرَةُ إِلَى ٱلْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَسُرْعَةُ ٱلْجَوَابِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِأَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَذَوِي ٱلنَّبَاهَةِ أَقْبَحُ. وَمِنْ قَبِيلِهِ قِلَّةُ ٱلِٱحْتِشَامِ لِمَنْ يَجِبُ ٱحْتِشَامُهُ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِٱلْأَجْوِبَةِ ٱلْغَلِيظَةِ ٱلْفَظَّةِ ٱلْمُسْتَشْنَعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً بِذَوِي ٱلْوَقَارِ

(وَمِنْهَا ٱلْهَوَى) وَهُوَ إِفْرَاطُ ٱلْحُبِّ وَٱلسَّرَفُ فِيهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى ٱلْفُجُورِ وَٱرْتِكَابِ ٱلْفَوَاحِشِ وَكَثْرَةِ ٱلتَّبَذُّلِ وَقِلَّةِ ٱلْحَيَاءِ وَهُوَ يَشِينُ ٱلْإِنْسَانَ كَثِيرًا

(وَمِنْهَا ٱلْقَسَاوَةُ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْبُغْضِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ ٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَلْحَقُ ٱلْغَيْرَ مِنَ ٱلْأَلَمِ وَٱلْأَذَى. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنَ ٱلْجُنْدِ وَأَصْحَابِ ٱلسِّلَاحِ وَٱلْمُتَوَلِّينَ ٱلْحُرُوبَ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مَكْرُوهٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِهِ

(وَمِنْهَا ٱلْغَدْرُ) وَهُوَ ٱلرُّجُوعُ عَمَّا يَبْذُلُهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَضْمَنُ ٱلْوَفَاءَ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ إِنْ كَانَ لِصَاحِبِهِ. فِيهِ مَصْلَحَةٌ

ومنفعة. وهو بالملوك والحكام اقبح واضر فان من عرف منهم بالغدر لم يركن اليه احد ولم يثق به انسان فاذا كان كذلك فسد نظام ملكه

(ومنها الخيانة) وهي الاستبدال بما يؤتمن الانسان عليه من الاموال والاعراض والحرم وتملك ما يستودع وجحد احدة مودعه. ومن الخيانة ايضا طي الاخبار اذا ندب الانسان لتأديتها وتحريف الرسائل اذا حملها وصرفها عن وجهها. وهذا الخلق اعني الخيانة مكروه من جميع الناس ويثلم الجاه ويقطع وجوه المعاش

(ومنها افشاء السر) وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة فانه ليس بوقور من لم يضبط لسانه ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر به والسر احد الودائع وافشاؤه نقيصة على صاحبه فالمفشي بالسر خائن وهذا الخلق قبيح جدا وخاصة بمن يصحب الملوك واولياء الامور ويتداخل معهم. ومن قبيل افشاء السر ايضا الغيبة والنميمة وهي ان يبلغ انسان انسانا عن آخر قولا مكروها وهذا الخلق قبيح جدا ولو لم يستسر ايضا بما يسمعه او يبلغه فنقله الى من يكره قبيح لان في ذلك ايقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ عنه وذلك غاية الشرر

(ومنها الكبر) وهو استعظام الانسان نفسه واستحسان ما فيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم والترفع على ما يجب التواضع له. وهذا الخلق مكروه جدا ومضر بصاحبه لان

مَنْ اَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَزِدْ مِنِ اكْتِسَابِ الْاَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَزِدْ بَقِيَ عَلَى نَقْصِهِ اِذْ اِنَّ الْاِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ النَّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي اِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ هٰذَا الْفِعْلَ يُبْغِضُهُ عِنْدَ النَّاسِ وَمَنْ تَبْغُضُهُ النَّاسُ سَاءَتْ اَحْوَالُهُ

(وَمِنْهَا الْعُبُوسُ) وَهُوَ التَّقَطُّبُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ وَاِظْهَارُ الْكَرَاهِيَةِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْكِبْرِ وَغِلَظِ الطَّبْعِ. فَاِنَّ قِلَّةَ الْبَشَاشَةِ هِيَ اسْتِهَانَةٌ بِالنَّاسِ وَالْاِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الْاِعْجَابِ وَالْكِبْرِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ اَيْضًا خَاصَّةً عِنْدَ لِقَاءِ الْاِخْوَانِ تَكُونُ مِنْ غِلَظِ الطَّبْعِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ وَخَاصَّةً بِالرُّؤَسَاءِ وَالْاَفَاضِلِ

(وَمِنْهَا الْكَذِبُ) وَهُوَ الْاِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ اَكْثَرُ قُبْحًا لِاَنَّ الْيَسِيرَ مِنَ النَّقْصِ يَشِينُهُمْ

(وَمِنْهَا الْخُبْثُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْغَيْرِ وَاِظْهَارُ الْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً وَاسْتِعْمَالُ الْحِيَلِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا. (وَمِنْ قَبِيلِ الْخُبْثِ الْحِقْدُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْجَانِي اِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الْاِنْتِقَامِ مِنْهُ فَيُخْفِي اِلَى وَقْتِ الْفُرْصَةِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مِنْ اَخْلَاقِ الْاَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا الْبُخْلُ) وَهُوَ مَنْعُ الْمُسْتَعْطِي مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى اِعْطَائِهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكَ وَالْعُظَمَاءَ وَذٰلِكَ لِاَنَّ الْبُخْلَ يُبْغَضُ مِنْهُمْ اَكْثَرَ مِمَّا يُبْغَضُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَقْدَحُ

في حُكمِهم ويُبغضُهم إلى رعيَّتهم

(ومنها الجُبن) وهو توهُّم المخاوف وتمكينها في العقل بدون طائل وعدم الاقدام على الامور عند اللزوم والرُّغب من مواجهة ذوي الامر عند الاقتضاء. وهذا الخُلق مكروه الا انهُ بالجنود واصحاب الحروب مضرٌّ جدًّا

(ومنها الحسد) وهو التألُّم مما يراه الانسان لغيره من الخير ويجدهُ فيهِ من الفضائل والاجتهاد في اعدام الغير ما هو لهُ. وهذا الخُلق مكروه وقبيح بكل احد

(ومنها الجزع عند الشدَّة) وهذا الخُلق مُركَّب من الخرق والجُبن. وهو مُستقبَح جدًّا اذا لم يكن مُجديًا نفعًا واما اظهارهُ للحيلة عند الوقوع في الشدَّة او لاستغاثة مُغيثٍ او اجتلاب مُعينٍ للمساعدة فغير مكروهٍ ولا يُعدُّ نقيصة

(ومنها بِغر الهمَّة) وهو ضعف النفس عن طلب المراتب العاليَة وقصور الامل عن بلوغ الغايات واستكثار اليسير من الفضائل واستعظام القليل من العطايا والاعتداد بذلك والرضى باواسط الامور واصاغرها. وهذا الخُلق قبيح بكل احد وهو بالملوك والعظماء اقبح بل ليس بمستحقٍ للاعتبار من صغرت همتهُ

(ومنها الجور) وهو الخروج عن العدل في جميع الامور كاخذ الاموال من غير وجوهها الحلال والمطالبة بما لا يجب من الحقوق وفعل الاشياء في غير مواضعها ولا اوقاتها ولا على القدر

ٱلَّذي يَجِبُ لَهَا وَعَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا وَمِنْ قَبِيلِ ذٰلِكَ ٱلسَّرَفُ وَٱلتَّبْذِيرُ أَيْضًا

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(مِنْهَا حُبُّ ٱلْكَرَامَةِ) وَهُوَ أَنْ يُسَرَّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّبْجِيلِ وَٱلْمُقَابَلَةِ بِٱلْمَدْحِ وَٱلثَّنَاءِ ٱلْجَمِيلِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ فِي ٱلْأَحْدَاثِ وَٱلصِّبْيَانِ لِأَنَّ مَحَبَّةَ ٱلْكَرَامَةِ تَحُثُّهُمْ عَلَى ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْفَضَائِلِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَدَثَ وَٱلصَّبِيَّ إِذَا مُدِحَا عَلَى فَضِيلَةٍ وُجِدَتْ فِيهِمَا كَانَ ذٰلِكَ دَاعِيًا لَهُمَا إِلَى ٱلْإِزْدِيَادِ فِي ٱلْفَضَائِلِ. وَأَمَّا ٱلْأَفَاضِلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يُعَدُّ مِنْهُمْ نَقِيصَةً. لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُمْدَحُ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَغْرَبَةً مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلْفَضْلِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَرَّ أَوْ يَسْتَغْرِبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْإِكْرَامُ وَٱلتَّبْجِيلُ إِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى ٱسْتِحْقَاقِهِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى ٱلْمَلَقِ وَٱلسُّرُورُ بِٱلْمَلَقِ غَيْرُ مَحْمُودٍ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْخَدِيعَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ ٱلزِّينَةِ) وَهُوَ ٱلتَّصَنُّعُ بِلُبْسِ ٱلثِّيَابِ ٱلْفَاخِرَةِ وَرُكُوبِ ٱلْخَيْلِ وَكَثْرَةِ ٱلْخَدَمِ وَٱلْحَشَمِ وَهٰذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَٱلْأَحْدَاثِ وَٱلظُّرَفَاءِ وَٱلنِّسَاءِ. فَأَمَّا ٱلرُّهْبَانُ وَٱلزُّهَّادُ

وَالشُّيُوخُ وَاَهْلُ الْعِلْمِ وَخَاصَّةً الْخُطَبَاءُ وَالْوَاعِظُونَ وَرُؤَسَاءُ الدِّينِ فَاِنَّ التَّصَنُّعَ بِالزِّينَةِ مُسْتَقْبَحٌ مِنْهُمْ وَالْمُسْتَحْسَنُ بِهِمْ هُوَ لُبْسُ الْخَشِنِ وَكَرَاهِيَةُ التَّنَعُّمِ وَلُزُومُ بُيُوتِ الصَّلَاةِ

(وَمِنْهَا الْمُجَازَاةُ عَلَى الْمَدْحِ) وَهُوَ مُجَازَاةُ مَنْ يَمْدَحُ الْاِنْسَانَ وَيَشْكُرُهُ فِي الْمَجَالِسِ وَالْمَحَافِلِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ لِاَنَّهُ يَدْعُو الْمَادِحَ اِلَى الْاِزْدِيَادِ فِي مَدْحِهِ فَيَكْتَسِبُ الْمَمْدُوحُ ذِكْرًا جَمِيلًا يَبْقَى اِلَى الدَّهْرِ. وَمِنْ فَضَائِلِ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ بَقَاءُ ذِكْرِهِمِ الْجَمِيلِ. وَاَمَّا مَحَبَّتُهُمْ سَمَاعَ الْمَدْحِ مِنَ الْمَادِحِ مُوَاجَهَةً فَذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحَبٍّ مِنْهُمْ لِاَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْمَلَقِ وَحُبُّ الْمَلَقِ مَكْرُوهٌ لِكَوْنِهِ مِنْ قَبِيلِ الْخَدِيعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ. فَاَمَّا اِيثَارُهُمُ انْتِشَارَ ذِكْرِهِمْ وَمَدْحِهِمْ وَتَنَاوُلَ النَّاسِ لَهُ وَبَقَاؤُهُ بَعْدَهُمْ فَاِنَّهُ مَحْمُودٌ. وَمُجَازَاةُ الْمَادِحِ مُسْتَحْسَنَةٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَمَنْعُهُمْ مُسْتَقْبَحٌ وَعَارٌ عَلَيْهِمْ لِاَنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو اِلَى ذَمِّهِمْ وَذَمُّهُمْ يَبْقَى اَيْضًا اِلَى الدَّهْرِ فَيُنْشِئُ لَهُمْ ذِكْرًا قَبِيحًا وَذٰلِكَ مَكْرُوهٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ. اَمَّا اَصَاغِرُ النَّاسِ فَمَحَبَّتُهُمْ جَزَاءَ الْمَادِحِ لَهُمْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ لِاَنَّ الْمَادِحَ اِذَا مَدَحَ الدَّنِيءَ مِنَ النَّاسِ فَاِنَّمَا يَخْدَعُهُ فَاِذَا اَجَازَهُ اَعْتَقَدَ اَنَّهُ اَخَذَ مِنْهُ تِلْكَ الْجَائِزَةَ بِالْحِيلَةِ. وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ اِذَا مُدِحُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ يُبَادِرُونَ اِلَى مُجَازَاةِ الْمَادِحِ فَيَكُونُونَ قَدْ وَضَعُوا الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَلَوْ صَرَفُوا ذٰلِكَ الشَّيْءَ اِلَى الضُّعَفَاءِ وَاَهْلِ الْمَسْكَنَةِ كَانَ ذٰلِكَ اَجْمَلَ بِهِمْ وَاَلْيَقَ

(وَمِنْهَا الزُّهْدُ) وَهُوَ قِلَّةُ الرَّغْبَةِ فِي الْاَمْوَالِ وَالْاِدِّخَارِ وَغَيْرِهَا

وَإِيثَارُ ٱلْقَنَاعَةِ بِمَا يُقِيمُ ٱلرَّمَقَ وَٱلِٱسْتِخْفَافُ بِٱلدُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا وَلَذَّاتِهَا وَقِلَّةُ ٱلِٱكْتِرَاثِ بِٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَٱسْتِصْغَارُ ٱلْمُلُوكِ وَمَمَالِكِهِمْ وَأَرْبَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَأَمْوَالِهِمْ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَرُؤَسَاءِ ٱلدِّينِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْوَاعِظِينَ وَمَنْ يُرَغِّبُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَعَادِ وَٱلْبَقَاءِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ. فَأَمَّا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْعُظَمَاءُ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ مِنْهُمْ وَلَا لَائِقٌ بِهِمْ لِأَنَّ ٱلْمَلِكَ إِذَا أَظْهَرَ ٱلزُّهْدَ صَارَ نَاقِصًا إِذْ إِنَّ مُلْكَهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِٱجْتِهَادِ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَعْرَاضِ وَٱدِّخَارِهَا لِيُدَبِّرَ بِهَا مُلْكَهُ وَيَصُونَ بِوَاسِطَتِهَا حَوْزَتَهُ وَيَفْتَقِدَ بِهَا رَعِيَّتَهُ وَهٰذَا مُضَادٌّ لِلزُّهْدِ فَإِنَّهُ إِذَا تَرَكَ ٱلِٱدِّخَارَ أَبْطَلَ مُلْكَهُ وَصَارَ مَعْدُودًا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْخَائِدِينَ عَنْ طَرِيقِ ٱلسِّيَاسَةِ

فَهٰذِهِ ٱلْأَقْسَامُ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا هِيَ أَخْلَاقُ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ. أَمَّا ٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ فَضَائِلَ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي إِنْسَانٍ وَاحِدٍ وَأَمَّا ٱلْمَذْمُومَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَقَلَّمَا يُوجَدُ إِنْسَانٌ يَخْلُو مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ خُلُقٌ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً مَنْ يُرَوِّضُ نَفْسَهُ وَيُؤَدِّبُهَا. فَإِنَّ مَنْ لَا يَتَعَمَّلُ لِضَبْطِ نَفْسِهِ وَتَفَقُّدِ عُيُوبِهِ لَمْ يَخْلُ مِنْ عُيُوبٍ كَثِيرَةٍ وَإِنْ لَمْ يَحُسَّ بِهَا وَلَمْ يَفْطَنْ إِلَيْهَا. وَإِذَا كَانَ ٱلْحَالُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ كَانَ أَوْلَى ٱلْأُمُورِ بِٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَفَقَّدَ أَخْلَاقَهُ وَيَتَأَمَّلَ عُيُوبَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي إِصْلَاحِهَا وَنَفْيِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَتَّبِعَ ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْمَحْمُودَةَ وَيُحْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى أَعْتِيَادِهَا وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا لِأَنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِفَضَائِلِهِمْ

لا كما يعتقد الجهال والعامة انهم يتفاضلون باحوالهم واموالهم وكثرة ذخائرهم. وافتخار اكثر الناس بالاموال والذخائر والآلات وتعظيمهم الاغنياء وذوي الجاه ليس في محله. وذلك لان كثرة المال انما تتفاضل بها احوال الناس واما نفوسهم فلا تكون افضل من نفوس غيرهم بكثرة المال. وذلك لان الفاجر السفيه الجاهل الشرير وان حوى اموالا عظيمة فلا تكون بافضل من العفيف الحكيم الخير العالم ولو كان فقيرا بل انما يكون بكثرة امواله اغنى منه اذا كان ذاك معسرا فقيرا واما التفضيل فلا يكون الا بكثرة الفضائل فقط. ولكن ان اجتمع بالانسان مع الاخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغنى والثروة ايضا فلعمري انه يكون احسن حالا من الفاضل المعسر لان ذلك من جملة سعادات الانسان وخاصة اذا كان فاضلا عادلا عفيفا يصرف ماله في وجهه وينفقه في حقه ويتفقد به من يجب عليه ولا يتهامل في مكرمة تريد في محاسنه

اما الناقص الجاهل السيء العادات فان الغنى ربما زاده نقصا وعيوبا واضاف الى معايبه عيوبا اخرى. ولا يعد بخيلا من لا مال له وان كان البخل من طبعه لان فقره يخفي ذلك منه ومتى لم يظهر منه هذا الامر فلا يعاب عليه لان الانسان انما يعاب بما يظهر منه واما من كان ذا مال ويسار ولم يجد به ظهر بخله فيصير المال جالبا عليه عارا. وايضا فان اكثر الفجور

وَٱلْمَحْظُورَاتِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلرَّدِيئَةِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِٱلْأَمْوَالِ فَٱلْفَقِيرُ ٱلْمُعْسِرُ وَإِنْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ ذٰلِكَ مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ ذَا مَالٍ تَمَكَّنَ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَتَظْهَرُ حِينَئِذٍ عُيُوبُهُ. وَبِنَاءً عَلَيْهِ يَكُونُ ٱلْغِنَى مُكْسِبًا لِصَاحِبِهِ أَحْيَانًا عُيُوبًا وَنَقَائِصَ وَٱلْفَقْرُ فَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ. فَيُنْتَجُ مِنْ ذٰلِكَ إِذًا أَنَّ ٱلنَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةً بِٱلْأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ بَلْ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ ٱلذَّاتِيَّةِ. فَٱلْخَلِيقُ بِٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَسُوسَ نَفْسَهُ بِٱلْآدَابِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَيَسْلُكَ بِهَا ٱلطَّرِيقَ ٱلْمَحْمُودَةَ فَإِنَّهُ بِذٰلِكَ يَكُونُ مَحْبُوبًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَقْبُولًا لَدَيْهِمْ مُعَظَّمًا فِي نُفُوسِهِمْ مُفَضَّلًا عَنْ غَيْرِهِ مُوَقَّرًا عِنْدَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْمُلُوكِ مَقْبُولَ ٱلْقَوْلِ عَظِيمَ ٱلْجَاهِ

فَهٰذِهِ حَالَةُ ٱلْعَظَمَةِ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلْمُكْتَسَبَةِ بِٱلْأَمْوَالِ لِأَنَّ ٱلْمَالَ قَدْ تَلْحَقُهُ ٱلْمَصَائِبُ فَإِذَا فَارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ مِنْ نُفُوسِ ٱلنَّاسِ وَسَاوَى ٱلْعَامَّةَ وَٱلسُّوقَةَ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْمُعَظَّمَ لَهُ كَانَ مَالَهُ لَا نَفْسَهُ فَمَتَى زَالَ ذٰلِكَ ٱلْمَالُ لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ يُعَظَّمُ مِنْ أَجْلِهِ. وَلَيْسَ كَذٰلِكَ ٱلْعَالِمُ ٱلنَّفِيسُ ٱلْفَاضِلُ ٱلْمُهَذَّبُ ٱلْأَخْلَاقِ لِأَنَّ عَظَمَتَهُ بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيْرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعْتَبَرٌ دَائِمًا وَمُعَظَّمٌ مِنْ أَجْلِ ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ

البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

وَبِمَا اَنَّ ٱلرَّاغِبَ فِي سِيَاسَةِ نَفْسِهِ ٱلْمُؤْثِرَ تَهْذِيبَ اَخْلَاقِهِ اِذَا نُبِّهَ عَلَى خُلُقٍ مَذْمُومٍ وُجِدَ فِيهِ وَاَحَبَّ اجْتِنَابَهُ رُبَّمَا صَعُبَ عَلَيْهِ ٱلْاِنْتِقَالُ عَنْهُ مِنْ اَوَّلِ وَهْلَةٍ وَرُبَّمَا لَمْ يَنَلِ ٱلتَّخَلُّصَ مِنْهُ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ اَوْ رُبَّمَا اسْتَحْسَنَ اَيْضًا خُلُقًا مَحْمُودًا لَا يَجِدُهُ لِنَفْسِهِ وَاَثَرَ ٱلتَّخَلُّقَ بِهِ لَمْ تَسْمَحْ لَهُ عَادَتُهُ وَلَمْ يَصِلْ اِلَى مُرَادِهِ. لِذٰلِكَ وَجَبَ اَنْ نَرْسُمَ لِلرَّاغِبِينَ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ طُرُقًا يَتَدَبَّرُونَ بِهَا وَيَتَدَرَّجُونَ فِيهَا حَتَّى يَنْتَهُوا اِلَى مُرَادِهِمْ مِنِ اعْتِيَادِ ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلْاِنْطِبَاعِ عَلَيْهَا وَتَجَنُّبِ ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلتَّفَرُّغِ مِنْهَا وَلِهٰذَا نَذْكُرُ طَرِيقَ ٱلِارْتِيَاضِ بِٱلْاَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّعَمُّلَ لِاعْتِيَادِهَا لِكَيْ يُمْكِنَ لِلرَّاغِبِ اَنْ يَتَخَلَّقَ بِهَا فَنَقُولُ:

اِنَّهُ لَاَمْرٌ مُقَرَّرٌ اَنَّ سَبَبَ اخْتِلَافِ ٱلْاَخْلَاقِ فِي ٱلنَّاسِ هُوَ اخْتِلَافُ قُوَى ٱلنَّفْسِ ٱلثَّلَاثِ فِيهِمْ وَهِيَ ٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَٱلْغَضَبِيَّةُ وَٱلنَّاطِقَةُ وَاَنَّ اِصْلَاحَ ٱلْاَخْلَاقِ هُوَ تَذْلِيلُ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ مِنْهَا وَٱلْغَضَبِيَّةِ وَتَمْيِيزُ

(*) اعلم ان ما يقولهُ هنا لزكريا بن عدي في سياسة الانسان نفسهُ يصلح للخطيب لسياسة غيرهِ. لانهُ موكول بتحسين طباع الجمهور مفوّض اليهِ حملهم على الخير وصرفهم عن مضارّ الاهواء المنحرفة

عَادَاتِ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْمَحْمُودِ مِنْ اَفْعَالِهَا. فَطَرِيقُ ٱلتَّدَرُّجِ لِٱسْتِعْمَالِ ٱلْعَادَاتِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلْعُدُولُ عَنِ ٱلْعَادَاتِ ٱلْقَبِيحَةِ هُوَ ٱلتَّدَرُّجُ فِي تَذْلِيلِ هَاتَيْنِ ٱلْقُوَّتَيْنِ

اَمَّا ٱلنَّفْسُ ٱلشَّهْوَانِيَّةُ فَٱلطَّرِيقُ اِلَى قَمْعِهَا اَنْ يَتَذَكَّرَ ٱلْاِنْسَانُ فِي اَوْقَاتِ شَهَوَاتِهِ وَعِنْدَ شِدَّةِ ٱلْعَزْمِ اِلَى لَذَّاتِهِ اَنَّهُ يُرِيدُ تَذْلِيلَ نَفْسِهِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ فَيَعْدِلُ عَمَّا تَاقَتْ نَفْسُهُ اِلَيْهِ مِنَ ٱلشَّهْوَةِ ٱلرَّدِيئَةِ اِلَى مَا هُوَ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جِنْسِ تِلْكَ ٱلشَّهْوَةِ وَمُتَّفَقٌ عَلَى ٱرْتِضَائِهِ وَيَقْتَصِرُ عَلَيْهِ. فَاِنْ لَمْ تَنْكَسِرْ شَهَوَاتُهُ يُعَلِّلُهَا وَيَعِدُهَا فَاِنْ سَكَنَتِ ٱنْتَصَرَ وَاِلَّا عَاوَدَ ٱلْفِعْلَ مِنَ ٱلْوَجْهِ ٱلْمُسْتَحْسَنِ. فَاِنَّهُ اِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ وَكَرَّرَهُ كَفَّتِ ٱلنَّفْسُ وَاِذَا ٱسْتَمَرَّ عَلَى هٰذَا ٱلْحَالِ اَلِفَتْ هٰذِهِ ٱلْعَادَةَ وَتَاَنَّسَتْ بِهَا وَٱسْتَوْحَشَتْ مِمَّا سِوَاهَا. وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ قَمْعَ نَفْسِهِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ اَنْ يُكْثِرَ مِنْ مُجَالَسَةِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهْبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاَهْلِ ٱلْوَرَعِ وَٱلْوَاعِظِينَ وَيُلَازِمَ مَجَالِسَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَاَهْلِ ٱلْعِلْمِ فَاِنَّ هٰؤُلَاءِ وَخَاصَّةً رُؤَسَاءَ ٱلدِّينِ يُعَظِّمُونَ مَنْ كَانَ مَعْرُوفًا بِٱلْعِفَّةِ وَيَسْتَزْرُونَ مَنْ كَانَ فَاجِرًا مُنْهَمِكًا. فَمُجَالَسَتُهُ وَمُلَازَمَتُهُ لِهٰذِهِ ٱلْمَجَالِسِ تَضْطَرُّهُ اِلَى ٱلتَّصَوُّنِ وَٱلتَّعَفُّفِ وَٱلتَّجَمُّلِ لِذَوْقِهِمْ لِئَلَّا يَسْتَزْرُوهُ وَيَغْضَبُوا مِنْهُ وَيَلْحَقَ بِرُتْبَةِ مَنْ يُعَظَّمُ فِي ٱلْمَحَافِلِ وَٱلْمَجَالِسِ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَيْضًا اَنْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِي كُتُبِ ٱلْاَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَاَخْبَارِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهْبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاَهْلِ ٱلْوَرَعِ وَيَتَجَنَّبَ مَجَالِسَ ٱلْخُلَعَاءِ وَٱلسُّفَهَاءِ وَٱلْمُنْهَمِكِينَ وَمَنْ يُكْثِرُ ٱلْهَزْلَ وَٱللَّعِبَ وَحِينَئِذٍ يَلْحَقُ بِرُتْبَتِهِ وَيُعَظَّمُ فِي ٱلْمَحَافِلِ. وَاَكْثَرُ مَا

يَجِبُ لَهُ اَنْ يَتَجَنَّبَ ٱلسُّكْرَ فَاِنَّهُ مِمَّا يُثِيرُ نَفْسَهُ ٱلشَّهْوَانِيَّةَ وَيُقَوِّيهَا وَيَحْمِلُهَا عَلَى ٱلتَّهَتُّكِ وَٱرْتِكَابِ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْمُجَاهَرَةِ بِهَا . . وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ قَمْعَ نَفْسِهِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ اَنْ يُقِلَّ مِنِ ٱسْتِمَاعِ ٱلْغِنَاءِ وَخَاصَّةً مِنَ ٱلنِّسَاءِ ٱلْمُتَصَنِّعَاتِ وَٱلشُّبَّانِ ٱلظُّرَفَاءِ فَاِنَّ لِلسَّمَاعِ قُوَّةً عَظِيمَةً فِي اِثَارَةِ ٱلشَّهْوَةِ . . . اَمَّا ٱلطَّعَامُ فَيَنْبَغِي اَنْ تَعْلَمَ اَنَّ غَايَتَهُ هُوَ ٱلشِّبَعُ لِدَفْعِ اَلَمِ ٱلْجُوعِ . وَفَاخِرُ ٱلطَّعَامِ وَدَنِيئُهُ جَمِيعُهُمَا مُشْبِعَانِ فَلَيْسَ لِلْمُبَالَغَةِ فِي تَجْوِيدِ ٱلطَّعَامِ ٱلْكَثِيرِ حَظٌّ وَلَا فَائِدَةٌ . وَٱلْاَوْلَى هُوَ ٱلتَّوَسُّطُ فِي اَنْوَاعِ ٱلْمَاكِلِ وَاَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي نَشَأَ عَلَيْهِ ٱلْاِنْسَانُ وَٱعْتَادَهُ وَاَلِفَهُ . . . وَطَرِيقُ ٱلتَّدَرُّجِ اِلَى ٱلْاِقْتِصَارِ فِي ٱلطَّعَامِ هُوَ اَنْ يُبَادِرَ ذُو ٱلشَّهْوَةِ اِلَى اَيِّ شَيْءٍ وَجَدَهُ مِنَ ٱلْمَاْكَلِ فَاِنْ كَانَ ٱلْمُشْتَهَى ٱلَّذِي تَاقَتْ نَفْسُهُ اِلَيْهِ حُلْوًا فَالَا اَيَّ حَلَاوَةٍ وَجَدَهَا وَاِنْ كَانَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَالَا مَا يَشْتَهِيهِ مِنَ ٱلطَّعَامِ فَاِنَّهُ اِذَا تَنَاوَلَ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ ذٰلِكَ تَكْرَارًا وَشَبِعَ مِنْهُ سَكَنَتْ شَهْوَتُهُ وَكَفَّتْ نَفْسُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَحَبَّ ٱلْعِفَّةَ اَنْ يَكُونَ اَبَدًا مُتَيَقِّظًا ذَاكِرًا لِمَا يَلْحَقُ ٱلْفَاجِرَ وَٱلنَّهِمَ وَٱلشِّرِّيرَ وَٱلْمُتَهَتِّكَ مِنَ ٱلْقَبَاحَةِ وَٱلْعَارِ فِي ٱلدُّنْيَا جَاعِلًا ذٰلِكَ دَيْدَنَهُ وَشِعَارَهُ وَمُدَاوِمًا عَلَى ذِكْرِهِ . فَاِنَّ نَفْسَهُ حِينَئِذٍ تُبْغِضُ ٱلشَّهَوَاتِ ٱلرَّدِيئَةَ وَتَشْتَاقُ اِلَى ٱلتَّعَفُّفِ وَٱلْقَنَاعَةِ وَتَطْرَبُ عِنْدَ ٱلْعُدُولِ عَنِ ٱلْفَوَاحِشِ مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَتَرْتَاحُ لِمَا يُنْشَرُ عَنْهَا وَمَا يَبْلُغُهَا عَنِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلثَّنَاءِ ٱلْجَمِيلِ عَلَى صَاحِبِهَا . فَهٰذَا هُوَ طَرِيقُ رِيَاضَةِ ٱلنَّفْسِ

اِلَى قَهْرِ ٱلْقُوَّةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ وَتَذْلِيلِهَا وَقَمْعِهَا اَعْنِي طَرِيقَ ٱلِارْتِيَاضِ بِٱلْعَادَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلْمُرْضِيَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِٱلشَّهَوَاتِ وَٱللَّذَّاتِ ٱلدَّنِيئَةِ

فَاَمَّا ٱلنَّفْسُ ٱلْغَضَبِيَّةُ فَاِنَّ طَرِيقَ قَمْعِهَا وَتَذْلِيلِهَا هُوَ اَنْ يَصْرِفَ ٱلْاِنْسَانُ هِمَّتَهُ اِلَى تَفَقُّدِ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلَّذِينَ يُسْرِعُ اِلَيْهِمِ ٱلْغَضَبُ فِي اَوْقَاتِ طَيْشِهِمْ وَحِدَّتِهِمْ وَيُلَاحِظَ تَسَفُّهَهُمْ عَلَى اَخْصَامِهِمْ وَعُقُوبَتَهُمْ لِخَدَمِهِمْ وَعَبِيدِهِمْ فَاِنَّهُ يُشَاهِدُ اِذْ ذَاكَ مَنْظَرًا شَنِيعًا يَأْنَفُ مِنْهُ ٱلْخَاصُّ وَٱلْعَامُّ وَاَنْ يَتَذَكَّرَ فِي اَوْقَاتِ غَضَبِهِ وَعِنْدَ جِنَايَاتِ خَدَمِهِ وَعَبِيدِهِ وَوُثُوبِ اِخْوَانِهِ وَاَوِدَّائِهِ فِي جَمِيعِ مُحَاوَرَاتِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ مَا شَاهَدَهُ مِنْ اُولٰئِكَ . فَاِنَّهُ اِذَا تَفَكَّرَ فِيمَا كَانَ ٱسْتَخَفَّهُ مِنْهُمْ فَتَنْكَسِرُ بِذٰلِكَ سَوْرَةُ غَضَبِهِ وَيُخْجِمُ عَمَّا هَمَّ بِٱلْاِقْدَامِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلسَّبِّ وَٱلْوُثُوبِ فَاِنْ لَمْ يَكُفَّ بِٱلْكُلِّيَّةِ قَصَّرَ وَلَمْ يَنْتَبِهْ اِلَى غَايَةِ ٱلْفُحْشِ

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ اَنْ يَقْهَرَ نَفْسَهُ ٱلْغَضَبِيَّةَ اَنْ يَتَذَكَّرَ فِي اَوْقَاتِ غَضَبِهِ عَلَى مَنْ يُؤْذِيهِ اَوْ يَتَجَنَّى عَلَيْهِ اَنَّهُ لَوْ كَانَ هُوَ ٱلْجَانِي مَا ٱلَّذِي كَانَ يَسْتَحِقُّ اَنْ يُقَابَلَ بِهِ عَلَى جِنَايَتِهِ فَاِنَّهُ بِهٰذَا ٱلْفِعْلِ يَعْتَقِدُ اَنَّ دَرَكَ تِلْكَ ٱلْجِنَايَةِ وَذٰلِكَ ٱلْاَذَى يَسِيرٌ . جِدًّا فَاِذَا ٱعْتَقَدَ ذٰلِكَ كَانَتْ مُقَابَلَتُهُ لِلْجَانِي ٱلْمُؤْذِي بِحَسَبِ اَعْتِقَادِهِ خَفِيفَةً وَحِينَئِذٍ لَا يُسْرِفُ فِي ٱلْاِنْتِقَامِ وَلَا يُفْحِشُ فِي ٱلْغَضَبِ فَمَتَى فَعَلَ ذٰلِكَ دَائِمًا وَجَعَلَهُ دَيْدَنًا وَتَفَقَّدَ مَعَايِبَ ٱلسُّفَهَاءِ وَمَنْ يُسْرِعُ اِلَيْهِ ٱلْغَضَبُ لَمْ يُبْعِدْ اَنْ تَنْكَسِرَ نَفْسُهُ ٱلْغَضَبِيَّةُ وَتَنْقَادَ اِلَيْهِ وَاِذَا ٱسْتَمَرَّ عَلَى هٰذَا

ٱلعَمَلِ مُدَّةً صَارَ لَهُ خُلقًا وَعَادَةً

وَيَنْبَغِي لِمَنْ رَغِبَ فِي تَذْلِيلِ قُوَّتِهِ ٱلغَضَبِيَّةِ ٱنْ يَتَجَنَّبَ حَمْلَ ٱلسِّلَاحِ فِي مَجَالِسِ ٱلشَّرَابِ وَحُضُورَ مَوَاضِعِ ٱلفِتَنِ وَمَقَامَاتِ ٱلْحُرُوبِ وَفِي مُجَالَسَةِ ٱلْأَشْرَارِ وَيَتَجَنَّبَ مُعَاشَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَةَ ٱلشُّرَطِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعَ تُكْسِبُ قَسَاوَةَ ٱلقَلْبِ وَتُغْلِظُهُ وَتُعْدِمُهُ ٱلرَّأْفَةَ فَتَشْتَدُّ لِذٰلِكَ ٱلقُوَّةُ ٱلغَضَبِيَّةُ فَإِذَا أَرَادَ تَذْلِيلَهَا وَتَسْكِينَهَا يَجِبُ ٱنْ يَجْعَلَ مُجَالَسَتَهُ لِأَهْلِ ٱلْوَقَارِ وَٱلشُّيُوخِ وَٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْأَفَاضِلِ وَمَنْ يَقِلُّ غَضَبُهُ وَيَكْثُرُ حِلْمُهُ وَوَقَارُهُ

وَيَنْبَغِي لَهُ ٱنْ يَتَجَنَّبَ ٱلْمُسْكِرَ مِنَ ٱلشَّرَابِ فَإِنَّهُ يُهَيِّجُ ٱلقُوَّةَ ٱلغَضَبِيَّةَ اكْثَرَ مِمَّا يُهَيِّجُ ٱلقُوَّةَ ٱلشَّهْوَانِيَّةَ . . .

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ تَذْلِيلَ قُوَّتَيْهِ ٱلغَضَبِيَّةَ وَٱلشَّهْوَانِيَّةَ مَعًا ٱنْ يَسْتَعْمِلَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ ٱلفِكْرَ وَلَا يُقْدِمُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ ٱنْ يُرَوِّيَ فِيهِ وَيَجْعَلَ ٱلفِكْرَةَ وَٱتِّبَاعَ ٱلرَّأْيِ دَيْدَنَهُ وَعَادَتَهُ فَإِنَّ ٱلرَّأْيَ وَجُودَةَ ٱلفِكْرِ يُقَبِّحَانِ لَهُ ٱلسَّفَهَ وَسُرْعَةَ ٱلغَضَبِ وَٱلِٱنْهِمَاكَ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱتِّبَاعِ ٱللَّذَّاتِ . فَإِذَا ٱسْتَقْبَحَ ذٰلِكَ ٱحْجَمَ عَنْهُ وَعَدَلَ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلرَّأْيُ وَٱلفِكْرُ وَإِنْ لَمْ يَرْتَدِعْ بِٱلكُلِّيَّةِ لَا بُدَّ ٱنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ ذٰلِكَ فَيَقْتَصِرَ عَمَّا يُرِيدُ ٱلتَّسَرُّعَ إِلَيْهِ

وَمِلَاكُ ٱلْأَمْرِ فِي تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَضَبْطِ ٱلقُوَّةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ وَٱلقُوَّةِ ٱلغَضَبِيَّةِ هِيَ ٱلقُوَّةُ ٱلنَّاطِقَةُ فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلقُوَّةِ تَكُونُ جَمِيعُ ٱلسِّيَاسَاتِ فَإِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ صَاحِبِهَا أَمْكَنَهُ ٱنْ

يَسُوسَ بِهَا قُوَّتَيْهِ ٱلْبَاقِيَتَيْنِ وَيَكُفَّ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ ٱلْقَبَائِحِ وَيَتَّبِعَ أَبَدًا مَحَاسِنَ ٱلْأَخْلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ مَغْمُورَةً خَافِيَةً

فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخْلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ. وَتَرْوِيضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ وَدَقَّقَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَدَاوَمَ عَلَيْهَا تَيَقَّظَتْ نَفْسُهُ وَتَنَبَّهَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَٱنْتَعَشَتْ مِنْ خُمُولِهَا وَأَحَسَّتْ بِفَضَائِلِهَا وَأَنِفَتْ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ إِنَّمَا تَضْعُفُ وَتَنْحَفُ إِذَا عَدِمَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱلْمَنَاقِبَ وَٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا ٱلرَّذَائِلُ. أَمَّا إِذَا ٱقْتَنَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱكْتَسَبَتِ ٱلْآدَابَ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشْيَتِهَا وَثَارَتْ مِنْ سُكْرِهَا وَقَوِيَتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا. وَفَضَائِلُ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلْعَقْلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا فَإِذَا ٱرْتَاضَ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا شَرُفَتْ نَفْسُهُ وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكَ أَخْلَاقَهُ وَقَدَرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَٱنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهُلَ عَلَيْهِ تَهْذِيبُهُ وَأَذْعَنَتْ لَهُ ٱلْقُوَّةُ ٱلْغَضَبِيَّةُ وَٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيْهِ قَمْعُهُمَا وَتَهْذِيبُهُمَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ثُمَّ ٱلِٱرْتِيَاضُ بِعُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ فَإِنَّ أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا حَقَائِقَ ٱلْأُمُورِ وَٱطِّلَاعُهَا عَلَى هَيْئَاتِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَمَتَى شَرُفَتْ نَفْسُ ٱلْإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى مَرَاتِبِ ٱلْفَضْلِ

وَمِمَّا يُصْلِحُ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّاطِقَةَ وَيُقَوِّيهَا أَيْضًا مُجَالَسَةُ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَمُخَالَطَتُهُمْ وَٱلِٱقْتِدَاءُ بِأَخْلَاقِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخَاصَّةً أَصْحَابُ عُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْمُتَيَقِّظُونَ مِنْهُمُ ٱلْمُسْتَعْمِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ عُلُومُهُمْ وَتُوجِبُهُ عُقُولُهُمْ

أَمَّا تَمْيِيزُ عَادَاتِ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱسْتِعْمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَٱطِّرَاحُ مَا قَبُحَ فَإِنَّمَا يُمْكِنُ وَيَتَسَهَّلُ إِذَا رَاضَ ٱلْإِنْسَانُ نَفْسَهُ ٱلنَّاطِقَةَ. فَإِنَّهَا إِذَا ٱرْتَاضَتْ بِٱلْعُلُومِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ وَتَيَقَّظَتْ وَتَشَرَّفَتْ ٱنِفَتْ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمُسْتَقْبَحَةِ وَتَنَزَّهَتْ عَنِ ٱلتَّدْنِيسِ بِهَا فَيَهُونُ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ تَجَنُّبُ مَا يُسْتَكْرَهُ مِنَ ٱلْعَادَاتِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ ٱسْتِحْسَانُ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْحَمِيدَةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلتَّخَلُّقُ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ طَرِيقَ ٱلِٱرْتِيَاضِ بِٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّصَنُّعَ لِٱعْتِيَادِهَا وَٱتِّبَاعَ ٱلْمَحْمُودِ ٱلْمُرْضِي مِنْهَا وَتَرْكَ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمُسْتَقْبَحِ وَتَذْلِيلَ قُوَّةِ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ وَضَبْطَهَا وَقَهْرَهَا هُوَ إِصْلَاحُ ٱلْقُوَّةِ ٱلنَّاطِقَةِ وَتَقْوِيَتُهَا وَتَحْلِيَتُهَا بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُوَ آلَةُ ٱلسِّيَاسَةِ وَمَرْكَبُ ٱلرِّيَاضَةِ

وَمَنْ يَتَمَكَّنُ مِنِ ٱكْتِسَابِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلِٱمْعَانِ فِيهَا وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ فَلْيَبْذُلْ جُهْدَهُ فِي تَدْقِيقِ ٱلْفِكْرَةِ وَمُجَاهَدَةِ ٱلنَّفْسِ وَيُصَوِّرِ ٱلْفَرْقَ مَا بَيْنَ عَادَتِهِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلْجَمِيلَةِ وَيَنْظُرْ أَيُّهُمَا أَجْدَى عَلَيْهِ وَأَنْفَعُ وَأَيُّهُمَا أَجْدَرُ عَاقِبَةً وَأَبْقَى عَلَى ٱلْأَيَّامِ فَإِنَّهُ إِذَا صَدَقَ مَا تَأَكَّدَتْهُ نَفْسُهُ وَجَدَ أَنَّ شَهَوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ إِنَّمَا هِيَ مُدَّةُ

وَقْتِ ٱسْتِعْمَالِهَا فَقَطْ اَمَّا بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٍ لَهُ وَيَجِدُ عَارَهَا وَشَيْنَهَا بَاقِيًا اِلَى ٱلدَّهْرِ مُتَدَاوَلًا فِيمَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ يُعَابُ بِهِ وَيُزْرَى عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ فِي شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ وَٱلْاِنْسِرَاعِ اِلَى ٱلْاِنْتِقَامِ وَٱلسَّبِّ وَٱلْفُحْشِ فَمَتَى ٱنْحَلَّتْ عَمْرَتُهُ وَسَكَنَتْ ثَوْرَتُهُ تَأَمَّلَ اَمْرَهُ فَرَاَى اَنَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَجِدْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ مَا فَعَلَهُ وَقْتَ ٱلْغَضَبِ نَقِيصَةً يُوسَمُ بِهَا وَمَعَيَّرَةً يُسَبُّ عَلَيْهَا. وَرُبَّمَا ٱرْتَكَبَ حَالَ ٱلْغَضَبِ جِنَايَاتٍ كَثِيرَةً يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُؤَدَّبُ مِنْ اَجْلِهَا. كَذٰلِكَ ٱلْعَادَاتُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ هِيَ اَيْضًا غَيْرُ نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْاِنْسَانِ نَفْعًا كَٱلْحَسَدِ مَثَلًا وَٱلْحِقْدِ وَٱلْخُبْثِ وَاَمْثَالِ هٰذِهِ اِذْ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَاِنِ ٱنْتَفَعَ كَانَ شَرَّ مَنْفَعَةٍ وَمَعَ ذٰلِكَ فَهِيَ مُضِرَّةٌ لَهُ لِاَنَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصَدَهُ ٱلنَّاسُ بِٱلشَّرِّ وَٱسْتَعَدُّوا لِاَذِيَّتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْاِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَٱحْتَرَزُوا مِنْهُ وَكَرِهُوا نَفْعَهُ وَقَصَّرُوا عَلَيْهِ وُجُوهَ ٱلْخَيْرِ.. فَاِذَا حَاسَبَ ٱلْاِنْسَانُ نَفْسَهُ وَاَجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمْيِيزَهُ عَلِمَ اَنَّ ٱلضَّرَرَ فِي مَسَاوِئِ ٱلْاَخْلَاقِ اَكْثَرُ مِنَ ٱلنَّفْعِ بِهَا وَاَنَّ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَاِذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جِدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَمِرٌّ وَاِنَّ هٰذَا ٱلْيَسِيرَ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ نَفْعًا لَا يَفِي بِٱلضَّرَرِ ٱلْكَثِيرِ وَٱلْعَارِ ٱلدَّائِمِ ٱلْمُتَّصِلِ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ سِيَاسَةَ اَخْلَاقِهِ اَنْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنِهَايَتَهَا وَلَا يَقْنَعَ مِنْهَا بِمَا دُونَ ٱلْغَايَةِ وَلَا يَرْضَى اِلَّا

بِأَعْلَى دَرَجَةٍ فَإِنَّهُ إِذَا جَعَلَ ذٰلِكَ غَرَضَهُ كَانَ حَرِيًّا أَنْ يَتَوَسَّطَ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَيَبْلُغَ فِيهَا رُتْبَةً مُرْضِيَةً إِنْ فَاتَتْهُ ٱلدَّرَجَةُ ٱلْعُلْيَا وَأَمَّا إِنْ قَنِعَ بِٱلتَّوَسُّطِ يَا مَنْ أَنْ يُقَصِّرَ عَنْ بُلُوغِهِ فَيَبْقَى فِي أَدْنَى ٱلْمَرَاتِبِ وَيَفُوتُهُ ٱلْمَطْلُوبُ وَلَا يَطْمَعُ أَبَدًا فِي ٱلتَّمَامِ.

فَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ طَرِيقُ ٱلِٱرْتِيَاضِ بِمَكَارِمِ ٱلْأَخْلَاقِ وَمَنْهَجُ ٱلتَّدَرُّجِ فِي مَحْمُودِهَا وَكَيْفِيَّةِ تَهْذِيبِهَا فَإِذَا أَخَذَ ٱلْإِنْسَانُ بِتَدْرِيبِ نَفْسِهِ بِهِ وَأَكْثَرَ مِنْ مُرَاعَاتِهِ وَتَعَهُّدِهِ صَارَتْ لَهُ ٱلْفَضَائِلُ دَيْدَنًا وَٱلْمَحَاسِنُ خُلُقًا وَطَبْعًا

هٰذَا وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَذْكُرَ أَوْصَافَ ٱلْإِنْسَانِ ٱلتَّامِّ ٱلْجَامِعِ لِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ... فَنَقُولُ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلتَّامَّ هُوَ ٱلَّذِي لَمْ تَفُتْهُ فَضِيلَةٌ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَلَمْ تَشِنْهُ رَذِيلَةٌ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ وَهٰذَا ٱلْحَدُّ قَلَّمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ إِنْسَانٌ وَإِذَا ٱنْتَهَى إِلَيْهِ أَفْتِرَاضًا كَانَ أَشْبَهَ مِنْهُ بِٱلنَّاسِ. وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مَضْرُوبٌ بِأَنْوَاعِ ٱلنَّقْصِ مُسْتَوْلٍ عَلَى طَبْعِهِ ضُرُوبُ ٱلشَّرِّ وَبِنَاءً عَلَى ذٰلِكَ فَقَلَّمَا يَخْلُصُ مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى تَسْلَمَ نَفْسُهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَمَنْقَصَةٍ وَتُحِيطَ بِهِ كُلُّ فَضِيلَةٍ وَمَنْقَبَةٍ حَسَنَةٍ فَٱلتَّمَامُ وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا بَعِيدَ ٱلتَّنَاوُلِ إِلَّا أَنَّهُ مُمْكِنٌ وَهُوَ غَايَةُ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ فَإِذَا صَدَقَتْ عَزِيمَتُهُ وَأَعْطَى ٱلِٱجْتِهَادَ حَقَّهُ كَانَ مُمْكِنًا لَهُ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى ٱلْغَايَةِ ٱلْمَقْصُودَةِ ٱلْمُتَهَيِّءِ هُوَ لَهَا بِتِلْكَ ٱلَّتِي تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَيْهَا

أَمَّا تَفْصِيلُ ذٰلِكَ هُوَ أَنْ يَكُونَ مُتَفَقِّدًا لِجَمِيعِ أَخْلَاقِهِ مُتَيَقِّظًا

لِسَائِرِ مَعَايِبِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ ٱلْكَمَالِ مُسْتَلِذًّا بِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ مُتَيَقِّظًا لِمَذْمُومِ ٱلْعَادَاتِ مُعْتَنِيًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ لِمَا يَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ مُسْتَعْظِمًا لِلْيَسِيرِ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ مُسْتَصْغِرًا لِلرُّتْبَةِ ٱلْعُلْيَا مُسْتَحْقِرًا لِلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى يَرَى ٱلتَّمَامَ دُونَ مَحَلِّهِ وَٱلْكَمَالَ اَقَلَّ اَوْصَافِهِ . .

فَمَا اَوْلَى مَنْ نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا وَتَدَبَّرَهَا وَاَخَذَ نَفْسَهُ بِٱسْتِعْمَالِ مَا تَبَيَّنَ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ اَخْلَاقَهُ عَلَى ٱلتَّطَرُّقِ اِلَى مَا فُتِنَ فِي اَبْوَابِهِ وَاَجْتَهَدَ كُلَّ ٱلِاجْتِهَادِ فِي تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وَاَسْتَفْرَغَ غَايَةَ ٱلْوُسْعِ فِي طَلَبِ ٱلتَّمَامِ . وَمَا اَقْبَحَ ٱلنَّقْصَ بِٱلْقَدْرِ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَٱلْعَجْزَ عَنِ ٱلْمُقْتَدِرِ

الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الاوّل

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري بتصرّف

(راجع صفحة ٧٧ من علم الخطابة)

قَالَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ : ٱمَعَاشِرَ ٱلْكُتَّابِ ٱحْسِنُوا ٱلْاِبْتِدَاءَاتِ فَاِنَّهُنَّ دَلَائِلُ ٱلْبَيَانِ . وَذٰلِكَ اَنْ يَجْعَلَ ٱلْخَطِيبُ فَاتِحَةَ كَلَامِهِ وَاَوَّلَهُ دَلِيلًا عَلَى ٱلْمَقْصُودِ ٱلَّذِي دَعَاهُ لِاِلْقَائِهِ فَيَنْظُرَ اِلَى ٱلْغَرَضِ ٱلْمَطْلُوبِ فَيَجْعَلَ ٱلتَّحْمِيدَ اَوِ ٱلدُّعَاءَ اَوِ ٱلتَّضْمِينَ مُشْعِرًا بِذٰلِكَ فَاِنَّهُ مِنْ اَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْبَلَاغَةِ وَاِنَّمَا خُصَّتِ ٱلْاِبْتِدَاءَاتُ بِٱلْاِخْتِيَارِ لِاَنَّهَا اَوَّلُ مَا يَطْرُقُ ٱلسَّمْعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَاِذَا كَانَ ٱلْاِبْتِدَاءُ مُؤْنِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا لَائِقًا بِٱلْمَعْنَى ٱلْوَارِدِ بَعْدَهُ تَوَفَّرَتِ ٱلدَّوَاعِي لِٱسْتِمَاعِ مَا يَجِيءُ بَعْدَهُ فَيَقَعُ اَسْمَاعَهُمْ شَيْءٌ بَدِيعٌ لَيْسَ لَهُمْ بِمِثْلِهِ عَهْدٌ فَيَرْغَبُونَ اَنْ يَسْتَمِعُوا مَا بَعْدَهُ لِفَهْمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ ٱلْكُتَّابُ وَٱلْوَاعِظُونَ اَكْثَرَ ٱلْاِبْتِدَاءَاتِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ لِاَنَّ ٱلنَّفْسَ تَتَشَوَّقُ لِلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

اِلَى ٱلاِسْتِمَاعِ. وَقَدْ قِيلَ: كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْتَدَأُ فِيهِ بِٱلْحَمْدَلَةِ فَهُوَ اَبْتَرُ. وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلْبَابِ اَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْخُطَبِ اَوِ ٱلرَّسَائِلِ اَوِ ٱلشِّعْرِ دَالًّا عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ. اِنْ فَتْحًا فَفَتْحًا وَاِنْ كَانَ هَنَاءً فَهَنَاءً اَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَزَاءً وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي. وَفَائِدَتُهُ اَنْ يُعْرَفَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ بِهِ وَيَسْتَفْتِحَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اَبْوَابَ ٱلْاَسْمَاعِ وَيَسْتَحْضِرَ ٱلْاَذْهَانَ لِلِاسْتِمَاعِ. وَهٰذَا ٱلشَّعْبُ عَظِيمُ ٱلنَّفْعِ لِمَنْ حَقَّقَهُ وَلَا يُفْتَحُ بَابُهُ اِلَّا لِمَنْ طَرَقَهُ وَقَدْ يُسَمَّى اَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِبَرَاعَةِ ٱلْاِسْتِهْلَالِ وَسَيَأْتِي عَنْهُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْمَجْمُوعِ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَنِ ٱلشِّعْرِ

البحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكليات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْقَضِيَّةُ قَوْلٌ يَصِحُّ اَنْ يُقَالَ لِقَائِلِهِ اِنَّهُ صَادِقٌ فِيهِ اَوْ كَاذِبٌ وَهِيَ مَجْمُوعُ ٱلْمَعْلُومَاتِ ٱلْاَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ وَٱلنِّسْبَةُ ٱلْحُكْمِيَّةُ وَٱلْحُكْمُ وَاِدْرَاكُ هٰذِهِ ٱلْاَرْبَعَةِ تَصْدِيقٌ. وَٱلْقَضِيَّةُ اِمَّا حَمْلِيَّةٌ وَاِمَّا شَرْطِيَّةٌ. قَالُوا: اِنْ كَانَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ قَضِيَّتَيْنِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ اَيْ عِنْدَ حَذْفِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلنِّسْبَةِ

ٱلْحِكْمِيَّةِ سُمِّيَتْ شَرْطِيَّةً وَإِلَّا سُمِّيَتْ حَمْلِيَّةً. فَإِنَّ قَوْلَنَا مَثَلًا: (زَيْدٌ نَائِمٌ). قَضِيَّةٌ حَمْلِيَّةٌ. لِأَنَّ طَرَفَيْهَا مُفْرَدَانِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ وَيُسَمَّى ٱلطَّرَفُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْحَمْلِيَّةِ وَهُوَ ٱلْمُخْبَرُ عَنْهُ مَوْضُوعًا وَٱلثَّانِي مَحْمُولًا. وَقَوْلَنَا: (إِنْ كَانَتِ ٱلشَّمْسُ طَالِعَةً فَٱلنَّهَارُ مَوْجُودٌ) قَضِيَّةٌ شَرْطِيَّةٌ. لِأَنَّهُ إِذَا حَذَفْنَا (إِنْ وَٱلْفَاءَ) ٱلْمُوجِبَتَيْنِ لِلرَّبْطِ بَقِيَ: (ٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ) (وَٱلنَّهَارُ مَوْجُودٌ) وَهُمَا قَضِيَّتَانِ. وَٱلْقَضِيَّةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ إِمَّا شَخْصِيَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا جُزْئِيًّا مُعَيَّنًا كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَاتِبٌ. وَإِمَّا كُلِّيَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا كُلِّيًّا يَشْمَلُ جَمِيعَ أَفْرَادِ ٱلْمَوْضُوعِ. وَتَكُونُ كِلَاهُمَا إِمَّا مُوجِبَةً وَإِمَّا سَالِبَةً. وَإِنَّمَا يُحْكَمُ فِي ٱلْقَضِيَّةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ عَلَى ٱلتَّعْلِيقِ وَهُوَ وُجُودُ إِحْدَى قَضِيَّتَيْهَا مُعَلَّقٌ عَلَى وُجُودِ ٱلْأُخْرَى أَوْ عَلَى نَفْيِهَا وَهِيَ قِسْمَانِ مُتَّصِلَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِلُزُومِ قَضِيَّةٍ أُخْرَى أَوْ لَا لُزُومِهَا وَهِيَ ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلتَّلَازُمَ بَيْنَ جُزْئَيْهَا نَحْوُ: لَوْ كَانَ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ آلِهَةٌ إِلَّا ٱللهُ لَفَسَدَتَا. وَمُنْفَصِلَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِٱمْتِنَاعِ ٱجْتِمَاعِ قَضِيَّتَيْنِ فَأَكْثَرَ فِي ٱلصِّدْقِ وَهِيَ ٱلَّتِي جُزْءَاهَا مُتَعَانِدَانِ نَحْوُ: ٱلْعَالَمُ إِمَّا قَدِيمٌ أَوْ حَادِثٌ. وَيُسَمَّى ٱلطَّرَفُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ مُقَدَّمًا وَٱلثَّانِي تَالِيًا. وَلَا بُدَّ مِنْ رَابِطٍ بَيْنَ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمَحْمُولِ

وَلِلْقَضِيَّةِ أَقْسَامٌ غَيْرُ هٰذِهِ مِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلْبَسِيطَةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي حَقِيقَتُهَا أَوْ مَعْنَاهَا إِمَّا إِيجَابٌ فَقَطْ نَحْوُ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ بِٱلضَّرُورَةِ.

وَاِمَّا سَلْبٌ فَقَطْ نَحْوُ : لَا شَيْءٌ مِنَ ٱلْاِنْسَانِ بِحَجَرٍ بِٱلضَّرُورَةِ . وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلْمُرَكَّبَةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي حَقِيقَتُهَا مُلْتَئِمَةٌ مِنْ اِيجَابٍ وَسَلْبٍ مَعًا نَحْوُ : كُلُّ اِنْسَانٍ ضَاحِكٌ لَا دَائِمًا . وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلنَّظَرِيَّةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا وَيُطْلَبُ بِٱلدَّلِيلِ اِثْبَاتُهَا فِي ٱلْعِلْمِ . فَهِيَ مِنْ حَيْثُ اَنَّهَا يُسْأَلُ عَنْهَا تُسَمَّى مَسْأَلَةً . وَمِنْ حَيْثُ يُطْلَبُ حُصُولُهَا مَطْلَبًا . وَمِنْ حَيْثُ تُسْتَخْرَجُ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ نَتِيجَةً . وَمِنْ حَيْثُ يُبْتَنَى عَلَيْهَا ٱلشَّيْءُ اُصُولًا . وَمِنْ حَيْثُ اَنَّهَا مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَوْضُوعَةٍ تَتَعَرَّفُ اَحْكَامُهَا مِنْهَا قَاعِدَةً . وَمِنْ حَيْثُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا ٱلْحُجَّةُ مُقَدَّمَةً وَقَضِيَّةً . وَمِنْ حَيْثُ تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ خَبَرًا

البحث الثالث

في القياس واقسامهِ وانواعهِ

(من كتاب النجاة لابن سينا والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وَاَمَّا ٱلْقِيَاسُ فَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا اِذَا وُضِعَتْ لَزِمَ عَنْهَا بِذَاتِهَا لَا بِٱلْعَرَضِ قَوْلٌ آخَرُ اَضْطِرَارًا كَقَوْلِنَا : ٱلْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ وَكُلُّ مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ فَاِنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضِيَّتَيْنِ وَلَزِمَ عَنْهُمَا اَنَّ ٱلْعَالَمَ حَادِثٌ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْعَقْلِيُّ وَٱلْمَنْطِقِيُّ . وَٱلْقَوْلُ ٱلْآخَرُ يُسَمَّى مَطْلُوبًا قَبْلَ اِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ عَلَيْهِ . وَنَتِيجَةً بَعْدَ تَرْكِيبِ ٱلْقِيَاسِ لَهُ وَاِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ

عَلَيْهِ وَيُسَمَّى بِالرِّدْفِ اَيْضًا. وَمَوْضُوعُ النَّتِيجَةِ هُوَ الْحَدُّ الْاَصْغَرُ وَالْمَحْكُومُ فِيهَا هُوَ الْحَدُّ الْاَكْبَرُ. وَمَا كُرِّرَ فِي الْقَضِيَّتَيْنِ الْاُولَيَيْنِ يُسَمَّى حَدًّا اَوْسَطَ. وَيَدْعُونَ الْقَضِيَّةَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْحَدِّ الْاَكْبَرِ مُقَدَّمَةً كُبْرَى وَالْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الْحَدِّ الْاَصْغَرِ مُقَدَّمَةً صُغْرَى. وَمَجْمُوعُ الْمُقَدَّمَةِ الصُّغْرَى بِالْكُبْرَى فِي الْقِيَاسِ يُعْرَفُ بِالضَّرْبِ. وَنِسْبَةُ الْحَدِّ الْاَوْسَطِ اِلَى الْاَصْغَرِ وَالْاَكْبَرِ هُوَ الشَّكْلُ. وَاَشْكَالُ الْقِيَاسِ اَرْبَعَةٌ لِاَنَّ الْاَوْسَطَ اِنْ كَانَ مَحْمُولًا فِي الصُّغْرَى مَوْضُوعًا فِي الْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ الْاَوَّلُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ. وَشَرْطُ اِنْتَاجِ هٰذَا الشَّكْلِ اِيجَابُ الصُّغْرَى وَكُلِّيَّةُ الْكُبْرَى وَهُوَ يَخْتَصُّ بِاَنَّهُ يُنْتِجُ الْمُوجَبَةَ الْكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي الْاَشْكَالِ لَا يُنْتِجُ الْمُوجَبَةَ الْكُلِّيَّةَ بَلْ اِمَّا مُوجَبَةٌ جُزْئِيَّةٌ اَوْ سَالِبَةٌ. وَاِنْ كَانَ الْحَدُّ الْاَوْسَطُ مَحْمُولًا فِي الصُّغْرَى وَالْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ الثَّانِي) كَقَوْلِكَ: كُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ الْجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ الْجَمَادِ بِاِنْسَانٍ. وَكَقَوْلِ الْبَعْضِ: كُلُّ غَائِبٍ مَجْهُولُ الصِّفَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيْعُهُ لَيْسَ بِمَجْهُولِ الصِّفَةِ فَالنَّتِيجَةُ كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيْعُهُ. وَشَرْطُ اِنْتَاجِهِ اخْتِلَافُ مُقَدَّمَتَيْهِ فِي الْاِيجَابِ وَالسَّلْبِ وَكُلِّيَّةُ كُبْرَاهُ وَمِنْ خَوَاصِّهِ اَنَّهُ لَا يُنْتِجُ اِلَّا سَالِبَةً. وَاِنْ كَانَ الْاَوْسَطُ مَوْضُوعًا فِي الصُّغْرَى وَالْكُبْرَى فَهُوَ (الشَّكْلُ الثَّالِثُ) نَحْوَ كُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ اِنْسَانٍ نَاطِقٌ فَبَعْضُ الْحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرْطُ اِنْتَاجِهِ اَنْ تَكُونَ صُغْرَاهُ مُوجَبَةً

وَاَنْ تَكُونَ اِحْدَى مُقَدَّمَتَيْهِ كُلِّيَّةً وَمِنْ خَوَاصِّهِ اَنَّ نَتِيجَتَهُ لَا تَكُونُ اِلَّا جُزْئِيَّةً. وَاِنْ كَانَ اَلْحَدُّ اَلْاَوْسَطُ عَكْسَ اَلْاَوَّلِ بِاَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا فِي اَلصُّغْرَى مَحْمُولًا فِي اَلْكُبْرَى فَهُوَ (اَلشَّكْلُ اَلرَّابِعُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ اِنْسَانٌ فَبَعْضُ اَلْحَيَوَانِ نَاطِقٌ

وَاَلْقِيَاسُ يُقْسَمُ اِلَى كَامِلٍ وَغَيْرِ كَامِلٍ فَاَلْقِيَاسُ اَلْكَامِلُ هُوَ اَلْقِيَاسُ اَلَّذِي يَكُونُ لُزُومُ مَا يَلْزَمُ عَنْهُ بَيِّنًا عِنْدَ وَضْعِهِ فَلَا يَحْتَاجُ اَنْ نُبَيِّنَ اَنَّ ذٰلِكَ لَازِمٌ عَنْهُ. وَاَلْغَيْرُ اَلْكَامِلُ هُوَ اَلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلٰكِنْ لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي اَوَّلِ اَلْاَمْرِ اَنَّ ذٰلِكَ يَلْزَمُ عَنْهُ. بَلْ اِذَا اُرِيدَ اَنْ نُبَيِّنَ ذٰلِكَ بُيِّنَ بِشَيْءٍ آخَرَ لٰكِنَّهُ غَيْرُ خَارِجٍ مِنْ جُمْلَةِ مَا قِيلَ بَلْ اِمَّا نَقِيضُ مَا قِيلَ اَوْ عَكْسُهُ تَغْيِيرُ شَيْءٍ مِنْهُ وَاَقْتِرَاضُهُ. وَاَلْقِيَاسُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ لَيْسَ هُوَ وَلَا نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِاَلْفِعْلِ بِوَجْهٍ بَلْ بِاَلْقُوَّةِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا اَقْتِرَانِيًّا كَقَوْلِكَ: كُلُّ جِسْمٍ مُؤَلَّفٌ وَكُلُّ مُؤَلَّفٍ مُحْدَثٌ سُمِّيَ بِهِ لِاَقْتِرَانِ اَلْحُدُودِ فِيهِ. وَاِمَّا اَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ هُوَ اَوْ نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِاَلْفِعْلِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا اَسْتِثْنَائِيًّا كَقَوْلِكَ: اِنْ كَانَتِ اَلنَّفْسُ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لٰكِنْ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا

البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسيّة والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وَلِاَقْسَامِ ٱلْقِيَاسِ مُلْحَقَاتٌ اُخَرُ يُقْسَمُ اِلَيْهَا. (اَوَّلُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُرَكَّبُ وَهُوَ قِيَاسٌ رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يُنْتِجُ مُقَدَّمَتَانِ مِنْهَا نَتِيجَةً وَهِيَ مَعَ ٱلْمُقَدَّمَةِ ٱلْاُخْرَى نَتِيجَةٌ اُخْرَى وَلَا تَزَالُ تَنَاتِجُ بَعْضِهَا مُقَدَّمَاتٍ لِبَعْضٍ اِلَى اَنْ يَحْصُلَ ٱلْمَطْلُوبُ. فَاِنْ صُرِّحَ بِنَتَائِجِ تِلْكَ ٱلْاَقْيِسَةِ سُمِّيَ مَوْصُولَ ٱلنَّتَائِجِ لِوَصْلِ تِلْكَ ٱلنَّتَائِجِ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ كَقَوْلِكَ: كُلُّ كَاتِبٍ اِنْسَانٌ وَكُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ حَيَوَانٌ. وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ فَكُلُّ كَاتِبٍ ذُو حِسٍّ. وَكُلُّ ذُو حِسٍّ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ. وَاِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِنَتَائِجِ تِلْكَ ٱلْاَقْيِسَةِ سُمِّيَ مَفْصُولَ ٱلنَّتَائِجِ وَمَطْوِيًّا كَقَوْلِكَ: كُلُّ كَاتِبٍ اِنْسَانٌ. وَكُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ. وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ. وَكُلُّ ذِي حِسٍّ نَامٍ. وَكُلُّ نَامٍ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ. (وَٱلثَّانِي) قِيَاسُ ٱلْخُلْفِ. وَهُوَ قِيَاسٌ ٱسْتِثْنَائِيٌّ يُقْصَدُ فِيهِ اِثْبَاتُ ٱلْمَطْلُوبِ بِاِبْطَالِ نَقِيضِهِ كَمَا اِذَا قِيلَ كُلُّ نَبَاتٍ نَامٍ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلْجَمَادِ بِنَامٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ. فَيُقَالُ لَوْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمَطْلُوبُ حَقًّا اَيْ لَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ لَصَدَقَ نَقِيضُهُ اَيْ بَعْضُ ٱلنَّبَاتِ جَمَادٌ. لٰكِنْ لَوْ كَانَ هٰذَا

ٱلنَّقِيضُ حَقًّا لَمَّا صَدَقَ كَوْنُ كُلِّ نَبَاتٍ نَامِيًا. وَقَدْ سُمِّيَ هٰذَا ٱلْقِيَاسُ خُلْفًا لِأَنَّ ٱلْمُتَمَسَّكَ بِهِ يُثْبِتُ مَطْلُوبَهُ مِنْ خَلْفِهِ أَيْ مِنْ وَرَائِهِ. (وَٱلثَّالِثُ) قِيَاسُ ٱلِٱسْتِقْرَاءِ وَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ ٱلْحُكْمِ ٱلْكُلِّيِّ. وَيُحَدُّ أَيْضًا ٱلْحُكْمُ عَلَى كُلِّيٍّ لِوُجُودِهِ فِي أَكْثَرِ جُزْئِيَّاتِهِ وَقِيلَ أَيْضًا: هُوَ تَصَفُّحُ ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ حُكْمِ كُلِّيٍّ ثُمَّ ٱلِٱسْتِقْرَاءُ قِسْمَانِ (تَامٌّ) وَيُسَمَّى قِيَاسًا مُقَسِّمًا وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِجَمِيعِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَلِيلُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ كَمَا يُقَالُ: كُلُّ جِسْمٍ إِمَّا حَيَوَانٌ أَوْ نَبَاتٌ أَوْ جَمَادٌ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَحَيِّزٌ فَيُنْتَجُ أَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ. (وَنَاقِصٌ) وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِأَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ فَقَطْ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَسِيمُ ٱلْقِيَاسِ وَلِذَا عَدُّوهُ مِنْ لَوَاحِقِ ٱلْقِيَاسِ وَتَوَابِعِهِ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ كَقَوْلِنَا: كُلُّ حَيَوَانٍ يَتَحَرَّكُ فَكُّهُ ٱلْأَسْفَلُ عِنْدَ ٱلْمَضْغِ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ وَٱلْفَرَسَ وَٱلْحِمَارَ وَٱلْبَقَرَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا تَتَبَّعْنَاهُ كَذٰلِكَ. فَإِنَّهُ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ بِجَوَازِ ٱلتَّخَلُّفِ كَمَا فِي ٱلتِّمْسَاحِ. (وَٱلرَّابِعُ) قِيَاسُ ٱلتَّمْثِيلِ وَهُوَ إِثْبَاتُ حُكْمٍ فِي جُزْئِيٍّ لِثُبُوتِهِ فِي جُزْئِيٍّ آخَرَ لِمَعْنًى مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا مُؤَثِّرٍ فِي ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ كَقَوْلِكَ: ٱلْعَالَمُ مُؤَلَّفٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ كَٱلْمَدِينَةِ لِأَنَّ كُلَّيْهِمَا مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزَاءٍ وَهُوَ يُقْسَمُ إِلَى تَمْثِيلٍ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ وَإِلَى غَيْرِ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ

أَمَّا أَنْوَاعُ ٱلْقِيَاسِ فَخَمْسَةٌ. (أَحَدُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْبُرْهَانِيُّ وَهُوَ

مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ اِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلُ الْعِلْمِ . (وَالثَّانِي) الْجَدَلِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ يُسَلِّمُ بِهَا الْخَصْمُ وَلَا يَقْوَى عَلَى اِنْكَارِهَا لِشُهْرَتِهَا بَيْنَ الْجُمْهُورِ نَحْوُ : الْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ . (وَالثَّالِثُ) الْخَطَابِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يُرَادُ بِهَا تَرْغِيبُ السَّامِعِ اَوْ تَرْهِيبُهُ نَحْوُ : اَلصَّلَاةُ بِرٌّ فَهِيَ مَنْجَاةٌ لِلْاِنْسَانِ . وَاِهْمَالُهَا مَعْصِيَةٌ فَهُوَ مُهْلِكٌ . (وَالرَّابِعُ) الشِّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مُخَيِّلَةٍ تُؤَثِّرُ فِي النَّفْسِ بَسْطًا اَوْ قَبْضًا صَادِقَةً كَانَتْ اَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ : اَلْخَمْرُ قِرْمِزِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فَهِيَ تُبْهِجُ النَّظَرَ اَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُهَوِّعَةٌ فَهِيَ تُزْعِجُ النَّفْسَ . (وَالْخَامِسُ) الْمُغَالَطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ كَاذِبَةٍ شَبِيهَةٍ بِالصَّادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُرْجِ الْاَسَدِ : هٰذَا اَسَدٌ فَهُوَ يَزْأَرُ . وَالْعُمْدَةُ فِي الْخَطَابَةِ عَلَى الْبُرْهَانِ الْخَطَابِيِّ اَيْ ذِي الْمُقَدَّمَاتِ الْمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ اِنَّ الْاَقَاوِيلَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْاِثْبَاتُ وَالْاِبْطَالُ كَمَا اِنَّهَا فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ صِنْفَانِ اَحَدُهُمَا الْاِسْتِقْرَاءُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ

ٱسْتِقْرَاء وَٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي ٱلْقِيَاسُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ كَذٰلِكَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُثْبِتَةُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبْطِلَةُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا شَبِيهٌ بِٱلِٱسْتِقْرَاء وَهُوَ ٱلْمِثَالُ وَٱلْآخَرُ شَبِيهٌ بِٱلْقِيَاسِ وَهُوَ ٱلضَّمِيرُ. وَٱلضَّمِيرُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ضَمِيرٌ وَلَيْسَ بِضَمِيرٍ يُشْبِهُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ هُنَالِكَ أَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْمِثَالُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مِثَالٌ وَلَيْسَ بِمِثَالٍ يُشْبِهُ ٱلِٱسْتِقْرَاء ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ٱسْتِقْرَاء وَلَيْسَ بِٱسْتِقْرَاء. فَٱلضَّمِيرُ هُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْخُطْبِيُّ وَٱلْمِثَالُ هُوَ ٱلِٱسْتِقْرَاء ٱلْخُطْبِيُّ. وَٱلْخُطَبَاء إِذَا تُؤُمِّلَ أَمْرُهُمْ ظَهَرَ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ جَمِيعَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْقَوْلِ بِهٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ أَعْنِي إِمَّا بِٱلْمِثَالِ وَإِمَّا بِٱلضَّمِيرِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْثِرُونَ بِفِعْلِهِمْ هٰذَا أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِٱلِٱسْتِقْرَاء وَٱلْقِيَاسِ. وَٱلَّذِي يَفْعَلُونَ مِنْ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَفْعَلُونَهُ بِمَا هُوَ مِثَالٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ أَوْ بِمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ كَذٰلِكَ وَتَبَيَّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ أَنَّ كُلَّ تَصْدِيقٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ بِٱلْقِيَاسِ وَأَنَّ ٱلِٱسْتِقْرَاء وَٱلْمِثَالَ إِنَّمَا يُفِيدَانِ ٱلتَّصْدِيقَ بِمَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ ٱلْقِيَاسِ. فَأَمَّا مَا هُوَ ٱلْقِيَاسُ وَمَا ٱلْفَصْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْبُرْهَانِ فَقَدْ قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْجَدَلِ وَقَدْ تَبَيَّنَ هُنَالِكَ أَيْضًا ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقِيَاسِ وَٱلِٱسْتِقْرَاء. وَٱلِٱسْتِقْرَاء وَٱلْمِثَالُ يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا يُثْبِتَانِ أَنَّ هٰذَا ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ كَذَا أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ كَذَا مِنْ أَجْلِ وُجُودِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ أَوْ لَا وُجُودِهِ فِي شَبِيهِهِ. وَٱلضَّمِيرُ وَٱلْقِيَاسُ يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا قَوْلٌ يُوضَعُ فِيهِ شَيْءٌ فَيَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ آخَرُ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ

هٰذَيْنِ ٱلْجِنْسَيْنِ مِنَ ٱلْقَوْلِ نَوْعًا خُطْبِيًّا وَنَوْعًا جَدَلِيًّا وَنَوْعًا بُرْهَانِيًّا وَنَوْعًا سُوفِسْطَائِيًّا. فَإِنَّهُ كَمَا يُوجَدُ ٱلِٱسْتِقْرَاءُ وَٱلْقِيَاسُ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ كَذٰلِكَ يُوجَدُ فِي ٱلْخَطَابَةِ ٱلْمِثَالُ وَٱلضَّمِيرُ وَإِنَّمَا يُخْتَلَفُ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ بِجِهَةِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ اَعْنِي فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ وَصِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ. وَٱلْقِيَاسُ فِي ٱلْجَدَلِ اَوْثَقُ مِنَ ٱلِٱسْتِقْرَاءِ وَٱلْمِثَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ اَقْنَعُ مِنَ ٱلضَّمِيرِ لِاَنَّ ٱلضَّمِيرَ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ ٱلْعِنَادُ اَكْثَرَ مِنْ تَطَرُّقِهِ إِلَى ٱلْمِثَالِ وَسَبَبُ هٰذَا سَنُخْبِرُ بِهِ فِيمَا بَعْدُ وَكَذٰلِكَ كَيْفَ نَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءَ. فَاَمَّا ٱلْاٰنَ فَيَنْبَغِي اَنْ نُحَدِّدَ هٰذَيْنِ ٱلطَّرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْاِقْنَاعِ اَعْنِي ٱلضَّمِيرَ وَٱلْمِثَالَ فَنَقُولُ:

اِنَّ ٱلْقَوْلَ ٱلْمُقْنِعَ اِمَّا اَنْ يَكُونَ مُقْنِعًا لِوَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ اَوْ لِجَمَاعَةٍ مِنَ ٱلنَّاسِ اَوْ لِاَكْثَرِ ٱلنَّاسِ. وَاَيْضًا مِنْهُ مَا يَكُونُ اِقْنَاعُهُ فِي اَمْرٍ كُلِّيٍّ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ فِي اَمْرٍ جُزْئِيٍّ. وَكِلَا هٰذَيْنِ مِنْهُ مَا يَكُونُ اِقْنَاعُهُ بَيِّنًا بِنَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ اِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ. وَٱلَّذِي يَكُونُ اِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلْجُزْئِيَّاتِ ضَرْبَانِ (اَحَدُهُمَا) اَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ: اِنَّ كَذَا اِنَّمَا هُوَ كَذَا لِمَوْضِعِ كَذَا. مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: اِنَّ شَرَابَ ٱلسَّكَنْجَبِينِ يَنْفَعُ فُلَانًا لِاَنَّهُ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلضَّمِيرَ. (وَٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَقُولَ: اِنَّ كَذَا اِنَّمَا كَانَ كَذَا لِاَنَّهُ مِثْلُ كَذَا. مِثْلُ اَنْ يَقُولَ. اِنَّ فُلَانًا يَنْتَفِعُ بِشَرَابِ ٱلسَّكَنْجَبِينِ لِاَنَّ فُلَانًا ٱنْتَفَعَ بِهِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْمِثَالَ. وَٱلْمُقْنِعَاتُ ٱلَّتِي هِيَ مُقْنِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَلَيْسَ تَسْتَعْمِلُهَا

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِأَنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ وَغَيْرُ مَعْلُومٍ عِنْدَ ٱلْمُسْتَعْمِلِ لَهَا وَلِذٰلِكَ لَيْسَتْ تَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ أَعْنِي ٱلْمَقْبُولَةَ مَا كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ . وَتِلْكَ هِيَ ٱلْآرَاءُ ٱلْحَادِثَةُ لِلنَّاسِ عِنْدَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْهَوَى بَلْ إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ ٱلْمَحْمُودَ عِنْدَ ٱلْأَكْثَرِ أَوِ ٱلْجَمِيعِ عَلَى مِثْلِ مَا تَسْتَعْمِلُهُ صِنَاعَةُ ٱلْجَدَلِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَٱلَّذِي يَفْتَرِقُ بِهِ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ وَفِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ مِنَ ٱلضَّمِيرِ ٱلْمُسْتَعْمَلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ يُرَتَّبُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ ٱلْقَوْلُ مُنْتِجًا بِٱلضَّرُورَةِ . وَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ فَإِنَّهُ تَتَرَتَّبُ مُقَدِّمَاتُهُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي هُوَ مُعْتَادٌ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ أَنْ يُقْبَلَ . وَذٰلِكَ هُوَ بِخِلَافِ ٱلتَّرْتِيبِ ٱلصِّنَاعِيِّ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ يَسْتَرِيبُونَ بِٱلْقَوْلِ ٱللَّازِمِ عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلصِّنَاعِيِّ وَيَرَوْنَ أَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا لَزِمَ مِنْ جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا مِنْ جِهَةِ ٱلْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ يَقْتَضِي أَنْ يُصَرَّحَ فِيهِ بِجَمِيعِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ فِي بَيَانِ ذٰلِكَ ٱلْمَطْلُوبِ وَٱلْجُمْهُورُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْهَمُوا لُزُومَ ٱلنَّتِيجَةِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ عَنْ مُقَدِّمَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَا يُبَاعِدُونَ بَيْنَ ٱلنَّتِيجَةِ وَٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ ٱلنَّتِيجَةُ أَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يُصَرِّحُونَ فِي ٱلْمَقَايِيسِ بِٱلْمُقَدِّمَتَيْنِ جَمِيعًا مَعَ ٱلنَّتِيجَةِ بَلْ إِنَّمَا يَأْتُونَ بِمُقَدِّمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُرْدِفُونَهَا بِٱلنَّتِيجَةِ . مِثْلَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هٰذَا يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لَصٌّ . وَلَا يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لَصٌّ وَهِيَ ٱلْمُقَدِّمَةُ ٱلْكُبْرَى . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلضَّمَائِرَ لَمَّا

كانت تصنع في الاكثر في الامور الممكنة وذلك بين في الامور المشاورية فانه ليس يشير احد على احد بامر ضروري الوجود ولا ممتنع الوجود وكانت المقدمة الكبرى في امثال هذه المواد كاذبة بالجزء لم يصرحوا بها في المقاييس التي يستعملونها في هذه الصناعة لئلا يفطن لكذبها . وايضا فلما كانت المقاييس الجيدة الصنعة في هذه الصناعة انما هي احد صنفين اما المقاييس التي تؤلف من المقدمات البينة اقناعها بنفسه واما من مقدمات تتبين مقدماتها بمقدمات اخر تخلط بها والا لم يتبين حمدها . فقد يلحق ضرورة في هذا الصنف الثاني ان يعسر تاليف المقدمات وترتيبها الترتيب الصناعي لمكان كثرة المقدمات وطول الزمان الذي يصرح فيه بجميعها وترتب ترتيبا صناعيا وذلك الشيء لا يساعد عليه الحكام بل يحاولون المتكلم بين ايديهم ان يكون كلامه بسيطا غير متكلف فيه صنعة على الجمهور في ذلك فانه متى كان الكلام ليس على هذه الصفة كان غير مقنع . وذلك في الامرين اللذين يكون فيهما الاقناع اعني في ان الشيء موجود او غير موجود وفي انه اذا وجد محمود او غير محمود . وكذلك اذا استعمل التصديق بطريق اخذ الاشباه فاستقصي وجعل على طريق الاستقراء عرض العسر الذي وصفناه من الطول والكثرة . واذا كان هذا هكذا فاذن القياس الخطبي وهو الضمير والمثال انما يكونان في الاشياء التي يكون فيها القياس والاستقراء باطلاق وتلك

ٱلْاَشْيَاء مَأْخُوذَةٌ بِحَالٍ غَيْرِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي أُخِذَتْ بِهَا فِي ٱلْقِيَاسِ وَٱلْاِسْتِقْرَاء. فَاِذَا اُسْتُعْمِلَتْ تِلْكَ ٱلْاَشْيَاء بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي بُيِّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ عَادَ ٱلْمِثَالُ اِسْتِقْرَاء وَٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا. وَاِذَا أُخِذَتْ بِهٰذِهِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا عَادَ ٱلْاِسْتِقْرَاء مِثَالًا وَٱلْقِيَاسُ ضَمِيرًا. وَتِلْكَ ٱلْحَالُ هِيَ اَخْذُ ٱلْقِيَاس وَٱلْاِعْتِبَارُ بِمُقَدَّمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجِيزَةٍ فَاِنَّ ٱلْاِقْنَاعَ اِنَّمَا يَكُونُ اَكْثَرَ ذٰلِكَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي هِيَ فِي غَايَةِ ٱلظُّهُورِ وَحَذْفِ مَا خَفِيَ مِنْهَا وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلْمَحْمُودَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ يُحْذَفَ ٱللَّازِمُ عَنْهُ وَيُؤْتَى بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَلْزَمُ اِذَا أُخْبِرَ بِٱللَّازِمِ وَٱلْمَلْزُومِ فَكَاَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ ٱلشَّيْءَ مَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ هَذَرًا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. وَعَلَى هٰذَا فَلَا يُصَرَّحُ بِٱلْحَدِّ ٱلْاَوْسَطِ فِي ٱلْقِيَاسِ اِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا فِي ٱلْاِعْتِبَارِ اِلَّا بِشَبِيهٍ وَاحِدٍ فَيَكُونُ ٱلْقِيَاسُ ضَرُورَةً ضَمِيرًا اَيْ مَحْذُوفًا اِحْدَى مُقَدَّمَتِهِ وَبِهٰذَا سُمِّيَ ضَمِيرًا اِذْ كَانَتْ اِحْدَاهُمَا مُضْمَرَةً وَيَكُونُ ٱلْاِسْتِقْرَاء ضَرُورَةً تَمْثِيلًا

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطبية

(من الكتاب نفسهُ)

(قَالَ) وَمُقَدَّمَاتُ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً وَذٰلِكَ فِي ٱلْاَقَلِّ وَتَكُونُ مُمْكِنَةً وَذٰلِكَ فِي ٱلْاَكْثَرِ لِاَنَّ اَكْثَرَ ٱلْفَحْصِ ٱلْجُمْهُورِيِّ اِنَّمَا هُوَ فِيمَا يُمْكِنُ اَنْ يَكُونَ بِحَالٍ وَيُمْكِنُ اَلَّا يَكُونَ

بتلك الحال. وذلك بيّن في الاشياء التي يشار بها وذلك انها كلها امور مفعولة للانسان لا ضرورية الوجود ولا ممتنعة الوجود. والنتائج الضرورية فانها تكون بالذات عن مقدمات ضرورية والممكنة عن مقدمات ممكنة. والضمائر منها ما يكون عن مقدمات محمودة ومنها ما يكون من الدلائل. واعني بالمقدمات المحمودة التي ليست دلائل. مثل انه ينبغي ان يشكر المنعم وان يساء الى المسيء. واعني بالدلائل الاشياء التي تدل على وجود شيء لشيء. وهذان الصنفان من المقدمات يوجدان في المواد الضرورية والممكنة اعني المحمودات والدلائل. وليس يوجدان في الممكنة على الاكثر فقط بل وفي الممكنة على التساوي. وهي التي نسبتها الى المقدمات الممكنة على الاكثر نسبة التي على الاكثر الى الضروري وهي نسبة الكل من البعض وذلك ان الصدق في الضرورية اعم من الصدق في الممكنة على الاكثر اذ كانت الضرورية توجد لكل الموضوع والممكنة على الاكثر لا توجد لكله. وكذلك نسبة الممكنة على التساوي الى الممكنة على الاكثر هي هذه النسبة اعني ان الممكنة على الاكثر تصدق من موضوعاتها على اكثر مما تصدق الممكنة على التساوي. والدلائل المأخوذة حدا اوسط منها ما هو اعم من الطرف الاصغر واخص من الاكبر ومنها ما هو اعم من الطرفين. ومنها ما هو اخص منهما. اما الذي هو اعم من الطرف

ٱلْأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ ضَرُورَةً فِي ٱلشَّكْلِ ٱلْأَوَّلِ. وَإِذَا كَانَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُهُ ٱلْقُدَمَاءُ بِٱلْأَشْبَهِ. وَمِثَالُهُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ: هٰذِهِ أُنْثَى ٱلْحَيَوَانِ لَهَا لَبَنٌ فَهِيَ قَدْ وَلَدَتْ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ. فُلَانٌ يُعِدُّ ٱلسِّلَاحَ وَيَجْمَعُ ٱلرِّجَالَ وَلَيْسَ قُرْبَهُ عَدُوٌّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْصِيَ ٱلْمَلِكَ. وَمِثَالُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي: فُلَانٌ قَدْ تَعِبَ وَٱلْمُتْعُوبُ مَحْمُومٌ فَفُلَانٌ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُشَبَّهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّانِي إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتِجٍ إِلَّا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: سُقْرَاطُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا وَٱلْمَحْمُومُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا فَسُقْرَاطُ مَحْمُومٌ. فَهَاتَانِ ٱلْمُقَدَّمَتَانِ صَادِقَتَانِ وَٱلنَّتِيجَةُ قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً إِذْ قَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَنَفُّسُ سُقْرَاطَ مُتَوَاتِرًا لِمَوْضِعِ ٱحْضَارِهِ. وَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ خَافِيًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَأَوْا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلصَّادِقَةِ أَنَّهَا تُنْتِجُ كَذِبًا ظَنُّوا لِذٰلِكَ أَنَّهُ قَدِ ٱنْطَوَى فِيهَا كَذِبٌ فَيَرُومُونَ أَنْ يُعَانِدُوا ٱلْمُقَدَّمَاتِ فَيَعْسُرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَكَانِ صِدْقِهَا فَيَتَحَيَّرُونَ لِذٰلِكَ. وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَخَصُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَتُنْتِجُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّالِثِ جُزْئِيًّا لَا كُلِّيًّا لٰكِنْ تُؤْخَذُ نَتِيجَتُهُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كُلِّيَّةً. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي كُرَةِ ٱلْعَالَمِ وَٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي ٱلزَّمَانِ فَٱلزَّمَانُ كُرَةُ ٱلْعَالَمِ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْحُكَمَاءُ عُدُولٌ لِأَنَّ سُقْرَاطَ حَكِيمٌ وَعَدْلٌ.

والدلائل التي تكون في الشكل الثالث والثاني تخص باسم العلامة وما كان منها في الشكل الاول يخص باسم الدليل . والذي في الشكل الثاني هو اخص باسم العلامة من الثالث كما انه ما كان من ذلك في الممكنة الاكثرية يخص باسم الاشبه وان كان في الممكنة على التساوي خص باسم الضعيف المشتبه . فقد تبين من هذا القول ما هي المحدودات والدلائل والعلامات وما الفرق بينهما . لكن الذي تبين من الاقاويل القياسية على الحقيقة انما هو في كتاب القياس فانه هنالك تبين ما هو القياس وكم اجناس الاقاويل القياسية وتبين في جنس جنس منها ما هو قياس وما ليس بقياس . واما (المثال) فقد بينا فيما تقدم انه استقراء ما لكن يباين الاستقراء بانه ليس يصار فيه لا من الجزئي الى بيان الامر الكلي كما يصار في بعض انواع الاستقراء ولا من الكلي الى الجزئي كما قد يصار في بعض انواع الاستقراء . وذلك اذا بينا بالكلي الذي اثبتناه بالاستقراء جزئيا آخر غير الجزئيات التي اثبتها الكلي باستقرائها ويوافقه في انه يصير من جزئي الى جزئي لاجتماعهما في امر كلي . وذلك اذا جمعنا في الاستقراء الامرين جميعا اعني ان نصير فيه من الجزئي الى الكلي ثم من الكلي الى جزئي آخر فاننا في هذا الفعل قد صرنا من جزئي الى جزئي يتوسط الكلي كالحال في المثال فان المثال انما يصير فيه من جزئي الى جزئي

لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي اَمْرٍ كُلِّيٍّ اِذَا كَانَ اَلْحُكْمُ اَلْمَنْقُولُ مِنْ اَحَدِهِمَا
اِلَى اَلْآخَرِ مَوْجُودًا لِلْجُزْئِيِّ اَلْاَعْرَفِ مِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ اَلْكُلِّيِّ اَوْ
يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ وَاِلَّا لَمْ تَصِحَّ اَلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ اِلَى
جُزْئِيٍّ اَعْنِي اِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ كُلِّيٌّ وَكَانَ وُجُودُ ذٰلِكَ اَلْحُكْمِ
مِنْ اَجْلِهِ لِلْجُزْئِيِّ اَلْاَعْرَفِ. وَمِثَالُ مَا يَعْرِضُ مِنْ هٰذَا فِي اَلْاِسْتِقْرَاءِ
اَعْنِي اِذَا كَانَتِ اَلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ اِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ اَلنَّقْلَةِ اِلَى
اَلْكُلِّيِّ قَوْلُ مَنْ قَالَ: اَيُّهَا اَلْمَلِكُ اِنَّ فُلَانًا طَلَبَ اَنْ يَكُونَ مِنْ
جُمْلَةِ اَلْعَسَسِ وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ عَدُوِّكَ فَلَا تُبِحْ لَهُ ذٰلِكَ فَاِنَّهُ يُرِيدُ
اَنْ يَفْتُكَ بِالْمَلِكِ لِاَنَّ فُلَانًا طَلَبَ ذٰلِكَ مِنْ فُلَانٍ اَلْمَلِكَ وَفُلَانًا مِنْ
فُلَانٍ اَلْمَلِكَ لِاَقْوَامٍ يُعَدِّدُهُمْ فَفَتَكُوا بِمُلُوكِهِمْ. فَاِنَّ قَائِلَ هٰذَا
اَلْقَوْلِ قَدْ جَعَلَ اَلنَّقْلَةَ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ اِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ اَلْكُلِّيِّ
اَلَّذِي هُوَ: اِنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ اَنْ يَدْخُلَ فِي اَلْحَرَسِ مِمَّنْ كَانَ فِي
جُمْلَةِ عَدُوِّ اَلْمَلِكِ فَهُوَ يُرِيدُ اَنْ يَفْتُكَ بِهِ. اِلَّا اِنَّ هٰذَا اَلْكُلِّيَّ اَلَّذِي
اِرْتَسَمَ فِي اَلنَّفْسِ بِالْقُوَّةِ وَاِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِهِ يَسْتَعْمِلُ اَلنَّقْلَةَ مِنْ
جُزْئِيٍّ اِلَى جُزْئِيٍّ اِذَا كَانَتِ اَلنَّقْلَةُ اِلَيْهِ فِي اَلذِّهْنِ مِنْ اَكْثَرِ
اَلْجُزْئِيَّاتِ كَانَ اِسْتِقْرَاءً وَاِنْ كَانَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا اَوْ مِنَ اَلْاَقَلِّ
كَانَ تَمْثِيلًا. (قَالَ) فَاَمَّا اَلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ اَلْاَشْيَاءِ اَلَّتِي يُقَالُ لَهَا مِثَالَاتٌ
فَقَدْ يُكْتَفَى هَا هُنَا بِهٰذَا اَلْقَدْرِ اَلْمُعْطَى مِنْهَا

وَاَمَّا اَلْقَوْلُ فِي فُصُولِ اَلضَّمَائِرِ مِنْ جِهَةِ اَلْاَشْيَاءِ اَلَّتِي مِنْهَا
تُعْمَلُ فَاِنَّ اَلْقَوْلَ فِيهَا غَامِضٌ وَخَفِيٌّ وَهُوَ عَظِيمُ اَلْغَنَاءِ فِيمَا نَقْصِدُهُ

هاهُنا . وَسَبَبُ نُمُوِّنِهِ اَنَّ اَلضَّمَائِرَ تَكُونُ فِي جَمِيعِ اَلْمَقُولَاتِ اَلْعَشْرِ كَمَا تَكُونُ اَلْقِيَاسَاتُ اَلْجَدَلِيَّةُ لٰكِنَّ مِنَ اَلضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي اَلْمَوَادِّ اَلَّتِي فِي اَلصَّنَائِعِ مِثْلَ اَلضَّمَائِرِ اَلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي اَلْأُمُورِ اَلْكُلِّيَّةِ وَاَلْجُزْئِيَّةِ فِي صِنَاعَةِ اَلطِّبِّ وَغَيْرِهَا مِنَ اَلصَّنَائِعِ . وَهٰذِهِ فَيَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي هٰذِهِ اَلصَّنَائِعِ عَلَى نَحْوِ اَسْتِعْمَالِ اَلْبَرَاهِينِ فِي تِلْكَ اَلصِّنَاعَةِ لَا عَلَى مَا يَسْتَعْمِلُهَا اَلْخَطِيبُ فِي اَلْمَادَّةِ اَلَّتِي تَخُصُّ اَلْخَطَابَةَ مِثْلَ اَنْ يَأْتِيَ بِهَا جُزْءًا مِنْ خُطْبَةٍ . وَسَائِرُ اَلْأَشْيَاءِ اَلَّتِي تَكُونُ بِهَا اَلْأَقَاوِيلُ اَلْخُطْبِيَّةُ اَتَمَّ فِعْلًا وَاَنْفَذُ مِمَّا يُذْكَرُ بَعْدُ . وَمِنَ اَلضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي اَلْأُمُورِ اَلَّتِي تَخُصُّ هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةَ بِحَسَبِ مَا تَبَيَّنَ مِنْ مَنْفَعَتِهَا وَهِيَ اَلْأُمُورُ اَلْإِرَادِيَّةُ وَهٰذِهِ هِيَ اَلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ عَلَى جِهَةِ مَا يَسْتَعْمِلُ اَلْخُطَبَاءُ اَلْأَقَاوِيلَ اَلْخُطْبِيَّةَ . وَمِنْ هٰذِهِ اَلْأَشْيَاءِ يَنْبَغِي اَنْ تُعَدَّدَ فِي هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةِ اَلْأَشْيَاءُ اَلَّتِي هِيَ فُصُولُ اَلضَّمَائِرِ لَا مِنْ تِلْكَ اَلْمَوَادِّ اَلَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهَا صِنَاعَةٌ صِنَاعَةٌ

الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاوّل

في المناظرة والجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث للسمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

اَلْمُنَاظَرَةُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ اِثْبَاتِ الْمَطْلُوبِ وَنَفْيِهِ اَوْ نَفْيِ دَلِيلِهِ مَعَ الْخَصْمِ. وَالْآدَابُ الطُّرُقُ. وَمَوْضُوعُ هٰذَا الْعِلْمِ الْاَدِلَّةُ مِنْ حَيْثُ اَنَّهَا يُثْبِتُ بِهَا الْمُدَّعِي عَلَى الْغَيْرِ. وَمَبَادِئُهُ اُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا. وَالْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ طُرُقِ الْمُنَاظَرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ الْخَبْطُ فِي الْبَحْثِ فَيَتَّضِحَ الصَّوَابُ. وَتُطْلَقُ الْمُنَاظَرَةُ اَيْضًا فِي اصْطِلَاحِ اَهْلِ هٰذَا الْعِلْمِ عَلَى النَّظَرِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ فِي النِّسْبَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ اِظْهَارًا لِلصَّوَابِ. وَقِيلَ اَيْضًا هِيَ تَوَجُّهُ الْخَصْمَيْنِ فِي النِّسْبَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ اِظْهَارًا لِلصَّوَابِ اَيْ تَوَجُّهُ الْمُتَخَاصِمَيْنِ اللَّذَيْنِ مَطْلَبُ اَحَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ الْآخَرِ اِذَا تَوَجَّهَا فِي النِّسْبَةِ وَاِنْ كَانَ ذَاكَ التَّوَجُّهُ فِي النَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ الْاِشْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ اِظْهَارُ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ. وَالْمَسَائِلُ الْعِلْمِيَّةُ تَتَزَايَدُ يَوْمًا فَيَوْمًا بِتَلَاحُقِ الْاَفْكَارِ

وَالْأَنْظَارِ فَلِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِ الطَّبَائِعِ وَالْأَذْهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنَ الْعُلُومِ عَنْ تَصَادُمِ الْآرَاءِ وَتَبَايُنِ الْأَفْكَارِ وَإِدَارَةِ الْكَلَامِ مِنَ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ وَالرَّدِّ وَالْقَبُولِ إِلَّا أَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُعْتَبَرَةٍ مَشْرُوطٌ وَبِرِعَايَةِ الْأُصُولِ مَنُوطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ . فَلَا بُدَّ مِنْ قَانُونٍ يُعْرَفُ مَرَاتِبَ الْبَحْثِ عَلَى وَجْهٍ يَتَمَيَّزُ بِهِ الْمَقْبُولُ عَمَّا هُوَ مَرْدُودٌ وَتِلْكَ الْقَوَانِينُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ الْبَحْثِ

أَمَّا الْجِدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ الطُّرُقِ الَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامِ وَنَقْضٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ النَّظَرِ وَمَبْنَى لِعِلْمِ الْخِلَافِ مَأْخُوذٌ مِنَ الْجَدَلِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَجْزَاءِ مَبَاحِثِ الْمَنْطِقِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبَيَّنَةٌ فِي عِلْمِ النَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَابِيَّةٌ وَبَعْضُهَا أُمُورٌ عَادِيَّةٌ . وَلَهُ اسْتِمْدَادٌ مِنْ عِلْمِ الْمُنَاظَرَةِ الْمَشْهُورِ بِآدَابِ الْبَحْثِ . وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ الطُّرُقُ وَالْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ النَّقْضِ وَالْإِبْرَامِ وَفَائِدَتُهُ كَثِيرَةٌ فِي الْأَحْكَامِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ الْإِلْزَامِ عَلَى الْمُخَالِفِينَ . وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ عِلْمَ الْجَدَلِ هُوَ عِلْمُ الْمُنَاظَرَةِ لِأَنَّ الْمَآلَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ الْجَدَلَ أَخَصُّ مِنْهُ . وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ابْنِ خَلْدُونَ فِي الْمُقَدِّمَةِ حَيْثُ قَالَ : وَأَمَّا الْجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ الْمُنَاظَرَةِ الَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ الْمُنَاظَرَةِ فِي الرَّدِّ وَالْقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُنَاظِرَيْنِ فِي الْاسْتِدْلَالِ وَالْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي الِاحْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطَأً فَاحْتَاجَ الْأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَقِفُ الْمُتَنَاظِرَانِ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ انْ يَكُونَ مُسْتَدِلاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصاً مُنْقَطِعاً وَمَحَلُّ ٱعْتِرَاضِهِ اَوْ مُعَارَضَتِهِ وَاَيْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلِاسْتِدْلَالُ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ فِيهِ اِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلْقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا اِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذٰلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلْفِقْهِ اَوْ غَيْرِهِ. وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلْبَزْدَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠م) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِٱلْاَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلْاِجْمَاعِ وَٱلِاسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ رُكْنِ ٱلدِّينِ ٱلْعَمِيدِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ اَيِّ عِلْمٍ كَانَ. وَاَكْثَرُهُ ٱسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَنَاحِي ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلْاَمْرِ كَثِيرَةٌ وَاِذَا ٱعْتَبَرْنَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ اَشْبَهَ بِٱلْقِيَاسِ ٱلْمُغَالَطِيِّ وَٱلسُّوفِسْطَائِيِّ. اِلَّا اَنَّ صُوَرَ ٱلْاَدِلَّةِ وَٱلْاَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِاسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهٰذَا ٱلْعَمِيدِيُّ هُوَ اَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ اِلَيْهِ وَوَضَعَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْاِرْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَاخِّرِينَ كَٱلنَّسَفِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠ هـ (١٣١٠م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى اَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّاْلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْاَمْصَارِ ٱلْاِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب ايها الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الحطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَخْصٍ اَوْ قَوْمٍ وَكَانَ اِرَادَتُكَ فِيهَا اَنْ تُظْهِرَ اَلْحَقَّ وَلَا تُضَيِّعَ جَازَ لَكَ اَلْبَحْثُ. لٰكِنْ لِتِلْكَ اَلْاِرَادَةِ عَلَامَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ لَا تَفْرَقَ بَيْنَ اَنْ يَنْكَشِفَ اَلْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ اَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيهِمَا اَنْ يَكُونَ اَلْبَحْثُ فِي اَلْخَلَاءِ اَحَبَّ اِلَيْكَ مِنْ اَنْ يَكُونَ فِي اَلْمَلَإِ وَاسْمَعْ اِنِّي اَذْكُرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةً. اَعْلَمْ اَنَّ اَلسُّؤَالَ عَنِ اَلْمُشْكِلَاتِ عَرْضُ مَرَضِ اَلْقَلْبِ اِلَى اَلطَّبِيبِ وَاَلْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِاِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَاَعْلَمْ اَنَّ اَلْجَاهِلِينَ اَلْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ وَاَلْعُلَمَاءَ اَلْاَطِبَّاءُ. وَاَلْعَالِمَ اَلنَّاقِصَ لَا يُحْسِنُ اَلْمُعَالَجَةَ وَاَلْعَالِمَ اَلْكَامِلَ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ اَلْمُعَالَجَةِ وَاَلصَّلَاحِ وَاِذَا كَانَتِ اَلْعِلَّةُ مُزْمِنَةً اَوْ عَقِيًا لَا تَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ فَحَذَاقَةُ اَلطَّبِيبِ فِيهِ اَنْ يَقُولَ: هٰذَا لَا يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِدَوَائِهِ وَمُعَالَجَتِهِ لِاَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ اَلْعُمْرِ

اِعْلَمْ اَنَّ مَرَضَ اَلْجَهْلِ عَلَى اَرْبَعَةِ اَنْوَاعٍ اَحَدُهُمْ يَقْبَلُ اَلْمُعَالَجَةَ وَاَلْبَاقِي لَا يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ. وَاَمَّا اَلْمَرَضُ اَلَّذِي يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ

فَهُوَ اَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا عَالِمًا عَاقِلًا فَهِمًا لَا يَكُونُ مَغْلُوبَ اَلْحَسَدِ وَالْغَضَبِ وَمُحِبَّ اَلْجَاهِ وَالْمَالِ وَالشَّهْوَةِ وَيَكُونَ طَالِبَ اَلطَّرِيقِ اَلْمُسْتَقِيمِ وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدٍ وَتَعَنُّتٍ وَامْتِحَانٍ وَبَحْثٍ. وَهٰذَا يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ فَيَجُوزُ اَنْ تَشْتَغِلَ بِجَوَابِ سُؤَالِهِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ اِجَابَتُهُ . اَمَّا اَلَّذِي لَا يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ اَحَدُهُمْ مَنْ كَانَ سُؤَالُهُ وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدِهِ وَبُغْضِهِ وَالْحَسَدُ لَا يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ لِاَنَّهُ مِنَ اَلْعِلَّةِ اَلْمُزْمِنَةِ فَكُلَّمَا تُجِيبُهُ بِاَحْسَنِ اَلْجَوَابِ وَاَفْصَحِهِ وَاَوْضَحِهِ لَا يَزِيدُ لَهُ ذٰلِكَ اِلَّا غَيْظًا وَحَسَدًا فَالطَّرِيقُ اَنْ لَا تَشْتَغِلَ بِجَوَابِهِ:

كُلُّ اَلْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى اِزَالَتُهَا اِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدِ

فَيَنْبَغِي لَكَ اَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ وَتَتْرُكَهُ مَعَ مَرَضِهِ قَالَ: فَاَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ اِلَّا اَلْحَيَاةَ وَالدُّنْيَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَنَزَدَّى وَالْحَسُودُ بِكُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ يُوقِدُ اَلنَّارَ فِي زَرْعِ عَمَلِهِ كَمَا جَاءَ فِي اَلْحَدِيثِ: اَلْحَسَدُ يَأْكُلُ اَلْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ اَلنَّارُ اَلْحَطَبَ. وَالثَّانِي اَنْ يَكُونَ عِلَّةً مِنَ اَلْحَمَاقَةِ وَهُوَ اَيْضًا كَالْحَسُودِ لَا يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ: (١) اِنِّي مَا عَجَزْتُ عَنْ اِحْيَاءِ اَلْمَوْتَى وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ مُعَالَجَةِ اَلْاَحْمَقِ وَذٰلِكَ رَجُلٌ يَشْتَغِلُ لِطَلَبِ اَلْعِلْمِ زَمَانًا قَلِيلًا وَيَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنَ اَلْعِلْمِ اَلْعَقْلِيِّ وَالشَّرْعِيِّ فَيَسْاَلُ وَيَعْتَرِضُ مِنْ حَمَاقَتِهِ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَفْهَمُ عَلَى اَلْعَالِمِ اَلْكَبِيرِ

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره المسجود لا في الانجيل ولا في التقليد . ولا نعلم عمَّنْ رواهُ الغزّالي

فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ. وَهٰذَا ٱلْأَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكِلٌ لِلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هٰذَا ٱلْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُشْتَغَلَ بِجَوَابِهِ. وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ٱلْأَكَابِرِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونَ سُؤَالُهُ لِلِٱسْتِفَادَةِ لٰكِنْ يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ ٱلْحَقَائِقَ فَلَا يَنْبَغِي ٱلِٱشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا. وَفِي ٱلْحَدِيثِ: نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْحُكَمَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ

وَعَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ: إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِهٰذَا ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلْأَكَابِرِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُبْعِدُ عَنِ ٱلْفِقْهِ وَيُضِيعُ ٱلْعُمْرَ وَيُورِثُ ٱلْوَحْشَةَ وَٱلْعَدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ كَذَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ:

أَرَى فُقَهَاءَ هٰذَا ٱلْعَصْرِ طُرًّا ... أَضَاعُوا ٱلْعِلْمَ وَٱشْتَغَلُوا بِلَمْ لِمْ

إِذَا نَاظَرْتَهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ ... سِوَى حَرْفَيْنِ لَمْ لِمْ لَا نُسَلِّمْ

وَٱلْإِنْصَافُ أَنَّ ٱلْجَدَلَ لِإِظْهَارِ ٱلصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي تَشْحِيذِ ٱلْأَذْهَانِ. وَٱلْمَمْنُوعُ ٱلْجَدَلُ ٱلَّذِي يُضِيعُ ٱلْأَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ مِنْهُ طَائِلٌ. قَالَ مُوَفَّقُ ٱلدِّينِ ٱلْبَغْدَادِيُّ: إِيَّاكَ ٱلْغِلْظَةَ فِي ٱلْخِطَابِ. وَٱلْجَفَاءَ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَذْهَبُ بِبَهْجَةِ ٱلْكَلَامِ وَيُسْقِطُ فَائِدَتَهُ. وَيُعْدِمُ حَلَاوَتَهُ. وَيَجْلِبُ ٱلضَّغَائِنَ. وَيَمْحَقُ ٱلْمَوَدَّاتِ. وَيُصَيِّرُ ٱلْقَائِلَ مُسْتَثْقَلًا. سُكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ. وَيُثِيرُ ٱلنُّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ ٱلْأَلْسُنَ بِمُخَاشَنَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

البحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْجَوَابَاتِ هِيَ أَصْعَبُ ٱلْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَأَعَزُّهُ مَطْلَبًا وَأَغْمَضُهُ مَنْصَبًا وَأَضْيَقُهُ مَسْلَكًا لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُعْجَلُ مُنَاجَاةَ ٱلْفِكْرَةِ وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْقَرِيحَةِ يُرَوِّمُ فِي بَدِيهَتِهِ نَقْضَ مَا أَبْرَمَ ٱلْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ فَهُوَ كَمَنْ أُخِذَتْ عَلَيْهِ ٱلْفِجَاجُ وَسُدَّتْ لَهُ ٱلْمَخَارِجُ قَدِ ٱعْتَرَضَ ٱلْأَسِنَّةَ وَٱسْتَهْدَفَ لِلْمَرَامِي لَا يَدْرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبَ لَهُ وَلَا مَا يَتَّقِيهِ مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعَهُ بِمِثْلِهِ . وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْقَائِلُ قَدْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ ٱلْكَلَامِ فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ بَعْدَ أَنْ رَأَى فِيهِ وَٱحْتَفَلَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ وَٱجْتَهَدَ وَتَرَكَ ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ حَتَّى يَخْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا ٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ كَمَا كَرِهُوا ٱلْجَوَابَ ٱلدَّبَرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ ٱلْكَلَامِ وَٱسْتِثْنَائِهِ حَتَّى إِذَا أَظْمَأَنَّ شَارِدُهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ قِيلَ لَهُ أَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَأَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ . فَتَرَاهُ بِجَوَابٍ مِنْ غَيْرِ أَنَاةٍ وَلَا ٱسْتِعْدَادٍ يُطَبِّقُ ٱلْمَفَاصِلَ وَيَنْفُذُ ٱلْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى ٱلْجَنْدَلُ بِٱلْجَنْدَلِ وَيُقْرَعُ ٱلْحَدِيدُ بِٱلْحَدِيدِ فَيَحُلُّ بِهِ عُرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَائِرَهُ وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى أَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبِدَتْ عَجَاجَتُهُ فَلَا شَيْءَ أَعْضَلُ مِنَ ٱلْجَوَابِ ٱلْحَاضِرِ وَلَا أَعَزُّ مِنَ ٱلْخَصْمِ ٱلْأَلَدِّ ٱلَّذِي يُقْرَعُ

صَاحِبَهُ وَيَضَعُ مُنَازِعَهُ يَقُولُ كَمِثْلِ النَّارِ فِي الْحَطَبِ الْجَزْلِ

البحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْمُغَالَطَةُ هِيَ قِيَاسٌ فَاسِدٌ إِمَّا مِنْ جِهَةِ الصُّورَةِ اَوْ مِنْ جِهَةِ الْمَادَّةِ اَوْ مِنْ جِهَتِهِمَا مَعًا وَالْآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لِغَيْرِهِ. وَلَوْلَا الْقُصُورُ وَهُوَ عَدَمُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا تَمَّ لِلْمُغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةٌ كَاذِبَةٌ تَنْفَعُ بِالْعَرَضِ اِذِ الْغَرَضُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا الْاِحْتِرَازُ عَنِ الْخَطَإِ وَرُبَّمَا يُمْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ اِمْتِحَانُهُ فِي الْعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ بِعَدَمِ ذَهَابِ الْغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِذَهَابِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ وَبِهَذَا الْاِعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا اِمْتِحَانِيًّا. وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ يُوهِمُ الْعَوَامَّ اَنَّهُ عَالِمٌ لِيُظْهِرَ لَهُمْ عَجْزَهُ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّوَابِ وَالْخَطَإِ فَيَصُدُّونَ عَنِ الْاِقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهَذَا الْاِعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًا. قَالَ شَارِحُ اِشْرَاقِ الْحِكْمَةِ: مَوَادُّ الْمُغَالَطَةِ الْمُشْبِهَاتُ لَفْظًا اَوْ مَعْنًى وَلِهٰذِهِ الصِّنَاعَةِ اَجْزَاءٌ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ. وَالْاَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّبْكِيتِ الْمُغَالَطِيِّ

وَعَلَى هٰذَا فَنَقُولُ: اِنَّ اَسْبَابَ الْغَلَطِ عَلَى كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ اِلَى

امرٍ واحدٍ وهو عدمُ التمييزِ بين الشيءِ واشباهِهِ ثم انها تنقسمُ الى ما يتعلقُ بالالفاظِ والى ما يتعلقُ بالمعاني. (والاولُ) ينقسمُ الى ما يتعلقُ بالالفاظِ لا من حيثُ تركُّبها والى ما يتعلقُ بها من حيثُ تركُّبها. (والاولُ) لا يخلو اما ان يتعلقَ بالالفاظِ انفسِها وهو ان تكونَ مختلفةَ الدلالةِ فيقعَ الاشباهُ بين ما هو المرادُ وبين غيرِهِ. ويدخلُ فيهِ الاشتراكُ والتشابُهُ والمجازُ والاستعارةُ وما يجري مجراها ويُسمّى جميعاً بالاشتراكِ اللفظيِّ. واما ان يتعلقَ باحوالِ الالفاظِ وهي اما احوالٌ ذاتيةٌ داخلةٌ في صيغِ الالفاظِ قبلَ تحصُّلِها كالاشتباهِ في اللفظِ المختارِ بسببِ التصريفِ اذا كانَ بمعنى الفاعلِ او المفعولِ. واما احوالٌ عارضةٌ لها بعدَ تحصُّلِها كالاشتباهِ بسببِ الادغامِ والاعرابِ. (والمتعلقةُ بالتركيبِ) تنقسمُ الى ما يتعلقُ الاشباهُ فيهِ بنفسِ التركيبِ كما يُقالُ: كلُّ ما يتصوَّرُهُ العاقلُ فهو كما يتصوَّرُهُ. فانَّ لفظَ (هو) يعودُ تارةً الى المعقولِ وتارةً اخرى الى العاقلِ والى ما يتعلقُ بوجودِهِ وعدمِهِ اي بوجودِ التركيبِ وعدمِهِ. وهذا الاخيرُ ينقسمُ الى ما لا يكونُ التركيبُ فيهِ موجوداً فيظنُّ معدوماً ويُسمّى تفصيلَ المركَّبِ. والى عكسِهِ ويُسمّى تركيبَ المفصَّلِ واما (المتعلقةُ بالمعاني) فلا بدَّ ان تتعلقَ بالتأليفِ بين المعاني اذِ الافرادُ لا يُتصوَّرُ فيها غلطٌ لو لم يقعْ في تأليفِها بنحوٍ ما ولا يخلو من ان تتعلقَ بتأليفٍ يقعُ بين القضايا او بتأليفٍ يقعُ في قضيةٍ واحدةٍ. والواقعةُ بين القضايا اما قياسٍ

اَوْ غَيْرُ قِيَاسِيٍّ . وَالْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّأْلِيفِ الْقِيَاسِيِّ اِمَّا اَنْ تَقَعَ فِي الْقِيَاسِ نَفْسِهِ لَا بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ اَوْ تَقَعَ فِيهِ بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ . وَالْوَاقِعَةُ فِي نَفْسِ الْقِيَاسِ اِمَّا اَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَادَّتِهِ اَوْ بِصُورَتِهِ . اَمَّا (الْمَادِّيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مَثَلًا بِحَيْثُ اِذَا رُتِّبَتِ الْمَعَانِي فِيهَا عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ صَادِقًا لَمْ تَكُنْ قِيَاسًا وَاِذَا رُتِّبَتْ عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ قِيَاسًا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا كَقَوْلِنَا : كُلُّ اِنْسَانٍ نَاطِقٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ النَّاطِقِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ بِحَيَوَانٍ اِذْ مَعَ اِثْبَاتِ قَيْدِ (مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ) فِيهِمَا تُكْذِبُ الصُّغْرَى وَمَعَ حَذْفِهِ عَنْهُمَا تُكْذِبُ الْكُبْرَى . وَاِنْ حُذِفَ مِنَ الصُّغْرَى وَاُثْبِتَ فِي الْكُبْرَى تَنْقَلِبُ صُورَةُ الْقِيَاسِ لِعَدَمِ اشْتِرَاكِ الْاَوْسَطِ . وَاَمَّا (الصُّورِيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مِنْهُ عَلَى ضَرْبٍ غَيْرِ مُنْتِجٍ تَكُونُ اَيْضًا عَلَى ضَرْبٍ مُنْتِجٍ وَهٰذَا يُسَمَّى سُوءَ التَّأْلِيفِ بِاعْتِبَارِ الْبُرْهَانِ وَسُوءَ التَّرْكِيبِ بِاعْتِبَارِ غَيْرِهِ . وَاَمَّا (الْوَاقِعَةُ فِي الْقِيَاسِ بِالْقِيَاسِ اِلَى النَّتِيجَةِ) فَتَنْقَسِمُ اِلَى مَا لَا يَكُونُ النَّتِيجَةُ مُغَايِرَةً لِاَحَدِ اَجْزَاءِ الْقِيَاسِ فَلَا يَحْصُلُ بِالْقِيَاسِ عِلْمٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فِي الْمُقَدَّمَاتِ وَتُسَمَّى مُصَادَرَةً عَلَى الْمَطْلُوبِ . وَاِلَى مَا تَكُونُ مُغَايِرَةً لَكِنَّهَا لَا تَكُونُ مَا هِيَ الْمَطْلُوبُ مِنْ ذٰلِكَ الْقِيَاسِ وَيُسَمَّى وَضْعَ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً كَقَوْلِنَا : اَلْاِنْسَانُ وَحْدَهُ ضَحَّاكٌ وَكُلُّ ضَحَّاكٍ حَيَوَانٌ . وَاَمَّا (الْوَاقِعَةُ فِي قَضَايَا لَيْسَتْ بِقِيَاسٍ) فَتُسَمَّى جَمْعَ الْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ كَمَا يُقَالُ : زَيْدٌ وَحْدَهُ كَاتِبٌ . فَاِنَّهُ قَضِيَّتَانِ لِاِفَادَتِهِ اَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُهُ كَاتِبًا . وَاَمَّا (الْمُتَعَلِّقَةُ

بِٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ) فَإِمَّا أَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْئَيِ ٱلْقَضِيَّةِ جَمِيعًا وَذٰلِكَ يَكُونُ بِوُقُوعِ أَحَدِهِمَا مَكَانَ ٱلْآخَرِ وَيُسَمَّى إِبْهَامَ ٱلْعَكْسِ. وَمِنْهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى ٱلْجِنْسِ بِحُكْمِ نَوْعٍ مِنْهُ مُنْدَرِجٍ تَحْتَهُ نَحْوَ: هٰذَا لَوْنٌ وَٱللَّوْنُ سَوَادٌ فَهٰذَا سَوَادٌ. وَمِنْهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى ٱلْمُطْلَقِ بِحُكْمِ ٱلْمُقَيَّدِ بِحَالٍ أَوْ وَقْتٍ نَحْوُ: هٰذِهِ رَقَبَةٌ وَٱلرَّقَبَةُ مُؤْمِنَةٌ. وَإِمَّا أَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْءٍ وَاحِدٍ مِنْهَا. وَتَنْقَسِمُ إِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ بَدَلُ ٱلْجُزْءِ غَيْرُهُ مِمَّا يُشْبِهُهُ كَعَوَارِضِهِ أَوْ مَعْرُوضَاتِهِ مِنْهُ وَيُسَمَّى أَخْذَ مَا بِٱلْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِٱلذَّاتِ كَمَنْ رَأَى ٱلْإِنْسَانَ أَنَّهُ يَلْزَمُ لَهُ ٱلتَّوَهُّمُ وَٱلتَّكْلِيفُ فَظَنَّ أَنَّ كُلَّ مُتَوَهِّمٍ مُكَلَّفٌ. وَإِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ ٱلْجُزْءُ نَفْسُهُ وَلٰكِنْ لَا عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي كَمَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا لَيْسَ فِيهِ نَحْوُ: زَيْدٌ ٱلْكَاتِبُ إِنْسَانٌ. أَوْ لَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا هُوَ مِنَ ٱلشُّرُوطِ أَوِ ٱلْقُيُودِ كَمَنْ يَأْخُذُ غَيْرَ ٱلْمَوْجُودِ كَاتِبًا غَيْرَ بِوُجُودٍ مُطْلَقًا وَيُسَمَّى سُوءَ ٱعْتِبَارِ ٱلْحَمْلِ. فَقَدْ حَصَلَ مِنَ ٱلْجَمِيعِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ نَوْعًا سِتَّةٌ مِنْهَا لَفْظِيَّةٌ يَتَعَلَّقُ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِٱلْبَسَائِطِ هِيَ ٱلِٱشْتِرَاكُ فِي جَوْهَرِ ٱللَّفْظِ وَفِي أَحْوَالِهِ ٱلذَّاتِيَّةِ وَفِي أَحْوَالِهِ ٱلْعَرَضِيَّةِ وَثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِٱلتَّرْكِيبِ وَهِيَ ٱلَّتِي فِي نَفْسِ ٱلتَّرْكِيبِ وَتَفْصِيلِ ٱلْمُرَكَّبِ وَتَرْكِيبِ ٱلْمُفَصَّلِ. وَسَبْعَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ. أَرْبَعَةٌ مِنْهَا بِٱعْتِبَارِ ٱلْقَضَايَا ٱلْمُرَكَّبَةِ وَهِيَ سُوءُ ٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْمُصَادَرَةُ عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ وَوَضْعُ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً وَجَمْعُ ٱلْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ وَاحِدَةٍ. وَثَلَاثَةٌ بِٱعْتِبَارِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَهِيَ إِبْهَامُ ٱلْعَكْسِ وَأَخْذُ مَا بِٱلْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِٱلذَّاتِ وَسُوءُ ٱعْتِبَارِ ٱلْحَمْلِ. فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَجْزَاءُ

ٱلذَّاتِيَّةُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. وَأَمَّا ٱلْخَارِجِيَّاتُ فَمَا يَقْتَضِي ٱلْمُغَالَطَةَ بِٱلْعَرَضِ كَٱلتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْمُخَاطَبِ وَسَوْقِ كَلَامِهِ إِلَى ٱلْكَذِبِ بِزِيَادَةٍ اَوْ تَأْوِيلٍ وَإِيرَادِ مَا يُحَيِّرُهُ اَوْ يُجْبِنُهُ مِنْ إِغْلَاقِ ٱلْعِبَارَةِ اَوِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي اَنَّ ٱلْمَعْنَى دَقِيقٌ اَوْ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ كَٱلْخَلْطِ بِٱلْحَشْوِ وَٱلْهَذَيَانِ ٱلتَّكْرَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُطَوَّلَاتِ

البحث الخامس

في مقاطع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قَالَ ٱلْمَأْمُونُ لِبَعْضِهِمْ: مَنْ اَبْلَغُ ٱلنَّاسِ قَالَ مَنْ قَرَّبَ ٱلْاَمْرَ ٱلْبَعِيدَ وَٱلْمُتَنَاوَلَ ٱلصَّعْبَ ٱلدَّرَكِ بِٱلْاَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ. قَالَ: مَا عَدَلَ سَهْمُكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلٰكِنَّ ٱلْبَلِيغَ مَنْ كَانَ كَلَامُهُ فِي مِقْدَارِ حَاجَتِهِ لَا يُحِيلُ ٱلْفِكْرَةَ فِي ٱخْتِلَاسِ مَا صَعُبَ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَلَا يُكْرِهُ ٱلْمَعَانِيَ عَلَى إِثْرَالِهَا فِي غَيْرِ مَنْزِلِهَا وَلَا يَتَعَمَّدُ ٱلْغَرِيبَ ٱلْوَحْشِيَّ وَلَا ٱلسَّاقِطَ ٱلسُّوقِيَّ فَإِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِذَا اَعْتَزَلَتْهَا ٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ كَانَتْ كَٱللَّالِيِّ بِهَا نِظَامٌ. وَقَالَ اَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحُ لِكَاتِبِهِ: قِفْ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَحُدُودِهِ وَإِيَّاكَ اَنْ تُخَالِطَ ٱلْمَرْعِيَّ بِٱلْمُهْمَلِ. وَمِنْ حِلْيَةِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْمَعْرِفَةُ

بِمَرَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ ٱلْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ ٱلْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ إِلَّا عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ وَأَعْطَى حَقَّ ٱلْمَقَامِ وَغَاصَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَعَانِي بِأَلْطَفِ مُخْرَجٍ حَتَّى كَانَ يَقِفُ عِنْدَ ٱلْمَقَاطِعِ وُقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَبْتَغِيهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ :

إِذَا مَا بَدَا بَيْنَ ٱلْمَنَابِرِ قَائِلًا ... أَصَابَ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ٱلْمَفَاصِلَا

وَلَا أَعْرِفُ فَصْلًا فِي كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَبِيبِ ٱبْنِ شُبَّةَ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ ٱلْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ ٱلصَّمَدِ بْنُ ٱلْفَضْلِ ٱلرَّقَاشِيُّ فَلَمَّا رَآهُ شَبِيبٌ قَالَ : أَتَاكُمْ وَٱللهِ كَلِيمُ ٱلنَّاسِ فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَبِيبٌ: تَكَلَّمْ يَا أَبَا ٱلْعَبَّاسِ. فَقَالَ : أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا. قَالَ : نَعَمْ فَوَٱللهِ مَا رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ. فَقَالَ أَيَّ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ. (قَالَ) وَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ عَصًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَبِيبٌ: صِفْ هٰذِهِ ٱلْعَصَا. فَحَمِدَ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ ٱلسَّمَاءَ فَقَالَ: رَفَعَهَا ٱللهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رَجْمٍ وَنُجُومَ ٱهْتِدَاءٍ وَأَدَارَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَأَنْزَلَ مِنْهَا مَاءً مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلضَّرْعَ وَأَدَرَّ بِهِ ٱلْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ ٱلْأَرْوَاحَ وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يَصْرِفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةَ ثَمَرٍ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يُقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ. فَبَيْنَا نَرَاهَا خَضْرَاءَ تَرِفَّةً إِذْ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا ٱلْعِبَادُ وَيُعْمَرُ بِهَا ٱلْبِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا هٰذِهِ ٱلْعِصَاءَ (ثُمَّ ٱقْبَلَ عَلَى ٱلشَّيْخِ فَقَالَ) : فَكَانَ هٰذَا ٱوْجَدَهُ ٱللهُ بَعْدَ عَدَمٍ وَٱنْشَأَهُ امْرَدَ وَشَابًّا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ إِلَى هٰذِهِ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْكِبَرِ فَٱحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ إِلَى هٰذِهِ ٱلْعِصَا فَتَبَارَكَ ٱللهُ ٱلْمُدَبِّرُ لِلْعِبَادِ. قَالَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ: فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا عَلَى يَدَيْهِ اَحْسَنَ مِنْهُ. وَلَمَّا اَقَامَ اَبُو جَعْفَرٍ صَالِحًا خَطِيبًا بِحَضْرَةِ شَبِيبِ بْنِ شُبَّةَ وَاَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَتَكَلَّمَ اَقْبَلَ شَبِيبٌ فَقَالَ : يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا رَاَيْتُ كَٱلْيَوْمِ اَبْيَنَ بَيَانًا وَلَا اَرْبَطَ جَنَانًا وَلَا اَفْصَحَ لِسَانًا وَلَا اَبَلَّ رِيقًا وَلَا اَغْمَضَ عُرُوقًا وَلَا اَحْسَنَ طَرِيقًا إِلَّا اَنَّ ٱلْجَوَادَ عَسِيرٌ لَمْ يُرَضْ فَحَمَلَتْهُ ٱلْقُوَّةُ عَلَى تَعَسُّفِ ٱلْآكَامِ وَخَبْطِهَا وَتَرْكِ ٱلطَّرِيقِ ٱلْاَحَبِّ وَاَيْمُ ٱللهِ اِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ لَكَانَ اَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِلِسَانٍ. وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ : مَا اُعْجَبُ بِكِتَابِ اَحَدٍ كَاِعْجَابِي بِكِتَابِ ٱلْقَسَمِ بْنِ عِيسَى فَاِنَّهُ فِي غُرَّةِ عُمُرِهِ وَيُصِيبُ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ ٱلْمَقْدُرَةُ إِلَى ٱلْاِطْنَابِ وَلَا تَمِيلُ بِهِ ٱلْغَزَارَةُ اِلَى ٱلْاِسْهَابِ يُجْلِي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ ٱلْمَغْزَى فِي اَلْفَاظِهِ. وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ : اِيَّاكُمْ اَنْ تَجْعَلُوا ٱلْفَصْلَ وَصْلًا فَاِنَّهُ اَشَدُّ وَاَعْجَبُ وَاَعْيَبُ مِنَ ٱللَّحْنِ. وَلْيَكُنِ ٱلتَّفَقُّدُ لِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ. وَكَانَ اَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ اِذَا كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْتَكْتِبُهُ قَالَ لِكَاتِبِهِ : اَفْصِلُوا بَيْنَ مُنْقَضَى فَصْلٍ وَصِلُوا اِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ مَعْجُونًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. وَكَانَ

اَلْحارِثُ بْنُ اَبي شَمِرَ اَلْغَسّانِيُّ يَقُولُ لِكاتِبِهِ اَلْمُرَقِّشِ : اِذا تَرَعَ بِكَ اَلْكَلامُ اِلَى اَبْتِداءِ مَعْنًى غَيْرِ مَا اَنْتَ فِيهِ فَصِلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا تَبْتَغِيهِ مِنَ اَلْاَلْفاظِ فَاِنَّكَ اِنْ مَذَقْتَ اَلْفاظَكَ بِغَيْرِ مَا يَحْسُنُ اَنْ تُمْذَقَ بِهِ نَفَرَتِ اَلْقُلُوبُ عَنْ وَعْيِها وَمَلَّتْهُ اَلْاَسْماعُ وَاسْتَثْقَلَتْهُ اَلرُّواةُ. وَكانَ بَزْرُجْمِهَرَ يَقُولُ : اِذا مَدَحْتَ رَجُلًا وَهَجَوْتَ آخَرَ فَاجْعَلْ بَيْنَ اَلْقَوْلَيْنِ فَصْلًا حَتّى تُعْرَفَ اَلْمَدْحَ مِنَ اَلْهِجاءِ كَما تَفْعَلُ فِي كُتُبِكَ اِذا اَسْتَأْنَفْتَ اَلْقَوْلَ وَاَكْمَلْتَ مَا سَلَفَ مِنَ اَللَّفْظِ. وَقالَ اَلْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ لِكاتِبِهِ اَلْخُرَاسانِيِّ : مَا مَنْزِلَةُ اَلْكاتِبِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ. قالَ : اَنْ يَكُونَ مَطْبُوعًا مُحْتَنِكًا بِالتَّجْرِبَةِ سالِمًا بِخِلالِ اَلْكِتابِ وَالسُّنَّةِ وَحَرامِها بِالدُّهُورِ فِي تَداوُلِها وَتَصَرُّفِها وَبِالْمُلُوكِ فِي سِيَرِها وَاَيّامِها مَعَ بَراعَةِ اَللَّفْظِ وَحُسْنِ اَلنَّسَقِ وَتَاْلِيفِ اَلْاَوْصالِ بِمُشاكَلَةِ اَلِاسْتِعارَةِ وَبِشَرْحِ اَلْمَعْنَى حَتّى يُنْصَبَ صُوَرُها. وَبِتَقاطِعِ اَلْكَلامِ وَمَعْرِفَةِ اَلْفَصْلِ مِنَ اَلْوَصْلِ وَاِذا كانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهُوَ كاتِبٌ مُجِيدٌ. وَقالَ اَلْمَأْمُونُ : مَا اَتَحَفَّظُ مِنْ رَجُلٍ شَيْئًا كَتَحَفُّظِي عَنِ اَلْفَصْلِ وَالْوَصْلِ فِي كِتابِهِ وَالتَّخَلُّصِ مِنَ اَلْمَحْلُولِ اِلَى اَلْمَعْقُودِ وَاِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جَمالًا وَحِلْيَةُ اَلْكِتابِ وَجَمالُهُ اِيقاعُ اَلْفَصْلِ وَقْعَهُ وَتَحْذُ اَلْفِكَرِ وَاِجالَتُها فِي لُطْفِ اَلتَّخَلُّصِ مِنَ اَلْمَعْقُودِ اِلَى اَلْمَحْلُولِ. (قُلْنا) : وَمَعْنَى اَلْمَعْقُودِ وَالْمَحْلُولِ هٰا هُنا هُوَ اَنَّكَ اِذا اَبْتَدَاْتَ مُخاطَبَةً ثُمَّ لَمْ تَنْتَهِ اِلَى مَوْضِعِ اَلتَّخَلُّصِ فَما عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلامَكَ سُمِّيَ اَلْكَلامَ مَعْقُودًا. وَاِذا شَرَحْتَ اَلسُّتُورَ وَاَبَنْتَ عَنِ اَلْغَرَضِ اَلْمَنْزُوعِ اِلَيْهِ

سُمِّيَ ٱلْكَلَامُ مَحْلُولًا مِثَالُ ذٰلِكَ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ ٱنْظُرْ سَدَّدَ ٱللّٰهُ رَأْيَكَ اَنْ لَا تَدَعُوَكَ مَقْدَرَتُكَ عَلَى ٱلْكَلَامِ اِلَى اِطَالَةِ ٱلْمَعْقُودِ فَاِنَّ ذٰلِكَ مِنْسَاءٌ مَا اَكْنَنْتَهُ فِي صَدْرِكَ وَاَوْرَدْتَ تَضْمِينَهُ فِي كِتَابِكَ. وَاَعْلَمْ اَنَّ اِطَالَةَ ٱلْمَعْقُودِ تُورِثُ نِسْيَانَ مَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ وَاَرْتَهَنْتَ بِهِ فِكْرَتَكَ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ لَمْ اَرَ مُتَكَلِّمًا قَطُّ اَذْكَرَ لِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ وَلَا اَحْفَظَ لِمَا سَلَفَ مِنْ نُطْقِهِ مِنْ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُشَيِّعُ ٱلْمَعْقُودَ بِٱلْمَعَانِي يَصْعُبُ ٱلْخُرُوجُ مِنْهَا اِلَى غَيْرِهَا ثُمَّ يَأْتِي بِٱلْمَحْلُولِ وَاضِحًا بَيِّنًا وَمَشْرُوحًا مُنَوَّرًا وَكَانَ ٱلسَّامِعُ لَا يَعْرِفُ مَغْزَاهُ وَمَقْصَدَهُ فِي اَوَّلِ كَلَامِهِ حَتَّى يَصِيرَ اِلَى آخِرِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ عَمَلُ مِنَ ٱلْقَائِلِ اَنْ يَكْتُمَ مَغْزَاهُ عَنِ ٱلسَّامِعِ لِكَلَامِهِ فِي اَوَّلِ اَبْتِدَائِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ اِلَى آخِرِهِ بَلِ ٱلْاَحْسَنُ اَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَاجَتِهِ وَمُبَيِّنٌ لِمَغْزَاهُ وَمَقْصِدِهِ كَمَا اَنَّ اَخْيَرَ اَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا اِذَا سَمِعْتَ صَدْرَهُ عَرَفْتَ قَافِيَتَهُ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ: ٱلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْاِبْتِدَاءِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَاَنَا مُوَكَّلٌ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَخَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا وُقِفَ عِنْدَ مَقَاطِعِهِ وَبُيِّنَ مَوْقِعُ فُصُولِهِ

الفصل الثامن

في التعبير

البحث الاوّل

في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَبَلَةَ بْنِ مَخْرُمَةَ ٱلسَّكُونِيِّ ٱلْخَطِيبِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِتْيَانَهُمُ ٱلْخَطَابَةَ فَوَقَفَ بِشْرٌ يَسْتَمِعُ فَظَنَّ إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ إِنَّمَا وَقَفَ لِيَسْتَفِيدَ أَوْ يَكُونَ رَجُلًا مِنَ ٱلنُّظَّارَةِ فَقَالَ بِشْرٌ: إِضْرِبُوا عَمَّا قَالَ صَفْحًا وَأَطْوُوا عَنْهُ كَشْحًا. ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِمْ صَحِيفَةً مِنْ تَنْسِيقِهِ وَتَخْيِيرِهِ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ نَفْسَكَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلِٱسْتِمَاعِ وَأَحْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمَكَ ٱلْأَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُطَاوَلَةِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ بِٱلتَّكْلِيفِ وَٱلْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَأَكَ

لَمْ يُخْطِئْكَ اَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا وَخَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ مِنْ مَعْدِنِهِ. وَاِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَاِنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ اِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ اَلْفَاظَكَ وَمَنْ اَذَاعَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَهُ لَفْظًا كَرِيمًا فَاِنَّ حَقَّ اَلْمَعْنَى اَلشَّرِيفِ اَللَّفْظُ اَلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهَا اَنْ تَصُونَهَا عَمَّا يُفْسِدُهَا وَيُهَجِّنُهَا وَعَمَّا تَعُودُ مِنْ اَجْلِهِ اِلَى اَنْ تَكُونَ اَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ اَنْ تَلْتَمِسَ اِظْهَارَهَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ بِمُلَابَسَتِهَا وَقَضَاءِ حَقِّهَا. فَكُنْ فِي ثَلَاثَةِ مَنَازِلَ فَاَوَّلُ ذٰلِكَ اَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اَوْ فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا اِمَّا عِنْدَ اَلْخَاصَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ وَاِمَّا عِنْدَ اَلْعَامَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ اَرَدْتَ. وَاَلْمَعْنَى لَيْسَ يَتَّضِعُ اَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي اَلْعَامَّةِ. وَاِنَّمَا مَدَارُ اَلْاَمْرِ عَلَى اَلشَّرَفِ مَعَ اَلصَّوَابِ وَاِحْرَازِ اَلْمَنْفَعَةِ مَعَ مُوَافَقَةِ اَلْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ اَلْمَقَالِ. وَكَذٰلِكَ اَللَّفْظُ اَلْعَامِّيُّ وَاَلْخَاصِّيُّ فَاِنْ اَمْكَنَكَ اَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ لَفْظِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَقَدْرِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى اَنْ تُفْهِمَ اَلْعَامَّةَ مَعَانِيَ اَلْخَاصَّةِ وَتَكْسُوَهَا اَلْاَلْفَاظَ اَلْمُتَوَسِّطَةَ اَلَّتِي لَا تَلْطُفُ عَنِ اَلدَّهْمَاءِ وَلَا تَجْفُو عَنِ اَلْاَكْفَاءِ فَاَنْتَ اَلْبَلِيغُ اَلتَّامُّ. فَقَالَ لَهُ اِبْرَاهِيمُ بْنُ جَبَلَةَ جُعِلْتُ فِدَاكَ اَنَا اَحْوَجُ اِلَى تَعْلِيمِي هٰذَا اَلْكَلَامَ مِنْ هٰؤُلَاءِ اَلْعِلْمَةِ

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنتُ ذَكَرتُ لَكَ اَسعَدَكَ اللهُ اِكثَارَ النَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي وَصفِ البَلَاغَةِ وَتَعرِيفِهِم القَولَ فِي اَقسَامِهَا وَاَنوَاعِهَا وَاَنَّهَا اَلفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ المَعَانِي فَمِنهَا مَا يَكُونُ فِي النَّظمِ وَمِنهَا مَا يَكُونُ فِي النَّثرِ وَيَكُونُ فِي المُكَاتَبَةِ وَالرَّسَائِلِ وَالخُطَبِ وَالتَّشبِيهَاتِ وَالاَوصَافِ وَفِي السُّؤَالِ وَالجَوَابِ وَغَيرِ ذَلِكَ. فَاَمَّا بَلَاغَةُ الشِّعرِ فَعُذُوبَةُ الاَلفَاظِ وَتَقرِيبُ المَعَانِي وَاتِّسَاقُ النَّظمِ وَرَشَاقَةُ المَعرِضِ كَقَولِ النَّابِغَةِ:

فَاِنَّكَ كَاللَّيلِ الَّذِي هُوَ مُدرِكِي وَاِن خِلتُ اَنَّ المُنتَاَى عَنكَ وَاسِعُ

وَقَولِ اَمرِئِ القَيسِ فِي وَصفِ فَرَسِهِ وَالتَّشبِيهِ (بِقَيدِ الاَوَابِدِ). وَقَولِ الاَعشَى: (فَهُم سَاكِنُونَ وَالمَنِيَّةُ تَنطِقُ). وَمِنهَا مَا يَكُونُ بِاِصَابَةِ المَعنَى وَقَرعِ الحُجَّةِ وَالاَصلُ عِندَهُم فِيهَا اَنَّهَا اَلفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ المَعَانِي فَاَحسَنُهَا مَا يَزِيدُ فِي كَشفِ المَعنَى مَعَ اختِصَارِهِ بِاَقَلِّ مَا يُمكِنُ مِنَ العِبَارَةِ بِاَعذَبِ الاَلفَاظِ وَاَحقَّهَا عَلَى الاَسمَاعِ وَاَقرَبِهَا اِلَى القُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرتُ لَكَ اَنَّ البَلَاغَةَ لَيسَت مَقصُورَةً عَلَى اُمَّةٍ دُونَ اُمَّةٍ وَلَا عَلَى مَلِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لِسانٍ بَلْ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى اَكْثَرِ اَلْاَلْسُنَةِ فَهُم فِيهَا مُشْتَرِكُونَ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ اَلْيُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ اَلْعَجَمِ وَكَلَامِ اَلْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ وَلٰكِنَّهَا فِي اَلْعَرَبِ اَكْثَرُ لِكَثْرَةِ تَصَرُّفِهَا فِي اَلنَّثْرِ وَاَلنَّظْمِ وَاَلْخُطَبِ وَاَلْكُتُبِ وَاَلسَّجْعِ وَاَلْمُزْدَوَجِ وَاَلرَّجَزِ. وَهُمْ اَيْضًا مُتَفَاوِتُونَ فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ اَلْعَبْدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ اَلْاَمَةُ بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُهَا. فَالْبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي اَعْرَابِ اَلْبَادِيَةِ دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا اَلصَّبِيُّ وَاَلْمَرْاَةُ... قَالَ اَلشَّيْخُ اَبُو اَحْمَدَ: وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهِ وَبُعْدِ تَنَافِيهِ اَنْ يَاْتِيَ بَدَوِيٌّ اُمِّيٌّ جِلْفٌ جَافٍ فَيَبْتَدِعَ بِفِكْرِهِ وَقَرِيحَتِهِ اَلْمَعْنَى اَلْبَدِيعَ وَاَلتَّشْبِيهَ اَلْمُصِيبَ وَاَلسُّؤَالَ اَللَّطِيفَ وَاَلْمَدْحَ اَلشَّرِيفَ وَاَلْغَزَلَ اَلرَّقِيقَ وَاَلْهِجَاءَ اَلْمُوجِعَ وَاَلذَّمَّ اَلْمُفْلِقَ بِنَظْمٍ عَجِيبٍ وَقَوَافٍ مُنْتَظِمَةٍ وَاَوْزَانٍ تَامَّةٍ وَاَقْسَامٍ مُعَدَّلَةٍ وَاَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ عَذْبَةٍ يَشْتَهِي سَامِعُهَا اَنْ يَحْفَظَهَا ثُمَّ يَشْتَهِي اَنْ يُحَاضِرَ اَهْلَ اَلْمُرُوَّاتِ بِهَا مُمَثِّلًا اَوْ شَاكِرًا اَوْ عَاتِبًا اَوْ مُهَنِّئًا اَوْ مُعَزِّيًا فَلَا يَزْدَادُ عَلَى اَلدَّهْرِ اِلَّا نَضَارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونَ مَنْ خَلَا مِنْهَا نَاقِصَ اَلْاَدَبِ وَاَلْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ اِمْرِئِ اَلْقَيْسِ:

كَاَنَّ قُلُوبَ اَلطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا اَلْعُنَّابُ وَاَلْحَشَفُ اَلْبَالِي

وَكَقَوْلِ اَلنَّابِغَةِ: فَاِنَّكَ كَاَللَّيْلِ اَلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي. وَكَقَوْلِ اَلْحُطَيْئَةِ: لَا يَذْهَبُ اَلْعُرْفُ بَيْنَ اَللّٰهِ وَاَلنَّاسِ. ثُمَّ يَجْتَهِدُ اَلْعَارِفُ اَلْمُصِيبُ وَاَلْعَالِمُ اَلْاَدِيبُ وَاَلرَّيِّضُ اَلْحَاذِقُ اَنْ يُدْرِكَ شَاْوَهُ فَلَا يُشَقَّ غُبَارُهُ. قَالَ: سُئِلَ بَعْضُ اَلْعُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ اَلْبَلَاغَةِ فَقَالَ:

ٱلتَّقَرُّبُ مِنْ مَعْنَى ٱلْبُغْيَةِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ. قَالَ ٱلشَّيْخُ: وَأَكْثَرُ مَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّهَا ٱلْاِخْتِصَارُ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقِصَارِ وَٱلْاِقْتِصَارُ عَلَى ٱلْإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَٱلدَّلَالَةِ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ. وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ: لَحْظَةٌ دَالَّةٌ. وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ فِي ٱلْحَذْفِ وَٱلْاِخْتِصَارِ وَكَذٰلِكَ جَعَلَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِحْضَارَ فَرَسِهِ وَسُرْعَةَ لَحَاقِهِ لِلصَّيْدِ وَأَنَّ ٱلْأَوَابِدَ لَا تَطْمَعُ فِي ٱلْخَلَاصِ مِنْهُ فَجَمَعَ هٰذَا فِي قَوْلِهِ: (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ). وَكَذٰلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ: (إِنَّ ٱلْجَوَادَ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمُ). فَفِي قَوْلِهِ (عَلَى عِلَّاتِهِ) مَا يَنُوبُ عَنْ كُلِّ مَانِعٍ كَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى: فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ وَهٰذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا أَوْرَدْنَاهُ بَلَاغٌ. . . . وَلِهٰذَا وَقَّعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى كُتَّابِهِ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ مِثْلَ ٱلتَّوْقِيعِ يَحُضُّ بِذٰلِكَ عَلَى غَايَةِ ٱلْحَذْفِ وَٱلْاِخْتِصَارِ. وَمِنْ هٰذَا أَنَّ ٱلْمَأْمُونَ أَمَرَ عَمْرَو بْنَ مَسْعَدَةَ ٱلْكَاتِبَ أَنْ يَكْتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَى بَعْضِ ٱلْعُمَّالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَأَنْ يَخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا أَمْكَنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ بِلَا زِيَادَةٍ فَكَتَبَ عَمْرٌو: كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابُ وَاثِقٍ بِمَنْ كَتَبَ إِلَيْهِ مَعْنِيٌّ بِمَنْ كَتَبَ لَهُ وَلَنْ يُضِيعَ بَيْنَ ٱلثِّقَةِ وَٱلْعِنَايَةِ حَامِلُهُ. وَمِنْ هٰذَا مَا كَتَبَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَى ٱلْحَجَّاجِ وَقَدْ تَلَكَّأَ عَنْ بَيْعَتِهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ أُخْرَى فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَٱعْتَمِدْ عَلَى أَيِّهِمَا شِئْتَ وَٱلسَّلَامُ. وَسَأَذْكُرُ فِي هٰذَا

ٱلْمَوْضِعِ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ. ثُمَّ ٱذْكُرْ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَيَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِئٌ دَلَّتْ عَلَى ٱنْفُسِهَا فِي ٱلْإِيجَازِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلْجَمْعِ لِلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ: دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفْظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِيَ كَثِيرَةً جَلِيلَةَ ٱلْقَدْرِ لِأَنَّ ٱلْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ ٱلْبِنَاءُ عَلَى ٱلْبَانِي وَٱلْكِتَابُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ. فَٱنْظُرْ كَمْ بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سُئِلَ مَا ٱلَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱللهِ وَيُثْبِتُ ٱلْعِلْمَ بِٱلْغَيْبِ فَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحُوطُهُ فَمَنْ كَانَ مُعْتَبِرًا بِٱلْجَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا بَارِئًا يُجْرِي فَلَكَهَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا. وَمَنِ ٱعْتَبَرَ بِٱلصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَبَّةِ ٱلْخَرْدَلِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرَكِّبُهَا وَيُقَدِّرُ لَهَا أَقْوَاتًا مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَيُوَقِّتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا. وَأَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْآيَاتِ وَمَا يَحْدُثُ فِي أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُهَّالِ وَٱلْمُهْتَدِينَ وَٱلضُّلَّالِ عَلَى ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَٱجْتِمَاعُ مَنْ شَكَّ فِي ٱللهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُحْدِثُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى ٱللهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنْشَأَ ٱلْخَلْقَ وَدَبَّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمُورَ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ عَلَى طُولِهِ قَدِ ٱنْتَظَمَ أَكْثَرَ مَعَانِيهِ فِي قَوْلِ سُقْرَاطَ: دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. (وَقَالَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ) وَعَظَكَ

فِكْرَكَ وَارْشَدَكَ عَقْلُكَ حِينَ حَيَّرَكَ سَمْعُكَ وَغَشَّكَ مُخْبِرُكَ وَانَّ الْانْسَانَ بِاخْتِلَافِ الْمَسْمُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بِغِشِّ الْمُخْبِرِينَ وَيَسُومُهُمْ فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيُمَيِّزُ لَهُ عَقْلُهُ الصَّوَابَ مِنَ الْخَطَإِ وَيُرْشِدُهُ الَى الْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الْحَيْرَةِ. وَقَالَ مُطَلِّبُ الْرَّائِيُّ لِلْاِسْكَنْدَرِ: اَخْلَاقُكَ تَجْعَلُ الْعَدُوَّ صَدِيقًا وَاحْكَامُكَ تَجْعَلُ الصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ. (قَالَ الشَّيْخُ) فَانْظُرِ الْآنَ كَمْ مَعْنًى حَسَنٍ تَحْتَ هٰذِهِ الْالْفَاظِ الْقَلِيلَةِ يَعْنِي انَّ حُسْنَ خُلُقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ الَى صَدَاقَتِهِ وَانَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَانَّ عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَاضِي الدُّهُورِ قَدْ شَهِدَ بِانَّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ الْعُصُورِ. وَهٰذَا كَلَامٌ مَنْقُولٌ الَى الْعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بِلُغَتِهِ كَانَ افْصَحَ وَاحْسَنَ. وَلَمَّا شَاوَرَ ابُو مُسْلِمٍ بَعْضَ الْفُرْسِ فِي امْرِهِ قَالَ لَهُ: قُلْ مَا يُقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهُلُ وَاعْمَلْ مَا يَجْمُلُ. فَجَمَعَ لَهُ بِهٰذِهِ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ اكْثَرَ مَعَانِي السِّيَاسَةِ. وَفِي مَا يُرْوَى انَّ بَعْضَهُمْ رَاَى شَابًّا لَا ادَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمُ ذَهَبٍ فَقَالَ: حِمَارٌ عَلَيْهِ لِجَامُ ذَهَبٍ. وَنَظَرَ الَى شَابٍّ احْمَقَ قَاعِدًا عَلَى حَجَرٍ. فَقَالَ: هٰذَا حَجَرٌ قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ. وَقَالَ ارِسْطَاطَالِيسُ: الْحَاجَةُ الَى الْعَقْلِ اقْبَحُ مِنَ الْحَاجَةِ الَى الْمَالِ. وَقَالَ: غَيْرُ مُحِبِّ الشَّرَفِ هُوَ الَّذِي يُتْعِبُ نَفْسَهُ بِالنَّظَرِ فِي الْعِلْمِ. وَقَالَ سُقْرَاطُ: اللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. وَرَاَى سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاهِلًا فَقَالَ: هٰذَا مُسْتَحِثٌّ. يَعْنِي يُعَجِّلُ بِمَنْ يُعَالِجُ الَى الْمَوْتِ. وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِذَتِهِ: قَدْ مَاتَ اُسْتَاذُكَ. فَقَالَ: الْوَيْحُ لِي

لَقَدْ ضَاعَ مِسَنُّ عَقْلِي

(قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى فِي كَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَلَاسِيَّا فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمْ ٱلَّذِينَ أَخْرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ ٱلتَّوْقِيعِ. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْكَى أَنَّ أَنُوشِرْوَانَ وَقَّعَ فِي وِلَايَةِ ٱلْخَرَاجِ: ٱلْخَرَاجُ عَمُودُ ٱلْمُلْكِ وَمَا ٱسْتُنْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْجَوْرِ وَلَا ٱسْتُغْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْعَدْلِ. وَوَقَّعَ أَيْضًا فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ وَكِيلٍ لَهُ أَمَرَهُ بِبِنَاءِ قَصْرٍ فَأَخَّرَهُ: أَنْتَ مَاشٍ وَٱلْأَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَٱلْعَمَلُ بَاعٌ وَٱلْعِنَايَةُ وِتْرٌ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ كَثُرَتْ أَمْثَالَ ٱلْعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى أَمْثَالِ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ٱلْعَرَبِ ٱلشِّعْرُ أَيْضًا عَلَى قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ فَلِلْفُرْسِ أَشْعَارٌ لَا تُضْبَطُ كَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ أَشْعَارٌ دُونَ ٱلْفُرْسِ. وَكَانَ أَفْلَاطُونُ بَعْضَ مَنْ يَقُولُ ٱلشِّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذَمِّهِ: إِنَّ ٱلشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلسَّمْعِ وَٱلْمُزَوِّقُ مُصَوِّرٌ لِلْبَصَرِ. فَأَمَّا ٱلْفُرْسُ فَفِي مَنْثُورِ أَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ حُرُوبِهِمْ أَشْعَارٌ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُخَلَّدُ فِي ٱلْخَزَائِنِ ٱلَّتِي كَانَتْ بُيُوتَ ٱلْحِكْمَةِ ثُمَّ دَرَسَ أَكْثَرُهَا مَعَ دَرْسِ كَلَامِهِمْ وَبَقِيَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّوَائِرِ مِنَ ٱلْأَمْثَالِ تَجْرِي عَلَى أَفْوَاهِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ. وَحَكَى أَبُو حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ أَوْصَلَ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ ٱلْبَاهِلِيِّ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ مَثَلٍ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي ٱلْجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقَطَنِيِّ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقَرَاطِيسِ فَتَفَرَّدَتِ ٱلْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ ٱلْأُمَمِ بِكَثْرَةِ ٱلْأَمْثَالِ... وَمِنْ تَوْقِيعَاتِ ٱلْعَجَمِ تَوْقِيعُ أَرْدَشِيرَ بْنِ بَابَكَ وَكَانَ أَهْلُ زَمَانِهِ قَحِطُوا فَرَفَعُوا إِلَيْهِ قِصَّةً يَشْكُونَ ذٰلِكَ فَوَقَّعَ

الى صاحب بيت المال : اذا قحط المطر جادت سحائب الملك . ففرق فيهم ما قاتهم ومانهم . وشكي مثل ذلك الى قباذ بن كسرى فوقع ليكن بنا البر للرعية والاحسان اليهم فاني واياهم في نفع ذلك مستوون . ومدح رجل من الخاصة كسرى بن قباذ بمدح اطنب فيه واسهب وذهب كل مذهب وكان المدح في رقعة . فوقع فيها كسرى اني للمدح مستصغر لعلمي باشياء قد مدحت وكانت بان تذم محقوقة . ووقع انوشروان في رقعة متصح : ثمرات النصائح شكر الجوارح وخرج التوقيع الى وزير له امر له بجائزة واثنى عليه وقال : قد جمعنا الى شكر اللسان شكر اليد وهو البذل . ووقع كسرى في رقعة رجل سأله فيها النقلة عن صناعته الى صناعة غيرها وكانت صناعته خسيسة فاختار صناعة رفيعة فوقع في رقعته . انا حامل للرعية على لزوم مناذلهم وصنائعهم ولنفسي على ما يحمل على اللزوم لها

ومن حد البلاغة جمع المعاني الكثيرة في الالفاظ اليسيرة فقد سئل خلف الاحمر فقيل له : ما لنا نرى في الكلام القليل عدة معان . فقال : ان كلام العرب اوعية والمعاني امتعة فربما جعلت ضروب من الامتعة في وعاء واحد ... وحكي عن جعفر ابن يحيى وكان قريع دهره بلاغة في المكاتبة وجودة لسان في المخاطبة انه قال : اذا كان الايجاز كافيا كان التطويل عيا وان كان التطويل واجبا كان التقصير عجزا . وحكى المفضل قال : قلت

لِأَعْرَابِي: مَا ٱلْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: ٱلْإِيجَازُ مِنْ غَيْرِ عَجْزٍ وَٱلْإِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ. وَوَصَفَ ٱلْجَاحِظُ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ فَقَالَ: كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَسْتَدْعِي مَعْنًى مِنْ بُعْدٍ. قَالُوا: وَٱلْبَلِيغُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلَّذِي تَكُونُ ٱلْأَلْفَاظُ عِنْدَهُ عَزِيزَةً وَٱلْمَعَانِي فِي نَفْسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً. وَقَالُوا: وَمَحْصُورُ ٱلْبَلَاغَةِ اَنَّ لَهَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ: حَالًا يَحْتَاجُ اِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ اَجْلِهَا. وَحَالًا يَحْتَاجُ اِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ. وَحَالًا مُرَكَّبَةً مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱسْمِهَا. وَلِلْبَلَاغَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ تُقْصَدُ فِي ٱسْتِعْمَالِهَا. اَحَدُهَا ٱلْمُسَاوَاةُ وَهِيَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ كَٱلْقَالَبِ لِلْمَعْنَى لَا يَفْضُلُ عَنْهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ. وَٱلثَّانِي ٱلْإِشَارَةُ وَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ مُشَارًا بِهِ اِلَى ٱلْمَعْنَى بِٱللَّمْحَةِ ٱلدَّالَّةِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلتَّبْدِيلُ وَهُوَ اِعَادَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِعَيْنِهِ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ وَيَتَوَكَّدَ عِنْدَ مَنْ فَهِمَهُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ مَوْطِنٌ يَلِيقُ بِهِ وَوَقْتٌ لَا يَصْلُحُ فِيهِ غَيْرُهُ وَسَاَذْكُرُ هٰهُنَا صَدَدًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْقِصَارِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا يَتَضَمَّنُ ٱلْفِقَرَ ٱلْمُخْتَارَةَ وَٱلْمَعَانِيَ ٱلْمَجْمُوعَةَ بِٱللَّفْظِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ. وَكَقَوْلِ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ سِتُّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ اِلَيْهَا اَحَدٌ تُوزَنُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهَا بِاَلْفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ اَصْحَابِهِ وَمِنَ ٱلْأُدَبَاءِ وَهِيَ: ٱلْأُولَى قَوْلُهُ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ. ٱلثَّانِيَةُ: ٱلنَّاسُ اَعْدَاءُ لِمَا جَهِلُوا. ٱلثَّالِثَةُ: لِسَانُكَ يَقْتَضِيكَ مَا عَوَّدْتَهُ.

اَلرَّابِعَةُ : رَحِمَ اللهُ اَمْرَءًا عَرَفَ قَدْرَهُ . اَلْخَامِسَةُ : لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ . اَلسَّادِسَةُ : اَلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ اَلشِّعْرُ مِيزَانُ اَلْقَوْمِ وَالْعَرُوضُ مِيزَانُ اَلشِّعْرِ . وَقَوْلُ عُمَرَ : هَاجِرُوا وَلَا تَهْجِرُوا وَاَلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ . وَقَوْلُهُمْ : اَلسَّعِيدُ مَنْ كُفِيَ . وَقَوْلُهُمْ : اِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ . وَقَوْلُهُمْ : رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ . رُبَّ مَلُومٍ غَيْرُ مُلِيمٍ . رُبَّمَا قَتَلَ اَلْبَلِيغَ لِسَانُهُ . اَلْعُيُونُ عُنْوَانُ اَلْقُلُوبِ . اَلْقُلُوبُ اَبْصَرُ مِنَ اَلْعُيُونِ . مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ اَتَّسَعَ لِسَانُهُ . وَقَوْلُ اَلْاَعْرَابِيِّ وَقَدْ سَاَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ فَرَسِهِ فَقَالَ : يُحْضِرُ مَا وَجَدَ اَرْضًا . وَقَالَ آخَرُ : يَسْبِقُ اَلطَّرْفَ وَيَسْتَغْرِقُ اَلْوَصْفَ . عُوجُ اَللِّسَانِ طَوْعُ اَلْعَنَانِ كَاَنَّهُ مَوْجٌ يَمُورُ اَوْ سَيْلٌ فِي حُدُورٍ . وَقَوْلُهُمْ : اَلْفِكْرَةُ مُخُّ اَلْعَمَلِ . وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ اِنَّكَ لَتُحْسِنُ اَلْكُدْيَةَ . فَقَالَ : ذَاكَ عُنْوَانُ نِعْمَةِ اللهِ عِنْدِي . وَقَوْلُهُمْ : حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ اَسْتِمَاعُهُ . دَلَّ اَلشَّرُّ عَلَى نَفْسِهِ . اَلْبَادِئُ اَظْلَمُ . حِفْظُ اَلْمَوْجُودِ اَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ اَلْمَفْقُودِ . مَنْ عَزَّ بَزَّ . سَرَّكَ مِنْ دَمِكَ غُنْمٌ سَالِمٌ . سُئِلَ رَجُلٌ رَكِبَ اَلْبَحْرَ عَنْ اَعْجَبِ مَا رَاَى فَقَالَ : سَلَامَتِي . اَلْمَلَقُ شُكْرُ اَلضَّعِيفِ . اَلصَّدِيقُ يَصْدُقُ وَاَلْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ . اِقْضِ دُيُونَ اَلْاِحْسَانِ اِلَيْكَ بِاَللِّسَانِ قَبْلَ فَقْدِ اَلْاِمْكَانِ . مَنْ وَاكَلَكَ فِي اَلرُّخَاءِ خَذَلَكَ فِي اَلْبَلَاءِ . عَجَبًا لِلْخَيْرِ اَلْمَمْدُوحِ اَلْمَتْرُوكِ وَالشَّرِّ اَلْمَذْمُومِ اَلْمَفْعُولِ . مَنْ نَمَّ اِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ مَنْ اَسَاءَ اَسْتَوْحَشَ . سَاعَاتُ اَللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ اَلْغَفْلَةِ . (قَالَ اَلشَّيْخُ) هٰذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ اَللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ . عِنْدَ صَفْوِ

ٱلْعَيْشِ يَكْدُرُ. ٱلْمَرِيبُ مُخِيفٌ. ٱلْمَحْبُوبُ مَذْكُورٌ. مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ. صَدِيقُ ٱلرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَمِثْلُ هٰذَا قَوْلُ ٱرِسْطَاطَالِيسَ فِي مَا يَرُدُّ أَفْلَاطُونَ: إِنْ كَانَ أَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا فَٱلْحَقُّ أَصْدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ: قَلْبِي نَحْيٌ ذِكْرُكَ. وَلِسَانِي خَادِمُ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ: فُلَانٌ أَذَلُّ مِنْ شَاهِدِ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ لَهُ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلِٱسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ. وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ: ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلنَّظَرَ إِذَا ٱخْتَلَفَ لَكَ ٱخْتَلَفَ مِنْكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ ٱلْبَلَاغَةِ وَأَنَّ بَعْضَ وُلْدِهِ بَلِيغٌ: إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَطُولَ لِسَانُهُ. وَقَالَ آخَرُ: فَضْلُ ٱلْفِعَالِ عَلَى ٱلْمَقَالِ مَكْرُمَةٌ وَفَضْلُ ٱلْمَقَالِ عَلَى ٱلْفِعَالِ خَدِيعَةٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: تَرْكُ ٱلشُّكْرِ كُفْرُ ٱلنِّعْمَةِ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنِّعْمَةِ. ٱلْهَيْبَةُ خَيْبَةٌ وَٱلْحَيَاءُ حِرْمَانٌ. ٱلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ. وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْحَسَنِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ. فَقَالَ: رَائِدُ ذَاكَ مَعِي. قَرَأْتُ فِي فَصْلٍ لِسَعِيدِ بْنِ حَمِيدٍ: نَحْنُ فِي زَمَانٍ ٱلْمَعْرُوفُ فِيهِ زَلَلٌ وَٱلصَّوَابُ فِيهِ خَطَلٌ وَٱلْإِنْعَامُ مَثَلٌ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: قَدْ رَخَّصَتِ ٱلضَّرُورَةُ فِي ٱلْإِلْحَاحِ. أَرْجُو أَنْ تُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ كَمَا أَحْسَنْتَ ٱلِٱنْتِظَارَ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: لِسَانُ ٱلْحَالِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ ٱلشَّكْوَى. وَكَتَبَ آخَرُ: ٱشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ. وَكَتَبَ آخَرُ: إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتِي مِنْ ضَعْفِ سَبَبٍ فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْكَ

خَيْبَةَ اَمَلٍ اَوْ عُدُولًا عَنِ اغْتِفَارِ زَلَلٍ اَوْ فُتُورًا عَنْ لَمِّ شَعَثٍ وَاِصْلَاحِ خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : اَنَا اَسْاَلُ الَّذِي رَحِمَ الْعِبَادَ بِكَ عَلَى حِينِ اَفْتِقَارِهِمْ اِلَيْكَ اَنْ يَرْحَمَهُمْ مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُعِيدَهُمْ اِلَى الْمَكَارِهِ الَّتِي اَسْتَنْقَذَهُمْ مِنْهَا بِيَدِكَ . وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي رَجُلٍ مُذْنِبٍ : هَبْهُ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا اَهَبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدِرْتُ عَلَيْهِ . وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ طَاهِرٍ : اَلْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشْيَ الْمَمْلَكَةِ . وَنَظَرَ اِلَى خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُّوا هٰذَا عَنْ مَرْتَبَةِ الدِّيوَانِ فَاِنَّهُ عَلِيلُ الْخَطِّ وَلَا تَاْمَنُ اَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ الصَّوْلِيُّ : اَلْخَطُّ لِسَانُ الْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ الْغَرِيمِ اَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ الْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مِنْ حُقُوقِ النُّبْلِ اَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ وَتَتَنَبَّلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ

الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ تُوجَدُ اَجْنَاسُ اَلْاَشْيَاءِ اَلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا اَلْخَطَابَةُ مِنَ اَلْاُمُورِ اَلْاِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةً كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ اَصْنَافِ اَلسَّامِعِينَ لِلْقَوْلِ اَلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةً . وَذٰلِكَ اَنَّ اَلْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ اَلْخَطِيبُ وَمِنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ اَلَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ اَلْقَوْلُ وَمِنَ اَلَّذِينَ يُوَجَّهُ اِلَيْهِمِ اَلْقَوْلُ وَهُمُ اَلسَّامِعُونَ . وَاَلْغَايَةُ بِالْقَوْلِ اِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ هٰؤُلَاءِ اَلسَّامِعِينَ . وَاَلسَّامِعُونَ لَا مَحَالَةَ اِمَّا مُنَاظِرٌ وَاِمَّا حَاكِمٌ وَاِمَّا اَلْمَقْصُودُ اِقْنَاعُهُ . وَاَلْحَاكِمُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي اَلْاُمُورِ اَلْمُسْتَقْبَلَةِ وَهِيَ اَلنَّافِعَةُ وَاَلضَّارَّةُ . وَاِمَّا فِي اَلْاُمُورِ اَلَّتِي قَدْ كَانَتْ . وَاَلْاُمُورِ اَلَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي اَلْاِنْسَانِ بِاَخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ اَلْفَضَائِلُ وَاَلرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي اَلْاِنْسَانِ بِغَيْرِ اَخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ اِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ اَلْجَوْرُ وَاَلْعَدْلُ . وَاَلْحَاكِمُ فِي اَلْاُمُورِ اَلْمُسْتَقْبَلَةِ هُوَ

ٱلرَّئِيسُ وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْكَائِنَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَنْصِبُهُ ٱلرَّئِيسُ (مِثْلُ ٱلْقَاضِي فِي مُدُنِنَا هٰذِهِ وَهِيَ مُدُنُ ٱلْإِسْلَامِ) . وَأَمَّا ٱلْمُنَاظِرُ فَإِنَّمَا يُنَاظِرُ بِقُوَّةِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْخَطَابِيَّةِ فَإِنَّ أَجْنَاسَ ٱلْقَوْلِ ٱلْخَطَابِيِّ ثَلَاثَةٌ مَشُورِيٌّ وَمُشَاجَرِيٌّ وَتَثْبِيتِيٌّ

فَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ ٱلْمَشُورِيُّ فَمِنْهُ إِذْنٌ وَمِنْهُ مَنْعٌ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُشِيرُ إِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَخُصُّهُ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَعُمُّهُمْ فَإِنَّمَا يُشِيرُ أَبَدًا بِقَوْلٍ هُوَ إِذْنٌ أَوْ مَنْعٌ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجَرِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ شِكَايَةٌ وَتَنَصُّلٌ مِنَ ٱلشِّكَايَةِ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلتَّثْبِيتِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ إِمَّا مَدْحٌ وَإِمَّا ذَمٌّ وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمُسْتَقْبَلُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُشِيرُ إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ بِأَشْيَاءَ مَعْدُومَةٍ . وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمَاضِي لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ وَقَعَتْ وَإِنْ تُشْكَى مِنْ أُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ ٱلْمُشْتَكَى بِهِ فَإِنَّمَا تِلْكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْإِشَارَةِ بِٱلنَّافِعِ فِي ذٰلِكَ . وَكَذٰلِكَ قَدْ يَعْرِضُ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ لٰكِنْ مِنْ جِهَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْهَا فَمَتَى كَانَتِ ٱلشَّكْوَى فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا تَكُونُ أَبَدًا فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي قَدْ وَقَعَ . وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلتَّثْبِيتِيَّةُ فَإِنَّ أَوْلَى ٱلْأَزْمِنَةِ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْحَاضِرُ أَعْنِي ٱلْقَرِيبَ مِنَ ٱلْآنِ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يُمْدَحُونَ وَيُذَمُّونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي حِينِ ٱلْمَدْحِ وَحِينِ ٱلذَّمِّ فِي ٱلْمَمْدُوحِ وَٱلْمَذْمُومِ وَرُبَّمَا

مُدِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحِيلَةِ فِي ٱسْتِكْثَارِ فَضَائِلِ ٱلْمَمْدُوحِ وَمَذَائِمِهِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ حُدُوثُهَا مِنْهُ أَوْ يُرْجَى حُدُوثُهَا مِنْهُ فَيَخْلِطُونَ مَعَ ٱلْمَدْحِ ٱلْإِشَارَةَ عَلَى ٱلْمَمْدُوحِ بِفِعْلِ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسه)

وَأَمَّا ٱلْغَايَاتُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لِهٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشِيرُ فَغَايَتُهُ ٱلنَّافِعُ وَٱلضَّارُّ. فَإِنَّ ٱلَّذِي يُشِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي ٱلنَّافِعِ أَوْ فِي ٱلَّذِي هُوَ أَنْفَعُ وَيَمْنَعُ مِنَ ٱلضَّارِّ أَوْ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ أَضَرُّ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجِرِيُّ فَغَايَتُهُ ٱلْعَدْلُ وَٱلْجَوْرُ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُثْبِتُ فَغَايَتُهُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ وَإِنِ ٱسْتُعْمِلَ وَاحِدٌ مِنْ هٰذِهِ غَايَةَ صَاحِبِهِ فَلَيْسَ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُشِيرَ قَدْ يُقْنِعُ أَنَّ هٰذَا عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ لِيُشِيرَ بِٱلْإِذْنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ ٱلْعَدْلِ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ وَبِٱلْمَنْعِ عَنْ مَا يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْجَوْرِ لِمَا فِي ٱلْجَوْرِ مِنَ ٱلْمَضَرَّةِ ٱلَّتِي تُتَوَقَّعُ. وَكَذٰلِكَ قَدْ تُسْتَعْمَلُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ. وَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتُ ٱلثَّلَاثُ تَخُصُّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ غَايَاتٌ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ فَٱلْحُدُودُ ٱلْمُمَيِّزَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ

ٱلثَّلَاثَةِ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْفُصُولُ ٱلْمُعْطَاةُ فِيهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ .
وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ خَاصَّةٌ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ
هٰذِهِ ٱلْأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ أَنَّهُ إِذَا ٱقْتَنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا
فِي غَايَةِ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُنَاظِرِ فِي ذٰلِكَ مُعَاسَرَةٌ
وَمُشَاكَسَةٌ بَلْ كَثِيرًا مَا يُسَلِّمُ لَهُ ذٰلِكَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ غَايَةَ
ذٰلِكَ ٱلْقَوْلِ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ . مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُدَّعِي إِذَا ٱدَّعَى أَنَّ فُلَانًا
أَخَذَ ٱلْمَالَ مِنْ فُلَانٍ وَذٰلِكَ لَا شَكَّ ضَرَرٌ بِهِ فَرُبَّمَا يُسَلِّمُ لَهُ ٱلْخَصْمُ
أَنَّ ذٰلِكَ كَانَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ أَنَّ أَخْذَهُ ٱلْمَالَ مِنْهُ كَانَ عَلَى جِهَةِ
ٱلْجَوْرِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْمُشِيرُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْمُمْكِنَ جَوْرٌ وَلَا
يُسَلِّمُ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلِمَكَانِ تَدَاخُلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ يَعْرِضُ لِلْمُشِيرِينَ
كَثِيرًا أَنْ يُشِيرُوا بِأَشْيَاءَ ضَارَّةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا
عَدْلٌ أَوْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَوْرٍ وَلٰكِنْ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّهَا ضَارَّةٌ بَلْ رُبَّمَا
ٱخْتَالُوا فِي دَعْوَى وُجُودِ ٱلنَّفْعِ فِيهَا . مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ يُشِيرُونَ
بِٱلصَّبْرِ عَلَى ٱلْمَوْتِ فِي ٱلْحَرْبِ وَأَلَّا يَفِرُّونَ لِكَوْنِ ٱلْفِرَارِ جَوْرًا فِي
ٱلشَّرِيعَةِ . وَكَذٰلِكَ مَتَى قَهَرَ قَوْمٌ قَوْمًا وَٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِمْ رُبَّمَا أَشَارَ
ٱلْمُشِيرُ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَتَعَرَّضُوا لِذٰلِكَ ٱلْقَهْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَوْرًا وَرُبَّمَا أَوْهَمَ
فِيهِ أَنَّهُ غَيْرُ ضَارٍّ لَهُمْ . وَكَذٰلِكَ ٱلْمَادِحُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ ضَارٌّ وَلٰكِنْ
يَدَّعِي أَنَّهُ فَضِيلَةٌ مِثْلُ مَنْ يُخَلِّصُ إِنْسَانًا مِنَ ٱلْمَوْتِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ
يُمِيتُ بِتَخْلِيصِهِ ذٰلِكَ ٱلْإِنْسَانَ . فَٱلْمَوْتُ يُسَلِّمُ ٱلْخَصْمُ أَنَّهُ ضَارٌّ
وَلٰكِنْ يَرَى أَنَّهُ فَضِيلَةٌ . وَكَذٰلِكَ رُبَّمَا مَدَحَ بِٱلرَّذِيلَةِ عَلَى جِهَةِ

ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ جِهَةِ اَنَّهَا نَافِعَةٌ لٰكِنْ لَا يُقِرُّ اَنَّهَا رذِيلَةٌ بَلْ يَدَّعِي فِيهَا اَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَا لِمَكَانِ ٱلنَّفْعِ ٱلَّذِي فِيهَا فَاِذَنْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُخَاطَبَاتِ قَدْ تَسْتَعْمِلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِٱلْعَرَضِ وَلِذٰلِكَ لَا تُشَاكِسُ فِيهَا وَتُشَاكِسُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَاِذَا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْوَاحِدَةُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ . (قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ قِيَاسِيَّةً فَمَعْلُومٌ اَنَّهُ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدِّمَاتٌ وَمُقَدِّمَاتُهَا هِيَ ٱلثَّلَاثُ ٱلَّتِي وَصَفْنَا : ٱلْمَحْمُودَاتُ وَٱلدَّلَائِلُ وَٱلْعَلَامَاتُ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمُطْلَقَ يَكُونُ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَٱلْقِيَاسَ ٱلْخَاصَّ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ يَكُونُ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ خَاصَّةٍ . وَلِذٰلِكَ كَانَ ٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا يَأْتَلِفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا وَلِاَنَّ ٱلْاَمْرَ ٱلَّذِي يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ اَنْ يُعْرَفَ مِنْ اَمْرِهِ اَوَّلًا اَنَّهُ مُمْكِنٌ لِاَنَّ ٱلْاُمُورَ ٱلْغَيْرَ ٱلْمُمْكِنَةِ لَا يُسْتَطَاعُ اَنْ تُفْعَلَ لَا فِي ٱلْحَاضِرِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ. وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ فِي ٱلْجِنْسَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ اَجْنَاسِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَعْنِي اِنْ نُمَيِّزَ اَوَّلًا اَنَّ ٱلْاَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ اَعْنِي ٱلْجِنْسَ ٱلتَّثْبِيتِيَّ وَٱلْجِنْسَ ٱلْمُشَاجِرِيَّ. فَاِذَنْ لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدِّمَاتٌ يُقْنِعُ بِهَا فِي اَنَّ ٱلْاَمْرَ مُمْكِنٌ اَوْ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَفِي اَنَّهُ قَدْ كَانَ اَوْ لَمْ يَكُنْ سِوَى ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلثَّلَاثَ. ثُمَّ اَيْضًا لَمَّا كَانَ ٱلْخُطَبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْاِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلشِّكَايَةِ وَٱلْاِعْتِذَارِ بَلْ يَتَكَلَّفُونَ مَعَ هٰذَا اَنْ يُثْبِتُوا اَنَّ ٱلْاَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ اَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ اَوْ صَغِيرٌ

شَرِيفٌ اَوْ خَسِيسٌ وَلَائِقٌ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ وَذٰلِكَ اِمَّا عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ وَاِمَّا بِٱلْمُقَايَسَةِ اَعْنِي اَنَّهُ اَعْظَمُ وَاَشْرَفُ اَوْ بِالضِّدِّ فَمَعْلُومٌ اَنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ عِنْدَ ٱلْخُطَبَاءِ مُقَدَّمَاتٌ يُثْبِتُونَ بِهَا اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَوِ ٱلشَّرَّ عَظِيمٌ اَوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ اَوْ شَرِيفٌ وَلَائِقٌ بِٱلْمَنْسُوبِ اِلَيْهِ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ فَهٰذِهِ هِيَ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسه)

وَاِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ نَبْتَدِيَ بِتَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَخُصُّ غَرَضًا غَرَضًا مِنَ ٱلْاَغْرَاضِ ٱلثَّلَاثَةِ وَنَجْعَلَ ٱلْكَلَامَ اَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَشُورِيَّةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي ٱلتَّثْبِيتِيَّةِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ

فَاَوَّلُ مَا يَجِبُ اَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ اَمْرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يُشَارُ بِهِ فَاِنَّهُ لَيْسَ تَكُونُ ٱلْمَشُورَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ لٰكِنْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ فَاَمَّا ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي كَوْنُهَا اَوْ لَا كَوْنُهَا مِنَ ٱلْاِضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونُ فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا اَيْضًا ٱلْمَشُورَةُ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ. فَاِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمْكِنَةً وُجُودُهَا عَنِ ٱلطَّبِيعَةِ بَلْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلَّتِي اِلَيْنَا اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ ٱلْاَشْيَاءُ

ٱلَّتِي بَدْءُ كَوْنِهَا مِن قِبَلِ ٱلْاِخْتِيَارِ وَٱلْاِرَادَةِ . وَمِنْ هٰذِهِ فِيمَا كَانَ وُجُودُهُ اَوْ لَا وُجُودُهُ تَابِعًا لِرَوِيَّتِنَا وَافْعَالِنَا عَلَى ٱلْاَكْثَرِ وَاَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا يَعْرِضُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ بِٱلْاِتِّفَاقِ وَاَقَلِّ ذٰلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي ٱلْاَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا اِلَّا حَيْثُ لَا يُمْكِنُ اَنْ يُوجَدَ ٱلْجِنْسُ ٱلْاٰخَرُ وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْاِشَارَةَ اِنَّمَا تَكُونُ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ اَنَّ ٱلْاِنْسَانَ اِنَّمَا يَنْظُرُ اَوَّلًا هَلِ ٱلْاَمْرُ ٱلَّذِي يُرِيدُ اَنْ يَفْعَلَهُ مُمْكِنٌ ثُمَّ اِنْ كَانَ مُمْكِنًا بِاَيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ فَاِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذٰلِكَ شَرَعَ فِي ٱلسَّعْيِ فِيهِ وَاِنْ تَبَيَّنَ لَهُ اَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ خَلَّى عَنْهُ . وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا نُشِيرُ هِيَ ٱلَّتِي فِيهَا نَرْوِي. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي نُشِيرُ بِهِ وَفِي اَيِّ ٱلْاَشْيَاءِ يَكُونُ وَٱلْاُمُورُ ٱلْاِرَادِيَّةُ ٱلَّتِي مَبْدَأُ وُجُودِهَا مِنَّا لَا ٱلْاُمُورُ ٱلْاِضْطِرَارِيَّةُ ٱلَّتِي لَيْسَ اِلَيْنَا وُجُودُهَا وَاِعْطَاءُ ٱلْفَرْقِ ٱلتَّامِّ بَيْنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَتَصْحِيحُ عَدَدِ اَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ مَاهِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى اَقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا اَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاِرَادِيَّةِ وَلٰكِنْ ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْفَضْلُ عَلَى هٰذِهِ فِي ٱلتَّصَوُّرِ وَٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْمُقَدِّمَاتُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا اَصْدَقُ وَاَصَحُّ مِنْ هٰذِهِ . وَذٰلِكَ اَنَّ هُنَا لَسْنَا نَتَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاَحْوَالَ ٱلذَّاتِيَّةَ ٱلْمُنَاسِبَةَ لَهَا بَلِ ٱلْاُمُورَ ٱلْمَشْهُورَةَ . وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ اَيْضًا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اَنَّ جَمِيعَ مَا قُلْنَاهُ فِي اَجْزَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ اَعْنِي اَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمِ

ٱلْمَنْطِقِ وَمِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَأَنَّ فِيهَا أَشْيَاءَ جَدَلِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْجَدَلِيَّةِ وَأَيْضًا سُوفِسْطَائِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فِي صَنَائِعَ كَثِيرَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ أَجْزَاءً لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَتَى أُخِذَ جَمِيعُهَا بِٱلْجِهَةِ وَٱلْحَالِ ٱلَّتِي بِهَا تَكُونُ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ مُتَعَاوِنَةً وَنَافِعَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَطُرِحَ مِنْهَا ٱلْأَحْوَالُ ٱلَّتِي بِهَا تَخْتَلِفُ أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي لَيْسَتْ تَكُونُ بِهَا مَعُونَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْخُلُقِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُعِدَّةٌ نَحْوَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْمُخَاطَبَةِ وَهِيَ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلسِّيَاسَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ أَحَدُ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي نَقْصِدُ مَعْرِفَتَهَا وَعِلْمَهَا . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْجَدَلِيَّةُ وَٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هُوَ سَابِقُ ٱلْمَعْرِفَةِ ٱلْأُولَى لِلْإِنْسَانِ لَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ أَنَّهَا إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْقِيَاسِ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمَعْرُوفَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُوَ ٱلتَّمْثِيلُ وَٱلضَّمِيرُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا مَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْإِطْلَاقِ وَٱلتَّقْيِيدِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُهُ بِطِبَاعِهِمِ ٱلْجُمْهُورُ فَهِيَ إِنَّمَا تُخَالِفُ هٰذِهِ بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ وَقَدْ تُخَالِفُ أَيْضًا بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي لِلْعِلْمِ ٱلسِّيَاسِيِّ فِيهَا أَعْنِي أَنَّهَا إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي هُوَ فِي سَابِقِ ٱلْمَعْرِفَةِ لِلْإِنْسَانِ وَتَدَعُ تَقَصِّيَ ٱلنَّظَرِ فِي ذٰلِكَ

لِلعِلمِ ٱلسِّيَاسِيِّ مِنهَا. وَٱلأُمورُ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا ٱلخَطِيبُ مِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى أَهلِ مَدِينَةٍ بِأَسرِهِم وَمِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى وَاحِدٍ مِن أَهلِ تِلكَ ٱلمَدِينَةِ أَو جَمَاعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ): فَأَمَّا ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِيهَا ٱلمَشُورَةُ فِي ٱلأُمورِ ٱلعِظَامِ مِن أُمورِ ٱلمُدُنِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِن أَن تَكُونَ خَمسَةً. أَحَدُهَا ٱلإِشَارَةُ بِٱلعُدَّةِ ٱلمُدَّخَرَةِ مِنَ ٱلأَموَالِ لِلمَدِينَةِ. وَٱلثَّانِي ٱلإِشَارَةُ بِٱلحَربِ أَوِ ٱلسِّلمِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلإِشَارَةُ بِحِفظِ ٱلبَلَدِ مِمَّا يَرِدُ عَلَيهِ مِن خَارِجٍ. وَٱلرَّابِعُ ٱلإِشَارَةُ بِمَا يَدخُلُ فِي ٱلبَلَدِ وَيَخرُجُ عَنهُ. وَٱلخَامِسُ ٱلإِشَارَةُ بِٱلتِزَامِ ٱلسُّنَنِ. فَٱلَّذِي يُشِيرُ بِٱلعُدَّةِ يَحتَاجُ أَن يَعرِفَ ثَلَاثَةَ أُمورٍ أَحَدُهَا أَن يَعرِفَ غَلَّاتِ ٱلمَدِينَةِ مَا هِيَ أَعنِي هَل هِيَ نَبَاتٌ أَو حَيَوَانٌ أَو مَعدِنٌ أَو جَمِيعُ هٰذِهِ أَوِ ٱثنَانِ مِنهَا كَيفَ إِن نَقَصَ مِنَ ٱلفَاضِلِ مِنهَا لِلعُدَّةِ شَيءٌ أَشَارَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا. وَٱلثَّانِي أَن يَعرِفَ مَعَ ذٰلِكَ نَفَقَاتِ أَهلِ ٱلمَدِينَةِ كُلِّهَا. وَٱلثَّالِثُ أَن يَعرِفَ أَصنَافَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فِي ٱلمَدِينَةِ فَإِن كَانَ فِيهَا إِنسَانٌ بَطَّالٌ

وَهُوَ ٱلَّذِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ اَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا صِنَاعَةَ لَهُ اَشَارَ بِتَحْيَتِهِ مِنَ ٱلْبَلَدِ. وَاِنْ كَانَ هُنَالِكَ عَظِيمُ ٱلنَّفَقَاتِ فِي غَيْرِ ٱلْجَمِيلِ اَوْ غَيْرِ ٱلضَّرُورِيِّ اَشَارَ بِأَخْذِ ذٰلِكَ ٱلْفَضْلِ مِنَ ٱلْمَالِ مِنْهُ فَاِنَّهُ لَيْسَ يَكُونُ ٱلْغِنَاءُ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلْمَالِ بَلْ وَبِٱلنُّقْصَانِ مِنَ ٱلنَّفَقَةِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ : قِلَّةُ ٱلْعِيَالِ اَحَدُ ٱلْيَسَارَيْنِ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلضَّرُورَةِ ٱلدَّاعِيَةِ اِلَى هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا يَقِفُ ٱلْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ اَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ ٱلْاِشَارَةِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلنَّبَاتِ اَنْ يَكُونَ فَلَّاحًا وَلَا فِي ٱلْحَيَوَانِ اَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لٰكِنْ يَكْفِيهِ فِي ذٰلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا لٰكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِٱلسِّيَرِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِيهَا. وَاَمَّا ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَقُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَمِقْدَارَ ٱلْاَمْرِ ٱلَّذِي يُنَالُ بِٱلْمُحَارَبَةِ هَلْ هُوَ يَسِيرٌ اَوْ عَظِيمٌ وَحَالُ ٱلْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَضَعْفِ اَهْلِهَا وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صِغَرِ ٱلْمَدِينَةِ اَوْ فِي عِظَمِهَا اَعْنِي هَلْ مِقْدَارُهُمْ مِقْدَارُ مَنْ يَسْتَطِيعُ ٱلْمُحَارَبَةَ اَمْ لَيْسَ مِقْدَارُهُمْ ذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارَ. وَهَلْ هُمْ بِصِفَةِ مَنْ تُمَكِّنُهُمُ ٱلْمُحَارَبَةُ اَمْ لَيْسَ هُمْ. وَاَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ شَيْئًا مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ اَمْرَ ٱلْحَرْبِ. اَوْ يُعَرِّفَهُمْ بِمَا فِي ٱلْحَرْبِ مِنْ مَكْرُوهِ اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ ٱلْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

حالَ اَهلِ مَدِينَتِهِ فَقَطْ بَلْ وَحالَ مَنْ فِي تُخُومِهِ وَثَغْرِهِ اَعْنِي كَيْفَ حالُهُمْ فِي هٰذِهِ الْاَشْياءِ وَحالُهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي الظَّفَرِ بِهِ اَوِ الْعَجْزِ عَنْهُ فَاِنَّهُ يَاْخُذُ مِنْ هٰهُنا مُقَدَّماتٍ نافِعَةً فِي الْاِشارَةِ عَلَيْهِمْ بِالْحَرْبِ اَوِ السِّلْمِ. وَيَحْتاجُ مَعَ هٰذا اَنْ يَعْلَمَ الْحُرُوبَ الْجَمِيلَةَ مِنَ الْحُرُوبِ الْجائِزَةِ وَاَنْ يَعْلَمَ حالَ الْاَجْنادِ هَلْ هُمْ مُتَشابِهُونَ فِي الْقُوَّةِ وَالشَّجاعَةِ وَالرَّأْيِ وَاِجادَةِ ما فُوِّضَ اِلى صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْهُمْ مِنَ الْقِيامِ بِجُزْءٍ جُزْءٍ مِنْ اَجْزاءِ الْحَرْبِ. اَعْنِي اَنْ يَكُونُوا فِي ذٰلِكَ مُتَشابِهِينَ فَاِنَّهُ رُبَّما كَثُرُوا وَتَناسَلُوا حَتّى يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ لا يَصْلُحُ لِلْحَرْبِ اَوْ لِلْجُزْءِ مِنَ الْحَرْبِ الَّذِي فُوِّضَ اِلَيْهِ الْقِيامُ بِهِ. وَقَدْ يَنْبَغِي مَعَ هٰذا اَنْ يَكُونَ ناظِرًا لَيْسَ فِيما اَفْضَتْ اِلَيْهِ مُحارَبَتُهُمْ بَلْ وَفِيما اَفْضَتْ اِلَيْهِ حُرُوبُ سائِرِ النّاسِ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ الْمُشابِهِينَ لَهُمْ فَاِنَّ الشَّبِيهَ يُحْكَمُ مِنْهُ عَلَى الشَّبِيهِ. اَعْنِي اَنَّهُ اِنْ كانَ اَفْضَتِ الْحُرُوبُ الشَّبِيهَةُ بِحَرْبِهِمْ اِلى مَكْرُوهٍ اَنْ يُشِيرَ بِالسِّلْمِ وَاِنْ كانَتْ اَفْضَتْ اِلَى الظَّفَرِ اَنْ يُشِيرَ بِالْحَرْبِ. وَاَمّا حِفْظُ الْبِلادِ فَاِنَّهُ يَحْتاجُ الْمُشِيرُ بِالْحِفْظِ اَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ تُحْفَظُ الْبِلادُ وَما مِقْدارُ الْحِفْظِ الْمُحْتاجِ اِلَيْهِ فِي طارِئٍ طارِئٍ وَكَمْ اَنْواعُ الْحِفْظِ. وَيَعْرِفَ مَعَ هٰذا الْمَواضِعَ الَّتِي يَكُونُ حِفْظُها بِالرِّجالِ وَهِيَ الَّتِي تُسَمّى الْمَسالِحَ. فَاِنْ كانَ الْحِفْظُ لِتِلْكَ الْمَواضِعِ قَلِيلًا زادَ فِيهِمْ وَاِنْ كانَ فِيهِمْ مَنْ لا يَصْلُحُ لِلْحِفْظِ نَحّاهُ مِمَّنْ لَيْسَ يَقْصِدُ قَصْدَ الْحَماةِ عَنِ الْمَدِينَةِ بَلْ يَقْصِدُ قَصْدَ نَفْسِهِ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَحْفَظَ اَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ الْمَواضِعَ الْخَفِيَّةَ

اَعْنِي اَلَّتِي اَلْمَنْفَعَةُ بِحِفْظِهَا اَكْثَرُ . فَمَنْ عَرَفَ هٰذَا فَقَدْ يُمْكِنُهُ اَنْ يُشِيرَ بِاَلْحِفْظِ وَاَنْ يَكُونَ خَبِيرًا بِاَلْبِلَادِ اَلَّتِي يُشِيرُ بِحِفْظِهَا . وَاَمَّا اَلْاِشَارَةُ بِاَلْقُوتِ وَسَائِرِ اَلْاَشْيَاءِ اَلضَّرُورِيَّةِ اَلَّتِي تَحْتَاجُهَا اَلْمَدِينَةُ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ اَلْمُشِيرُ فِيهِ اَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَهَا وَكَمْ يَكْفِي اَلْمَدِينَةَ مِنْهَا وَكَمِ اَلْحَاضِرُ اَلْمَوْجُودُ فِي اَلْمَدِينَةِ مِنْ ذٰلِكَ وَهَلْ اُدْخِلَ اَلْكَافِي مِنْ ذٰلِكَ فِي اَلْمَدِينَةِ وَاُحْرِزَ اَمْ لَمْ يُدْخَلْ . وَمَا اَلْاَشْيَاءُ اَلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تُخْرَجَ مِنَ اَلْمَدِينَةِ وَهُوَ اَلْفَاضِلُ عَنْ اَهْلِ اَلْمَدِينَةِ . وَمَا اَلْاَشْيَاءُ اَلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تَدْخُلَ وَهُوَ مَا قَصُرَ عَنِ اَلضَّرُورِيِّ لِتَكُونَ شُورَتُهُ وَمَا يُعْهَدُ بِهِ عَلَى حَسَبِ ذٰلِكَ فَاِنَّهُ قَدْ يَحْتَاجُ اَلْمَرْءُ اَنْ يَحْفَظَ اَهْلَ مَدِينَتِهِ لِاَمْرَيْنِ : اَحَدُهُمَا لِمَكَانِ ذَوِي اَلْفَضَائِلِ وَاَلثَّانِي لِمَكَانِ ذَوِي اَلْمَالِ اَلَّذِينَ مِنْ اَجْلِ ذَوِي اَلْفَضَائِلِ . وَاَلْحَافِظُ لِلْمُدُنِ يَحْتَاجُ بِاَلْجُمْلَةِ اِلَى اَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِجَمِيعِ هٰذِهِ اَلْاَنْوَاعِ اَلْخَمْسَةِ عِنْدَ حِفْظِهِ لَهَا

(قَالَ) وَاَمَّا اَلنَّظَرُ فِي وَضْعِ اَلسُّنَنِ وَاَلْاِشَارَةُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَسِيرٍ فِي اَمْرِ اَلْمُدُنِ فَاِنَّ اَلْمُدُنَ اِنَّمَا تَسْلَمُ وَيَلْتَئِمُ وُجُودُهَا بِاَلسُّنَنِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِوَاضِعِ اَلسُّنَنِ اَنْ يَعْرِفَ كَمْ اَصْنَافُ اَلسِّيَاسَاتِ وَاَيُّ سُنَّةٍ تَنْفَعُ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَاَيُّ سُنَّةٍ لَا تَنْفَعُ وَاَيُّ نَاسٍ تَصْلُحُ بِهِمْ سُنَّةٌ سُنَّةٌ وَسِيَاسَةٌ سِيَاسَةٌ وَاَيُّ نَاسٍ لَا تَصْلُحُ بِهِمْ وَاَنْ يَكُونَ يَعْرِفُ اَلْاَشْيَاءَ اَلَّتِي يُخَافُ اَنْ يَدْخُلَ مِنْهَا اَلْفَسَادُ عَلَى اَلْمَدِينَةِ . وَذٰلِكَ اِمَّا مِنَ اَلْاَضْدَادِ مِنْ خَارِجٍ وَاِمَّا مِنْ اَهْلِ اَلْمَدِينَةِ فَاِنَّ سَائِرَ اَلْمُدُنِ مَا عَدَا اَلْمَدِينَةَ اَلْفَاضِلَةَ قَدْ تَفْسُدُ مِنْ قِبَلِ اَلسُّنَنِ

ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذٰلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلسُّنَّةُ مُفْرِطَةَ ٱلضَّعْفِ وَٱللِّينِ اَوْ مُفْرِطَةَ ٱلشِّدَّةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ اَوْ فِي خُلُقٍ اَوْ فِي فِعْلٍ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلسِّيَاسَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْحُرِّيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ اَمْرِهَا اَنَّهَا تَنْتَقِلُ كَثِيرًا مِنْ قِبَلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى إِلَى رِئَاسَةِ ٱلْخَسَّةِ اَعْنِي رِئَاسَةَ ٱلشَّهَوَاتِ اَوْ رِئَاسَةَ ٱلْمَالِ وَٱلَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ اَمْرِ ذَوِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي وَصَلَتْنَا اَخْبَارُهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَؤُولُ ٱلْاَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ اَعْنِي سِيَاسَةَ ٱلْحُرِّيَّةِ إِلَى سِيَاسَةِ ٱلْاَخِسَّاءِ مِنْ قِبَلِ ٱسْتِرْخَاءِ ٱلسُّنَنِ وَلِينِهَا وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْاَكْثَرَ بَلْ وَمِنْ قِبَلِ ٱلْاِفْرَاطِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ إِذَا اُفْرِطَتْ بَطَلَ وُجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وُجُودُهَا مِنْ قِبَلِ ٱلضَّعْفِ وَٱلتَّقْصِيرِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْقَطَسَ إِذَا اَفْرَطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ قَرِيبًا مِنْ اَنْ يُظَنَّ اَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ اَنْفٌ وَإِذَا كَانَ غَيْرُ مُفْرِطٍ قَرُبَ مِنَ ٱلْاِعْتِدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ اَنْ يَعْرِفَ ٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فَٱنْتَفَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةِ سِيَاسَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَفِي اُمَّةٍ اُمَّةٍ لِيَسْتَعْمِلَ مِنْهَا ٱلنَّافِعَ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ وَٱلْاُمَّةَ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ. وَلِذٰلِكَ تَبَيَّنَ اَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ ٱلسُّنَنِ بِاَمْزِجَةِ ٱلنَّاسِ وَاَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ فَإِنَّ مِنْ هَاهُنَا يُمْكِنُ اَنْ يَضَعَ ٱلسُّنَنَ ٱلنَّافِعَةَ لِجَمِيعِ ٱلْاُمَمِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلطَّبَائِعِ. وَاَمَّا ٱلْفَسَادُ ٱلدَّاخِلُ عَلَى ٱلْمُدُنِ مِنْ خَارِجٍ اَعْنِي مِنَ ٱلْاَعْدَاءِ فَاَمْرٌ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

وَقَدْ كَتَبَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ ٱلْاَعْدَاءِ وَٱلْاَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ يَأْخُذُ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى اَهْلِ مَدِينَتِهِ بِٱلتَّحَفُّظِ مِنَ ٱلْاَعْدَاءِ وَمَا قُلْنَا فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ وَمَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ لَا مِنْ عِلْمِ ٱلْخَطَابَةِ. وَاِنَّمَا يُذْكَرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من اجلهِ يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْاُمُورُ ٱلْعُظْمَى ٱلَّتِي بِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ عَلَى اَهْلِ ٱلْمُدُنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ ٱلْآنَ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يَكُونُ ٱلْاِذْنُ وَٱلْمَنْعُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ اَوَّلًا بِٱلْاِخْبَارِ عَنِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ فَيَأْذَنُونَ فِيهَا اَوْ يَمْنَعُونَ مِنْ اَضْدَادِهَا. وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱنْفِعَالٌ مَا وَتَشَوُّقٌ بِٱلطَّبْعِ لِلْخَيْرِ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْخَيْرُ فَيَخْتَارُونَهُ وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى غَيْرِهِ. اَوْ اِذَا سُئِلَ عَنْهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِئٍ عَنْ

طَبِيعَتِهِ بَلْ اِنَّمَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وُجُودُهُ فَقَطْ. وَاِذَا سُئِلَ وَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ اِسْمُهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ غَيْرِ الْجَوَابِ الَّذِي يُجِيبُ فِيهِ الْآخَرُ. وَاِنَّمَا يُؤَثِّرُهُ الْجَمِيعُ لِمَكَانِ هٰذَا الِانْفِعَالِ الْمَوْجُودِ لَهُ بِالطَّبْعِ عِنْدَ الْجَمِيعِ. وَهٰذَا الْخَيْرُ فِي الْجُمْلَةِ هُوَ صَلَاحُ الْحَالِ وَاَجْزَاءُ صَلَاحِ الْحَالِ. وَلِذٰلِكَ فَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ نُفَصِّلَ اَوَّلًا مَا هُوَ صَلَاحُ الْحَالِ بِقَوْلٍ عَامٍّ ثُمَّ نُفَصِّلَ اَجْزَاءَهُ وَنُخْبِرَ عَنْ اَضْدَادِهَا وَعَنِ الْاَشْيَاءِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْاِذْنُ وَالْمَنْعُ وَهِيَ النَّافِعَةُ فِي صَلَاحِ الْحَالِ اَوِ الْاَنْفَعُ فِيهِ اَوِ الضَّارَّةُ فِيهِ اَوِ الْاَضَرُّ فِيهِ فَاِنَّ بِهٰذَا يَتِمُّ لَنَا الْقَوْلُ فِي الْاَشْيَاءِ الَّتِي مِنْهَا تَلْتَئِمُ الْاَقَاوِيلُ الْمَشْوَرِيَّةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ مَعَ جَمِيعِ النَّاسِ

(قَالَ) وَالَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فَلَمْ يَتَكَلَّمُوا مِنْ هٰذِهِ الْاَشْيَاءِ اِلَّا فِيمَا يَجْرِي مَجْرَى الْاُمُورِ الْكُلِّيَّةِ مِثْلَ اَنَّهُمْ قَالُوا: يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يُعَظِّمَ الشَّيْءَ الصَّغِيرَ اِذَا اَرَادَ تَفْخِيمَهُ وَيُصَغِّرَ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ اِذَا اَرَادَ تَهْوِينَهُ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ لَا يَأْذَنَ فِي الْاَشْيَاءِ الَّتِي تُفْسِدُ صَلَاحَ الْحَالِ وَفِي الْاَشْيَاءِ الَّتِي تَعُوقُ عَنْ صَلَاحِ الْحَالِ اَوْ تَتَجَاوَزُ صَلَاحَ الْحَالِ اِلَى ضِدِّهِ. وَلَمْ يَقُولُوا مَا هِيَ الْاَشْيَاءُ الَّتِي بِهَا يُعَظَّمُ الشَّيْءُ اَوْ يُصَغَّرُ وَلَا مَا هِيَ الْاَشْيَاءُ الَّتِي تُوجِبُ اخْتِلَالَ صَلَاحِ الْحَالِ اَوْ تَعُوقُهُ اَوْ تَتَجَاوَزُهُ اِلَى ضِدِّهِ

(قَالَ) فَاَمَّا صَلَاحُ الْحَالِ فَهُوَ حُسْنُ الْفِعْلِ مَعَ فَضِيلَةٍ وَطُولٍ مِنَ الْعُمْرِ وَحَيَاةٍ لَذِيذَةٍ مَعَ السَّلَامَةِ وَالسَّعَةِ فِي الْمَالِ وَحُسْنِ الْحَالِ

عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَعَ تَحْصِيلِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْحَافِظَةِ لِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهَا .
وَقَدْ يَشْهَدُ اَنَّ هٰذَا هُوَ رَسْمُ صَلَاحِ ٱلْحَالِ ٱلْمَشْهُورُ اَنَّ جَمِيعَ ٱلنَّاسِ
يَرَوْنَ اَنَّ صَلَاحَ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا اَوْ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ هٰذَا وَاِذَا كَانَ
صَلَاحُ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا فَاَجْزَاؤُهُ هِيَ كَرَمُ ٱلْحَسَبِ وَكَثْرَةُ ٱلْاِخْوَانِ
وَٱلْاَوْلَادِ وَٱلْيَسَارُ وَحُسْنُ ٱلْفِعْلِ وَٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ وَفَضَائِلُ ٱلْجَسَدِ
مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْخِزَالَةِ وَٱلْبَطْشِ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْجَلَالَةِ
وَٱلسَّعَادَةِ وَٱلْفَضِيلَةِ وَاَجْزَاؤُهَا مِثْلُ ٱلْعَقْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْعَدَالَةِ
وَٱلْبِرِّ فَاِنَّهُ هٰكَذَا اَحْرَى اَنْ يَكُونَ ٱلْاِنْسَانُ مَوْفُورًا مَكْفِيًا
اَعْنِي اِذَا كَانَتْ لَهُ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ مِنْ خَارِجٍ . وَٱلْخَيْرَاتُ
ٱلْمَوْجُودَةُ فِيهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةُ وَٱلْجَسَدَانِيَّةُ وَٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ هِيَ ٱلْحَسَبُ
وَٱلْاِخْوَانُ وَٱلْمَالُ وَٱلْكَرَامَةُ وَقَدْ يُظَنُّ اَنَّهُ يُعَدُّ مَعَ هٰذِهِ نُفُوذُ
ٱلْاَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلْاِتِّفَاقَاتُ ٱلْجَمِيلَةُ وَهِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ سَعَادَةً
فَاِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ تَكُونُ حَيَاةُ ٱلْمَرْءِ فِي سِيرَتِهِ حَيَاةَ مَنْ لَا
يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ وَلَا يَشُوبُ خَيْرَهُ شَيْءٌ مُضَادٌّ . وَاِذَا كَانَ
هٰذَا هٰكَذَا فَيَجِبُ اَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ
ٱلنَّظَرِ ٱلْمَقْصُودِ هُنَا وَهُوَ ٱلنَّظَرُ ٱلْمَشْهُورُ . فَاَمَّا ٱلْحَسَبُ فَهُوَ اَنْ يَكُونَ
ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ هُمْ اَوَّلَ مَنْ نَزَلَ ٱلْمَدِينَةَ اَوْ يَكُونُوا قُدَمَاءَ
ٱلنُّزُولِ فِيهَا وَيَكُونُوا مَعَ هٰذَا حُكَّامًا اَوْ رُؤَسَاءَ ذَوِي ذِكْرٍ جَمِيلٍ
وَكَثْرَةِ عَدَدٍ وَاَنْ يَكُونُوا مَعَ هٰذَا اَحْرَارًا لَمْ يَجْزْ عَلَيْهِمْ سِبَاءٌ اَوْ
يَكُونُوا مِمَّنْ نَالَ ٱلْاُمُورَ ٱلْجَمِيلَةَ ٱلْمَقْبُولَةَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَاِنْ لَمْ

يكونوا حكاماً ولا رؤساء. فاما النظر في الحسب هل هو من
الرجال فقط او من النساء فالظاهر من ذلك والمتفق عليه عند
الجميع انه يكون اتم اذا كان من كليهما. وينبغي ان يستعمل
الخطيب من ذلك المشهور في امة امة. ومن شروط الحسب ان
يكون الرؤساء والاحرار من اولئك القوم الذين شهروا بالفضيلة
واليسار وغير ذلك من المكرمات لم ينقطع وجودهم في القوم
الذين هو منهم الى وجوده هو بل يوجد في ذلك الجنس ابدا
اشياخ بهذه الصفة يخلفهم غلمان في تلك الخصال. فانه ان انقطع
الشرف في ذلك الجنس الذي هو منهم لم يكن حسبيا وان لم
ينقطع منهم فهو حسيب وان انقطع فيمن ولد منهم. واما حسن
الحال بالاولاد وكثرتهم فهو مما لا خفاء به وحسن الحال بالاولاد
المشترك للجميع هو كثرة الفتيان وصلاحهم في فضائل الجسد
وفضائل النفس. اما في فضائل الجسد فباربع احداها الجزالة وهي
ان تكون خلقتهم خلقا طبيعية يفوقون فيها كثيرا من الناس.
والثانية الجمال. والثالثة الشدة. والرابعة البطش فبهذه الاربع
يكون الغلمان صالحين في فضائل اجسامهم. واما في فضائل
النفوس فيكونون باثنتين بالعفاف والشجاعة. واما ما قد يكون به
صلاح حال بعض الناس فكثرة الاولاد من الذكور والاناث.
وصلاح الحال بالاناث ايضا يكون بفضيلتين في الجسد والنفس.
اما في الجسد فاثنتان العبالة وهو عظم الاعضاء العظم الطبيعي

وَكَثْرَةُ ٱللَّحْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ لَا ٱللَّوْنُ وَٱلْجَمَالُ. وَأَمَّا فِي ٱلنَّفْسِ فَثَلَاثٌ ٱلْعَفَافُ وَحُبُّ ٱلْأُلْفَةِ وَحُبُّ ٱلْكَدِّ فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ يَكْمُلُ ٱلْمَنْزِلُ وَهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قُلْنَا سَبِيلُهَا أَنْ تُوجَدَ فِي ٱلنِّسَاءِ كُلِّهِنَّ ٱللَّاتِي مِنْ نَسَبِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي ٱلرِّجَالِ كُلِّهِمْ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي أَوْلَادِهِ ٱلذُّكُورِ خَاصَّةً إِذْ كَانَ ٱلْوَلَدُ بِهِ أَلْصَقَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَنْظُرَ هَلِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي هُوَ مِنْهَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي فِي أَوْلَادِهِمْ أَمْ لَيْسَ هِيَ هٰذِهِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأُمَمِ يُرَبُّونَ أَوْلَادَهُمُ ٱلذُّكُورَ وَٱلْإِنَاثَ بِٱلزِّينَةِ وَٱلسِّمَنِ وَهٰؤُلَاءِ يَقُولُ فِيهِمْ أَرِسْطُو إِنَّهُ قَدْ فَاتَهُمُ ٱلنِّصْفُ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ بِٱلْأَبْنَاءِ. فَأَمَّا أَجْزَاءُ ٱلْيَسَارِ فَبِكَثْرَةِ ٱلدَّنَانِيرِ وَٱلْأَرَضِينَ وَٱلْعَقَارِ وَٱلْأَثَاثِ وَٱلْأَمْتِعَةِ وَٱلْمَوَاشِي وَجَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فِي ٱلنَّوْعِ وَٱلْجِنْسِ. وَكُلُّ ذٰلِكَ إِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي حِفْظٍ وَمَعَ حُرِّيَّةٍ وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا مُتَمَتِّعًا أَيْ مُلْتَذًّا لَا حَافِظًا لَهَا فَقَطْ أَوْ مُنْسِيًا

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْيَسَارِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهُ ٱلْأَشْجَارُ ٱلْمُثْمِرَةُ وَٱلْغَلَّاتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَٱللَّذِيذُ مِنْ هٰذِهِ هُوَ مَا يُجْنَى بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَفَقَةٍ وَحَدُّ ٱلْحِفْظِ وَٱلْإِحْرَازِ لِلْمَالِ هُوَ أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي لَا يُتَعَذَّرُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا مِثْلَ أَنْ إِذَا كَانَتْ أَرْضًا أَلَّا تَكُونَ سَبْخَةً وَإِنْ كَانَ فَرَسًا أَلَّا يَكُونَ جُمُوحًا. وَحَدُّ ٱلْحُرِّيَّةِ فِي ٱلْمَالِ أَنْ يَكُونَ إِلَيْهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي ٱلْمَالِ بِٱلْإِعْطَاءِ وَٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَأَمَّا ٱلتَّنَعُّمُ بِٱلْمَالِ

فَهُوَ ٱسْتِعْمَالُهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلتَّلَذُّذِ بِهِ . وَإِنَّمَا ٱشْتَرَطَ فِي ٱلْغِنَى هٰذَا ٱلشَّرْطَ لِأَنَّهُ اَنْ يَكُونَ ٱلْغِنَى فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ اَحْرَى مِنْهُ اَنْ يَكُونَ فِي ٱقْتِنَائِهِ لِأَنَّ ٱلِٱقْتِنَاءَ هُوَ فَاعِلُ ٱلْغِنَى وَأَمَّا ٱلِٱسْتِعْمَالُ فَهُوَ ٱلْغِنَى بِعَيْنِهِ وَأَمَّا حُسْنُ ٱلْفِعْلِ عَلَى ٱلرَّأْيِ ٱلصَّوَابِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَظُنُّهُ ٱلْكُلُّ فَاضِلًا وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْتَنِي ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْاَكْثَرُ لَا مَحَالَةَ اَوِ ٱلْاَخْيَارُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَذَوُو ٱلْكَيْسِ وَٱلْفِطْنَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْكَرَامَةُ فَإِنَّهَا فِي زَمَانِنَا هٰذَا لِلْمُعْتَنِي بِحُسْنِ ٱلْفِعْلِ وَإِكْرَامِ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلْعِنَايَةُ ٱلْحَسَنَةُ بِهِمْ هِيَ مُكَافَاةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْعَدْلِ وَٱلْحَقِّ إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْاَفْعَالُ لَيْسَ تُكَافِئُهَا ٱلدَّنَانِيرُ وَٱلدَّرَاهِمُ . وَلَيْسَ يُكْرَمُ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلْعِنَايَةُ ٱلْحَسَنَةُ بِٱلنَّاسِ فَقَطْ بَلْ وَٱلَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ اَنْ تَكُونَ لَهُمُ ٱلْعِنَايَةُ ٱلْحَسَنَةُ اَعْنِي ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُوَّةٌ عَلَى ذٰلِكَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذٰلِكَ فِي حَالِ ٱلْإِكْرَامِ وَٱلْعِنَايَةِ بِٱلنَّاسِ ٱلَّتِي تَسْتَوْجِبُ ٱلْكَرَامَةَ هِيَ ٱلْعِنَايَةُ تُخَلِّصُهُمْ مِنَ ٱلشُّرُورِ ٱلَّتِي لَيْسَ ٱلتَّخْلِيصُ مِنْهَا بِهَيِّنٍ اَوْ إِفَادَتُهُمُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي لَيْسَ إِفَادَتُهَا بِٱلسَّهْلِ . وَهٰذِهِ ٱلْاَفْعَالُ ٱلْجَمِيلَةُ هِيَ تَكُونُ عَنِ ٱلْغِنَى اَوِ ٱلسُّلْطَانِ اَوْ مَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ بِهِ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى اَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْاَفْعَالِ وَقَدْ يُكْرَمُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ عَلَى خَيْرَاتٍ يَسِيرَةٍ لٰكِنَّهَا تَكُونُ كَثِيرَةً بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ وَإِلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ . فَكَانَ ٱلْكَرَامَةُ عَلَى ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْيَسِيرَةِ هِيَ بِٱلْعَرَضِ اَيْ مِنْ جِهَةِ مَا عَرَضَ لِتِلْكَ ٱلْاَشْيَاءِ اَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً بِٱلْاِضَافَةِ

اِلَى ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ اَوِ ٱلْحَالِ . وَاَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْكَرَامَةُ فَمِنْهَا مُشْتَرَكَةٌ لِجَمِيعِ ٱلْاُمَمِ وَمِنْهَا خَاصَّةٌ . فَٱلْخَاصَّةُ مِثْلُ ٱلذَّبَائِحِ وَٱلْقَرَابِينِ ٱلَّتِي كَانَتْ قَدْ جَرَتْ عَادَةُ ٱلْيُونَانِيِّينَ اَنْ يُكْرِمُوا بِهَا ٱلْاَمْوَاتَ . وَمِنْهَا عَامَّةٌ وَهِيَ ٱلْمَرَاتِبُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْمُسَارَعَةُ اِلَى اَقْوَالِهِ وَتَرْكُ مُخَالَفَتِهِ وَٱلْهَدَايَا ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلْمَحَبَّةَ وَٱلْقُرْبَ . فَاِنَّ ٱلْهَدِيَّةَ جَمَعَتْ اَمْرَيْنِ بَذْلَ ٱلْمَالِ وَٱلْكَرَامَةَ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَكُلُّ اِنْسَانٍ يَجِدُ فِيهَا مَا يَتَشَوَّقُهُ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةُ اَصْنَافٍ اِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْكَرَامَةَ وَاِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْمَالَ وَاِمَّا صِنْفٌ يَجْمَعُ ٱلْاَمْرَيْنِ . وَٱلْهَدِيَّةُ قَدْ جَمَعَتْ مُتَشَوَّقَ هٰذِهِ ٱلْاَصْنَافِ ٱلثَّلَاثَةِ

(قَالَ) وَاَمَّا فَضِيلَةُ ٱلْجَسَدِ فَٱلصِّحَّةُ وَذٰلِكَ اَنْ يَكُونُوا عَرِيزِينَ مِنَ ٱلْاَسْقَامِ ٱلْبَتَّةَ وَاَنْ يَسْتَعْمِلُوا اَبْدَانَهُمْ لِاَنَّ مَنْ لَا يَسْتَعْمِلُ صِحَّتَهُ فَلَيْسَ تَغْبِطُ نَفْسُهُ بِٱلصِّحَّةِ اَيْ لَيْسَ هُوَ حَسَنَ ٱلْحَالِ بِهَا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ اَوْ مِنْ اَكْثَرِهَا

(قَالَ) وَاَمَّا ٱلْحُسْنُ فَاِنَّهُ مُخْتَلِفٌ بِاِخْتِلَافِ اَصْنَافِ ٱلْاَسْنَانِ فَحُسْنُ ٱلْغِلْمَانِ وَجَمَالُهُمْ هُوَ اَنْ تَكُونَ اَبْدَانُهُمْ وَخَلْقُهُمْ بِهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُمْ ٱلْاَلَامَ وَٱلْاِنْفِعَالَ اَيْ لَا يَكُونُونَ غَيْرَ مُحْتَمِلِينَ لِلْاَذَى وَاَنْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يُسْتَلَذُّ اَنْ يُنْظَرَ اِلَيْهِمْ عِنْدَ ٱلْجَرْيِ وَٱلْغَلَبَةِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ مَا يَرَى ٱلنَّاسُ ٱلْغِلْمَانَ ٱلَّذِينَ هُمْ مُهَيَّأُونَ نَحْوَ ٱلْخَمْسِ

ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ حِسَانًا جِدًّا وَنَعْنِي بِٱلْخَمْسِ ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يُرَوِّضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ ٱلْعَدْوُ وَٱلرُّكُوبُ وَٱلْمُثَاقَفَةُ وَٱلصِّرَاعُ وَٱلْمُلَاكَرَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ ٱلنَّاسُ يَرَوْنَ فِيمَنْ كَانَ مُهَيَّأً نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا نَحْوَ ٱلْخِفَّةِ وَٱلْغَلَبَةِ وَإِذَا شَبَّ ٱمْتَثَالُ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَانِ كَانُوا لَذِيذِي ٱلْمَنْظَرِ عِنْدَ ٱلْعَمَلِ فِي ٱلْحَرْبِ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا نَحْوَ ٱلْحَرْبِ. وَأَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَجَمَالُهُمْ هُوَ ٱسْتِلْذَاذُ أَفْعَالِهِمْ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ جِدٌّ وَهِيَ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُرَاضُ ٱلصِّبْيَانُ عَلَى هٰذِهِ ٱللَّعِبَاتِ ٱلْخَمْسِ وَهِيَ ٱلْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذٰلِكَ يَرَوْنَ غَيْرَ ذَوِي ٱلْحَزَانِ وَلَا غَمٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُزْنَ وَٱلْغَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِٱلشَّيْخِ ظُنَّ بِهِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلطَّارِئَ ٱلَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ مِثْلَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةٌ يُحَرِّكُ ٱلْمَرْءُ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ شَاءَ. فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَمَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ ضَغَطَهُ وَكَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلضَّخَامَةِ فَهُوَ أَنْ يَفُوتَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُجَاوِرَهُمْ فِي ٱلطُّولِ وَٱلْعَرْضِ وَٱلْعُمْقِ وَتَكُونَ مَعَ ضَخَامَتِهِ حَرَكَاتُهُ غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ لِجُودَةِ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَكُونَ ضَخَامَتُهُ لَيْسَ سَبَبُهَا سِمَنًا

وَلَا اَمْرًا مُكْتَسَبًا

(قَالَ) وَاَمَّا اَلْهَيْئَةُ اَلَّتِي تُسَمَّى اَلْجِهَادِيَّةَ فَاِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنَ اَلضَّخَامَةِ وَاَلْجَلَدِ وَاَلْخِفَّةِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِذَا اَقْتَرَنَتِ اَلْخِفَّةُ مَعَ اَلْقُوَّةِ اَمْكَنَ اَنْ يَبْلُغَ بِالسُّرْعَةِ اَمَدًا بَعِيدًا لِاَنَّهُ اِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلَدٍ لَمْ يَبْلُغْ بِالسُّرْعَةِ اَمَدًا بَعِيدًا. وَذٰلِكَ اَنَّ اَلَّذِي جَمَعَ اَلضَّخَامَةَ وَاَلْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَاَلَّذِي جَمَعَ اَلضَّخَامَةَ وَاَلْقُوَّةَ وَاَلْخِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَاَمَّا اَلَّذِي جَمَعَ اَلصِّرَاعَ وَاَلْخِفَّةَ مَعًا فَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِاَسْمٍ مُشْتَقٍّ مِنَ اَلْحِذْقِ بِاسْتِعْمَالِ اَلْقُوَّةِ وَاَلْخِفَّةِ وَاَمَّا اَلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ اَلْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ اَلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَا اَلْخَمْسِ اَللُّعَبِ

(قَالَ) وَاَمَّا اَلشَّيْخُوخَةُ اَلصَّالِحَةُ فَاِنَّهَا دَوَامُ اَلْكِبَرِ مَعَ اَلْبَرَاءَةِ مِنَ اَلْخُرْقِ لِاَنَّهُ اِنْ عَجِلَتْ وَفَاةُ اَلْاِنْسَانِ قَبْلَ اَنْ يَبْلُغَ مُنْتَهَى اَلشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَاِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ اَلْاَحْزَانِ وَلَا اَنْ اُمْهِلَ اِلَى مُنْتَهَى اَلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَاِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ اَلْاَحْزَانِ اِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ اَلْجَدِّ وَفَضَائِلِ اَلْبَدَنِ اَعْنِي اَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعْتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ شَيْخُوخَتَهُ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِذَا كَانَ مَرِيضًا اَوْ كَانَ اَلْجَدُّ غَيْرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِاَنْ يَكُونَ قَدِ اعْتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَاِنَّهُ لَيْسَ بِصَالِحِ اَلشَّيْخُوخَةِ وَاِنْ كَانَ مُعَمَّرًا. وَكَذٰلِكَ اِنْ كَانَ مَرِيضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيْفَ يَكُونُ طُولُ اَلْعُمْرِ مَعَ اَلْاَمْرَاضِ لٰكِنْ يُشْبِهُ اَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ اَلْعُمْرِ غَيْرَ قُوَّةِ اَلصِّحَّةِ فَاِنَّا نَرَى قَوْمًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

اَعْمَارُهُمْ مَعَ اَنَّهُمْ مِسْقَامُونَ . وَتَصْحِيحُ هٰذَا هُوَ لِلْعِلْمِ اَلطَّبِيعِيِّ وَلَيْسَ فِي تَصْحِيحِهِ فِي هٰذَا اَلْعِلْمِ مَنْفَعَةٌ وَاَلْخَطِيبُ اِنَّمَا يَكْتَفِي مِنْ ذٰلِكَ بِالشَّيْءِ اَلظَّاهِرِ

(قَالَ) وَاَمَّا كَثْرَةُ اَلْخُلَّةِ وَصَلَاحُ حَالِ اَلْاِنْسَانِ بِالْاِخْوَانِ فَذٰلِكَ اَيْضًا غَيْرُ خَفِيٍّ اِذَا حُدَّ مَا هُوَ اَلْخَلِيلُ وَالصَّاحِبُ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفْعَلُ اَلْخَيْرَ اَلَّذِي يَظُنُّ اَنَّهُ يَنْفَعُ بِهِ اَلْاٰخَرَ لَا اَلْخَيْرَ اَلَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ فِي نَفْسِهِ فَقَطْ . وَاِذَا كَانَتِ اَلْخُلَّةُ وَالصُّحْبَةُ هِيَ هٰذِهِ فَبَيِّنٌ اَنَّ اَلْمَرْءَ يَكُونُ صَالِحَ اَلْحَالِ بِالْاِخْوَانِ اَلْكَثِيرَةِ

(قَالَ) وَاَمَّا صَلَاحُ اَلْجَدِّ فَهُوَ اَنْ يَكُونَ اَلْاِتِّفَاقُ لِاِنْسَانٍ مَا عِلَّةً لِوُجُودِ اَلْخَيْرِ لَهُ . وَذٰلِكَ اِمَّا مِنَ اَلْخَيْرَاتِ اَلْمَوْجُودَةِ فِي ذَاتِهِ وَاِمَّا مِنَ اَلْخَيْرَاتِ اَلْمَوْجُودَةِ لَهُ مِنْ خَارِجٍ . وَعِلَّةُ اَلْاِتِّفَاقِ قَدْ تَكُونُ اَلصِّنَاعَةَ وَقَدْ تَكُونَ اَلطَّبِيعَةَ وَهُوَ اَلْاَكْثَرُ . فَمِثَالُ مَا يَكُونُ عَنِ اَلْاِتِّفَاقِ اَلطَّبِيعِيِّ اَنْ يُولَدَ اَلْاِنْسَانُ ذَا قُوَّةٍ وَهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُ اَلْاُمُورَ اَلْوَارِدَةَ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ . فَاَمَّا اَنْ يَكُونَ اَلْاِنْسَانُ صَحِيحًا فَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ اَلْاِتِّفَاقَ اَلطَّبِيعِيَّ مِثْلَ اَنْ يُولَدَ صَحِيحًا . وَقَدْ يَكُونُ اَلْاِتِّفَاقَ اَلصِّنَاعِيَّ مِثْلَ اَنْ يُسْقَى سُمًّا فَيَبْرَأَ مِنْ مَرَضٍ كَانَ بِهِ . وَاَمَّا اَلْجَمَالُ وَالضَّخَامَةُ فَعِلَّتُهُمَا اَلْاِتِّفَاقُ اَلصِّنَاعِيُّ وَالطَّبِيعِيُّ وَجُمْلَةُ اَلْاَمْرِ اَنَّ اَلْخَيْرَاتِ اَلَّتِي سَبَبُهَا اَلْجَدُّ اَلَّذِي هُوَ حُسْنُ اَلْاِتِّفَاقِ هِيَ اَلْخَيْرَاتُ اَلَّتِي يَكُونُ اَلْمَرْءُ مَغْبُوطًا بِهَا مَحْسُودًا عَلَيْهَا . وَقَدْ يَكُونُ

اَلْجِدَّةُ عِلَّةَ لِخَيْرَاتٍ لَيْسَتْ هِيَ خَيْرَاتٍ بِالْحَقِيقَةِ وَاِنَّمَا تُرَى خَيْرَاتٍ بِالْاِضَافَةِ وَالْمُقَايَسَةِ اِلَى الْغَيْرِ. كَمَا قَدْ يَكُونُ الْقُبْحُ فِي حَقِّ اِنْسَانٍ خَيْرًا مَا اِذَا رُئِيَ غَيْرُهُ قَبُحَ مِنْهُ وَمِثْلَ اَنْ يَكُونَ اِنْسَانَانِ وَقَفَا مِنَ الْحَرْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فَاَصَابَ اَحَدَهُمَا السَّهْمُ وَلَمْ يُصِبِ الثَّانِيَ فَاِنَّ الَّذِي لَمْ يُصِبْهُ السَّهْمُ يَرَى اَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِالْاِضَافَةِ اِلَى صَاحِبِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. وَبِخَاصَّةٍ اِنْ كَانَ ذٰلِكَ الَّذِي لَمْ يُصِبْهُ السَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ اَنْ يَشْهَدَ الْحُرُوبَ كَثِيرًا وَالْاٰخَرُ لَمْ يَشْهَدْ قَطُّ اِلَّا تِلْكَ الْحَرْبَ وَكَذٰلِكَ اِذَا وَجَدَ الْكَثْرَ وَاحِدٌ مِمَّنْ طَلَبُهُ. قَدْ يَرَى اَنَّهُ خَيْرٌ بِالْاِضَافَةِ اِلَى مَنْ لَمْ يُصِبْهُ وَاِنْ كَانَ الْكَثْرُ يَسِيرًا فَمِنْ هٰذَا وَنَحْوِهِ يَنْظُرُ الْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ الْجَدِّ. وَاَمَّا تَعْرِيفُ الْفَضِيلَةِ فَاَوْلَى الْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ الْقَوْلِ فِي الْاَشْيَاءِ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. لِاَنَّ الْفَضِيلَةَ خَاصَّةٌ بِالْمَادِحِ وَلِذٰلِكَ وَجَبَ اَنْ يَكُونَ الْمَادِحُ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُ بِاسْتِقْصَاءِ الْفَضِيلَةَ وَالْفَضَائِلَ وَاِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبِلٌ وَحَاضِرٌ فَالْمَادِحُ اِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ حَاضِرَةٌ وَالْمُشِيرُ مِنْ جِهَةِ اَنَّهَا مُسْتَقْبَلَةٌ اَيْ نَافِعَةٌ

البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

نَبْدَأُ بِمَعُونَةِ ٱللهِ تَعَالَى فِي هٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ بِذِكْرِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلسَّعَادَةِ بَعْدَ اَنْ نَذْكُرَ اَلْفَاظَ اَرِسْطَاطَالِيسَ ٱقْتِدَاءً بِهِ وَتَوْفِيَةً لِحَقِّهِ فَنَقُولُ: اِنَّ ٱلْخَيْرَ عَلَى مَا حَدَّهُ وَٱسْتَحْسَنَهُ مِنْ آرَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكُلِّ وَهِيَ ٱلْغَايَةُ ٱلْاَخِيرَةُ وَقَدْ يُسَمَّى ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ فِي هٰذِهِ ٱلْغَايَةِ خَيْرًا فَاَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ ٱلْخَيْرُ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ فَٱلسَّعَادَةُ اِذًا خَيْرٌ مَا. وَقَدْ تَكُونُ سَعَادَةُ ٱلْاِنْسَانِ غَيْرَ سَعَادَةِ ٱلْفَرَسِ وَسَعَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تَمَامِهِ وَكَمَالِهِ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ. فَاَمَّا ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يَقْصِدُهُ ٱلْكُلُّ بِٱلشَّوْقِ فَهُوَ طَبِيعَةٌ تُقْصَدُ وَلَهَا ذَاتٌ وَهُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلْعَامُّ لِلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ فَهُمْ بِاَجْمَعِهِمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهَا. فَاَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ خَيْرٌ مَا لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَهِيَ اِذًا بِٱلْاِضَافَةِ لَيْسَ لَهَا ذَاتٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى قَاصِدِيهَا. فَلِذٰلِكَ يَكُونُ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ غَيْرَ مُخْتَلَفٍ فِيهِ وَقَدْ يُظَنُّ بِٱلسَّعَادَةِ اَنَّهَا تَكُونُ لِغَيْرِ ٱلنَّاطِقِينَ فَاِنْ كَانَ ذٰلِكَ فَاِنَّمَا هِيَ ٱسْتِعْدَادَاتٌ فِيهَا لِقَبُولِ تَمَامَاتِهَا وَكَمَالَاتِهَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا اِرَادَةٍ وَتِلْكَ ٱلْاِسْتِعْدَادَاتُ هِيَ ٱلشَّوْقُ اَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى ٱلشَّوْقِ

مِنَ ٱلنَّاطِقِينَ بِٱلْإِرَادَةِ. فَأَمَّا مَا يَتَأَتَّى لِلْحَيَوَانَاتِ فِي مَآكِلِهَا وَمَشَارِبِهَا وَرَاحَاتِهَا فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بَخْتًا أَوِ ٱتِّفَاقًا وَلَا يُؤَهَّلُ لِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي ٱلْإِنْسَانِ أَيْضًا. وَإِنَّمَا ٱسْتُحْسِنَ ٱلْحَدُّ ٱلَّذِي ذَكَرْنَا لِلْخَيْرِ ٱلْمُطْلَقِ لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ لَا يُطْلِقُ ٱلسَّعْيَ وَٱلْحَرَكَةَ إِلَى لَا نِهَايَةٍ وَهٰذَا أَوَّلٌ فِي ٱلْعَقْلِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّنَاعَاتِ وَٱلْهِمَمَ وَٱلتَّدَابِيرَ ٱلِٱخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَا وَمَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ خَيْرٌ مَا فَهُوَ عَبَثٌ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَذِرُهُ وَيَمْتَنِعُ مِنْهُ وَبِٱلْوَاجِبِ صَارَ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلْمَقْصُودَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ٱلنَّاسِ. وَلٰكِنْ بَقِيَ أَنْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا ٱلْغَايَةُ ٱلْأَخِيرَةُ مِنْهُ ٱلَّتِي هِيَ غَايَةُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَرْتَقِي ٱلْخَيْرَاتُ كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى نَجْعَلَهُ غَرَضَنَا وَنَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَا نَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا تَنْتَشِرَ أَفْكَارُنَا فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا تَغْلَطَ أَيْضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَنَظُنَّهُ خَيْرًا ثُمَّ تَفْنَى أَعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَٱلتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَنُبَيِّنُ بِمَشِيئَةِ ٱللهِ وَعَوْنِهِ

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسه)

ٱلْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ أَرِسْطَاطَالِيسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْفُورِيُوسُ وَغَيْرُهُ هٰكَذَا قَالَ: ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

مَمْدُوحَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ بِالْقُوَّةِ كَذٰلِكَ وَمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِيهَا. فَالشَّرِيفَةُ مِنْهَا هِيَ الَّتِي شَرَفُهَا مِنْ ذَاتِهَا وَنَجْعَلُ مَنِ اقْتَنَاهَا شَرِيفًا وَهِيَ الْحِكْمَةُ وَالْعَقْلُ. وَالْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا مِثْلُ الْفَضَائِلِ وَالْأَفْعَالِ الْجَمِيلَةِ الْإِرَادِيَّةِ. وَالَّتِي هِيَ بِالْقُوَّةِ مِثْلُ التَّهَيُّؤِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِنَيْلِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ. وَالنَّافِعَةُ هِيَ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُطْلَبُ لَا لِذَاتِهَا بَلْ لِيُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى الْخَيْرَاتِ. (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ لَيْسَتْ بِغَايَاتٍ. وَالْغَايَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ تَامَّةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ. فَالَّتِي هِيَ تَامَّةٌ كَالسَّعَادَةِ وَذٰلِكَ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا لَمْ نَحْتَجْ أَنْ نَسْتَزِيدَ إِلَيْهَا شَيْئًا آخَرَ. وَالَّتِي هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ فَكَالصِّحَّةِ وَالْيَسَارِ مِنْ قِبَلِ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا احْتَجْنَا أَنْ نَسْتَزِيدَ فَنَقْتَنِيَ أَشْيَاءَ أُخَرَ. وَأَمَّا الَّتِي لَيْسَتْ بِغَايَةٍ الْبَتَّةَ فَكَالْعِلَاجِ وَالتَّعَلُّمِ وَالرِّيَاضَةِ. (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِأَجْلِ ذَاتِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِأَجْلِ غَيْرِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا وَمِنْهَا مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْهُمَا. (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَمِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَالِاتِّفَاقَاتِ الَّتِي تَتَّفِقُ لِبَعْضِ النَّاسِ وَفِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ وَأَيْضًا مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ وَمِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَفِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَمِنْهَا مَا لَيْسَ بِخَيْرٍ لِجَمِيعِ النَّاسِ وَلَا مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ. (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) الْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ فِي الْجَوْهَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الْكَمِّيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الْكَيْفِيَّةِ وَفِي سَائِرِ الْمَقُولَاتِ فَمِنْهَا كَالْقُوَى وَالْمَلَكَاتِ وَمِنْهَا

كَالْاَحْوَالِ وَمِنْهَا كَالْاَفْعَالِ وَمِنْهَا كَالْغَايَاتِ وَمِنْهَا كَالْمَوَادِّ وَمِنْهَا كَالْاَلَاتِ. وَوُجُودُ الْخَيْرَاتِ فِي الْمَقُولَاتِ كُلِّهَا يَكُونُ عَلَى هٰذَا الْمِثَالِ اَمَّا فِي الْجَوْهَرِ اَعْنِي مَا لَيْسَ بِعَرَضٍ فَاللّٰهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْخَيْرُ الْاَوَّلُ فَاِنَّ جَمِيعَ الْاَشْيَاءِ تَتَحَرَّكُ نَحْوَهُ بِالشَّوْقِ اِلَيْهِ وَلِاَنَّ مَآلَ الْخَيْرَاتِ الْاِلٰهِيَّةِ مِنَ الْبَقَاءِ وَالسَّرْمَدِيَّةِ وَالتَّمَامِ مِنْهُ. وَاَمَّا فِي الْكَمِّيَّةِ فَالْعَدَدُ الْمُعْتَدِلُ وَالْمِقْدَارُ الْمُعْتَدِلُ وَاَمَّا فِي الْكَيْفِيَّةِ فَكَاللَّذَّاتِ. وَاَمَّا فِي الْاِضَافَةِ فَكَالصَّدَقَاتِ وَالرِّئَاسَاتِ. وَاَمَّا فِي الْاَيْنِ وَالْمَتَى فَكَالْمَكَانِ الْمُعْتَدِلِ وَالزَّمَانِ الْاَنِيقِ الْبَهِجِ. وَاَمَّا فِي الْوَضْعِ فَكَالْقُعُودِ وَالْاِضْطِجَاعِ وَالْاِتِّكَاءِ الْمُوَافِقِ. وَاَمَّا فِي الْمِلْكِ فَكَالْاَمْوَالِ وَالْمَنَافِعِ. وَاَمَّا فِي الْاَنْفِعَالِ فَكَالسَّمَاعِ الطَّيِّبِ وَسَائِرِ الْمَحْسُوسَاتِ الْمُؤَثِّرَةِ. وَاَمَّا فِي الْفِعْلِ فَمِثْلُ نَفَاذِ الْاَمْرِ وَرَوَاجِ الْفِعْلِ. (وَعَلَى جِهَةٍ اُخْرَى) اَلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَعْقُولَاتٌ وَمِنْهَا مَحْسُوسَاتٌ

(وَاَمَّا السَّعَادَةُ) فَقَدْ قُلْنَا اِنَّهَا خَيْرٌ مَا وَهِيَ تَمَامُ الْخَيْرَاتِ وَغَايَاتُهَا وَالتَّمَامُ هُوَ الَّذِي اِذَا بَلَغْنَا اِلَيْهِ لَمْ نَحْتَجْ مَعَهُ اِلَى شَيْءٍ آخَرَ فَلِذٰلِكَ نَقُولُ اِنَّ السَّعَادَةَ هِيَ اَفْضَلُ الْخَيْرَاتِ وَلٰكِنَّا نَحْتَاجُ فِي هٰذَا التَّمَامِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى اِلَى سَعَادَاتٍ اُخَرَ وَهِيَ الَّتِي فِي الْبَدَنِ وَالَّتِي خَارِجَ الْبَدَنِ. (وَاَرِسْطَاطَالِيسُ) يَقُولُ اِنَّهُ يَعْسُرُ عَلَى الْاِنْسَانِ اَنْ يَفْعَلَ الْاَفْعَالَ الشَّرِيفَةَ بِلَا مَادَّةٍ مِثْلِ اِتِّسَاعِ الْيَدِ وَكَثْرَةِ الْاَصْدِقَاءِ وَجُودَةِ الْبَخْتِ

(وَاَمَّا اَقْسَامُ) السَّعَادَةِ عَلَى مَذْهَبِ هٰذَا الْحَكِيمِ فَهِيَ خَمْسَةٌ

اَقْسَامٍ : (اَحَدُهَا) فِي صِحَّةِ اَلْبَدَنِ وَلُطْفِ اَلْحَوَاسِّ وَيَكُونُ ذٰلِكَ مِنِ اعْتِدَالِ اَلْمِزَاجِ اَعْنِي اَنْ يَكُونَ جَيِّدَ اَلسَّمْعِ وَاَلْبَصَرِ وَاَلشَّمِّ وَاَلذَّوْقِ وَاَللَّمْسِ . (وَاَلثَّانِي) فِي اَلثَّرْوَةِ وَاَلْاَعْوَانِ وَاَشْبَاهِهِمَا حَتَّى يَتَّسِعَ لِاَنْ يَضَعَ اَلْمَالَ فِي مَوْضِعِهِ وَيَعْمَلَ بِهِ سَائِرَ اَلْخَيْرَاتِ وَيُوَاسِيَ مِنْهُ اَهْلَ اَلْخَيْرَاتِ خَاصَّةً وَاَلْمُسْتَحِقِّينَ عَامَّةً وَيَعْمَلَ بِهِ كُلَّ مَا يَزِيدُ فِي فَضَائِلِهِ وَيَسْتَحِقَّ اَلثَّنَاءَ وَاَلْمَدْحَ عَلَيْهِ . (وَاَلثَّالِثُ) اَنْ تَحْسُنَ اُحْدُوثَتُهُ فِي اَلنَّاسِ وَيُنْشَرَ ذِكْرُهُ بَيْنَ اَهْلِ اَلْفَضْلِ فَيَكُونَ مَمْدُوحًا بَيْنَهُمْ يُكْثِرُونَ اَلثَّنَاءَ عَلَيْهِ لِمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنَ اَلْاِحْسَانِ وَاَلْمَعْرُوفِ . (وَاَلرَّابِعُ) اَنْ يَكُونَ مُنْجِحًا فِي اَلْاُمُورِ وَذٰلِكَ اِذَا اَسْتَتَمَّ كُلَّ مَا رَوَّى فِيهِ وَعَزَمَ عَلَيْهِ حَتَّى يَصِيرَ اِلَى مَا يَأْمُلُهُ مِنْهُ . (وَاَلْخَامِسُ) اَنْ يَكُونَ جَيِّدَ اَلرَّأْيِ صَحِيحَ اَلْفِكْرِ سَلِيمَ اَلْاِعْتِقَادَاتِ فِي دِينِهِ بَرِيئًا مِنَ اَلْخَطَإِ وَاَلزَّلَلِ جَيِّدَ اَلْمَشُورَةِ فِي اَلْآرَاءِ . فَمَنِ اجْتَمَعَتْ لَهُ هٰذِهِ اَلْاَقْسَامُ كُلُّهَا فَهُوَ اَلسَّعِيدُ اَلْكَامِلُ عَلَى مَذْهَبِ هٰذَا اَلرَّجُلِ اَلْفَاضِلِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ بَعْضُهَا كَانَ حَظُّهُ مِنَ اَلسَّعَادَةِ بِحَسَبِ ذٰلِكَ . (وَاَمَّا اَلْحُكَمَاءُ) قَبْلَ هٰذَا اَلرَّجُلِ مِثْلُ فِيثَاغُورُسَ وَبُقْرَاطَ وَاَفْلَاطُونَ وَاَشْبَاهِهِمْ فَاِنَّهُمْ اَجْمَعُوا عَلَى اَنَّ اَلْفَضَائِلَ وَاَلسَّعَادَةَ كُلَّهَا فِي اَلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَلِذٰلِكَ لَمَّا قَسَمُوا اَلسَّعَادَةَ جَعَلُوهَا كُلَّهَا فِي قُوَى اَلنَّفْسِ اَلَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي اَوَّلِ اَلْكِتَابِ (وَهِيَ اَلْحِكْمَةُ وَاَلشَّجَاعَةُ وَاَلْعِفَّةُ وَاَلْعَدَالَةُ) . وَاَجْمَعُوا عَلَى اَنَّ هٰذِهِ اَلْفَضَائِلَ هِيَ كَافِيَةٌ فِي اَلسَّعَادَةِ وَلَا يُحْتَاجُ مَعَهَا اِلَى غَيْرِهَا مِنْ فَضَائِلِ اَلْبَدَنِ

وَلَا مَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا حَصَّلَ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلَ لَمْ يَضُرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيمًا نَاقِصَ ٱلْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ أَمْرَاضِ ٱلْبَدَنِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَ ٱلنَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ أَفْعَالِهَا مِثْلُ فَسَادِ ٱلْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ ٱلذِّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا. وَأَمَّا ٱلْفَقْرُ وَٱلْخُمُولُ وَسُقُوطُ ٱلْحَالِ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ بِقَادِحَةٍ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْبَتَّةَ. وَأَمَّا ٱلرَّوَاقِيُّونَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا ٱلْبَدَنَ جُزْءًا مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذٰلِكَ ٱضْطُرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا ٱلسَّعَادَةَ ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ غَيْرَ كَامِلَةٍ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا سَعَادَةُ ٱلْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجُ ٱلْبَدَنِ أَيْضًا أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْبَخْتِ وَٱلْجَدِّ. وَٱلْمُحَقِّقُونَ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ يَحْقِرُونَ أَمْرَ ٱلْبَخْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤْهِلُونَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءَ لِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ شَيْءٌ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ ٱلْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ لِأَخَسِّ ٱلْأَشْيَاءِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَتَحَصَّلُ بِرَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلٍ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيبًا

وَلِهٰذَا ٱلنَّظَرِ ٱخْتَلَفَ ٱلْقُدَمَاءُ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْبَدَنِ ٱلطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا. وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى هِيَ فِي ٱلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَسَمَّوُا ٱلْإِنْسَانَ ذٰلِكَ ٱلْجَوْهَرَ وَحْدَهُ دُونَ ٱلْبَدَنِ وَلِذٰلِكَ حَكَمُوا أَنَّهَا مَا دَامَتْ فِي ٱلْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِٱلطَّبِيعَةِ وَكَدِرَهَا

وَنَجَاسَاتِ ٱلْبَدَنِ وَضَرُورَاتِهِ وَحَاجَاتِ ٱلْإِنْسَانِ بِهِ وَٱفْتِقَارَاتِهِ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ فَلَيْسَتْ سَعِيدَةً عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ. وَأَيْضًا لَمَّا رَأَوْهَا لَا تَكْمُلُ لِوُجُودِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَتِرُ عَنْهَا بِظُلْمَةِ ٱلْهُيُولَى أَعْنِي قُصُورَهَا وَنُقْصَانَهَا ظَنُّوا أَنَّهَا إِذَا فَارَقَتْ هٰذِهِ ٱلْكُدُورَةَ فَارَقَتِ ٱلْجَهَالَاتِ وَصَفَتْ وَخَلُصَتْ وَقَبِلَتِ ٱلْإِضَاءَةَ وَٱلنُّورَ ٱلْإِلٰهِيَّ أَعْنِي ٱلْعَقْلَ ٱلتَّامَّ. وَيَجِبُ عَلَى رَأْيِ هٰؤُلَاءِ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَسْعَدُ ٱلسَّعَادَةَ ٱلتَّامَّةَ إِلَّا فِي ٱلْآخِرَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَأَمَّا ٱلْفِرْقَةُ ٱلْأُخْرَى فَإِنَّهَا قَالَتْ إِنَّهُ مِنَ ٱلْقَبِيحِ ٱلشَّنِيعِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مَا دَامَ حَيًّا يَعْمَلُ ٱلْأَعْمَالَ ٱلصَّالِحَةَ وَيَعْتَقِدُ ٱلْآرَاءَ ٱلصَّحِيحَةَ وَيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ ٱلْفَضَائِلِ كُلِّهَا لِنَفْسِهِ أَوَّلًا ثُمَّ لِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ ثَانِيًا وَيَخْلُفُ رَبَّ ٱلْعِزَّةِ تَقَدَّسَ ذِكْرُهُ فِي خَلْقِهِ بِهٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ شَقِيٌّ نَاقِصٌ حَتَّى إِذَا مَاتَ وَعُدِمَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ صَارَ سَعِيدًا تَامَّ ٱلسَّعَادَةِ وَأَرِسْطَاطَالِيسُ يَتَحَقَّقُ بِهٰذَا ٱلرَّأْيِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْإِنْسَانُ هُوَ ٱلْمُرَكَّبُ عِنْدَهُ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ وَلِذٰلِكَ حَدَّ ٱلْإِنْسَانَ بِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَائِتِ وَبِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَاشِي بِرِجْلَيْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلْفِرْقَةُ وَهِيَ ٱلَّتِي رَئِيسُهَا أَرِسْطَاطَالِيسُ رَأَتْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِذَا سَعَى لَهَا وَتَعِبَ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى أَقْصَاهَا. وَلَمَّا رَأَى ٱلْحَكِيمُ ذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِي هٰذِهِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنَّهَا قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَيْهِمْ إِشْكَالًا شَدِيدًا ٱحْتَاجَ أَنْ يَتْعَبَ فِي ٱلْإِبَانَةِ عَنْهَا وَإِطَالَةِ ٱلْكَلَامِ فِيهَا. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَقِيرَ يَرَى أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى

فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱليَسَارِ وَٱلْمَرِيضَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلسَّلَامَةِ وَٱلذَّلِيلَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلْجَاهِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْخَلِيعَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلتَّمْكِينِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَٱلْعَاشِقَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلظَّفَرِ بِٱلْمَعْشُوقِ وَٱلْفَاضِلَ يَرَى أَنَّهَا فِي إِفَاضَةِ ٱلْمَعْرُوفِ عَلَى ٱلْمُسْتَحِقِّينَ وَٱلْفَيْلَسُوفَ يَرَى أَنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِذَا كَانَتْ مُرَتَّبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ ٱلْعَدْلِ أَعْنِي عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يَجِبُ وَكَمَا يَجِبُ وَعِنْدَ مَنْ يَجِبُ فَهِيَ سَعَادَاتٌ كُلُّهَا وَمَا كَانَ مِنْهَا يُرَادُ لِشَيْءٍ آخَرَ فَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ أَحَقُّ بِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ نَظَرًا مَا وَجَبَ أَنْ تُثْبِتَ فِي ذٰلِكَ مَا نَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَرْوَاحَ ٱلطَّيِّبَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَنْعَامَ لِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا فَهُوَ بِٱلْخَيْرِ ٱلْجِسْمَانِيِّ ٱلَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ ٱلْأَنْعَامَ مُقِيمٌ فِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيُعَمِّرَهُ وَيُنَظِّمَهُ وَيُرَتِّبَهُ حَتَّى إِذَا ظَفِرَ بِهٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ عَلَى ٱلْكَمَالِ ٱنْتَقَلَ إِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْعُلْوِيِّ وَأَقَامَ فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا ٱلْعَالَمَ ٱلسُّفْلِيَّ وَٱلْعَالَمَ ٱلْعُلْوِيَّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَإِنَّا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ إِنَّا لَسْنَا نَعْنِي بِٱلْعُلْوِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَعْلَى فِي ٱلْحِسِّ وَلَا بِٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَسْفَلَ فِي ٱلْحِسِّ بَلْ كُلُّ مَحْسُوسٍ فَهُوَ أَسْفَلُ وَإِنْ كَانَ مَحْسُوسًا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْأَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

اَعْلَى وَاِنْ كَانَ مَعْقُولًا فِي اَلْمَكَانِ اَلْاَسْفَلِ. وَيَنْبَغِي اَنْ يُعْلَمَ اَنَّهُ لَيْسَ يُحْتَاجُ فِي صِحَّةِ اَلْاَرْوَاحِ اَلطَّيِّبَةِ اَلْمُسْتَغْنِيَةِ عَنِ اَلْاَبْدَانِ اِلَى شَيْءٍ مِنَ اَلسَّعَادَاتِ اَلْبَدَنِيَّةِ اَلَّتِي ذَكَرْنَاهَا سِوَى سَعَادَةِ اَلنَّفْسِ فَقَطْ اَعْنِي اَلْمَعْقُولَاتِ اَلْاَبَدِيَّةَ اَلَّتِي هِيَ اَلْحِكْمَةُ فَقَطْ. فَاِذَا مَا دَامَ اَلْاِنْسَانُ اِنْسَانًا فَلَيْسَ تَتِمُّ لَهُ اَلسَّعَادَةُ اِلَّا بِتَحْصِيلِ اَلْحَالَيْنِ جَمِيعًا وَلَيْسَ يَحْصُلَانِ عَلَى اَلتَّمَامِ اِلَّا بِالْاَشْيَاءِ اَلنَّافِعَةِ فِي اَلْوُصُولِ اِلَى اَلْحِكْمَةِ اَلْاَبَدِيَّةِ. فَالسَّعِيدُ اِذًا مِنَ اَلنَّاسِ يَكُونُ فِي اِحْدَى مَرْتَبَتَيْنِ اِمَّا فِي مَرْتَبَةِ اَلْاَشْيَاءِ اَلْجِسْمَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِاَحْوَالِهَا اَلسُّفْلَى سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ يُطَالِعُ اَلْاُمُورَ اَلشَّرِيفَةَ بَاحِثًا عَنْهَا مُشْتَاقًا اِلَيْهَا مُتَحَرِّكًا نَحْوَهَا مُغْتَبِطًا بِهَا. وَاِمَّا اَنْ يَكُونَ فِي رُتْبَةِ اَلْاَشْيَاءِ اَلرُّوحَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِاَحْوَالِهَا اَلْعُلْيَا سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ يُطَالِعُ اَلْاُمُورَ اَلْبَدَنِيَّةَ مُعْتَبِرًا بِهَا نَاظِرًا فِي عَلَامَاتِ اَلْقُدْرَةِ اَلْاِلٰهِيَّةِ وَدَلَائِلِ اَلْحِكْمَةِ اَلْبَالِغَةِ مُقْتَدِيًا بِهَا نَاظِمًا لَهَا مُفِيضًا لِلْخَيْرَاتِ عَلَيْهَا سَابِقًا لَهَا نَحْوَ اَلْاَفْضَلِ فَالْاَفْضَلِ بِحَسَبِ قَبُولِهَا وَعَلَى نَحْوِ اَسْتِطَاعَتِهَا. وَاَيُّ اَمْرِىءٍ لَمْ يَحْصُلْ فِي اِحْدَى هَاتَيْنِ اَلْمَنْزِلَتَيْنِ فَهُوَ فِي رُتْبَةِ اَلْاَنْعَامِ بَلْ هُوَ اَضَلُّ وَاِنَّمَا صَارَ اَضَلَّ لِاَنَّ تِلْكَ غَيْرُ مُعَرَّضَةٍ لِهٰذِهِ اَلْخَيْرَاتِ وَلَا اُعْطِيَتِ اَسْتِطَاعَةً تَتَحَرَّكُ بِهَا نَحْوَ هٰذِهِ اَلْمَرَاتِبِ اَلْعَالِيَةِ وَاِنَّمَا تَتَحَرَّكُ بِقُوَاهَا نَحْوَ كَمَالَاتِهَا اَلْخَاصَّةِ بِهَا وَاَلْاِنْسَانُ مُعَرَّضٌ لَهَا مَنْدُوبٌ اِلَيْهَا مُزَاحُ اَلْعِلَّةِ فِيهَا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ غَيْرُ مُحَصِّلٍ لَهَا وَلَا سَاعٍ نَحْوَهَا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ مُؤْثِرٌ لِضِدِّهَا يَسْتَعْمِلُ قُوَاهُ اَلشَّرِيفَةَ فِي

ٱلْأُمُورِ ٱلدِّينِيَّةِ وَتِلْكَ مُخَصَّصَةٌ لِكَمَالَاتِهَا ٱلَّتِي تَخُصُّهَا. فَإِذَا ٱلْأَنْعَامُ إِذَا مُنِعَتِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْإِنْسِيَّةَ حُرِمَتْ جِوَارَ ٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَدُخُولَ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ بِهَا ٱلْمُتَّقُونَ فَهِيَ مَعْذُورَةٌ وَٱلْإِنْسَانُ غَيْرُ مَعْذُورٍ. وَمَثَلُ ٱلْأَوَّلِ مَثَلُ ٱلْأَعْمَى إِذَا جَارَ عَنِ ٱلطَّرِيقِ فَتَرَدَّى فِي بِئْرٍ فَهُوَ مَرْحُومٌ غَيْرُ مَلُومٍ. وَمَثَلُ ٱلثَّانِي مَثَلُ بَصِيرٍ يَجُورُ عَلَى بَصِيرَةٍ حَتَّى يَتَرَدَّى فِي ٱلْبِئْرِ فَهُوَ مَمْقُوتٌ مَلُومٌ. وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلسَّعِيدَ لَا مَحَالَةَ فِي إِحْدَى ٱلْمَرْتَبَتَيْنِ ٱللَّتَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُمَا نَاقِصٌ مُقَصِّرٌ عَنِ ٱلْآخَرِ وَأَنَّ ٱلْأَنْقَصَ مِنْهُمَا لَيْسَ يَخْلُو وَلَا يَتَعَرَّى مِنَ ٱلْآلَامِ وَٱلْحَسَرَاتِ لِأَجْلِ خَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَٱلزَّخَارِفِ ٱلْحِسِّيَّةِ ٱلَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِيمَا يُلَابِسُهُ وَتَعُوقُهُ عَمَّا يُلَاحِظُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ ٱلتَّرَقِّي فِيهَا عَلَى مَا يَنْبَغِي وَتَشْغَلُهُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ فَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ غَيْرُ كَامِلٍ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلَا سَعِيدٍ تَامٍّ. وَأَنَّ صَاحِبَ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْأُخْرَى هُوَ ٱلسَّعِيدُ ٱلتَّامُّ وَهُوَ ٱلَّذِي تَوَفَّرَ حَظُّهُ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ فَهُوَ مُقِيمٌ بِرُوحَانِيَّتِهِ بَيْنَ ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى يَسْتَمِدُّ مِنْهُمْ لَطَائِفَ ٱلْحِكْمَةِ وَيَسْتَنِيرُ بِٱلنُّورِ ٱلْإِلٰهِيِّ وَيَسْتَزِيدُ مِنْ فَضَائِلِهِ بِحَسَبِ عِنَايَتِهِ بِهَا وَقِلَّةِ عَوَائِقِهِ عَنْهَا وَلِذٰلِكَ يَكُونُ أَبَدًا خَالِيًا مِنَ ٱلْآلَامِ وَٱلْحَسَرَاتِ ٱلَّتِي لَا يَخْلُو صَاحِبُ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْأُولَى مِنْهَا. وَيَكُونُ مَسْرُورًا أَبَدًا بِذَاتِهِ مُغْتَبِطًا بِحَالِهِ وَبِمَا يَحْصُلُ لَهُ دَائِمًا مِنْ فَيْضِ نُورِ ٱلْأَوَّلِ فَلَيْسَ يُسَرُّ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا يَغْتَبِطُ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلْمَحَاسِنِ وَلَا يَهِشُّ إِلَّا لِإِظْهَارِ تِلْكَ ٱلْحِكْمَةِ بَيْنَ أَهْلِهَا وَلَا يَرْتَاحُ إِلَّا لِمَنْ نَاسَبَهُ أَوْ قَارَبَهُ

وَاَحَبَّ الْاِقْتِبَاسَ مِنْهُ . وَهٰذِهِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الَّتِي مَنْ وَصَلَ اِلَيْهَا فَقَدْ وَصَلَ اِلَى آخِرِ السَّعَادَاتِ وَاَقْصَاهَا وَهُوَ الَّذِي لَا يُبَالِي بِفِرَاقِ الْاَحْبَابِ مِنْ اَهْلِ الدُّنْيَا وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ التَّنَعُّمِ فِيهَا وَهُوَ الَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ الدُّنْيَا الَّتِي عَدَدْنَاهَا فِي السَّعَادَاتِ الَّتِي فِي بَدَنِهِ وَالْخَارِجَةِ عَنْهُ كُلَّهَا كَلًّا عَلَيْهِ اِلَّا فِي ضَرُورَاتٍ يَحْتَاجُ اِلَيْهَا لِبَدَنِهِ الَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَسْتَطِيعُ الْاِنْحِلَالَ عَنْهُ اِلَّا عِنْدَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ الَّذِي يَشْتَاقُ اِلَى صُحْبَةِ اَشْكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ الْاَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ الَّذِي لَا يَفْعَلُ اِلَّا مَا اَرَادَهُ اللّٰهُ مِنْهُ وَلَا يَخْتَارُ اِلَّا مَا قَرُبَ اِلَيْهِ وَلَا يُخَالِفُهُ اِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ الرَّدِيئَةِ وَلَا يَنْخَدِعُ بِخَدَائِعِ الطَّبِيعَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ اِلَى شَيْءٍ يَعُوقُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ الَّذِي لَا يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِ مَحْبُوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى فَوْتِ مَطْلُوبٍ. اِلَّا اَنَّ الْمَرْتَبَةَ الْاَخِيرَةَ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا عَظِيمًا اَعْنِي اَنَّ مَنْ يَصِلُ اِلَيْهَا مِنَ النَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ الْمَرْتَبَتَانِ هُمَا اللَّتَانِ سَاقَ الْحَكِيمُ الْكَلَامَ اِلَيْهِمَا وَاخْتَارَ الْمَرْتَبَةَ الْاَخِيرَةَ مِنْهُمَا..

(وَاِذْ قَدْ لَخَّصْنَا اَمْرَ هَاتَيْنِ الْمَنْزِلَتَيْنِ مِنَ السَّعَادَةِ الْقُصْوَى) فَقَدْ تَبَيَّنَ بَيَانًا كَافِيًا اَنَّ اِحْدَاهُمَا بِالْاِضَافَةِ اِلَيْنَا اُولَى وَالْاُخْرَى ثَانِيَةٌ وَمِنَ الْمُحَالِ اَنْ نَسْلُكَ اِلَى الثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ اَنْ نَمُرَّ بِالْاُولَى.. ثُمَّ اَعْلَمْ اَنَّ مَنْ عُنِيَ بِبَعْضِ الْقُرَى الَّتِي ذَكَرْنَاهَا دُونَ بَعْضٍ اَوْ تَعَمَّدَ لِاِصْلَاحِهَا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ السَّعَادَةُ التَّامَّةُ...

البحث الثامن

في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطاليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتِ ٱلْغَايَاتُ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ اَضْدَادُهَا ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يَمْنَعُ ٱلْمُشِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا اَقَاوِيلُ ٱلْمَنْعِ اِذْ كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدَ بِعَيْنِهِ وَوَضْعُهَا مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْمُشِيرَ اِنَّمَا غَرَضُهُ ٱلْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ اَنْ يُشِيرَ بِٱلشَّيْءِ ٱلنَّافِعِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ اَوَّلُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْعَمَلِ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَاَوَّلُ ٱلْعَمَلِ وَاَعْنِي بِاَوَّلِ ٱلْفِكْرِ ٱلنَّتِيجَةَ وَبِآخِرِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ

فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ اُصُولٌ وَقَوَانِينُ يَعْرِفُ بِهَا ٱلْاَشْيَاءَ ٱلنَّافِعَةَ فِي ٱلْغَايَاتِ وَهِيَ ٱلْعَوَاقِبُ اِذْ كَانَتْ هِيَ اَوَّلَ ٱلْعَمَلِ وَٱلنَّافِعَاتُ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِاَنَّهَا طَرِيقٌ اِلَى ٱلْخَيْرِ بِاِطْلَاقٍ. فَٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ غَيْرُهُ مِنْ اَجْلِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ ٱلْكُلُّ. وَاَعْنِي هَا هُنَا بِٱلْكُلِّ ذَوِي ٱلْفَهْمِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلْاَذْكِيَاءَ. وَذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلظَّنِّ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ اِعْتِقَادِ اِنْسَانٍ اِنْسَانٍ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ. وَلِذٰلِكَ اِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي

يَعتَقِدُ فِيهِ ٱلإِنسَانُ هٰذَا ٱلاِعتِقَادَ مَوجُودٌ لَهُ فَقَدِ ٱكتَفَى بِهِ وَنَالَ حَاجَتَهُ وَلَم يَبقَ لَهُ تَشَوُّقٌ إِلَى شَيءٍ اَصلًا. وَٱلاَشيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ فِي هٰذَا ٱلخَيرِ هِيَ بِٱلجُملَةِ اَربَعَةُ اَجنَاسِ ٱلاَشيَاءِ ٱلفَاعِلَةُ وَٱلاَشيَاءُ ٱلحَافِظَةُ لَهُ وَمَا يَلزَمُ ٱلفَاعِلَةَ وَذٰلِكَ اَنَّ لَازِمَ ٱلشَّيءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلشَّيءِ. وَكَذٰلِكَ اَيضًا لَازِمُ ٱلمُفسِدِ لِلشَّيءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلمُفسِدِ. وَلَازِمُ ضِدِّ ٱلفَاعِلِ مَعَ ضِدِّ ٱلفَاعِلِ فِي ٱلاَشيَاءِ ٱلَّتِي يَنهَى عَنهَا وَلُزُومُ ٱلغَايَةِ لِلفَاعِلِ رُبَّمَا كَانَ مَعًا مِثلَ مَا يَلزَمُ ٱلمَدحَ اَقتِنَاءُ ٱلاَشيَاءِ ٱلمَمدُوحَةِ وَرُبَّمَا كَانَ مُتَاَخِّرًا مِثلَ ٱلعِلمِ ٱلَّذِي يَتبَعُ ٱلتَّعَلُّمَ بِآخِرَةٍ. وَٱلاَشيَاءُ ٱلفَاعِلَةُ ثَلَاثَةُ اَصنَافٍ إِمَّا بِٱلذَّاتِ وَإِمَّا بِٱلعَرَضِ. وَٱلَّذِي بِٱلذَّاتِ اثنَانِ إِمَّا قَرِيبٌ مِثلُ فِعلِ ٱلغِذَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَإِمَّا بَعِيدٌ مِثلُ ٱلطَّبِيبِ. وَٱلَّذِي بِٱلعَرَضِ مِثلُ فِعلِ ٱلتَّعَبِ فِي ٱلرِّيَاضَةِ لِلصِّحَّةِ. وَإِذَا كَانَ وَاجِبًا اَن تَكُونَ اَصنَافُ ٱلاَشيَاءِ ٱلفَاعِلَةِ لِلخَيرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلاَصنَافَ ٱلثَّلَاثَةَ فَبِٱضطِرَارٍ اَن تَكُونَ ٱلاُمُورُ ٱلنَّافِعَةُ فِي ٱلخَيرِ بَعضُهَا خَيرٌ فِي ذَاتِهَا مِثلُ نَفعِ ٱلغِذَاءِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَبَعضُهَا شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَخَيرٌ مَا بِحَسَبِ نَفعِهَا فِي ٱلخَيرِ مِثلُ شُربِ ٱلدَّوَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَٱلشُّرُورُ ٱلَّتِي تَنفَعُ فِي ٱلخَيرِ هِيَ نَافِعَةٌ عَلَى وَجهَينِ اَحَدُهُمَا اَن يُستَفَادَ بِهَا خَيرٌ هُوَ اَعظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱللَّاحِقِ مِن اِستِعمَالِهَا مِثلَ ٱستِفَادَةِ ٱلصِّحَّةِ عَن شُربِ ٱلدَّوَاءِ وَمِثلُ ٱلمَشَقَّةِ ٱليَسِيرَةِ فِي ٱستِفَادَةِ ٱلمَالِ ٱلكَثِيرِ. وَمِنهَا مَا تُنَالُ بِهِ ٱلسَّلَامَةُ مِن شَرٍّ هُوَ اَعظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي يُنَالُ مِنهَا مِثلُ مَا يَنَالُ رُكَّابَ ٱلبَحرِ مِنَ ٱلسَّلَامَةِ إِذَا طَرَحُوا اَمتِعَتَهُم فَإِنَّ

طَرْحَ امْتِعَتِهِمْ شَرٌّ لٰكِنْ تُسْتَفَادُ مِنْهُ السَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ اعْظَمُ وَهُوَ العَطَبُ. وَالخَيْرَاتُ الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنَ الخَيْرَاتِ يُسَمِّيهَا ارِسْطُو فَوَائِدَ بِاطْلَاقٍ وَامَّا تِلْكَ فَيُسَمِّيهَا انْتِقَالًا وَيَعْنِي بِذٰلِكَ انَّهَا انْتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ اِلَى مَا هُوَ اخَفُّ شَرًّا مِنْهُ اوِ انْتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ اِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ

(قَالَ) وَالفَضَائِلُ وَاِنْ كَانَتْ غَايَاتٍ فَهِيَ ايْضًا خَيْرَاتٌ فِي انْفُسِهَا وَنَافِعَةٌ فِي الخَيْرِ فَاِنَّ المُقْتَنِينَ لَهَا هُمْ بِهَا حَسَنُو الاَحْوَالِ وَهِيَ مَعَ هٰذَا فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَمُسْتَعْمَلَةٌ فِيهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي انْ نُخْبِرَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ وَكَيْفَ هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَكَيْفَ هِيَ فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَنُفَصِّلَ الاَمْرَ فِي ذٰلِكَ. وَاللَّذَاتُ ايْضًا هِيَ خَيْرٌ بِنَفْسِهَا لِاَنَّ جَمِيعَ الحَيَوَانِ يَشْتَاقُ اِلَيْهَا. وَالاُمُورُ اللَّذِيذَةُ اِنَّمَا تَكُونُ خَيْرًا اِذَا كَانَ بِهَا المُلْتَذُّ حَسَنَ الحَالِ وَقَدْ يَسْتَبِينُ مِنَ التَّصَفُّحِ انَّهَا خَيْرٌ وَانَّهَا قَدْ تَكُونُ نَافِعَةً فِي الخَيْرِ وَاجْزَاءِ صَلَاحِ الحَالِ. وَبِالْجُمْلَةِ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ فَقَطْ. وَمِنْهَا مَا قَدْ تُعَدُّ غَايَاتٍ وَهِيَ نَافِعَةٌ ايْضًا فِي الغَايَاتِ. وَذٰلِكَ انَّ لِبَعْضِهَا تَرْتِيبًا عِنْدَ بَعْضٍ اَعْنِي انَّ بَعْضَهَا عِلَّةٌ لِوُجُودِ بَعْضٍ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ انَّ الشَّجَاعَةَ وَالحِكْمَةَ وَالعَفَافَ وَكِبَرَ النَّفْسِ وَالنُّبْلَ وَمَا اَشْبَهَهَا مِنْ فَضَائِلِ النَّفْسِ قَدْ تَخْتَارُ اَشْيَاءَ كَثِيرَةً مِنْ اَجْزَاءِ صَلَاحِ الحَالِ مِنْ اَجْلِهَا. وَكَذٰلِكَ الصِّحَّةُ وَالجَمَالُ مِنْ فَضَائِلِ الجَسَدِ قَدْ تُخْتَارُ اَشْيَاءَ مِنْ اَجْلِهَا هِيَ مِنْ صَلَاحِ الحَالِ وَهِيَ فَاعِلَاتُهَا وَكَذٰلِكَ تُخْتَارُ

فَاعِلَاتُ اَشْيَاء اُخَرَ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ مِثْلُ فَاعِلَاتِ اللَّذَّةِ وَفَاعِلَاتِ السِّيرَةِ الْحَسَنَةِ . وَلِذٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِالْيَسَارِ اَنَّهُ خَيْرٌ اِذْ كَانَ سَبَبًا لِهٰذَيْنِ الْاَمْرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ اَحَدُهُمَا اللَّذَّةُ وَالْاٰخَرُ حُسْنُ السِّيرَةِ وَصَلَاحُ الْحَالِ بِكَثْرَةِ الْاِخْوَانِ قَدْ يُوجَدُ فَاعِلًا لِاَشْيَاء كَثِيرَةٍ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَذٰلِكَ اِذَا كَانَتِ الصَّدَاقَةُ الَّتِي بَيْنَهُمَا مِنْ اَجْلِ الْمَحَبَّةِ نَفْسِهَا لَا اَنْ تَكُونَ الْمَحَبَّةُ بَيْنَهُمَا مِنْ اَجْلِ شَيْء اٰخَرَ فَاِنَّ الْاِخْوَانَ الَّذِينَ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ هُمْ يَفْعَلُونَ الْكَرَامَةَ وَالتَّمْجِيدَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَذٰلِكَ يَكُونُ مِنْهُمْ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ فَاِنَّ الْاَقْوَالَ وَالْاَفْعَالَ الَّتِي تُفْعَلُ بِهَا الْكَرَامَةُ وَالتَّمْجِيدُ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا هِيَ خَيْرٌ وَنَافِعٌ

(قَالَ) وَمِنَ النَّافِعَاتِ بِذَاتِهَا الْمَلَكَاتُ الطَّبِيعِيَّةُ الَّتِي يَكُونُ الْاِنْسَانُ بِهَا مُسْتَعِدًّا لِاَشْيَاء حَسَنَةٍ مِثْلِ الذَّكَاء وَالْحِفْظِ وَالتَّعَلُّمِ وَخِفَّةِ الْحَرَكَاتِ . وَكَذٰلِكَ الْكَمَالَاتُ مِثْلُ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ وَكَذٰلِكَ السِّيَرُ الْمَحْمُودَةُ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَعَ اَنَّهَا نَافِعَةٌ فِي غَيْرِهَا هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَاِنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِهَا خَيْرٌ اٰخَرُ فَهِيَ خَيْرَاتٌ مُنْفَرِدَةٌ بِاَنْفُسِهَا مُخْتَارَةٌ لِذَاتِهَا وَالْبِرُّ اَيْضًا خَيْرٌ نَافِعٌ

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ الْخَيْرَاتُ الَّتِي يُعْتَرَفُ بِهَا وَيُجْتَمَعُ اَنَّهَا خَيْرَاتٌ وَنَافِعَاتٌ وَمَتَى بُيِّنَ فِي شَيْء مِنْهَا اَنَّهَا خَيْرٌ فَذٰلِكَ بَيَانٌ لَا عَلَى طَرِيقِ الْمِرَاء وَالْمُغَالَطَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ . وَاَمَّا اِذَا بُيِّنَ فِي شَيْء مِنْ اَضْدَادِ هٰذِهِ اَنَّهَا خَيْرٌ وَفِيهَا اَنَّهَا شَرٌّ فَذٰلِكَ يَكُونُ فِي هٰذِهِ

ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمِرَاءِ ٱعْنِي بِبَيَانِ سُوفِسْطَائِيٍّ. وَذٰلِكَ ٱنَّ ٱلشَّرَّ
إِنَّمَا يَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ مِثْلَ ٱنْ يُبَيِّنَ خَطِيبٌ لِأَهْلِ مَدِينَةٍ مَا ٱنَّ
ٱلْجُبْنَ لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنَّهُمْ إِنْ شَجُعُوا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ فَقَالَ مِنْهُمْ
ٱلْعَدُوُّ وَلٰكِنِ ٱلْجُبْنُ لَيْسَ هُوَ خَيْرًا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِنَّمَا كَانَ خَيْرًا
بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ عُرِضَ لَهُمْ هٰذَا. وَأَمَّا ٱلنَّافِعُ فِي
ٱلْأَكْثَرِ وَبِٱلذَّاتِ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ ٱلْخَيْرُ كَمَا ٱنَّ ٱلشَّرَّ ٱلْمُضَادَّ لِلْخَيْرِ
هُوَ نَافِعٌ لِلْأَعْدَاءِ. وَذٰلِكَ ٱنَّ ٱلْجُبْنَ لَمَّا كَانَ شَرًّا لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ
بِٱلْعَرَضِ كَانَ نَافِعًا لِلْأَعْدَاءِ. وَٱلشَّجَاعَةُ لَمَّا كَانَتْ بِٱلذَّاتِ خَيْرًا لَهُمْ
كَانَتْ ضَارَّةً بِٱلْأَعْدَاءِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَلْحَقُ مَا هُوَ شَرٌّ مَا لِلْإِنْسَانِ
ٱنْ يَكُونَ ضَارًّا لِعَدُوِّهِ وَمَا هُوَ خَيْرٌ مَا لَهُ ٱنْ يَكُونَ نَافِعًا لِعَدُوِّهِ
مِثْلُ ٱلْجُبْنِ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ إِذَا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ
لَهُمْ قُوَّةٌ يُقَاوِمُونَ بِهَا عَدُوَّهُمْ. فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ ٱنْ يَتَحَرَّى فِي
كُلِّ وَقْتٍ ٱلنَّافِعَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَهٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةُ أَيْضًا لَيْسَتْ كُلِّيَّةً
أَعْنِي ٱلْقَائِلَةَ ٱنَّ كُلَّ مَا يَضُرُّ ٱلْعَدُوَّ وَيَكْرَهُهُ نَافِعٌ وَكُلَّ مَا يَنْفَعُ
ٱلْعَدُوَّ وَيَسُرُّهُ ضَارٌّ فَإِنَّ كَثِيرًا مَا يَكُونُ ٱلْأَمْرُ ٱلْوَاحِدُ ضَارًّا
لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ وَنَافِعًا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ. فَمِثَالُ مَا هُوَ نَافِعٌ لِكِلَيْهِمَا
وَيُسَرُّ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُفَارَقَةُ ٱلْعَدُوِّ عَدُوَّهُ إِذَا كَانَتْ بَعْدَ مُقَاتَلَةٍ
شَدِيدَةٍ بَيْنَهُمَا وَمُقَاوَمَةٍ أَشْفَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى ٱلْعَطَبِ مِنْهَا
مِنْ غَيْرِ ٱنْ يَظْفَرَ أَحَدُهُمَا بِصَاحِبِهِ فَإِنَّهُمَا إِذَا ٱفْتَرَقَا فِي أَثَرِ هٰذِهِ
ٱلْحَالِ سُرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِٱلِٱفْتِرَاقِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ ٱلنَّافِعُ

نافعاً للأعداء أيضاً. وأما ما هو ضارٌّ لكليهما فكثيراً ما يوجب صداقة العدوّ. وذلك إذا كانا متساويين في نزول الشرّ الوارد بهما من غير أن يفضل أحدهما في ذلك صاحبه. وكثيرٌ من الأمم المختلفة كان اتفاقهم بهذا السبب ولذلك قيل إنّ الشرّ قد يجمع الناس فهذا أيضاً أحد ما يكون به الشرّ نافعاً أعني أن يكون الضرّ النازل بالإنسان نازلاً بعدوّه. فإنّ ذلك يوجب صداقة العدوّ وحينئذٍ يهوى العدوّ الوارد ضدّ ما يهواه كلّ واحدٍ من المتعاديين اللذين ورد عليهما العدوّ من خارج. وذلك أنّ كلّ واحدٍ من المتعاديين يهوى صداقة صاحبه لمكان تعاونهما على العدوّ الوارد عليهما من خارج. والعدوّ الوارد يهوى بقاء عداوتهما على حالها أو تأكّدها. وارسطو يقول: ولذلك كثيراً ما تنفق النفقات العظيمة وتفعل الأفعال الكثيرة في مثل هذا الخير الذي يدفع به الشرّ العظيم وإنما تطيب النفس بالنفقات في مثل هذه الأشياء لظهور ما يلزم عنها من الغاية المطلوبة وقربها حتّى كأنّها إذا وجدت هذه الأشياء وجدت الغاية. وقد يكون الشرّ المفرط النازل بالعدوّ أيضاً سبباً للاعتراف بالخير اليسير الذي نالَه من عدوّه ولولاه لم يعترف به العدوّ. مثل ما حكى ارسطو أنّه عرض لبعض الملوك الذين كانوا أعداء لليونانيين أنّه اشتدّت محاربتهم له وحصرهم إيّاه سنين كثيرة وقتلوا في ذلك الحصار ابنه فسألهم أن يعطوه جثّته ليحرقها على عادتهم في موتاهم ففعلوا

ذٰلِكَ فَشَكَرَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ وَاَظْهَرَ شُكْرَهُمْ عِنْدَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَاَهْلِ مَدِينَتِهِ. فَلَوْلَا مَا تَرَلَ بِهِ مِنَ الشَّرِّ الْعَظِيمِ لَمَا شَكَرَهُمْ عَلَى هٰذَا الشَّيْءِ الْيَسِيرِ الَّذِي سَحُوا لَهُ بِهِ كَمَا قَالَ ذٰلِكَ اُورِيرُوشُ الشَّاعِرُ

(قَالَ) وَمِنَ الْاِصْطِنَاعَاتِ النَّافِعَةِ وَالْاَفْعَالِ الَّتِي يَعْظُمُ قَدْرُهَا عِنْدَ الْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِمْ فَيَصِيرُ بِهِ الْمُصْطَنِعُ اِلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنَ الْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِمْ اَنْ يَخْتَارَ الْاِنْسَانُ اِنْسَانًا عَظِيمَ الْقَدْرِ مِنْ جِنْسِ مَا مِنَ النَّاسِ لَهُ اَيْضًا عَدُوٌّ عَظِيمُ الْقَدْرِ فِي جِنْسٍ آخَرَ مِنَ النَّاسِ فَيَفْعَلَ بِعَدُوِّ ذٰلِكَ الْاِنْسَانِ الشَّرَّ وَبِاَصْدِقَائِهِ الْخَيْرَ. مِثْلَ مَا عَرَضَ لِاُورِيرُوشَ مَعَ الْيُونَانِيِّينَ وَاَعْدَائِهِمْ فَاِنَّهُ قَصَدَ اِلَى عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ الْيُونَانِيِّينَ فِي الْقَدِيمِ وَخَصَّهُ بِالْمَدْحِ وَاَصْدِقَاءَهُ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ. وَخَصَّ عَدُوًّا لَهُ عَظِيمًا بِالْهَجْوِ هُوَ وَقَوْمَهُ الْمُعَادِينَ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي حُرُوبٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا فَكَانَ رَبَّ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ بِذٰلِكَ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ وَعَظَّمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ حَتَّى اعْتَقَدُوا فِيهِ اَنَّهُ كَانَ رَجُلًا اِلٰهِيًّا وَاَنَّهُ كَانَ الْمُعَلِّمَ الْاَوَّلَ لِجَمِيعِ الْيُونَانِيِّينَ. وَبِالْجُمْلَةِ فَفِعْلُ الشَّرِّ بِالْاَعْدَاءِ وَالْخَيْرِ بِالْاَصْدِقَاءِ مِنَ الْاُمُورِ النَّافِعَةِ. وَمِنْ شَرْطِ هٰذَا الْفِعْلِ الَّذِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ اَنْ يَكُونَ مَا فُعِلَ مِنْهُ يُرَى اَنَّهُ لَمْ يُمْكِنِ الْفَاعِلَ وَلَا تَيَسَّرَ لَهُ غَيْرُهُ وَسَوَاءٌ كَانَ الْفِعْلُ كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ اَوْ يَسِيرًا وَاَنْ يَظُنَّ اَنَّ فِعْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِمَكَانِ خَوْفٍ وَلَا شَيْءٍ يَرْجُوهُ بَلْ لِاَنَّ شَوْقَهُ وَهَوَاهُ قَادَهُ اِلَى ذٰلِكَ فَاِنَّ بِهٰذَا يَكُونُ الْفِعْلُ مُدَاوَمًا عَلَيْهِ مِنَ الْفَاعِلِ وَهُوَ السَّهْلُ عَلَيْهِ لِاَنَّ

ٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَجْلِ خَوْفٍ إِنَّمَا تَكُونُ غَيْرَ شَاقَّةٍ زَمَانًا يَسِيرًا وَإِذَا طَالَ بِهَا ٱلزَّمَانُ كَانَتْ شَاقَّةً فَٱنْقَطَعَتْ وَإِذَا ٱنْقَطَعَتْ كَانَ مِنْ ذٰلِكَ عَدَاوَةٌ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ لِلْمُصْطَنِعِ. فَلِذٰلِكَ يُشْتَرَطُ فِي هٰذَا ٱلْفِعْلِ أَنْ يَكُونَ سَهْلًا عَلَى ٱلْفَاعِلِ فَهٰذِهِ هِيَ شُرُوطُ ٱلِٱبْتِدَاءِ بِٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا وَيُوجَدُ نَفْعُهَا. وَأَمَّا ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا تَكُونُ بِحَسَبِ مَا يَهْوَى ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ نَاقِصَةً عَنِ ٱلصَّنِيعَةِ ٱلَّتِي أُسْدِيَتْ إِلَيْهِ إِمَّا فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَإِمَّا فِي ٱلْمَنْفَعَةِ وَإِمَّا لِأَنَّهَا قَدْ فَضُلَتْ عِنْدَ ٱلْمُكَافِئِ وَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا وَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي يُغَالَطُ فِيهَا وَإِنَّمَا كَانَ ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ ٱلَّذِي يَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ مُكَافَاتُهُ بِأَحَدِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّ ٱلْمُكَافِئَ كَأَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى ٱلْإِعْطَاءِ فَهُوَ إِنَّمَا يَشْتَهِي إِمَّا أَلَّا يَلْحَقَهُ نَقْصٌ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلنَّقْصُ أَقَلَّ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ. فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ بَلْ كَانَتْ مُقَارِنَةً لِلصَّنِيعَةِ إِمَّا فِي ٱلْجِنْسِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلدَّنَانِيرِ بِدَرَاهِمَ وَإِمَّا فِي ٱلْقُوَّةِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمَالِ بِكَرَامَةٍ يُقْتَنَى بِهَا مِثْلُ ذٰلِكَ ٱلْمَالِ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْعَادِلَةُ لٰكِنَّهَا سُوقِيَّةٌ. فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ لَا سُوقِيَّةً وَلَا فِيهَا غَبْنٌ بَلْ كَانَ ٱلْمُكَافِئُ يَعْتَقِدُ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ ٱخْتِيَارُهُ فِي ٱلْمُكَافَاةِ لِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَكْثَرَ مِنِ ٱخْتِيَارِهِ لِمَا هُوَ

اَزْيَدُ وَسَواءٌ وَقَعَتْ مُكافَاتُهُ بِمَا هُوَ اَنْقَصُ اَوْ بِمَا هُوَ مُساوٍ. اَوْ بِمَا هُوَ شَبِيهٌ فَهِيَ اَلْمُكافَاةُ اَلْجَمِيلَةُ لِاَنَّ مُكافَاتَهُ بِالْاَنْقَصِ لَمْ تَكُنْ مِنْهُ بِاخْتِيارٍ لِذٰلِكَ بَلْ لِاَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ ذٰلِكَ فَاِذَا اتَّفَقَ اَنْ يَكُونَ مَعَ هٰذَا ذٰلِكَ اَلْفَضْلُ مِمَّا يَسُرُّ بِهِ اَلْاَصْدِقَاءَ اَعْنِي اَصْدِقَاءَ اَلْمُكافِيءِ بِالْفِعْلِ وَيَسُوءُ اَعْدَاءَهُ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا مُتَعَجَّباً مِنْهُ عِنْدَ اَلْجُمْهُورِ. وَذٰلِكَ بِالْاِضافَةِ اِلَى مَنْ صَدَرَ عَنْهُ عَظِيمُ مَوْقِعِهِ مِنَ اَلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِ وَبِخَاصَّةٍ اِذَا كَانَتِ اَلصَّنِيعَةُ مِمَّا تُوافِقُ شَهْوَةَ اَلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِ مِثْلَ اَنْ يُكافِئَ اَوْ يَبْدَأَ مُحِبَّ اَلْكَرَامَةِ بِالْكَرَامَةِ وَمُحِبَّ اَلْمَالِ بِالْمَالِ وَمُحِبَّ اَلْغَلَبَةِ بِالْغَلَبَةِ فَاِنَّ هٰذِهِ اَلصَّنِيعَةَ لَيْسَتْ هِيَ لَذِيذَةً فَقَطْ عِنْدَ اَلَّذِي تُصْطَنَعُ اِلَيْهِ اَوْ يُكافَأُ بِهَا بَلْ هِيَ عِنْدَهُ فَاضِلَةٌ وَكَذٰلِكَ اَلْاَمْرُ فِي سَائِرِ اَصْنَافِ اَلْخَيْرَاتِ وَاِنَّمَا تَكُونُ اَفْعَالُ اَلصَّنَائِعِ وَاَلْمُكافَاةُ عَلَى اَلْمُبْتَدِيءِ وَاَلْمُكافِيءِ اَفْعَالًا سَهْلَةً يُمْكِنُ اَنْ يُداوِمُوا عَلَيْهَا مَتَى كَانُوا بِاسْتِعْدَادِهِمِ اَلطَّبِيعِيِّ مُهَيَّئِينَ لِتِلْكَ اَلْاَفْعَالِ وَكَانَتْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ اَلْمَلَكَةُ اَلَّتِي بِهَا تَصْدُرُ مِنْهُمْ تِلْكَ اَلْاَفْعَالُ وَمِنَ اَلصَّنَائِعِ اَلْيَسِيرَةِ اَلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا لَيْسَ تُنْقِصُ اَلْمُصْطَنَعَ شَيْئًا اَلِاصْطِنَاعَ بِالتَّاْدِيبِ وَاَلْمَوْعِظَةِ

البحث التاسع

في ابثار الخير وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسه)

(قال) فمن هذه الوجوه يأخذ الخطيب المقدمات التي منها يقنع ان الشيء نافع او غير نافع. ومن اجل ان الخطيب قد يعترف احيانا بان الامر نافع ولكن يدعي ان ها هنا شيئا هو انفع فقد يحتاج ان تكون عنده مواضع يقدر ان يبين بها ان الامر انفع وافضل. فمنها ان ما كان نافعا في كل الاشياء فهو انفع مما هو نافع في بعض الاشياء. والذي هو ادوم نفعا هو انفع من الذي هو اقصر نفعا. والذي هو اكبر هو انفع من الاصغر. والذي هو اكثر هو انفع من الاقل. والذي جمع من صفات الخير اكثر او جمع صفاته كلها فهو انفع. وصفات الخير التام هو ان يكون الشيء مختارا من اجل نفسه لا من اجل غيره وان يكون متشوقا عند الكل وان يكون ذوو الفضل واللب يختارونه والذي جمع هذه الصفات كلها او اكثرها فهو الخير والنافع الذي في الغاية وهو الغاية لسائر الاشياء التي توصف بالخير. والاشياء المتصفة بالخير المتعلقة بهذا الخير الذي

جَمعَ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ إِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا أَنَّهَا أَنْفَعُ إِذَا وُجِدَ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا صِفَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ. وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تُوجَدُ فِيهِ صِفَاتٌ أَكْثَرُ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ فَهُوَ أَنْفَعُ مَا لَمْ تَكُنِ ٱلصِّفَةُ ٱلْوَاحِدَةُ أَنْفَعَ مِنْ ٱثْنَتَيْنِ أَوْ مِنْ ثَلَاثٍ. وَأَيْضًا فَمَا كَانَ ٱلْعَظِيمُ فِيهِ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْعَظِيمِ فِي جِنْسٍ آخَرَ فَٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْعَظِيمُ ٱلْأَفْضَلُ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَمَا كَانَ ٱلْجِنْسُ مِنْهُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَفْضَلِ فَٱلْعَظِيمُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَفْضَلِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْعَظِيمِ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْأَوَّلِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْإِنَاثِ فَٱلرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ وَإِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ فَٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْإِنَاثِ. وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ نِسْبَةَ ٱلْعَظِيمِ إِلَى جِنْسِهِ هِيَ كَنِسْبَةِ ٱلْعَظِيمِ ٱلْآخَرِ إِلَى جِنْسِهِ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْجِنْسِ إِلَى ٱلْجِنْسِ هِيَ نِسْبَةُ ٱلْعَظِيمِ إِلَى ٱلْعَظِيمِ. ثُمَّ إِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ لَازِمًا لِشَيْءٍ مَا وَٱلْآخَرُ غَيْرَ لَازِمٍ لَهُ فَإِنَّ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ آثَرُ مِنَ ٱلَّذِي لَا يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ وَٱلثَّرْوَةُ فَإِنَّ ٱلثَّرْوَةَ تَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانَ وَلَيْسَ يَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانُ ٱلثَّرْوَةَ. فَلِذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلثَّرْوَةِ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْمَضَارِّ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلْبُخْلُ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ ٱلْفَقْرُ. فَٱلْفَقْرُ أَكْثَرُ شَرًّا مِنَ ٱلْبُخْلِ وَٱللَّازِمُ يُوجَدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: إِمَّا أَنْ يُوجَدَا مَعًا أَعْنِي ٱللَّازِمَ وَٱلْمَلْزُومَ مِثْلُ وُجُودِ ٱلْأَبْيَضِ وَٱلْبَيَاضِ

مَعًا وَمِثْلُ لُزُومِ ٱلْإِنْسَانِ وَٱلْحَيَوَانِ. وَإِمَّا ٱنْ يُوجَدَ ٱللَّازِمُ تَابِعًا بِآخِرَةٍ مِثْلُ لُزُومِ ٱلْعِلْمِ عَنِ ٱلتَّعَلُّمِ. وَإِمَّا ٱنْ يَكُونَ تَلَازُمُهُمَا فِي ٱلْقُوَّةِ اَيْ يَكُونَ اَحَدُهُمَا يَفْعَلُ فِعْلَ ٱلْآخَرِ وَلَا يَنْعَكِسُ اَعْنِي اَلَّا يَفْعَلَ ٱلْآخَرُ فِعْلَ ٱلْاَوَّلِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْفَقْرُ وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ اَنْ يَفْعَلَ ٱلْإِنْسَانُ فِعْلَ ٱلْبُخْلِ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ فِعْلُ ٱلْفَقْرِ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَعُوقُ عَنْ اَشْيَاءَ اَكْثَرَ مِنْ عَدَمِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْبُخْلُ وَاَيْضًا ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْخَيْرَ ٱلْاَنْفَعَ هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلنَّافِعِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْجَلَدُ وَٱلْجَمَالُ فَإِنَّ كِلَيْهِمَا نَافِعٌ وَخَيْرٌ وَٱلْجَلَدُ يُفْعَلُ بِهِ خَيْرٌ اَعْظَمُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱلْجَمَالِ فَهُوَ اَعْظَمُ نَفْعًا. وَكَذٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ اَيْضًا اَعْظَمُ نَفْعًا مِنَ ٱللَّذَّةِ لِاَنَّ ٱلصِّحَّةَ يُفْعَلُ بِهَا خَيْرَاتٌ اَكْثَرُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱللَّذَّاتِ. وَاَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مُفْرَدًا اَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلَّذِي لَا يُخْتَارُ اِلَّا مَعَ ذٰلِكَ ٱلْمُخْتَارِ مُفْرَدًا. وَمِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْجَمَالَ لَا يُخْتَارُ اِلَّا مَعَ ٱلصِّحَّةِ وَٱلصِّحَّةُ تُخْتَارُ دُونَ ٱلْجَمَالِ فَٱلصِّحَّةُ اَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلْجَمَالِ. وَاَيْضًا اِذَا كَانَ شَيْئَانِ اَحَدُهُمَا كَمَالٌ وَٱلْآخَرُ طَرِيقٌ اِلَى ٱلْكَمَالِ فَٱلَّذِي هُوَ كَمَالٌ اَفْضَلُ. مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱللَّذَّةِ فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ كَمَالٌ وَٱللَّذَّةَ كَوْنٌ وَٱلْكَوْنُ طَرِيقٌ اِلَى ٱلْكَمَالِ. وَاِذَا كَانَ شَيْئَانِ اَحَدُهُمَا يُخْتَارُ لِذَاتِهِ وَٱلْآخَرُ يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ غَيْرِهِ فَٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ اَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ غَيْرِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْيَسَارُ فَإِنَّ ٱلْحِكْمَةَ تُخْتَارُ لِذَاتِهَا وَٱلْيَسَارَ يُخْتَارُ لِغَيْرِهِ. وَاَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْمَرْءَ اِذَا ٱقْتَنَاهُ اَقَلَّ

حاجةً الى اصدقائه او الى الانسان فهو افضل من الذي يجعله اكثر حاجة. فان من هو اكثر كفاية واستغناء عن الناس هو الذي يحتاج الى اشياء قليلة العدد سهل وجودها. وايضا اذا كان شيئان احدهما يخوج اقتناؤه الى الثاني والثاني لا يخوج اقتناؤه الى الآخر فان الذي لا يخوج اقتناؤه الى الآخر هو آثر. مثال ذلك اليسار والبنون فان البنين يخوجون الى اقتناء المال واليسار ليس يخوج الى اقتناء البنين فاليسار افضل نفعا

(قال) ويستبين ان الشيء الذي هو مبدأ ليس يلزم ان يكون اعظم من الشيء الذي هو له مبدأ. وذلك ان الارادة مبدأ الخير وفعل الخير اعظم من ارادة الخير. وكذلك التعلم والعلم وان كان ليس يمكن ان يكون الشيء النافع دون مبدإ. واذا كان شيئان مبدأين لشيئين واحد المبدأين اعظم من الثاني فان الذي يكون عن المبدإ الاعظم اعظم. وعكس هذا ايضا وهو اذا كان شيئان مبدأين لشيئين على انهما فاعل واحدهما اعظم من الثاني فان الذي هو مبدأ للاعظم اعظم. وكذلك اذا كان مبدآن على انهما غاية واذا قيس المبدأ الفاعل الى الغاية امكن ان يتوهم ان الفاعل اعظم من الغاية. وذلك ان الفاعل هو الذي يفعل الغاية ولولا هو لم توجد الغاية وامكن ان يتوهم ايضا ان الغاية اعظم من المبدإ. وذلك انه لولا الغاية لكان الفاعل فضلا. فمثال ما تجعل الغاية فيه اعظم من الفاعل قول من يقول في الذم: ان

فُلَانًا اَوْلَى بِاَنْ يُنْسَبَ اِلَى اَلْجَوْرِ فِي فِعْلِهِ كَذَا مِنْ فُلَانٍ اَلَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ذٰلِكَ اَلْفِعْلُ اِذْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ هُوَ ذٰلِكَ اَلْفِعْلَ لَمْ يَقَعْ ذٰلِكَ اَلضَّرَرُ. وَمِثَالُ مَا يُجْعَلُ اَلْفَاعِلُ فِيهِ اَعْظَمَ مِنَ اَلْغَايَةِ قَوْلُ اَلْقَائِلِ: فُلَانٌ اَحَقُّ بِالشُّكْرِ عَلَى هٰذَا اَلْفِعْلِ مِنْ فُلَانٍ لِاَنَّ فُلَانًا هُوَ اَلَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ اَلْفِعْلِ وَلَوْلَا اِشَارَتُهُ لَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ ذٰلِكَ اَلْفِعْلَ اَلْمَحْمُودَ وَفِي كِلَا اَلْمَوْضُوعَيْنِ مَا قَبْلَ اَلْغَايَةِ اِنَّمَا يُفْعَلُ لِمَكَانِ اَلْغَايَةِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ اَلَّذِي وُجُودُهُ اَقَلُّ فَهُوَ اَفْضَلُ مِثْلُ اَلذَّهَبِ وَالْحَدِيدِ غَيْرَ اَنَّهُ اِنْ كَانَ اَلذَّهَبُ اَقَلَّ وُجُودًا مِنَ اَلْحَدِيدِ فَلَيْسَ هُوَ اَنْفَعَ. وَاَيْضًا مُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا كَثُرَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ مِمَّا قَلَّ وُجُودُهُ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ وَمِنْ هُنَا يُقَالُ اِنَّ اَلْمَاءَ خَيْرٌ لِكَثْرَةِ وُجُودِهِ وَعُمُومِ مَنَافِعِهِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ مَا هُوَ اَعْسَرُ وُجُودًا فَهُوَ اَفْضَلُ لِاَنَّ مَا عَسُرَ وُجُودُهُ قَلَّ وُجُودُهُ وَمَا قَلَّ وُجُودُهُ فَهُوَ غَرِيبٌ وَيَتَنَافَسُ فِيهِ. وَمُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا سَهُلَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ لِاَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ حِينٍ يُتَشَوَّقُ اِلَيْهِ. وَاَيْضًا اَلشَّيْءُ اَلَّذِي ضِدُّهُ اَعْظَمُ فَهُوَ اَفْضَلُ. وَاَيْضًا اَلَّذِي عَدَمُهُ اَشَدُّ ضَرَرًا فَهُوَ اَنْفَعُ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُفْهَمَ هَا هُنَا مِنَ اَلْاَعْظَمِ وَالْاَقَلِّ عِظَمُ اَلْمُقَايَسَةِ فِي اَلْخَيْرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي اَلشَّرِّ وَفِيمَا هُوَ لَا خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ. وَاَيْضًا فَاِنَّ اَلْغَايَاتِ وَالْاَشْيَاءَ اَلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا تُفْعَلُ اَلْاَفْعَالُ اِذَا كَانَتِ اَلْغَايَاتُ بَعْضُهَا اَزْيَدَ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ اَوْ اَزْيَدَ شَرًّا مِنْ بَعْضٍ فَاِنَّ اَلْاُمُورَ اَلْمُتَقَدِّمَةَ لِتِلْكَ اَلْغَايَاتِ اَلْاَزْيَدِ هِيَ

ازيد. وايضا فان ما كان من الملكات والفضائل وبالجملة الاشياء الفاعلة اعظم فان افعالها الصادرة عنها تكون اعظم لان نسبة الافعال الى مبادئها هي نسبة المبادئ بعضها الى بعض. فانه ان كان البصر اكثر من الشم فان الابصار اكثر من الشم وهكذا يوجد الامر في جميع الافعال مع اسبابها الفاعلة ليس في الذاتية فقط بل وفيما يعرض عن الشيء بالاتفاق فان العظيم يكون الاتفاق الذي يعرض له عظيما وفي الاغراض الموجودة في الشيء اعني ان الشيء الاعظم الغرض الموجود فيه اعظم. وايضا ان يحب الانسان صاحب المال افضل من ان يحب المال لان حب الانسان افضل من حب المال. وايضا فان الفضائل افضل من ذوي الفضائل والاشياء التي شهوتها فاضلة افضل من التي شهوتها غير فاضلة. مثال ذلك ان شهوة العلوم فاضلة وشهوة الاكل والشرب غير فاضلة فالعلوم افضل من الاكل والشرب. وايضا عكس هذا وهو ان ما هو افضل فشهوته افضل مثل ان الحكمة افضل من الصحة فشهوتها افضل من شهوة الصحة. وايضا فان العلوم التي هي احسن وافضل فافعالها خير وافضل. مثال ذلك انه لما كانت العلوم العلمية افضل من العملية كان فعلها الذي هو الصدق افضل من التي فعلها العمل. وعكس هذا وهو ان التي فعلها افضل من العلوم فهي افضل وذلك ان الوقوف على الحق لما كان افضل من العمل كانت

ٱلصَّنَائِعُ ٱلْعِلْمِيَّةُ ٱفْضَلَ مِنَ ٱلْعَمَلِيَّةِ وَاِنَّمَا كَانَا هٰذَانِ ٱلْمَوْضِعَانِ مُتَلَازِمَيْنِ لِاَنَّ نِسْبَةَ ٱلصِّنَاعَةِ اِلَى ٱلصِّنَاعَةِ هِيَ نِسْبَةُ فِعْلِهَا اِلَى فِعْلِهَا

(قَالَ) وَٱلَّذِي يَحْكُمُ بِهِ ٱلْكُلُّ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ اَوِ ٱلْاَكْثَرُ اَوْ ذَوُو ٱلْاَلْبَابِ وَٱلْاَخْيَارُ ٱلصَّالِحُونَ اَنَّهُ خَيْرٌ وَافْضَلُ فَهُوَ افْضَلُ بِاِطْلَاقٍ وَفِي نَفْسِهِ اِذَا كَانَ حُكْمُهُمْ فِي ٱلْاَشْيَاءِ بِحَسَبِ فِطَرِهِمْ وَكَانُوا ذَوِي لُبٍّ لَا بِحَسَبِ مَا ٱسْتَفَادُوهُ مِنَ ٱلْآرَاءِ مِنْ خَارِجٍ. فَاِنَّ ذَوِي ٱلْاَلْبَابِ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَقُولُونَ بِفِطَرِهِمْ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْخَيْرَاتِ مَا هِيَ وَكَمْ هِيَ وَعِنْدَ اَيِّ شَيْءٍ هِيَ وَاِنْ كَانَ مَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ بِفِطَرِهِمْ دُونَ مَا يُوقَفُ عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلْعُلُومِ. وَمَا قِيلَ فِي حَدِّ ٱلْخَيْرِ مِنْ اَنَّهُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ اِنَّمَا يُرَادُ بِذٰلِكَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ بِحَسَبِ فِطَرِهِمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ اَعْنِي ٱللَّيِّئَةَ فَاِنَّ مَا تَتَشَوَّقُهُ ٱلْفِطَرُ ٱللَّيِّئَةُ بِمَا هِيَ فِطَرٌ لَيِّئَةٌ هُوَ خَيْرٌ مُطْلَقٌ اَوْ خَيْرٌ افْضَلُ مِنْ خَيْرٍ مِثْلُ عِلْمِهِمْ اَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلْاَدَبَ وَٱلْجَلَدَ خَيْرَاتٌ وَتَشَوُّقِهِمْ اِيَّاهَا. وَاَمَّا ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى اِنْسَانٍ مَا مِثْلُ مَنْ يُرَى مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلْفَاضِلِينَ اَنَّهُ اَنْ يُجَارَ عَلَيْهِ اَفْضَلُ مِنْ اَنْ يَجُورَ هُوَ فَاِنَّ هٰذَا ٱلْخَيْرَ لَا يُدْرِكُهُ ٱلنَّاسُ بِحَسَبِ طِبَاعِهِمْ وَاِنَّمَا يُرَى هٰذَا ٱلرَّأْيُ ٱلَّذِي هُوَ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي غَايَةِ ٱلْعَدْلِ وَٱلْفَضْلِ. وَاَيْضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ مَعَهُ اَكْثَرُ لَذَّةً فَهُوَ آثَرُ. وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْكُلَّ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ يَبْتَدِرُونَ اِلَى ٱللَّذَّةِ وَيَطْلُبُونَهَا وَطَلَبُهُمُ ٱللَّذَّةَ هُوَ مِنْ اَجْلِ ٱللَّذَّةِ نَفْسِهَا لَا مِنْ اَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ غَيْرِهَا. وَمَا

كَانَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَعْنِي مُتَشَوِّقًا لِلْكُلِّ فَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ ٱلْخَيْرُ وَٱلْغَايَةُ فَٱللَّذَّةُ اِذَنْ خَيْرٌ وَٱلْاَزْيَدُ لَذَّةً هِيَ ٱلْمَلَذَّاتُ ٱلَّتِي هِيَ اَبْرَأُ مِنَ ٱلْاَذَى وَٱلْحُزْنِ وَاَدْوَمُ بَقَاءً. وَٱللَّذَّةُ ٱلْجَمِيلَةُ ٱلَذُّ مِنَ ٱللَّذَّةِ ٱلْقَبِيحَةِ لِاَنَّ ٱلْجَمِيلَ مِمَّا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَخْتَارُ ٱلْمَرْءُ اَنْ يَكُونَ عِلَّةً لِكَوْنِهِ اِمَّا لِنَفْسِهِ وَاِمَّا لِصَدِيقِهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُلِذَّةِ اَفْضَلَ فَهُوَ ٱلَذُّ مِمَّا هُوَ اَخَسُّ وَكُلُّ مَا هُوَ مِنْهَا اَطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ ٱلَذُّ مِنَ ٱلَّتِي هِيَ مِنْهَا اَقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ اَثْبَتَ فِينَا فَهُوَ ٱلَذُّ مِمَّا هُوَ اَقَلُّ ثَبَاتًا وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلصِّحَّةَ لَمَّا كَانَتْ اَرْسَخَ فِينَا مِنَ ٱلْجَمَالِ كَانَ وُجُودُ ٱلصِّحَّةِ لَنَا اَلَذَّ مِنْ وُجُودِ ٱلْجَمَالِ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱللَّذِيذَةُ اَوِ ٱلْاَكْثَرُ لَذَّةً اِنَّمَا ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِهَا لَنَا بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَحَدُ اَمْرَيْنِ اِمَّا طُولُ اعْتِيَادِ ٱلشَّيْءِ حَتَّى يَصِيرَ لَنَا ٱلِٱلْتِذَاذُ بِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَادَةِ كَٱلْحَالِ فِي ٱللَّذَّةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنِ ٱلْعِلْمِ. وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ اَنَّهَا لَذِيذَةٌ جِدًّا عِنْدَنَا بِٱلطَّبْعِ وَٱلْهَوَى فَٱلْاَشْيَاءُ اِذَنْ اِنَّمَا تَصِيرُ اَكْثَرَ لَذَّةً اِمَّا مِنْ قِبَلِ طُولِ ٱلزَّمَانِ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ ٱلْهَوَى وَٱلْمُوَافَقَةِ ٱلَّتِي بِٱلطَّبْعِ. وَجَمِيعُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُلَائِمُ هَوَانَا مُلَائِمَةٌ اَكْثَرَ فَاِنَّ مَنْفَعَتَهَا لَنَا اِنَّمَا تَكُونُ فِي رُسُوخِهَا وَثُبُوتِهَا. وَقَدْ تُؤْخَذُ مُقَدَّمَاتُ ٱلْاَنْفَعِ وَٱلْاَفْضَلِ مِنْ مَوَاضِعِ ٱلنَّظَائِرِ وَٱلتَّصَارِيفِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ كَانَتِ ٱلشَّجَاعَةُ اَثَرَ مِنَ ٱلْعَفَافِ فَٱلرَّجُلُ ٱلشُّجَاعُ اَثَرُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَفِيفِ

(قَالَ) وَمَا اخْتَارَهُ ٱلْكُلُّ اَثَرٌ مِمَّا لَا يَخْتَارُهُ ٱلْكُلُّ مِنَ

ٱلْجُمْهُورِ وَمَا ٱخْتَارَهُ ٱيضا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ آثَرُ مِمَّا يَخْتَارُهُ ٱلْقَلِيلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ٱلْخَيْرَ كَمَا قِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ إِلَيْهِ ٱلْكُلُّ . وَمَا ٱخْتَارَهُ ٱيضا ٱلْحُكَّامُ ٱلْأَوَلُ اَعْنِي ٱلَّذِينَ لَا يَأْخُذُونَ ٱلْأَحْكَامَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمُ ٱلشُّرَّاعُ ٱفْضَلُ مِمَّا لَمْ يَخْتَارُوهُ . وَمَا ٱخْتَارَهُ ٱيضا ٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْأَحْكَامَ مِنْ هٰؤُلَاءِ ٱفْضَلُ مِمَّا لَيْسَ يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ . وَٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْأَحْكَامَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأَوَلِ وَهُمُ ٱلَّذِينَ تُؤْخَذُ عَنْهُمْ اُصُولُ ٱلْأَحْكَامِ صِنْفَانِ إِمَّا سَامِعٌ فَقَطْ مُبَلِّغٌ وَإِمَّا سَامِعٌ عَالِمٌ اَيْ قَادِرٌ عَلَى اَنْ يَسْتَنْبِطَ مِنْ تِلْكَ ٱلْأُصُولِ اَحْكَامًا مَا لَمْ يُصَرِّحْ بِهَا ٱلْحُكَّامُ ٱلْأَوَلُ . وَهٰؤُلَاءِ صِنْفَانِ إِمَّا مُسَلَّطُونَ مِنْ قِبَلِ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأَوَلِ وَهُمُ ٱلْقُضَاةُ وَمَا اَشْبَهَهُمْ وَإِمَّا غَيْرُ مُسَلَّطِينَ وَهُمُ ٱلْفُقَهَاءُ . وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ مَا لِجَمِيعِ اَصْنَافِ ٱلْمُتَلَقِّينَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأَوَلِ اَنْ يَقُولُوا فِيهَا . وَهُوَ مَا سَمِعُوهُ اَوْ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ ٱلْحَاكِمِ ٱلْأَوَّلِ وَمِنْهَا مَا يَخُصُّ بِذَوِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُسْتَنْبَطُ عَنِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلْأَوَلِ ٱلَّتِي صَرَّحَ بِهَا ٱلْحَاكِمُ ٱلْأَوَّلُ وَلَيْسَ لِلسَّامِعِينَ دُونَ عِلْمٍ اَنْ يَقُولُوا فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ . وَاَمَّا ٱلَّذِي يَخُصُّ ٱلْحُكَّامَ ٱلْأَوَلَ ٱلْقَوْلُ فِيهِ فَهِيَ ٱلْأُصُولُ ٱلَّتِي تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبَادِئِ لِسَائِرِ مَا يَحْكُمُ بِهِ ٱلسَّامِعُونَ ذَوُو ٱلْعِلْمِ اَعْنِي ٱلْمُسَلَّطِينَ وَٱلْفُقَهَاءَ وَهِيَ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا اَرِسْطُو ٱلْأُمُورَ ٱلْعُظْمَى . وَٱلْفُضَلَاءُ ٱلْأَبْرَارُ ٱلَّذِينَ جَرَتِ ٱلْعَادَةُ اَنْ يَأْخُذَ عَنْهُمُ ٱلْجَمِيعُ اَوِ ٱلْأَكْثَرُ فَحُكْمُهُمْ اَفْضَلُ فَإِنَّ عَدَمَ ٱلْأَخْذِ قَدْ يُخَيَّلُ هَوَانًا وَنَقْصًا فِي ٱلْمَرْءِ ٱلْفَاضِلِ ٱلْبَرِّ

وَقِلَّةَ قَبُولٍ لِقَوْلِهِ وَقَدْ يُخَيَّلُ ٱلْأَمْرُ بِعَكْسِ هٰذَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلْأَبْرَارُ ٱلْفَاضِلُونَ مَقْبُولِي ٱلْقَوْلِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ عَنْهُمْ أَصْلًا شَيْئًا أَوْ إِنَّمَا أَخَذَ عَنْهُمْ قَلِيلٌ. وَذٰلِكَ أَنَّ أَقَاوِيلَ هٰؤُلَاءِ قَدْ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقْبُولَةٌ بِجِهَةٍ أُخْرَى وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ ٱلْمَرْضِيُّ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي نَفْسِهِ وَٱلْأَقَلِّ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُمْ ذَوُو ٱلتَّمْيِيزِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْفَاضِلِينَ ٱلَّذِينَ كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ هُمْ مَمْدُوحُونَ أَكْثَرَ وَهُمْ أَقَلُّ وُجُودًا وَأَعَزُّ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ لَمَّا خَافُوا أَنْ يَلْحَقَهُمْ مِنَ ٱلْكَرَامَاتِ وَٱلرِّئَاسَاتِ ٱلَّتِي يُخَافُ إِذَا لَحِقَتِ ٱلْمَرْءَ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِأَنْ تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱللَّاحِقَةُ لِلْفَضَائِلِ هِيَ ٱلْمَقْصُودَةَ عِنْدَهُ بِٱلْفَضَائِلِ. فَمِنْ هَا هُنَا صَارَتْ أَقْوَالُ هٰذَا ٱلصِّنْفِ مَقْبُولَةً كَمَا صَارَتْ أَقْوَالُ ٱلصِّنْفِ ٱلْأَوَّلِ ٱلْمُضَادِّ لِهٰذَا مَقْبُولَةً وَهُمُ ٱلَّذِينَ أَخَذَ عَنْهُمُ ٱلْجُمْهُورُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلصِّنْفِ ٱلْمَقْبُولِ ٱلْقَوْلِ مِنَ ٱلنَّاسِ جِدًّا جِدًّا ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِينَ كَرَامَاتُهُمْ أَعْظَمُ لِأَنَّ ٱلْكَرَامَةَ لَمَّا كَانَتْ مُكَافَاةَ ٱلْفَضِيلَةِ كَانَ ٱلْمَرْءُ كُلَّمَا عَظُمَتْ كَرَامَتُهُ ظُنَّ بِهِ أَنَّهُ قَدْ عَظُمَتْ فَضِيلَتُهُ. وَٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ نَالَتْهُمُ ٱلْمَضَرَّةُ ٱلْعَظِيمَةُ وَٱلشَّقَاءُ ٱلْكَبِيرُ لِمَكَانِ ٱلْفَضَائِلِ هُمْ أَيْضًا مَقْبُولُو ٱلْأَقْوَالِ جِدًّا جِدًّا بِمَنْزِلَةِ سُقْرَاطَ وَغَيْرِهِ وَٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يُرَى فِيهِ هٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ أَعْنِي ٱلَّذِينَ كَرَامَتُهُمْ أَعْظَمُ وَٱلَّذِينَ نَالَهُمُ ٱلضَّرَرُ

ٱلْكَبِيرُ مِنْ قِبَلِ ٱلْفَضَائِلِ اَنَّهُمْ فَاضِلُونَ وَيَعْتَرِفُونَ لَهُمْ بِٱلْفَضْلِ هُمْ اَيْضًا اَفْضَلُ وَاَعْظَمُ . فَهٰؤُلَاءِ هُمْ اَصْنَافُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ اِذَا اَخْتَارُوا شَيْئًا وَٱخْتَارَ غَيْرُهُمْ سِوَاهُ كَانَ مَا يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ اَفْضَلَ وَآثَرَ

(قَالَ) وَقِسْمَةُ ٱلشَّيْءِ اِلَى جُزْئِيَّاتِهِ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ اَنَّهُ اَعْظَمُ وَلِذٰلِكَ لَمَّا اَرَادَ اُومِيرُوسُ ٱلشَّاعِرُ اَنْ يُعَظِّمَ ٱلشَّرَّ ٱلَّذِي لَحِقَ ٱلْمَدِينَةَ اَخَذَ بَدَلَهُ جُزْئِيَّاتِهِ فَذَكَرَ قَتْلَ ٱلْاَوْلَادِ وَٱلنَّوْحَ عَلَيْهِمْ وَحَرْقَ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلنَّارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِنْ اَصْنَافِ ٱلشُّرُورِ ٱللَّاحِقَةِ لَهَا

(قَالَ) وَكَذٰلِكَ ٱلتَّرْكِيبُ قَدْ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ اَنَّهُ اَعْظَمُ وَهُوَ عَكْسُ . هٰذَا اَعْنِي اَنْ يُؤْخَذَ بَدَلَ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ٱلْكُلِّيُّ ٱلَّذِي يَعُمُّهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ٱلْاِقْنَاعِ فِي هٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ هُوَ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلْاِبْدَالُ

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْاَعْسَرُ وُجُودًا فِي نَفْسِهَا وَٱلْاَقَلُّ وُجُودًا يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا اَفْضَلُ كَانَتِ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ ٱلْوُجُودِ فِي نَفْسِهَا وَٱلسَّهْلَةُ ٱلْوُجُودِ قَدْ تُرَى عَظِيمَةً اِذَا وُجِدَتْ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا وُجُودُهَا اَوْ فِي ٱلْاَزْمِنَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا اَيْضًا اَوْ فِي ٱلْاَسْنَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا مِثْلُ وُجُودِ ٱلْاِنْسَانِ خَطِيبًا فِي سِنِّ ٱلصِّبَا اَوْ فِي ٱلْمَدَدِ ٱلَّتِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا اَنْ تُوجَدَ فِيهِ . مِثْلُ مَنْ يَفْعَلُ مَا شَأْنُهُ اَنْ يُفْعَلَ فِي زَمَانٍ طَوِيلٍ فِي زَمَانٍ قَصِيرٍ اَوْ تَكُونَ صَادِرَةً عَنِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي يَقِلُّ صُدُورُهَا عَنْهَا مِثْلَ اَنْ يَفْعَلَ ٱلضَّعِيفُ فِعْلَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمَرِيضُ فِعْلَ

ٱلصَّحِيحِ . وَكُلُّ هٰذِهِ وَأَشْبَاهُهَا مِمَّا يُصَيِّرُ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَغْرَبًا . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلْعَظِيمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ هُوَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِثْلُ ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلدِّمَاغِ أَوِ ٱلرَّبِيعِ مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشَّبَابِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَ فِيمَا ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَشَدُّ هُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا وَٱلضَّارَّ فِيهِ أَكْثَرُ ضَرَرًا مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلشَّيْخُوخَةِ وَٱلْمَرَضِ فِيهَا . فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنَ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلصِّبَا وَٱلْمَرَضُ فِيهَا أَضَرُّ . وَأَيْضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْغَايَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ . وَأَيْضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ ٱلْعُمْرِ فَهُوَ أَفْضَلُ فَإِنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي سَبِيلُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ هِيَ أَفْضَلُ مِثْلَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَكْمُلُ مَعَ طُولِ ٱلْعُمْرِ . وَأَيْضًا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فُعِلَتْ أَوْ قِيلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا أَعْظَمَ مِنَ ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةَ تَمَامِهَا . وَأَرِسْطُو يُسَمِّي ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ وَيُسَمِّي ٱلْآخَرَ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا

(قَالَ) وَحَدُّ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَنَّهَا ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ بِجَهْلٍ أَوْ بِغَلَطٍ لَمْ تُمْدَحْ أَصْلًا وَٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى ٱلتَّمَامِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ أَكْثَرَ مِنْ فِعْلِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ لِأَنَّ فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ إِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ أَوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلْ وَلَا مُدِحَ فَاعِلُهُ . وَأَمَّا حُسْنُ ٱلِٱنْفِعَالِ وَٱلْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

حَصَلَ فَقَدِ ٱسْتَفَادَ ٱلْخَيْرَ مِنْهُ ٱلْقَابِلُ لَهُ . وَأَيْضًا مَا أُوثِرَ فِعْلُهُ لِنَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ أَثَرٌ مِمَّا لَا يُخْتَارُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مَا يُعْلَمُ كَٱلْحَالِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ . فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ مُؤْثَرَةٌ بِذَاتِهَا وَٱلْجَمَالَ مُؤْثَرٌ لِلْغَيْرِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَةَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَهِيَ أَنْفَعُ كَٱلنَّافِعَةِ فِي طُولِ ٱلْعُمْرِ وَفِي حُسْنِ ٱلْعَيْشِ أَعْنِي ٱلْعَيْشَ ٱلرَّغْدَ وَفِي ٱللَّذَّاتِ وَفِي ٱصْطِنَاعِ ٱلْخَيْرَاتِ . وَلِذٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ أَنَّهُمَا عَظِيمَانِ لِأَنَّهُمَا يَجْمَعَانِ ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْحُزْنِ وَٱلْفِعْلَ بِلَذَّةٍ أَعْنِي أَنَّ ٱلصِّحَّةَ هِيَ سَبَبُ ٱلْفِعْلِ بِلَذَّةٍ وَٱلْيَسَارَ سَبَبُ ٱلْخُلُوِّ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ عَلَى ٱلِٱنْفِرَادِ فَاضِلٌ وَمُخْتَارٌ بِنَفْسِهِ أَعْنِي ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ وَٱلْأَفْعَالَ ٱللَّذِيذَةَ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا لِأَمْرِئٍ جَعَلَاهُ أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَوَاءٌ عَلِمَ ذٰلِكَ مِنْ عِلْمِهِ أَوْ جَهْلِهِ مِنْ جَهْلِهِ لِأَنَّ هٰذِهِ خَيْرَاتٌ مُسْتَفَادَةٌ بِٱلْحَقِيقَةِ لَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ . وَلٰكِنْ لِكَوْنِ ٱلْيَسَارِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلْأَحْزَانِ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ ٱلسَّعَادَةُ قَوْمٌ وَآخَرُونَ رَأَوْا أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ هِيَ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ وَذٰلِكَ وَاجِبٌ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ أَحْرَى أَنْ تَكُونَ ٱلسَّعَادَةُ ثَابِتَةً وَمَأْمُونَةَ ٱلزَّوَالِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ فَفَقَدَ إِحْدَاهُمَا كَمَنْ لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ فَفَقَدَهَا لِأَنَّ ٱلَّذِي لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ سُلِبَ أَحَبَّ مِمَّا سُلِبَ مَنْ لَهُ عَيْنَانِ . وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَتِ ٱلسَّعَادَةُ فِي ٱلْمَالِ وَفِي شَيْءٍ آخَرَ لَمْ يَكُنِ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ عَنْ سَلْبِ ٱلْمَالِ كَٱلضَّرَرِ ٱللَّاحِقِ عَنْ سَلْبِهِ إِنْ كَانَ هُوَ ٱلسَّعَادَةَ وَحْدَهُ

(قال) والكلام في هذه الاشياء كلها ها هنا ليس هو على جهة التصحيح وانما الكلام فيها بالقدر الذي يحتاج اليه الخطيب من ذلك ويجب للخطيب ابدا متى اتى بالنتائج من امثال هذه المقدمات ان يرفدها بالمثالات المأخوذة من الناس الذين فعلوا تلك الافاعيل فلحقهم النفع او الضرر فلذلك ما يجب للخطيب ان يكون حافظا للقصص والاخبار

البحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات

وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسه)

(قال) فهذه هي الاشياء التي يثبت بها ان الشيء انفع او اضر. واما الاشياء التي يكون بها الاذن والمنع فقد قيل فيها قبل هذا بما فيه كفاية. لكن اهم واعظم ما فيها هو القول في الاشياء التي بها يقدر على جودة الاقناع في السنن والاشارة بالسنن التي لا يوجد انفع منها. ولذلك قد يجب ان نستقصي القول فيها ها هنا فنقول: ان الاشارة بالسنن النافعة والاقناع التام فيها يتأتى بمعرفة اصناف السياسات والاخلاق والسنن التي تخص سياسة سياسة. وذلك ان في كل واحدة من السياسات سننا نافعة فيها وهي السنن التي بها

يكون خلاص تلك المدينة وقوامها. والسنن النفيسة الخطيرة هي السنن العادلة اعني الموضوعة في العدل التي رسمها الرئيس الاول في تلك المدينة او المسلط عليها من قبل الرئيس الاول. وهذه السنن النفيسة اعني السنن العادلة تختلف في السياسات بحسب اختلاف غايتها. وعددها على عدد السياسات. مثال ذلك ان العدل في سياسة التغلب انه لا شيء على الرئيس اذا لطم المرؤوس. وفي سياسة الحرية العدل في ذلك ان يلطم الرئيس مثل اللطمة التي لطمها. والسياسات بالجملة اربع السياسة الجماعية وسياسة الخسة وسياسة جودة التسلط وسياسة الوحدانية وهي الكرامية. وهذه السياسات كلها المقصود بالسنن الموضوعة فيها انما هو المدينة والكل لا الشخص. فاما المدينة الجماعية فهي التي تكون الرئاسة فيها بالاتفاق والنجت لا عن استهال اذ كان ليس في هذه المدينة لاحد على احد فضل. واما خسة الرئاسة فهي التي يتسلط فيها المتسلطون على المدنيين باداء الاتاوة والتغريم لا على جهة ان تكون نفقة للحماة والحفظة ولا عدة للمدينة على ما عليه الامر في السياسات الاخر بل على جهة ان تحصل الثروة للرئيس الاول. فان جعل لهم حظا من الثروة كانت رئاسة الثروة. وان لم يجعل لهم حظا من الثروة كانت رئاسة التغلب وكانوا بمنزلة العبيد للرئيس الاول. وكانت محاماته عنهم بمنزلة محاماة الانسان عن عبيده. واما جودة التسلط فهو التسلط الذي

يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ فَإِنَّ ٱلَّذِينَ يُشِيرُونَ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ هُمْ مُتَسَلِّطُونَ بِجُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي يَحْصُلُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَٱلسَّعَادَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ. وَلِذٰلِكَ كَانَ هٰؤُلَاءِ أَهْلَ فَضَائِلَ وَٱقْتِدَارٍ عَلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تُصْلِحُ ٱلْمَدِينَةَ وَأَهْلَ حَزْمٍ وَتَحَرُّزٍ مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ يُفْسِدَ ٱلْمَدِينَةَ مِنْ خَارِجٍ أَوْ مِنْ دَاخِلٍ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَتْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ بِهٰذَا ٱلِٱسْمِ. وَهٰذَا ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ صِنْفَانِ رِئَاسَةُ ٱلْمَلِكِ وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ آرَاؤُهَا وَأَفْعَالُهَا بِحَسَبِ مَا تُوجِبُهُ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّظَرِيَّةُ. وَٱلثَّانِيَةُ رِئَاسَةُ ٱلْأَخْيَارِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ أَفْعَالُهَا فَاضِلَةً فَقَطْ. وَهٰذِهِ تُعْرَفُ بِٱلْإِمَامِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي ٱلْفُرْسِ ٱلْأُوَلِ فِيمَا حَكَاهُ أَبُو نَصْرٍ

(قَالَ) وَأَمَّا وَحْدَانِيَّةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهِيَ ٱلرِّئَاسَةُ ٱلَّتِي يَجِبُ ٱلْمَلِكَ أَنْ يَتَوَحَّدَ فِيهَا بِٱلْكَرَامَةِ ٱلرِّئَاسِيَّةِ وَأَلَّا يَنْقُصَهُ مِنْهَا شَيْءٌ بِأَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَدِينَةِ ٱلْأَخْيَارِ. وَهٰذِهِ ٱلْمُدُنُ رُبَّمَا كَانَتِ ٱلسُّنَنُ ٱلْمَوْضُوعَةُ فِيهَا مَحْدُودَةً غَيْرَ مُتَبَدِّلَةٍ وَاحِدَةً فِي ٱلدُّهُورِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي سُنَنِنَا ٱلْإِسْلَامِيَّةِ. وَرُبَّمَا كَانَتْ غَيْرَ ذَاتِ سُنَنٍ مَحْدُودَةٍ بَلْ يُفَوَّضُ ٱلْأَمْرُ فِيهَا إِلَى ٱلْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهَا بِحَسَبِ ٱلْأَنْفَعِ فِي وَقْتٍ وَقْتٍ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُنَنِ ٱلرُّومِ ٱلْيَوْمَ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي رَسَمْنَا بِهِ هٰذِهِ

ٱلسِّيَاسَاتِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا ٱلْغَايَةَ عَلِمْنَا ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمُخْتَارَةَ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ فَغَايَةُ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْجَمَاعِيَّةِ ٱلْحُرِّيَّةُ. وَغَايَةُ خِسَّةِ ٱلرِّئَاسَةِ ٱلثَّرْوَةُ وَغَايَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلتَّمَسُّكُ بِٱلسُّنَّةِ . وَغَايَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ ٱلْكَرَامَةُ وَٱلسِّيَاسَاتُ ٱلَّتِي لَيْسَ يُوضَعُ فِيهَا سُنَنٌ غَيْرُ مُتَبَدِّلَةٍ فَغَايَةُ وَاضِعِهَا هُوَ ٱلتَّحَفُّظُ وَٱلِاحْتِرَاسُ مِنَ ٱلْخَلَلِ ٱلْوَاقِعِ فِي ٱلسُّنَنِ بِتَبَدُّلِ ٱلْأَزْمِنَةِ وَٱلْأَمْكِنَةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا أَرِسْطُو لَيْسَ تُلْفَى بَسِيطَةً وَإِنَّمَا تُلْفَى أَكْثَرُ ذٰلِكَ مُرَكَّبَةً كَٱلْحَالِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلْآنَ فَإِنَّهَا إِذَا تُؤُمِّلَتْ تُوجَدُ مُرَكَّبَةً مِنْ فَضِيلَةٍ وَكَرَامَةٍ وَحُرِّيَّةٍ وَتَغَلُّبٍ

(قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ أَصْنَافُ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعْلُومَةً عِنْدَنَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ ٱلْأَخْلَاقَ وَٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَى غَايَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ أَعْنِي ٱلنَّافِعَةَ فِيهَا وَأَنْ نَعْتَمِدَ فِي أَنْفُسِنَا ٱلتَّخَلُّقَ بِتِلْكَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلتَّمَسُّكَ بِٱلصِّنْفِ مِنَ ٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي نَرُومُ ٱلِاقْتِنَاعَ فِيهَا. فَإِنَّهُ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُحَثُّ بِهَا عَلَى ٱلسُّنَنِ مُقْنِعَةً إِذَا كَانَ ٱلْمُشِيرُونَ بِهَا ذَوِي صَلَاحٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ حَتَّى تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمَذْكُورَةُ هَا هُنَا مَعْلُومَةً لَنَا وَمَوْجُودَةً فِينَا. فَإِنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِينَا . ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي نَحُثُّ عَلَيْهِ كَانَ قَوْلُنَا فِي ٱلْحَثِّ عَلَيْهِ أَشَدَّ إِقْنَاعًا وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا نُشِيرَ إِلَّا بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ لَنَا أَوْ نَحْنُ عَازِمُونَ عَلَى أَنْ يُوجَدَ لَنَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى ٱلسُّنَنِ

ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْغَايَةِ لِنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَنْبَطُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّخْيِيلِ مِنَ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْغَايَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ أَيْنَ تُوجَدُ ٱلْمُقْنِعَاتُ فِي ٱلنَّافِعِ مِنَ ٱلسُّنَنِ فِي سِيَاسَةِ سِيَاسَةٍ وَكَمْ أَنْحَاءُ ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تُحْتَذَى فِيهَا وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْكَافِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ فَفِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمَدَنِيَّةِ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثْبيتي . وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذمّ وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَأَمَّا بَعْدَ هٰذَا فَنَحْنُ قَائِلُونَ فِي ٱلْفَضِيلَةِ وَٱلنَّقِيصَةِ وَٱلْجَمِيلِ وَٱلْقَبِيحِ لِأَنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا وَيُذَمُّ . وَيَلْحَقُ مِنْ تَعْرِيفِنَا هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ أَنْ نُعَرِّفَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي بِهَا يُثْبِتُ ٱلْمَرْءُ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ إِذْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلطَّرِيقَ ٱلثَّانِيَ مِنَ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي يَقَعُ بِهَا ٱلْإِقْنَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلْمَدْحِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحِ غَيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا أَنْفُسَهَا عَلَى مَدْحِ أَنْفُسِنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْغَيْرُ بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ بِٱلْفَضِيلَةِ فَقَطْ

وَهِيَ ٱلْأُمُورُ ٱلرَّاجِعَةُ إِلَى ٱلِٱخْتِيَارِ

(قَالَ) وَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَعْرِضُ كَثِيرًا أَنْ يُمْدَحَ ٱلنَّاسُ وَٱلرُّوحَانِيُّونَ بِٱلْفَضِيلَةِ وَبِأَشْيَاءَ غَيْرِ ٱلْفَضِيلَةِ وَلَيْسَ يَعْرِضُ هٰذَا فِي مَدْحِ هٰؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ وَفِي مَدْحِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَغَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ. أَعْنِي أَنَّهَا تُمْدَحُ بِأَشْيَاءَ خَارِجَةٍ عَنِ ٱلْفَضِيلَةِ. فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ هَاهُنَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُؤْخَذُ مِنْهَا ٱلْمُقَدِّمَاتُ فِي ٱلْمَدْحِ بِٱلْفَضَائِلِ وَبِغَيْرِ ٱلْفَضَائِلِ لِيَكُونَ ٱلْقَوْلُ فِي ذٰلِكَ عَامًّا فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْجَمِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ وَهُوَ مَمْدُوحٌ وَخَيْرٌ وَلَذِيذٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ خَيْرٌ. وَإِذَا كَانَ ٱلْجَمِيلُ هُوَ هٰذَا فَبَيِّنٌ أَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ جَمِيلَةٌ لَا مَحَالَةَ لِأَنَّهَا خَيْرٌ وَهِيَ مَمْدُوحَةٌ. وَٱلْفَضِيلَةُ هِيَ مَلَكَةٌ مُقَدِّرَةٌ لِكُلِّ فِعْلٍ هُوَ خَيْرٌ مِنْ جِهَةِ ذٰلِكَ ٱلتَّقْدِيرِ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَعْنِي ٱلْحَافِظَةَ لِهٰذَا ٱلتَّقْدِيرِ وَٱلْفَاعِلَةَ لَهُ. وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُوجِدَةً لِكُلِّ فِعْلٍ يُقْصَدُ بِهِ نَحْوُ غَايَةٍ مَا جَلِيلِ ٱلْقَدْرِ عَظِيمِ ٱلشَّأْنِ فِي حُصُولِ تِلْكَ ٱلْغَايَةِ عَنْهُ. فَأَمَّا أَجْزَاءُ ٱلْفَضِيلَةِ فَٱلْبِرُّ أَيِ ٱلْعَدْلُ ٱلْعَامُّ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلْمُرُوءَةُ وَٱلْعِفَّةُ وَكِبَرُ ٱلْهِمَّةِ وَٱلْحِلْمُ وَٱلسَّخَاءُ وَٱللُّبُّ وَٱلْحِكْمَةُ. وَهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ مِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ فِي ذَاتِ ٱلْفَاضِلِ فَقَطْ وَمِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُفْعَلُ فِي أُنَاسٍ آخَرِينَ وَهٰذِهِ ٱلَّتِي تُفْعَلُ فِي أُنَاسٍ آخَرِينَ تَكُونُ أَعْظَمَ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْهَا عِنْدَ آخَرِينَ وَفِي حَالٍ دُونَ حَالٍ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ فَضِيلَةَ ٱلشَّجَاعَةِ أَثَرُ فِي وَقْتِ ٱلْحَرْبِ مِنْهَا فِي وَقْتِ ٱلسِّلْمِ. وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلْعَدْلِ فَمُؤَثِّرَةٌ فِي ٱلسِّلْمِ وَٱلْحَرْبِ

جميعاً. وفضيلة السخاء والمروءة عند المحاويج آثر منها عند غير المحاويج. وإنما تنفصل فضيلة المروءة من السخاء بالأقل والأكثر لأن فعل كلتيهما هو في المال لكن المروءة هي فعل أكثر من فعل السخاء. فأما البر فهو فضيلة عادلة يعطي الفاضل بها لكل امرئ من الناس ما يستحق وذلك بقدر ما تأمر به السنة. والجور هو الخلق الذي يأخذ به المرء الأشياء الغريبة التي ليس له أن يأخذها في السنة. وأما الشجاعة ففضيلة يكون المرء بها فعالاً للأفعال الصالحة النافعة في الجهاد على حسب ما تأمر به السنة حتى يكون بفعله ذلك خادماً للسنة. وأما الجبن فضد هذا. وأما العفة ففضيلة يكون بها المرء في شهوات البدن على مقدار ما تأمر به السنة. والفجور ضد هذا. وأما السخاء ففضيلة تفعل الجميل المشهور في المال. والدناءة ضد هذا. وأما كبر الهمة ففضيلة يكون بها حسن الأفعال العظيمة وصغر النفس. والنذالة ضدها. وأما اللب ففضيلة العقل الذي يكون به حسن المشورة والروية مع وجود الفضائل الخلقية له التي هي من صلاح الحال. فهذا هو القول في الفضيلة وأجزائها بقدر ما يحتاج إليه في هذه الصناعة. وأما سائر الأشياء التي يمدح بها مما عدا الفضيلة فليس يعسر الوقوف عليها. وذلك أنه معلوم أن فاعلات الفضائل مثل التأدب والارتياض بالأشياء التي بها تحصل الفضائل هي أمور حسان وممدوح بها. وأما الأشياء التي توجد في الفضائل أنفسها أعني الأعراض التي توجد فيها. والأشياء التي توجد تابعة

لِلفَضَائِلِ فَهِيَ ٱلَّتِي يُقَالُ فِيهَا ٱلآنَ وَهِيَ عَلَامَاتُ ٱلفَضَائِلِ وَأَعْرَاضُهَا ٱللَّاحِقَةُ لَهَا. وَأَفْعَالُهَا إِنَّمَا يُمْدَحُ بِهَا إِذَا كَانَتْ حَسَنَةً مَحْمُودَةً فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَفْعَالِ ٱلفَضَائِلِ قَدْ لَا يُمْدَحُ بِهَا وَكَذٰلِكَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْأَعْرَاضِ. فَمِثَالُ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْأَعْرَاضِ ٱلَّتِي هِيَ مَحْمُودَةٌ أَفْعَالُ ٱلشُّجْعَانِ فِي ٱلْحَرْبِ أَوْ مَنْ فَعَلَ فِي ٱلْحَرْبِ فِعْلَهُمْ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَلَكَةُ ٱلشَّجَاعَةِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْأَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ ٱلشُّجْعَانَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهَا. وَمِثَالُ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي لَا يُمْدَحُ بِهَا فِي وَقْتٍ مَا بَذْلُ ٱلْمَالِ فَإِنَّهُ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ ٱلسَّخَاءِ لٰكِنْ رُبَّمَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّبْذِيرِ. وَمِثَالُ ٱلْأَعْرَاضِ ٱلَّتِي لَا يُمْدَحُ بِهَا ٱنْفِعَالُ ٱلْمَرْءِ عَنِ ٱلْعَدْلِ وَقَبُولُهُ إِيَّاهُ وَذٰلِكَ أَنَّ فِعْلَ ٱلْعَدْلِ مَمْدُوحٌ وَأَمَّا ٱلِٱنْفِعَالُ عَنْهُ فَلَيْسَ بِمَمْدُوحٍ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مَهَانَةٌ وَضَيْمٌ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَأَفْعَالُ ٱلفَضَائِلِ إِنَّمَا تَكُونُ مَمْدُوحَةً إِذَا كَانَتْ مُقَدَّرَةً تَقْدِيرَ ٱلْعَدْلِ وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهَا ٱلْأَفْعَالُ ٱلْعَظِيمَةُ ٱلشَّاقَّةُ ٱلَّتِي جَزَاؤُهَا ٱلْكَرَامَةُ فَقَطْ. فَإِنَّ ٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي يَكُونُ جَزَاؤُهَا ٱلْكَرَامَةَ خَيْرٌ مِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي جَزَاؤُهَا ٱلْمَالُ. وَلِذٰلِكَ إِذَا كَانَ فِعْلٌ يُجَازَى عَلَيْهِ بِٱلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَفَعَلَهُ فَاعِلٌ مِنْ أَجْلِ ٱلْكَرَامَةِ فَقَطْ مُدِحَ بِهِ وَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ ٱلْمَرْءُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ لَا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ مُدِحَ بِهِ. وَفِعْلُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرَاتٌ بِإِطْلَاقٍ كَذٰلِكَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فِي طَبِيعَتِهَا خَيْرَاتٌ وَإِنْ كَانَتْ ضَارَّةً لِلْفَاعِلِ يُمْدَحُ بِهَا أَيْضًا. مِثْلُ فِعْلِ ٱلْعَدْلِ فَإِنَّ ٱلْعَادِلَ كَثِيرًا مَا يَسْتَضِرُّ بِهِ.

وَالْأَفْعَالُ الَّتِي تَخْتَصُّ بِإِكْرَامِ الْأَمْوَاتِ مَمْدُوحَةٌ لِأَنَّ الْأَفْعَالَ الَّتِي تَكُونُ لِلْأَحْيَاءِ إِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا الْمَرْءُ أَكْثَرَ ذٰلِكَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ. وَبِالْجُمْلَةِ فَكُلُّ فِعْلٍ كَانَ الْمَقْصُودُ بِهِ الْغَيْرَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْتَفِعُ بِهِ الْفَاعِلُ لَهُ أَوْ كَانَ يَلْحَقُهُ مِنْهُ ضَرَرٌ فَهُوَ مَمْدُوحٌ بِهِ. وَالْفِعْلُ الَّذِي يَكُونُ إِلَى الْمُحْسِنِينَ إِلَى النَّاسِ مَمْدُوحٌ بِهِ أَيْضًا لِأَنَّ هٰذَا هُوَ عَدْلٌ إِذْ كَانَ لَيْسَ يَنْتَفِعُ بِهِ الْفَاعِلُ لَهُ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ أَنْ لَا يَفْعَلَ الْأَفْعَالَ الَّتِي يَقْتَضِحُ بِهَا أَهْلُ الْفَوَاحِشِ وَأَنْ يُؤَدِّبَهُمْ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ. وَكَذٰلِكَ نُصْرَةُ ذَوِي الْفَضَائِلِ وَمَحْمَدَتُهُمْ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ. وَالْخَجَلُ عِنْدَ ذِكْرِ الْقَبَائِحِ مِمَّا قَدْ يَدُلُّ عَلَى الْفَضِيلَةِ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّ الْحَيَاءَ يَمْنَعُهُ عَنْ إِتْيَانِ تِلْكَ الرَّذِيلَةِ. وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا عَدَمُ الْحَيَاءِ عِنْدَ ذِكْرِ الْفَوَاحِشِ عَلَامَةً يُمْدَحُ بِهَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ يُظَنُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَسْتَحِي عِنْدَ ذِكْرِ الْقَبَائِحِ إِذَا كَانَ قَدْ فَعَلَهَا أَوْ نَالَهَا أَوْ هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَهَا. مِثْلُ مَا حَكَى أَرِسْطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِامْرَأَةٍ مَشْهُورَةٍ بِالْحِكْمَةِ عِنْدَهُمْ وَذٰلِكَ أَنَّ إِنْسَانًا مَشْهُورًا عَرَّضَ لَهَا بِالْقَبِيحِ بِأَنْ قَالَ لَهَا: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ قَوْلًا يَمْنَعُنِي عَنْهُ الْحَيَاءُ فَحَلُمَتْ عَنْهُ وَلَمْ تُجِبْهُ بِقَوْلٍ قَبِيحٍ وَلَمْ يُدْرِكْهَا مِنْ ذٰلِكَ تَأَلُّمٌ وَلَا انْفِعَالٌ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَرَى لِمَكَانِ فَضِيلَتِهَا أَنَّ أَحَدًا لَا يُعَرِّضُ لَهَا لَا بِمِثَالٍ وَلَا بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ (وَهُمَا صِنْفَا التَّعْرِيضِ). لٰكِنَّهَا فِي تِلْكَ الْحَالِ جَعَلَتْ تَمَسُّ الْفَضَائِلَ وَتَمْدَحُ أَهْلَهَا وَتَتَعَصَّبُ لَهُمْ وَتُحَامِي عَنْهُمْ. وَكَانَ أَيْضًا مَنْ مَعَهَا لَمْ يَأْنَفُوا

أيضاً لقول ذلك ولا لتعريضه لعلمهم ان مثلها لا يتهم بمثل هذا

(قال) ولذلك كان التعصب للاشياء التي تكتسب المجد والسحامة عنها قد تجعل المتعصب لها والسحامي عنها من اهل الفضائل التي لا تحصل للانسان الا بمجاهدة كبيرة للطبيعة مثل العفاف والشجاعة وغيرهما. وذلك اذا صارت له ملكة بتردد فعلها والتعصب لها والسحامة عنها كما عرض لهذه المرأة التي اقتصصنا ذكرها مع ذلك الرجل. وذلك ان امثال هذه الافعال قد يصير بها الانسان من اهل الفضائل التي لا تحصل للانسان الا بمجاهدة كبيرة

(قال) والانعام على الغير اذا لم يستفد المنعم منه شيئاً هو مما يمدح به ولذلك ما كان العدل والبر يمدح بهما الانسان من جهة انهما نافعان كما يمدح بهما من جهة ما هما جميلان. والانتقام ايضاً من الاعداء والا يرضى عنهم في حال مما يمدح به. فان الانتقام منهم هو جزاء والجزاء عدل والعدل جميل. ومحبة الغلبة ايضاً ومحبة الكرامة مما يمدح بهما لانهما علامتان تدلان على ايثار الفضائل لا لامكان اكتساب مال بهما. اما محبة الغلبة فتدل على ايثار الشجاعة. واما محبة الكرامة فعلى ايثار جميع الفضائل ولذلك كانت الفضائل الايثرة المختارة هي التي ليس يقصد بها مقتنيها الى اكتساب مال. لان ذلك يدل على شرف

ٱلْفَضِيلَةِ وَمِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلَّتِي شَأْنُهَا ٱنْ يَبْقَى ذِكْرُهَا مَحْفُوظًا ٱبَدًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ. وَمِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْهَيْئَاتُ ٱلْمَحْمُودَةُ عِنْدَ قَوْمٍ ٱلَّتِي يَجْعَلُونَهَا عَلَامَةً لِذَوِي ٱلشَّرَفِ مِثْلُ تَوْفِيرِ ٱلشُّعُورِ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ فَانَّهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلشَّرَفِ اِذْ كَانَ لَيْسَ كُلُّ اَحَدٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ شَعَرِهِ لِاَنَّ ٱلْمُوَفِّرِي ٱلشُّعُورِ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلَ مَنْ لَيْسَ بِمُوَفِّرِ ٱلشَّعَرِ وَلَا يُمْتَهَنُونَ بِاَيِّ مِهْنَةٍ اُتَّفِقَتْ. وَٱلْأَزْيَاءُ ٱلَّتِي كَانَتْ تُتَّخَذُ عِنْدَنَا هِيَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ اَرِسْطُو

(قَالَ) وَمِنَ ٱلشَّرَفِ اَلَّا يَحْتَاجَ ٱلْاِنْسَانُ اِلَى آخَرِينَ بَلْ يَكُونَ مُكْتَفِيًا بِنَفْسِهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ نَاْخُذَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْأُمُورِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلنَّقَائِصِ وَهِيَ ٱلنَّقَائِصُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ اَوِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَيُمْدَحُ بِٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ بِاَنْ يُوهِمَ اَنَّهَا فَضَائِلُ مِنْ اَجْلِ اَنَّ تِلْكَ ٱلْاَفْعَالَ هِيَ مِنْ اَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ يُوهِمُ فِي ٱلْفَضَائِلِ اَنَّهَا نَقَائِصُ مِنْ اَجْلِ اَنَّهُ عَرَضَ اَنْ وُجِدَ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَمِثَالُ ٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلْفَضَائِلِ فَتُوهِمُ اَنَّهَا فَضَائِلُ ٱلْعِيُّ ٱلَّذِي قَدْ يَكُونُ عَنْهُ اَفْعَالُ ٱلْحِلْمِ فَيُوهِمُ بِهِ اَنَّهُ حَلِيمٌ. وَٱلْبَلَهُ ٱلَّذِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهُ اَفْعَالُ ذَوِي ٱلسَّمْتِ فَيُوهِمُ بِذٰلِكَ اَنَّهُ ذُو سَمْتٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْعَدِيمُ ٱلْحِسِّ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ اَنَّهُ عَفِيفٌ اِذْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ لَهُ فِعْلُ ٱلْعَفِيفِ بِٱلْعَرَضِ. وَكَذٰلِكَ

ٱلْمُتَهَوِّرُ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ اَنَّهُ شُجَاعٌ وَٱلسَّفِيهُ اَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا يُوهِمُ بِهِ اِنَّهُ نَقِيصَةٌ وَلَيْسَ بِنَقِيصَةٍ مَا يَعْرِضُ لِلْكَبِيرِ ٱلْهِمَّةِ مِنْ اَنْ يَتَجَافَى عَنِ ٱلْاُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ يَغْلَطُ وَيُخْدَعُ. وَٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ اِنَّمَا يَصْنَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ وَذٰلِكَ اَيْضًا فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يَحْسُنُ فِيهِ اَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُوهِمُ اَيْضًا هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ عَكْسَ هٰذَا. وَهُوَ اَنْ يُقَالَ فِي ٱلْمُخْدَعِ اِنَّهُ كَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ اَنْ يَكُونَ ٱلْمَرْءُ يُعْطِي اَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ اَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ لِاَنَّهُ يَظُنُّ اَنَّ شَرَفَ فَضِيلَةِ ٱلسَّخَاءِ هُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ لِلْكُلِّ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمَدْحُ بِحَضْرَةِ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ٱلْمَمْدُوحَ كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: اِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ اَهْلِ اَثِينَةَ بِاَثِينَا. وَيَنْبَغِي اَنْ يُمْدَحَ كُلُّ اِنْسَانٍ بِٱلَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَاَهْلِ مَدِينَتِهِ اِنْ كَانَ ذٰلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْمَدْحِ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مَدْحُ ٱلْاٰبَاءِ وَذِكْرُ مَاٰثِرِهِمُ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ وَمَدْحُ ٱلْمَرْءِ بِمَا تَسْمُو اِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ. وَاَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَٱلرَّجُلُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ ٱلَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهِمَّتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ يُمْدَحُ بِهٰذَيْنِ ٱلْاَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجٍ اَعْنِي بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤَمَّلُ اَنْ يَسْمُوَ نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ اَيِّ مَاْثُرٍ اَبْتَدَاَ مِنْ قِبَلِ آبَائِهِ وَاِلَى اَيِّ مَاْثُرٍ يَنْتَهِي مِنْ قِبَلِ هِمَّتِهِ. وَاَمَّا ٱلَّذِي لَا يَسْمُو بِهِمَّتِهِ اِلَى نَيْلِ اَكْثَرَ مِمَّا

حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلْمَرْتَبَةِ فَإِنَّمَا يُمْدَحُ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مِنْ خَارِجٍ بِآبَائِهِ فَقَطْ. وَكَأَنَّهُ يَرَى هَاهُنَا أَنَّ ٱلْمَدْحَ بِمَنَاقِبِ ٱلْآبَاءِ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُمْدَحَ بِفَضِيلَةِ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَا ... يَوْمًا عَلَى ٱلْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وَإِنَّهُ قَدْ يُقْتَصَرُ بِٱلْمَدْحِ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ دُونَ ذِكْرِ ٱلْآبَاءِ كَمَا قَالَ:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا

(قَالَ) وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلْمَدْحُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلْمَشِيئَةِ وَٱلْاِخْتِيَارِ فَإِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ وَٱلْاِخْتِيَارِ هُوَ ٱلْفِعْلُ ٱلْفَاضِلُ. وَٱلَّذِي يُمْدَحُ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْاِتِّفَاقِ أَوْ بِٱلْعَرَضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ لَهَا إِذَا ٱقْتَرَنَتْ بِٱلْفَضَائِلِ تَزْيِينًا لَهَا وَتَفْخِيمًا بِمَنْزِلَةِ ٱلْحَسَبِ ٱلْمُقْتَرِنِ إِلَى ٱلْفَضِيلَةِ وَجُودَةِ ٱلنَّجْتِ ٱلْمُقْتَرِنِ بِأَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِاتِّفَاقِ وَٱلْأَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَقْتَرِنُ بِٱلْعَرَضِ مَعَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ مَتَى تَكَرَّرَتْ مِرَارًا كَثِيرَةً عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى أَوْهَمَتْ أَنَّهَا بِٱلذَّاتِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ لَهَا ذَلِكَ ظُنَّ بِهَا أَنَّهَا عَلَامَةٌ لِلْفَضِيلَةِ مِثْلَ أَنْ يَخْجَلَ ٱلْإِنْسَانُ مِرَارًا كَثِيرَةً بِٱلِاتِّفَاقِ فِي مَوَاضِعَ يُمْدَحُ ٱلْخَجَلُ فِيهَا. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ ٱلْمَدِيحَ هُوَ قَوْلٌ يَصِفُ عِظَمَ ٱلْفَضِيلَةِ وَهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ هِيَ مِمَّا تَعْظُمُ بِهَا ٱلْفَضِيلَةُ. وَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ

على انها حدثت عن الرؤية. والاشياء التي بالاتفاق منها اشياء ليس الانسان سببها لا بالذات ولا بالعرض مثل الحسب والمنشإ الفاضل ومنها اشياء تعرض عن الافعال التي تكون عن الرؤية. فاما الاتفاقات الجيدة التي تعرض عن الافعال فتؤخذ علامة على الفضائل. واما الاتفاقات المتقدمة على الانسان فتؤخذ في تقرير الفضيلة وتثبيتها مثل ما يقال في المدح: ان الخيار يولد في الخيار. وفي الذم: ان الحية تلد الحية. والافعال بالجملة هي التي عليها يحمد الفاعل. واما آثار الافعال فهي دلائل على الفعل وانما يمدح بها اذا اثبتنا منها الفعل

(قال) وجودة النجت التي قيل فيما تقدم انها السعادة على ما يراه الجمهور هي وسائر الاشياء الاتفاقية التي يمدح بها واحدة في الجنس وليست هي والفضائل واحدة بالجنس بل كما ان صلاح الحال جنس للفضيلة اعني محيطا بها كذلك ما يحدث بالاتفاق جنس يحيط بالسعادة. وهذان الجنسان اعني الفضائل وما بالاتفاق يدخلان جميعا في باب المدح وفي باب المشورة لكن من جهتين مختلفتين. وانما كان الامر كذلك لانا اذا عرفنا الاشياء التي يجب ان تفعل فقد عرفنا الاشياء التي اذا فعلت مدح بها الانسان. ولذلك اذا ذكرت هذه الاشياء ذكرا مطلقا امكن ان تدخل في المشورة وفي المدح وذلك بزيادة الجهة التي بها تدخل في المشورة او الجهة التي بها تدخل في المدح. وذلك مثل ما يقول القائل

انه ليس ينبغي ان يوجب العظم والفضل للاشياء التي تكون للانسان بالعرض بل للاشياء التي تكون عن رويته واختياره. فاذا زيد الى هذا. فلذلك ليس ينبغي ان يمدح الذين سعادتهم بالبخت وانما ينبغي ان يمدح الذين سعادتهم عن رويه واختيار كفلان كان داخلا في باب المدح. واذا زيد الى هذا فلذلك لا ينبغي ان تطلب الاشياء التي تكون عن الاتفاق بل الاشياء التي تكون عن الروية دخل في المشورة. والاشياء الاتفاقية قد يمكن ان تستعمل في المديح تارة وفي الذم اخرى. فان ظنون الناس فيها مختلفة فان قوما يرون ان الخيرات التي تكون بالاتفاق ليس ينبغي ان يمدح بها اذ كانت شيئا غير محصل ولا مكتسب للانسان. وقوم يرون انه يجب ان يمدح بها وانها تدل على عناية الهية بالذي تعرض له واما الاشياء التي عن الاختيار فالممدوح منها يمدح به ابدا والمذموم منها يذم به ابدا

(قال) وينبغي ان يستعمل في المدح الاشياء التي يكون بها تعظيم الشيء وتشبيته وهو ان يخيل في الشيء انه بالقوة اشياء كثيرة. وذلك اذا قيل انه اول من فعل هذا كما قيل في قصة هابيل وقابيل. او انه وحده فعل هذا. او انه فعل في زمان يسير ما شأنه ان يفعل في زمان كثير. او انه فعل فعلا كبيرا. فان هذه كلها انما تفيد عظم الفعل. وكذلك اذا قيل انه فعل في زمان يعسر فعله. وذلك اذا كان بحسب ما يشاكل انسانا

انسانا. ثم انه ان كان الفاعل ممن يقتدى به في افعاله واقواله مرارا كثيرة فان فعله عظيم كما قيل: انكم ايها الرهط ائمة يقتدى بكم. والافعال التي يقتدى بها ليست هي الافعال التي تكون بالاتفاق بل الافعال التي تكون عن المشئة والروية. وهذه الاشياء قد يمكن ان تدخل في المشورة اعني الاشياء التي تعظم الشيء مثل ان يشار على المرء ان يتشبه بالممدوح الاول في ذلك الجنس او يتشبه به في المدح او يشار عليه ان يكون من جملة الممدوحين الذين لا ينازع احد في حمدهم. مثل الذين يمدحون في الاسواق او يتشبه بهم في المدح. ومما يعظم الممدوحين ان يقاسوا بالذين يفعلون اضداد افعالهم وذلك عند ذكر افعالهم الفاضلة

(قال) والذين شأنهم ان يتشبهوا بالممدوحين الذين في الغاية ويقايسوا انفسهم معهم دائما فقد ينبغي ان يشبهوا بأولائك وان يجروا مجراهم في المدح وان لم يكونوا وصلوا مراتبهم. فان فضائلهم في نمو دائم. ومقايسة الانسان نفسه مع غيره لا تصح الا من الرجل الفاضل لموضع حب الانسان لنفسه فهو يرى نقائصه اقل من نقائص غيره وان كانت اعظم. ويرى فضائله اكثر وان كانت اصغر ولذلك ليس كل احد يستطيع المقايسة وانما يستطيعها الفضلاء من الناس مثل ما حكى ارسطو عن سقراط انه كان يقايس بينه وبين غيره ويجري الاحكام

عَلَى اَخْلَاقِ نَفْسِهِ. بِمَعْنَى اَنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَاِنْ وَجَدَ فِيهِ فَضِيلَةً اَثَابَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَاِنْ وَجَدَ فِيهِ رَذِيلَةً عَاقَبَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا. وَاَلْمُقَايَسَةُ اَلنَّافِعَةُ لِمَنْ يُرِيدُ اَنْ يَتَزَيَّدَ فِي اَلْفَضَائِلِ اِنَّمَا يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ بِاَلْمَمْدُوحِينَ جِدًّا. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ اَمْثَالَ هٰؤُلَاءِ مَمْدُوحُونَ اَعْنِي اَلَّذِينَ فَضَائِلُهُمْ فِي نُمُوٍّ دَائِمٍ اَنَّ اَلَّذِينَ اَجْهَدُوا اَنْفُسَهُمْ فِي اَنْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ اَلْفَاضِلِينَ فَعَجَزُوا عَنْ ذٰلِكَ فَهُمْ مَمْدُوحُونَ عِنْدَ اَلْجُمْهُورِ. وَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ تَعْظِيمَ اَلشَّيْءِ دَاخِلٌ فِي اَلْمَدْحِ. فَاِنَّ اَلتَّعْظِيمَ لِلشَّيْءِ تَشْرِيفٌ لَهُ وَاَلتَّشْرِيفُ مِنَ اَلْاُمُورِ اَلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. وَيَنْبَغِي اِذَا اُرِيدَ اَلتَّعْظِيمُ بِاَلتَّشْبِيهِ اَنْ يُشَبَّهَ بِكَثِيرٍ مِنَ اَلْمَحْمُودِينَ فَاِنَّ فِي هٰذَا اَلْفِعْلِ تَشْرِيفًا لِلْمَمْدُوحِ وَدَلَالَةً لِلْجُمْهُورِ عَلَى فَضِيلَتِهِ. وَجُمْلَةُ اَلْقَوْلِ فِي اَلْاَنْوَاعِ اَلْمُشْتَرَكَةِ لِاَجْنَاسِ اَلْاَقَاوِيلِ اَلثَّلَاثَةِ اَنَّ اَلتَّعْظِيمَ وَاِنْ كَانَ مُشْتَرَكًا لِاَجْنَاسِ اَلْاَقَاوِيلِ اَلْخُطَبِيَّةِ اَلثَّلَاثَةِ فَهُوَ اَخَصُّ بِاَلْمَدْحِ وَاَلذَّمِّ. لِاَنَّهُ اِنَّمَا يُمْدَحُ اَلْاِنْسَانُ اَوْ يُذَمُّ بِاَلْاَشْيَاءِ اَلْمَوْجُودَةِ اَلْمُعْتَرَفِ بِوُجُودِهَا. وَتَعْظِيمُ اَلشَّيْءِ اَخَصُّ بِاَلْمَوْجُودِ مِنْهُ بِاَلْمَعْدُومِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ اَنْ يَصِفَ جَلَالَةَ اَلشَّيْءِ وَبَهَاءَهُ وَزِينَتَهُ. وَاَمَّا اَسْتِعْمَالُ اَلْعَلَامَاتِ وَاَلْمِثَالَاتِ فَهُوَ اَخَصُّ بِاَلْمَشُورَةِ لِاَنَّ مِنَ اَلْاُمُورِ اَلْمُتَصَرَّمَةِ اَلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ يُحْدَسُ عَلَى اَلَّتِي سَتَكُونُ وَاِعْطَاءُ اَلسَّبَبِ وَاَلْعِلَّةِ مِنَ اَلْاَشْيَاءِ اَلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ نَحْنُ لَهُ اَكْثَرُ قَبُولًا وَتَعْظِيمًا لِاِنْقِضَائِهِ وَتَصَرُّمِهِ. وَاَمَّا مَعْرِفَةُ اَلْعَدْلِ وَاَلْجَوْرِ فَهُوَ خَاصٌّ بِاَلْمُشَاجَرِيَّةِ. وَبِاَلْجُمْلَةِ فَجَمِيعُ اَلْمَدْحِ

وَالذَّمِّ. اِنَّمَا يَكُونُ بِالْمُقَايَسَةِ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ الْمَحْمُودِينَ وَالْمَذْمُومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَالذَّامِّ اَنْ يَعْلَمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَكُونُ الْمَدْحُ اَوِ الذَّمُّ اَعْنِي اَنْ يَمْدَحَ بِحَضْرَةِ الْاَصْدِقَاءِ وَيَذُمَّ بِحَضْرَةِ الْاَعْدَاءِ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَعْلَمَ الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَاْخُذُ مِنْهَا الْمَدْحَ وَالذَّمَّ وَهِيَ الَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ الْفَضَائِلُ وَفَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَاَعْرَاضُهَا وَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حُدُودِ هٰذِهِ الْاَشْيَاءِ تُعْرَفُ حُدُودُ اَضْدَادِهَا اِذْ كَانَ الضِّدُّ يُعْرَفُ مِنْ ضِدِّهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهانئ

(من كتاب صناعة الترسل)

اِنَّ التَّهَانِيَ لَيْسَ فِيهَا اِلَّا بَسْطُ الْكَلَامِ وَالْاِطْنَابُ فِي شُكْرِ نِعَمِ اللهِ وَالتَّبَرِّؤُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ اِلَّا بِهِ وَوَصْفُ مَا اُعْطِيَ مِنَ النَّصْرِ وَنُجْحَ مِنَ الثَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسِّرَ مِنَ الْفَتْحِ ثُمَّ مَا وُصِفَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمٍ وَاِقْدَامٍ وَصَبْرٍ وَجَلَدٍ عَنِ الْمَلِكِ وَعَنْ جَيْشِهِ حَسُنَ وَصْفُهُ فَلَاقَ ذِكْرُهُ وَرَاقَ التَّوْسِيعُ وَعَذُبَ بَسْطُ

ٱلْكَلَامِ فِيهِ فَإِنَّهُ مُتَرَتِّبٌ عَلَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ نِسْبَةِ ٱلنَّصْرِ إِلَى وَاهِبِهِ وَٱلْجَلَدِ إِلَى مُعْطِيهِ وَٱلثَّبَاتِ إِلَى ٱلْمُوَفِّقِ لَهُ ثُمَّ كُلَّمَا ٱتَّسَعَ مَجَالُ ٱلْكَلَامِ فِي ذِكْرِ ٱلْمُوَافَقَةِ وَوَصْفِهَا كَانَ أَحْسَنَ وَأَدَلَّ عَلَى ٱلْبَلَاغَةِ وَأَدْعَى لِسُرُورِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِ ٱلنِّعْمَةِ عِنْدَهُ وَأَشْهَى إِلَى سَمْعِهِ وَأَشْفَى لِغَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْحَالِ عَلَى جَلِيَّتِهِ وَلَا بَأْسَ بِتَهْوِيلِ أَمْرِ ٱلْعَدُوِّ وَوَصْفِ جَمْعِهِ وَإِقْدَامِهِ فَإِنَّ فِي تَصْغِيرِ أَمْرِهِ تَحْقِيرَ ٱلظَّفَرِ بِهِ

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسه)

ٱلْأَحْسَنُ مِنْهَا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَتُعْتَبَرُ كَثْرَتُهُ وَقِلَّتُهُ بِحَسَبِ ٱلرُّتَبِ وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهَا أُمُورٌ مِنْهَا بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ بِذِكْرِ ٱلرُّتْبَةِ أَوِ ٱلْحَالِ وَقَدْرِ ٱلنِّعْمَةِ أَوْ لَقَبِ صَاحِبِ ٱلتَّقْلِيدِ أَوِ ٱسْمِهِ لَا يَكُونُ ٱلْمُطَّلِعُ أَجْنَبِيًّا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا بَعِيدًا مِنْهَا وَلَا مُبَايِنًا لَهَا ثُمَّ يَسْتَضْحِبُ مَا يُنَاسِبُ ٱلْغَرَضَ وَيُوَافِقُ ٱلْمَقْصَدَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ مُنْقَسِمًا فِي ٱلتَّقْلِيدِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَقَارِبَةِ ٱلْمَقَادِيرِ فَٱلرُّبْعُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْخُطْبَةُ وَٱلثَّانِي ذِكْرُ مَوْقِعِ ٱلْإِنْعَامِ فِي حَقِّ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرُ ٱلرُّتْبَةِ وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا

وَالثَّالِثُ فِي أَوْصَافِ الْمُقَلَّدِ وَذِكْرِ مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ الرُّتْبَةَ وَيُنَاسِبُ حَالَهُ مِنْ عَدْلٍ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُمْعَةٍ وَشَجَاعَةٍ إِنْ كَانَ نَائِبًا وَوَصْفِ الْعَدْلِ وَالرَّأْيِ وَحُسْنِ التَّدْبِيرِ وَالْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ الْأَقْوَالِ وَعِمَارَةِ الْبِلَادِ وَصَلَاحِ الْأَحْوَالِ وَمَا يُنَاسِبُ ذٰلِكَ إِنْ كَانَ وَزِيرًا وَكَذٰلِكَ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ بِحَسَبِهَا. وَالرَّابِعُ فِي الْوَصَايَا وَهٰذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى الْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ فَلَا يُعْطِي أَحَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يَصِفُهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ وَيُرَاعِي أَيْضًا مِقْدَارَ النِّعْمَةِ وَالرُّتْبَةِ فَيَكُونُ وَصْفُ الْمِنَّةِ بِهَا عَلَى مِقْدَارِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا أَنْ لَا يَصِفَ الْمُتَوَلِّيَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِالْمَعْذُولِ وَتَنْقِيصٌ لَهُ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُوغِرُ الصُّدُورَ وَيُورِثُ الضَّغَائِنَ فِي الْقُلُوبِ وَيُدِلُّ عَلَى ضَعْفِ الْآرَاءِ فِي اخْتِيَارِ الْأَوَّلِ وَلَهُ أَنْ يَصِفَ الثَّانِيَ بِمَا يَحْصُلُ بِهِ الْمَقْصُودُ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيضٍ بِالْأَوَّلِ وَمِنْهَا أَنَّ يَتَخَيَّرَ الْكَلَامَ وَالْمَعَانِيَ فَإِنَّهُ مِمَّا يُشِيعُ وَيُذِيعُ وَلَا يُعْذَرُ الْمُقَصِّرُ فِي ذٰلِكَ بِعَجَلَةٍ وَلَا ضِيقٍ فَإِنَّ مَجَالَ الْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَّسِعٌ وَالْبَلَاغَةُ تَظْهَرُ فِي الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ وَالْأَمْرُ الْجَارِي فِي ذٰلِكَ عَلَى الْعَادَةِ مَعْرُوفٌ وَفِي أَيْدِي النَّاسِ مِمَّا كُتِبَتْ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لٰكِنْ تَقَعُ أَشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنِ الْعَادَةِ فَيَحْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَى التَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ

البحث الثالث

في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البدائه والعقد الفريد)

قِيلَ اِنَّ ٱلِارْتِجَالَ فِي ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلِانْصِبَابِ وَٱلسُّهُولَةِ وَمِنْهُ قِيلَ : شَعْرٌ رَجَلٌ اِذَا كَانَ سَبْطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَضٍ. وَقِيلَ مِنِ ارْتَجَلَ ٱلْبِئْرَ وَهُوَ اَنْ يَنْزِلَهَا ٱلرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ فَكَاَنَّهُمْ شَبَّهُوا ٱقْتِدَارَ ٱلشَّاعِرِ عَلَى ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا اُهْبَةٍ بِٱقْتِدَارِ نَازِلِ ٱلْبِئْرِ عَلَى ٱلنُّزُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ وَلَا آلَةٍ. وَٱلْبَدِيهَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدَهُ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ اَبْدَلُوا ٱلْهَمْزَةَ هَاءً لِقُرْبِهَا مِنْهَا كَمَا قَالُوا : لَهَنَكَ بِمَعْنَى لَاَنَكَ وَكَمَا اَبْدَلُوا ٱلْحَاءَ اَيْضًا بِٱلْهَاءِ لِقُرْبِهَا مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ. وَٱشْتِقَاقَا ٱلِارْتِجَالُ وَٱلْبَدِيهَةُ وَاِنْ كَانَا مُتَقَارِبَيْنِ اِلَّا اَنَّ اَهْلَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ ٱلْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ :

ٱلِارْتِجَالُ هُوَ اَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي اَوْحَى مِنْ خَطْفِ ٱلْبَارِقِ وَاَخْتِطَافِ ٱلسَّارِقِ وَاَسْرَعَ مِنِ ٱلْتِمَاحِ ٱلْوَامِقِ. وَنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ ٱلْمَارِقِ حَتَّى يُخَالَ مَا يُعْمَلُ مَحْفُوظًا اَوْ مَرْئِيًّا مَلْحُوظًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقَفِّيهِ وَتَنْفَرِدُ عِنْدَ ذٰلِكَ قَضِيَّةُ ٱلْحَالِ بِٱخْتِرَاعِ ٱلْوَزْنِ وَٱلْقَافِيَةِ وَهُمُ ٱلشُّهُودُ ٱلْعُدُولُ ٱلَّذِينَ يَجِبُ ٱلرُّجُوعُ

اليهم ولا يجوز عنهم العدول بالشهادة على استطاعته وان ذلك المنظوم ابن ساعته. والبديهة ان ينزل على هذه الطبقة قليلا ويفكر مقصرا لا مطيلا فان اطال ذو البديهة الفكرة انعكست القضية وخرجت من حد البديهة الى حد الروية وعند ذلك تقصر نهضة الاقتدار عن بلوغ ذلك المضمار اذ المرتجل والبادهة يقنع منهما بالردي اليسير ولا يقنع من المروي الا بالجيد الكثير وكفاك في ذكرهما قول ابن المعتز:

والفكر قبل القول يؤمن زيغه شتان بين روية وبديه

وقول ابن جريج:

نار الروية نار تلقى شنجة وللبديهة نار ذات تلويح
وقد يفضلها قوم لعاجلها لكنها عاجل يمضي مع الريح

وحسبك بهرب امام الشعراء وفاتكهم من البديهة فما ظنك بالارتجال واذا كان عبد الله بن وهب الراسبي رئيس الخوارج في يوم النهروان يقول وهو البدوي الفصيح والعربي الصريح اياكم والرأي الغطير والكلام القضيب يقول هذا في مطلق الكلام وهو غير مقيد بوزن ولا قافية فكيف الظن بالمقيد بهما لعمري انه لمقام يجبن فيه الشجاع ويكذب فيه رائد الفكر في طلب الانتجاع.

قال محمد كاتب ابراهيم وكان شاعرا راويا وطالبا للنحو علامة قال: سمعت ابا داود وجرى شيء من ذكر الخطب وتمييز الكلام

فَقَالَ: تَلْخِيصُ ٱلْمَعَانِي رِفْقٌ وَٱسْتِعَانَةٌ بِٱلْغَرِيبِ عَجْزٌ وَٱلتَّشَادُقُ فِي غَيْرِ أَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ نَقْصٌ وَٱلنَّظَرُ فِي عُيُوبِ ٱلنَّاسِ عِيٌّ وَمَسُّ ٱللِّحْيَةِ هُلْكٌ وَٱلْخُرُوجُ مِمَّا بُنِيَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ إِسْهَابٌ (فَقَالَ) وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ رَأْسُ ٱلْخَطَابَةِ ٱلطَّبْعُ وَعَمُودُهَا ٱلدُّرْبَةُ وَحِلْيَتُهَا ٱلْإِعْرَابُ وَبَهَاؤُهَا تَخَيُّرُ ٱللَّفْظِ وَٱلصَّحَّةُ مَقْرُونَةٌ بِقِلَّةِ ٱلِٱسْتِكْرَاهِ وَأَنْشَدَنِي بَيْتًا فِي خُطْبَةِ إِيَادٍ

يُومُونَ بِٱللَّفْظِ ٱلْخَفِيِّ وَتَارَةً رَمْيَ ٱلْمَلَاحِظِ خِيفَةَ ٱلرُّقَبَاءِ

(وَقَالَ) ٱبْنُ ٱلْإِعْرَابِيِّ قُلْتُ لِلْفَضْلِ مَا ٱلْإِيجَازُ عِنْدَكَ قَالَ حَذْفُ ٱلْفُضُولِ وَتَقْرِيبُ ٱلْبَعِيدِ (وَتَكَلَّمَ) ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَوْمًا وَجَارِيَةٌ لَهُ تَسْمَعُ فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ لَهَا كَيْفَ سَمِعْتِ كَلَامِي قَالَتْ إِلَى أَنْ تُفْهِمَهُ مَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ مَلَّهُ مَنْ فَهِمَهُ

البحث الرابع

في خطب الوعاظة

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد

وزهر الاداب للحصري بتصرُّف)

قَالَ ٱبْنُ ٱلْجَوْزِيِّ فِي ٱلْمُنْتَخَبِ: لَمَّا كَانَتِ ٱلْمَوَاعِظُ مَنْدُوبًا إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ: فَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَى تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَقَوْلِهِ لِعُمَّالِهِ تَعَاهَدُوا ٱلنَّاسَ بِٱلتَّذْكِرَةِ. وَلِأَنَّ أَدْوَاءَ ٱلْقُلُوبِ تَفْتَقِرُ إِلَى أَدْوِيَةٍ كَمَا تَحْتَاجُ أَمْرَاضُ ٱلْبَدَنِ إِلَى مُعَالَجَةٍ أَلَّفْتُ فِي هٰذَا

ٱلفنّ كُتُبًا تَشتَمِلُ عَلَى أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَكَانَ ٱلسَّلَفُ يَقتَنِعُونَ مِنَ ٱلمَوَاعِظِ بِٱليَسِيرِ مِنْ غَيرِ تَحسِينِ لَفظٍ اَوْ زَخرَفَةِ نُطقٍ وَمَنْ تَأَمَّلَ مَوَاعِظَ ٱلحُسَينِ بنِ عَلِيٍّ وَغَيرِهِ مِمَّا اَشَرتُ اِلَيهِ. وَكَذٰلِكَ كَانَتْ ٱلفُقَهَاءُ فِي قَدِيمِ ٱلزَّمَانِ يَتَنَاظَرُونَ مِنْ غَيرِ مُعَارَضَةٍ فِي تَسمِيَةِ قِيَاسِ عِلَّةٍ اَوْ قِيَاسِ شَبَهٍ وَنَرجُو اَنْ يَكُونَ مَا اَخَذتُ مِنَ ٱلاَلفَاظِ وَٱلاَسَامِي لَا يَخرُجُ عَنْ مَرضَاةِ ٱلاَوَائِلِ وَلِذٰلِكَ مَا اَخَذتُ مِنَ ٱلعُلَمَاءِ ٱلمَذكُورِينَ مِنْ تَحسِينِ لَفظٍ اَوْ تَنمِيقِ وَعظٍ وَلَا يَخرُجُ مِنْ قَانُونِ ٱلجَوَادِ وَمَا ذَاكَ اِلَّا بِمَثَابَةِ جَمعِ ٱلقُرآنِ ٱلَّذِي اَبتَدَأَ بِهِ اَبُو بَكرٍ وَثَنَّى بِهِ عُثمَانُ فِي شَهرِ رَمَضَانَ وَاَذِنَ لِتَمِيمِ ٱلدَّارِي اَنْ يُقَصَّ وَمِثلُ هٰذِهِ لَا تُذَمُّ لِكَونِهَا اُبتُدِعَتْ اِذْ لَيسَتْ تَخَارِجُ عَنِ ٱلاَصلِ ٱلمَشرُوعِ. وَقَالَ ٱلحَسَنُ ٱلقَصصُ بِدعَةٌ كَمْ مِنْ اَخٍ يُستَفَادُ وَدَعوَةٍ تُستَجَابُ

قَالَ بَعضُ ٱلقُدَمَاءِ اِنَّ ٱلوَعظَ حَبلُ ٱللّٰهِ ٱلمَمدُودُ وَعَهدُهُ ٱلمَعهُودُ وَظِلُّهُ ٱلعَمِيمُ وَصِرَاطُهُ ٱلمُستَقِيمُ وَحُجَّتُهُ ٱلكُبرَى وَمَحَجَّتُهُ ٱلوُسطَى وَهُوَ ٱلوَاضِحُ سَبِيلُهُ ٱلرَّاشِدُ دَلِيلُهُ ٱلَّذِي مَنِ ٱستَضَاءَ بِمَصَابِيحِهِ اَبصَرَ وَنَجَا وَمَنْ اَعرَضَ عَنهُ ضَلَّ وَهَوَى حُجَّةُ ٱللّٰهِ وَعَهدُهُ وَوَعِيدُهُ وَوَعدُهُ بِهِ يَعلَمُ ٱلجَاهِلُ وَيَعمَلُ ٱلعَالِمُ ٱلعَامِلُ وَيَنتَبِهُ ٱلسَّاهِي وَيَتَذَكَّرُ ٱللَّاهِي بَشِيرُ ٱلثَّوَابِ وَنَذِيرُ ٱلعِقَابِ وَشِفَاءُ ٱلصُّدُورِ وَجَلَاءُ ٱلاُمُورِ مِنْ فَضَائِلِهِ اَنَّهُ يُقرَأُ دَائِمًا وَيُكتَبُ وَيُملَى وَلَا يُمَلُّ مَا اَهوَنَ ٱلدُّنيَا عَلَى مَنْ جَعَلَ ٱلدِّينَ اِمَامَهُ وَتَصَوَّرَ ٱلمَوتَ اَمَامَهُ قَالَ بَعضُ ٱلحُكَمَاءِ ٱلحِكمَةُ مُوقِظَةٌ لِلقُلُوبِ مِنْ سِنَةِ ٱلغَفلَةِ وَمُنقِذَةٌ لِلبَصَائِرِ مِنْ كَرَّةِ

ٱلْحَيْرَةِ وَمُحْيِيَةٌ لَهَا مِنْ مَوْتِ ٱلْجَهَالَةِ وَمُسْتَخْرِجَةٌ لَهَا مِنْ ضِيقِ ٱلضَّلَالَةِ
وَٱلْعِلْمُ دَوَاءٌ لِلْقُلُوبِ ٱلْعَلِيلَةِ وَمَشْحَذٌ لِلْأَذْهَانِ ٱلْكَلِيلَةِ وَنُورٌ فِي
ٱلظُّلْمَةِ وَأُنْسٌ فِي ٱلْوَحْشَةِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَسَمِيرٌ فِي ٱلْخَلْوَةِ
وَوُضْلَةٌ فِي ٱلْمَجْلِسِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَتَلْقِيحٌ لِلْفَهْمِ وَنَافٍ لِلْعِيِّ ٱلْمُزْرِي
بِأَهْلِ ٱلْأَحْسَابِ ٱلْمُقَصِّرِ بِذَوِي ٱلْأَلْبَابِ ٱنْطَقَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَهُ
بِٱلْبَيَانِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ صِفَةً لِكَلَامِهِ فِي تَنْزِيلِهِ وَأَيَّدَهُ رُسُلُهُ إِيضَاحًا
لِلْمُشْكِلَاتِ وَفَصْلًا بَيْنَ ٱلشُّبُهَاتِ شَرَّفَ بِهِ ٱلْوَضِيعَ وَأَعَزَّ بِهِ
ٱلذَّلِيلَ وَسَوَّدَ بِهِ ٱلْمُسَوَّدَ مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِهِ فَهُوَ مُعَطَّلٌ وَمَنْ تَعَطَّلَ مِنْهُ
فَهُوَ مُغَفَّلٌ لَا تُبْلِيهِ ٱلْأَيَّامُ وَلَا تَخْتَرِمُهُ ٱلدُّهُورُ يَتَجَدَّدُ عَلَى ٱلْإِبْتِذَالِ
وَيَذْكُو عَلَى ٱلْإِنْفَاقِ لِلهِ عَلَى مَنْ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْحَمْدُ وَٱلشُّكْرُ. قِيلَ
لِعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ مَا ٱلْبَلَاغَةُ قَالَ مَا بَلَّغَكَ ٱلْجَنَّةَ وَعَدَلَ بِكَ عَنِ ٱلنَّارِ
وَبَصَّرَكَ مَوَاقِعَ رُشْدِكَ وَعَوَاقِبَ عَمَلِكَ. قَالَ ٱلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا
أُرِيدُ قَالَ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْكُتَ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْتَمِعَ وَمَنْ لَمْ
يُحْسِنِ ٱلْإِسْتِمَاعَ لَمْ يُحْسِنِ ٱلْقَوْلَ قَالَ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ قَالَ: قَالَ
ٱلنَّبِيُّ إِنَّا مَعْشَرُ ٱلْأَنْبِيَاءِ فِينَا تَلَكَّأٌ أَيْ قِلَّةُ ٱلْكَلَامِ وَكَانُوا
يَكْرَهُونَ أَنْ يَزِيدَ مَنْطِقُ ٱلرَّجُلِ عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ ٱلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا
أُرِيدُ. قَالَ: كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلْقَوْلِ وَمِنْ سَقَطَاتِ ٱلْكَلَامِ
مَا لَا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلسُّكُوتِ وَسَقَطَاتِ ٱلصَّمْتِ. قَالَ: لَيْسَ هٰذَا
أُرِيدُ. قَالَ عَمْرٌو: يَا هٰذَا فَكَأَنَّكَ تُرِيدُ تَخْيِيرَ ٱللَّفْظِ فِي حُسْنِ ٱلْإِفْهَامِ.
قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّكَ إِنْ أَرَدْتَ تَقْرِيرَ حُجَّةِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُقُولِ

ٱلْمُكَلَّفِينَ وَتَخْفِيفَ ٱلْمُؤْنَةِ عَلَى ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَتَزْيِينَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي فِي قُلُوبِ ٱلْمُرِيدِينَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ فِي ٱلْآذَانِ ٱلْمَبْتُولَةِ عِنْدَ ٱلْأَذْهَانِ رَغْبَةً فِي سُرْعَةِ إِجَابَتِهِمْ وَنَفْيِ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ وَٱسْتَوْجَبْتَ مِنَ ٱللهِ جَزِيلَ ٱلثَّوَابِ

قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكَمُ ٱلْمَوَاعِظِ مَوَاعِظُ ٱللهِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ ٱلْعُبَّادِ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي ٱلزُّهْدِ وَرِجَالِهِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِهِ ثُمَّ ٱلْمَشْهُورِينَ مِنَ ٱلْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ وَٱلْمَوْعِظَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ مُسْتَخْرَجَةٌ عَلَى ٱلنَّفْسِ بَعِيدَةٌ مِنَ ٱلْقَبُولِ لِأَعْتِرَاضِهَا ٱلشَّهْوَةَ وَمُضَادَّتِهَا ٱلْهَوَى ٱلَّذِي هُوَ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ وَمُرَادُ ٱلرُّوحِ وَمَرْبَعُ ٱللَّهْوِ وَمَسْرَحُ ٱلْأَمَانِيِّ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَأَرْشَدَهُ قَلْبُهُ وَأَحْكَمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ. قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ عَنْ غَيِّهَا ... حَتَّى يُرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ

(وَقَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ) ٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَلَا يَعْنُونَ مَنْ وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلٰكِنْ مَنْ رَأَى ٱلْعِبَرَ فِي غَيْرِهِ فَٱتَّعَظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَلِذٰلِكَ كَانَ يَقُولُ ٱلْحَسَنُ: إِقْرَعُوا هٰذِهِ ٱلنُّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلَعَةٌ وَحَادِثُوهَا بِٱلذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ ٱلدُّثُورِ وَٱعْصُوهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ بَرَعَتْ فِي ٱلشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ ٱنْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَخَتْمِ مَوْعِظَتِهِ يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ لَوْ صَادَفَتْ مِنَ ٱلْقُلُوبِ حَيَاةً. وَكَانَ ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَقُولُ

اِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ : اَلسُّنَّ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَاَعْمَالٌ تُخَالِفُ .
وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ : لَوْ اُمِرْنَا بِالْجَزَعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلَ اَلْمَوْعِظَةِ عَلَى اَلسَّمْعِ وَجُنُوحَ اَلنَّفْسِ اِلَى مُخَالَفَتِهَا . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : (اَحَبُّ شَيْءٍ اِلَى اَلْاِنْسَانِ مَا مُنِعَا) . وَقَوْلُهُمْ : وَالشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يُمْتَنَعُ وَاَلْمَوْعِظَةُ مَانِعَةٌ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ اِلَّا اَنْ تَلْقَاهَا بِسَمْعٍ قَدْ فَتَّتَهُ اَلْعِبْرَةُ وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ اَلْفِكْرَةُ وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيُفْتَحُ لَكَ بَابُ اَلتَّوْبَةِ وَيُوَضَّحُ لَكَ سَبِيلُ اَلْاِنَابَةِ (قَالَ اَلنَّبِيُّ) حُفَّتِ اَلْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ اَلنَّارُ بِالشَّهَوَاتِ يُرِيدُ اَنَّ اَلطَّرِيقَ اِلَى اَلْجَنَّةِ اِحْتِمَالُ اَلْمَكْرُوهِ فِي اَلدُّنْيَا وَالطَّرِيقَ اِلَى اَلنَّارِ رُكُوبُ اَلشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ اَلْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ اِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ) اَلْكَلِمَةُ اِذَا خَرَجَتْ مِنَ اَلْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي اَلْقَلْبِ وَاِذَا خَرَجَتْ مِنَ اَللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ اَلْآذَانَ . وَقَالُوا مَا اَحْسَنَ اَلتَّاجَ . وَهُوَ عَلَى رَأْسِ اَلْمَلِكِ اَحْسَنُ . وَمَا اَحْسَنَ اَلدُّرَّ . وَهُوَ عَلَى نَحْرِ اَلْفَتَاةِ اَحْسَنُ وَمَا اَحْسَنَ اَلْمَوْعِظَةَ . وَهِيَ مِنَ اَلْفَاضِلِ اَلتَّقِيِّ اَحْسَنُ . (وَقَالَ زِيَادٌ) اَيُّهَا اَلنَّاسُ لَا يَمْنَعْكُمْ سُوءُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا اَنْ تَنْتَفِعُوا بِاَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا . قَالَ اَلشَّاعِرُ :

اِعْمَلْ بِقَوْلِي وَاِنْ قَصَّرْتُ فِي عَمَلِي
يَنْفَعْكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب الغصن الرطيب للمقري)

قَالَ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ فِي ٱلرَّوْضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ ٱلْعَزِيمَةِ وَهِيَ ٱلْيَقَظَةُ مَا نَصُّهُ قُلْتُ وَٱلْمُحَرِّكَاتُ ٱلْمُشْتَرِكَاتُ فِي بَاعِثِ ٱلْيَقَظَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا ٱلْوَعْظُ ٱلسَّائِقُ بِمِقْوَدِ ٱلشَّارِدِ عَنِ ٱللهِ تَعَالَى إِلَى مَرْبَطِ ٱلتَّوْبَةِ وَمُحَرِّكُ ٱلْعَزِيمَةِ يُرَدِّدُ آذَانَهُ عَلَى نُوَّامِ أَهْلِ ٱلْكَهْفِ وَقَدْ ضُرِبَ نَوْمُ ٱلْغَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرْكِبَهُمْ ظَهْرَ ٱلرِّيَاضَةِ حَتَّى تَلْحَقَهُمْ بِٱلْجَاذُوبِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ ٱلدُّنْيَا هُوَ ٱلْمَانِعَ عَنِ ٱلشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ ٱلْعَمَلِ وَٱلْقَاطِعَ بِهِ لِمَا بَعْدَهُ لَمْ يَجِدْ إِسَاءَةَ خَبَلِ ٱلْهَوَى وَجُنُونَ ٱلْكَسَلِ أَنْجَعَ مِنْ وَقْيِ ٱلْعَذْلِ وَٱلتَّأْنِيبِ وَتَقْبِيحِ ٱلْمَحْبُوبِ سِيَّمَا إِذَا ٱتْرَعَجَتْ نِبَالُ نَبْلِهِ عَنْ حَنِيَّاتِ ضُلُوعِ ٱلصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ ٱلْقَلْبِ دَخَلَ ٱلْقَلْبَ أَوْقِدِ ٱلنَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى وَٱحْذَرِ ٱلسَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي

وَلَا تَعْدِلِ ٱلْوَعْظَ ٱلْبَلِيغَ بِٱللِّسَانِ ٱلْفَصِيحِ وَٱلْقَلْبِ ٱلْقَرِيحِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْأَرْضَ قَدِ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَهَضَابَ ٱلْقُلُوبِ ٱلْقَاسِيَةِ قَدْ تَقَلَّبَتْ فَشَمِّرْ لِلْغِرَاسِ وَٱلزِّرَاعِ عَنِ ٱلذِّرَاعِ وَٱغْتَنِمِ ٱلسِّرَاعَ وَٱلْإِسْرَاعَ

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَٱغْتَنِمْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَا

وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

حَفِّرْ لَهَا مَاءً يُرِيهَا بِدَاءَةً وَٱضْمَنْ لَهَا حَوْضًا وَإِنْ لَمْ تُحْفَرِ
وَٱرْبَأْ بِنَفْسِكَ عَنْ تَسَامُحِ بَائِعٍ وَٱغْنَمْ إِذَا سَامَتْكَ ثَهْوَةُ مُشْتَرِي

قَالُوا ٱلْوَعْظُ يَضْرِبُ وَجْهَ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلتَّبَسُّطِ فِي بِسَاطِ ٱللَّذَّاتِ وَيَنْقُلُ خَطَرَاتِهَا عَنِ ٱلْخَطْوِ فِي مَلْعَبِ ٱلْخَطِيئَاتِ وَيُمَثِّلُ لَهَا ٱلصَّبْرَ عِيَانًا وَيُبَيِّنُ ٱلْعَوَاقِبَ ٱلْمُحْمَدَةَ بَيَانًا وَيُنْشِيءُ سَحَابَ ٱلْحُزْنِ فِي أَجْوَافِ أَجْزَائِهَا وَيُذَكِّرُهَا بِآلِهَا وَٱنْتِهَائِهَا وَيُعْرِضُ عَنْ مَصَارِعِ فَنَائِهَا وَخَرَابِ بِنَائِهَا وَفِرَاقِ حَبَائِبِهَا وَأَبْنَائِهَا عِنْدَ تُزُولِ هَادِمِ ٱللَّذَّاتِ بِفِنَائِهَا فَتَرْجِعُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى بِحُكْمِ ٱلِٱضْطِرَارِ أَفْكَارُهَا وَتَخْشَعُ مِنْ خِيفَةِ ٱللهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ أَبْصَارُهَا وَٱلْوَعْظُ يَكُونُ بِلِسَانَيْنِ وَيُوجَدُ فَنَيْنِ لِسَانَ حَالٍ وَلِسَانَ مَقَالٍ وَرُبَّمَا كَانَ لِسَانُ ٱلْحَالِ أَبْلَغَ وَهُوَ يُسْمَعُ مِنَ ٱلْقُبُورِ ٱلْمُوحِشَةِ وَٱلْقُصُورِ ٱلْخَالِيَةِ وَٱلْعِظَامِ ٱلْبَالِيَةِ وَفِيهِ حِكَايَاتٌ وَأَخْبَارٌ. وَلِسَانُ مَقَالٍ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَهُوَ سَبِيلُ ٱللهِ تَعَالَى ٱلَّتِي بَعَثَ بِهَا ٱلنَّبِيِّينَ وَضَمَّنَ فُصُولَهَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُبِينَ وَٱلسَّوْطَ ٱلَّذِي يُحْمَلُ عَلَى ٱلْأَوْبَةِ وَيُسَاقُ دَوْدَ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ إِلَى غَدِيرِ ٱلتَّوْبَةِ وَنَحْنُ نَجْعَلُهُ هَيْنَمَةً بَيْنَ يَدَيِ ٱلْفِرَاسَةِ لِتَذْكِيَةِ ٱلنُّفُوسِ إِنْ صَدَقَ حُكْمُ ٱلْفِرَاسَةِ مِنْ ذَاكَ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا صَدَرَ عَنِّي عَلَى لِسَانِ وَاعِظٍ

البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم الثمان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مَوْضِعًا لِلسَّهْوِ وَٱلنِّسْيَانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهُولِ وَٱلْغَفْلَةِ لِمَا يَعْتَوِرُهُ وَيَكْتَنِفُهُ مِنَ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلَّتِي بِٱتِّبَاعِهَا وَٱلْإِنْقِيَادِ مَعَهَا يَدْخُلُ ٱلِٱخْتِلَالُ عَلَى ٱلنِّظَامِ ٱلْكُلِّيِّ وَٱلْمَصْلَحَةِ ٱلْعَامَّةِ ثُمَّ يَسْرِي بِغَايَةِ ٱلسُّرْعَةِ إِلَى ٱلنِّظَامَاتِ ٱلْجُزْئِيَّةِ وَٱلْمَصَالِحِ ٱلْخَاصَّةِ فَيُضِجُّ ٱلْغَنِيُّ فَقِيرًا وَٱلْقَادِرُ عَاجِزًا وَٱلشُّجَاعُ جَبَانًا وَٱلذَّكِيُّ غَبِيًّا وَٱلْفَطِنُ بَلِيدًا وَيَصِيرُ أَنَمُّ ٱلْبَهَائِمِ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنَمِّ ٱلْأُنَاسِيِّ بَلْ كَانَتِ ٱلْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا مَوْضِعَ قَوْلِهِ: إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا. تَعَيَّنَ أَنْ يَصْحَبَهُ مُذَكِّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُسْتَمِرٌّ يَهْدِيهِ إِلَى قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ وَجَادَّةِ ٱلْمَحَجَّةِ كُلَّمَا جَارَتْ بِهِ ٱلْخَيَالَاتُ ٱلْفَاسِدَةُ وَٱلْوَسَاوِسُ ٱلرَّدِيَّةُ. وَلِتَحْصِيلِ ذٰلِكَ وَرَدَ ٱلْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ. فَقَدْ أَبَانَ أَنْ لَا صَلَاحَ لِلْكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دُعَاءَ ٱلنَّاسِ لِلْخَيْرِ وَصَرْفَهُمْ عَنْ نَاحِيَةِ ٱلشَّرِّ وَأَمْرَهُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. وَنَوَّهَ بِمِقْدَارِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ إِذَا وُجِدَتْ وَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِهَا وَفَضْلِ مَكَانِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا مُخْتَصَّةً بِٱلْفَلَاحِ

وَٱلْفَوْزِ بِحَقِيقَةِ ٱلسَّعَادَةِ إِذْ قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا يَعُمُّ ٱلصَّلَاحُ فَيَصِيرُ فَلَاحُهَا أَصْلًا لِفَلَاحِ سِوَاهَا فَٱسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ فِيهَا بِعِبَارَةِ ٱلتَّخْصِيصِ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَإِنَّمَا يُمْكِنُ تَأْدِيَةُ تِلْكَ ٱلْوَظِيفَةِ وَٱلْقِيَامُ بِهَا حَقَّ ٱلْقِيَامِ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نُفُوسُهُمْ وَتَنَقَّتْ طِبَاعُهُمْ وَتَهَذَّبَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ عُقُولُهُمْ وَصَحَّتْ أَفْهَامُهُمْ وَرَجَحَتْ أَحْلَامُهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هِمَمُهُمْ وَعَرَفُوا أَجْنَاسَ ٱلْخَيْرِ وَأَحَاطُوا بِأَنْوَاعِهِ وَمَيَّزُوهَا مِنْ أَصْنَافِ ٱلشَّرِّ فَرُبَّمَا ٱشْتَبَهَ ٱلْحَالُ وَتَمَثَّلَ كُلٌّ فِي صُورَةِ ٱلْآخَرِ وَلَوْلَا ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمْيِيزُ ٱلْخَيْرِ مِنَ ٱلشَّرِّ أَمْرًا عَسِرًا إِذْ كَانَ ٱلْأَسَاسُ ٱلضَّرَرَ وَٱلنَّفْعَ وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَجْهَلُهُمَا وَلٰكِنْ رُبَّ ضَارٍّ فِي ٱلْحَالِ نَافِعٌ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ خَيْرًا وَرُبَّ نَافِعٍ فِي ٱلْحَالِ ضَارٌّ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا ٱجْتَمَعَتِ ٱلْمَضَرَّةُ وَٱلْمَنْفَعَةُ وَٱسْتَوَتَا أَوْ غَلَبَتْ إِحْدَاهُمَا وَمِنْ هُنَا ثَبَتَ ٱلِٱحْتِيَاجُ لِوُجُودِ أُمَّةٍ تُفَرِّغُ أَنْفُسَهَا لِلِٱشْتِغَالِ بِذٰلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ أَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظُ ٱلنَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ لِتَدْعُوَهُمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَتَأْمُرَهُمْ بِمَا عَرَفَتْهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا أَنْكَرَتْهُ وَعَرَفَتْهُ شَرًّا تَنْصَحُهُمْ بِٱلْتِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَأَكْثَرُ ٱلْمَنَافِعِ وَٱلْمَضَارِّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يَخْتَلِفُ بِٱلنَّاسِ عِلْمُهُ حَتَّى قِيلَ إِنَّ ٱلدِّينَ أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ ٱلطِّبَاعُ وَتَدْفَعُ إِلَيْهِ ٱلْفِطْرَةُ وَلٰكِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِغَلَبَةِ هَوَاهُ قَدْ يُبِيحُ لِنَفْسِهِ مَا يَحْكُمُ عَقْلُهُ بِمَنْعِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ ٱسْتِقْبَاحَهُ أَلَا تَرَى إِلَى ٱلسَّارِقِ وَٱلْغَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَ

بِغَيْرِهِ مَا لَا يَسْتَجِيزُ اَنْ يَفْعَلَهُ بِهِ غَيْرُهُ. فَمَتَى سُرِقَ مَالُهُ اَوِ اغْتُصِبَ مِنْهُ وَجَدَ بِذٰلِكَ فِي قَلْبِهِ حَرَارَةً وَفِي نَفْسِهِ ضِيقًا وَتَشَوَّشَ فِكْرُهُ وَاخْتَلَّتْ حَالُهُ وَبَطَلَ نِظَامُ سَيْرِهِ. وَهُوَ لَا يُرِيدُ ذٰلِكَ. بَلْ يُرِيدُ اَنْ يَدُومَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ طَيِّبَ النَّفْسِ مُسْتَقِيمَ الْاَحْوَالِ. فَهُوَ يَحْكُمُ بِقُبْحِ ذٰلِكَ وَحُسْنِ هٰذَا. وَاِنْ كَانَ لَا يُعَبِّرُ عَنْ ذٰلِكَ لِقُصُورِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْاَلْفَاظِ بِالْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ. وَاِلٰى ذٰلِكَ الْمَعْنَى الْاِشَارَةُ بِقَوْلِهِ الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا اُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ. وَعَلٰى هٰذِهِ الْاُمَّةِ اَنْ تَعْرِفَ الْمُتَجَدِّدَاتِ الزَّمَانِيَّةَ لِتَكُونَ اَعْمَالُهَا مُطَابِقَةً لِلْاَحْوَالِ الْحَاضِرَةِ. فَرُبَّ اَمْرٍ يَكُونُ خَيْرًا فِي عَصْرٍ فَيُضْحِي شَرًّا فِي غَيْرِهِ. وَهَلْ هٰذِهِ الْاُمَّةُ كَائِنَةٌ اَوْ كَانَتْ. لَا اُثْبِتُ ذٰلِكَ وَلَا اَنْفِيهِ حَتّٰى اُفَاوِضَكَ الْحَدِيثَ فِيهِ. اِنْ قُلْتَ هٰذِهِ الْاُمَّةُ مُتَحَقِّقَةٌ فِي خُطَبَاءِ الْمَنَابِرِ. قُلْتُ لَكَ: اَتُرِيدُ بِهِمْ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَاهُمْ وَتَسْمَعُهُمْ وَهُمْ اِنَّمَا تَمَيَّزُوا عَنْ آخِرِ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْ قِرَاءَةِ نَوْعٍ مِنْ اَنْوَاعِ الْخَطِّ. فَغَايَةُ اَمْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ اَنْ يَقْرَأَ دِيوَانَ خُطَبٍ صَنَّفَهُ بَعْضُ اَسْلَافِهِ كَمَا تَخَيَّلَ مُنَاسِبًا لِلشُّهُورِ وَالْمَوَاسِمِ فَيَتَحَفَّظُ مَا تُعْطِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ مِنْ مَوَادِّ الْاَلْفَاظِ. اَوْ يَنْسَخُ صُورَةَ خُطْبَةٍ لِيَخِفَّ حَمْلُهَا عَلَيْهِ اِذَا قَامَ بِهَا خَطِيبًا. يَسْرُدُ اَلْفَاظًا حَفِظَهَا اَوْ نَظَرَ حُرُوفَهَا لَا يَعْقِلُ مَعْنَاهَا وَلَا يَفْهَمُ الْمُرَادَ مِنْهَا. كَمَا اِذَا لَمْ يَكُنِ الدِّيوَانُ مَشْكُولًا وَلَمْ يَقْرَإِ الْخُطْبَةَ عَلٰى ذِي دِرَايَةٍ سَمِعْتَ مِنْهُ الْمُعْجَبَ وَالْمُطْرِبَ مِنَ اللَّحْنِ الْفَاحِشِ وَالتَّصْحِيفِ الْقَبِيحِ. فَاِنَّ مِنْهُمْ

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ اَنْتِقَادَ السَّامِعِينَ فَيَقْرَأُ الْخُطْبَةَ مِرَارًا عَلَى بَعْضِ اَهْلِ الْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ النُّطْقِ بِهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَصْحِيحِ الْحَدِيثِ اَخْبَرَامَا الْكَلَامِ النَّبِيِّ. وَرُبَّمَا قَرَأَهُ عَلَى رَجُلٍ يُقِيمُهُ لَهُ بِصِنَاعَةِ النَّحْوِ فَيَضِلَّانِ جَمِيعًا. اِذْ لَا عَمَلَ لِصِنَاعَةِ النَّحْوِ اِلَّا بَعْدَ فَهْمِ الْمَعْنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُبَالِي بِتَصْحِيحِ آيَةٍ وَلَا حَدِيثٍ. مَا اَظُنُّ اَنَّكَ تَسْتَجِيزُ اَنْ تَقُولَ اَرَدْتُ هٰؤُلَاءِ. فَاِنْ قُلْتَ اِنَّمَا اَرَدْتُ خُطَبَاءَ الْاَسْلَافِ قُلْتُ لَكَ: تَجَاوَزْ عَصْرَ النَّبِيِّ وَعَصْرَ اَصْحَابِهِ ثُمَّ اَقْرَأْ خُطَبَ الْخُلَفَاءِ وَنُوَّابِهِمْ فِي النَّوَاحِي ثُمَّ امْضِ فِي ذٰلِكَ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ وَعَصْرًا خَلْفَ عَصْرٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ اِلَى وَقْتِكَ هٰذَا تَجِدْ اَنَّ جَمِيعَ الْخُطَبِ يَدُورُ اَمْرُهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَاَلْفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ لَا تُجَاوِزُهَا. وَهِيَ التَّزْهِيدُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّرْغِيبُ فِي الْاٰخِرَةِ وَتَبْشِيرُ الْمُطِيعِ وَاِنْذَارُ الْعَاصِي. يُكَرِّرُونَ ذٰلِكَ كُلَّ جُمُعَةٍ وَكُلَّ مَوْسِمٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَالْتَحَقَ بِالْاُمُورِ الْمُعْتَادَةِ. اِنَّمَا يَسْمَعُ النَّاسُ اَصْوَاتًا ذَاتَ كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ اِقَامَةً لِذٰلِكَ الرَّسْمِ حَسْبَمَا يَصِلُ اِلَيْهِ فَهْمُ الْعَامَّةِ مِنْ اَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ هِيَ اِقَامَةُ الدِّينِ. وَفِي صِفَةِ خُطَبَاءِ الْعَصْرِ الثَّانِي بَعْدَ عَصْرِ النَّبِيِّ وَاَصْحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ:

وَذَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا اَفَاوِيقَ حَتَّى مَا يَدُرُّ لَنَا ثَعْلُ

وَالثَّعْلُ بِفَتْحِ اَوَّلِهِ اَوْ ضَمِّهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةٌ فِي اَطْبَاءِ النَّاقَةِ وَغَيْرِهَا تُشْبِهُ حَلَمَةَ الثَّدْيِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي الْعَادَةِ لَبَنٌ. وَلَا تَظُنَّ اَنِّي اَنْتَقِصُ بِذٰلِكَ خُطَبَاءَ الْعُصُورِ الْاُولَى فَاِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ

كِفَايَةَ ذٰلِكَ لِكَثْرَةِ اَهْلِ الْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَاكَ. وَبِالْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا كَانَ الْحَالُ فِي الْخَطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحَقُّقِ الدُّعَاءِ اِلَى الْخَيْرِ وَالْاَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَا تَكُونُ الْاُمَّةُ مُتَحَقِّقَةً بِخُطَبَاءِ الْمَنَابِرِ. وَاِنْ قُلْتَ: اِنَّهَا الْعُلَمَاءُ قُلْتُ: هٰذَا قَرِيبٌ وَلٰكِنْ تَنْظُرُ. اَمَّا عُلَمَاءُ الصَّدْرِ الْاَوَّلِ جَزَاهُمُ اللّٰهُ عَنِ الدِّينِ وَالْاُمَّةِ خَيْرًا فَكَانَ اشْتِغَالُهُمْ بِجَمْعِ الْاُصُولِ وَتَنْقِيَتِهَا مِنَ الدَّخِيلِ الَّذِي بَادَرَ بِاِدْخَالِهِ اَهْلُ النِّفَاقِ وَالزَّنْدَقَةِ لِاَغْرَاضٍ شَتَّى. مِنْهَا التَّشْكِيكُ فِي الدِّينِ. وَمِنْهَا الْتِمَاسُ مَا عِنْدَ الْمُلُوكِ وَمِنْهَا اِبْتِنَاءُ مَنْزِلَةٍ فِي قُلُوبِ الْعَامَّةِ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مَنْ قَرَأَ التَّوَارِيخَ وَتَاَمَّلَهَا. وَاجْتِهَادُهُمْ وَبَذْلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ الْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ اَحْكَامِ الْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفْرَضُ وَيُقَدَّرُ حَتَّى اِذَا وَقَعَتِ الْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَاَمْرًا كَافِيًا فِي اِنْفَاذِ اَعْمَالِهِمْ مَانِعًا لَهُمْ عَنْ رَاحَةِ اَبْدَانِهِمْ فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يُنَالُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ. وَاَمَّا مَنْ خَلَفَهُمْ فَكَانَ اِقْبَالُهُمْ عَلَى دَوَاوِينِ مَشَايِخِهِمْ يُهَذِّبُونَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيبَهَا وَيُوَضِّحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوْضِيحِ مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَخْرِيجًا عَلَى اُصُولِهِمِ الَّتِي قَرَّرُوهَا اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْاَعْمَالِ نَاظِمًا لَهُمْ فِي سِلْكِ سَلَفِهِمْ. فَكَانَ حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتٌ يَسْتَغِلُونَهُ فِي تَعَهُّدِ النَّاسِ وَدُعَائِهِمْ اِلَى الْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ الْاُمَّةِ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ خَلْفٌ اَتَّخَذُوا الْجَدَلَ شِرْعَةً وَالْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا. وَخَرَجَ بِهِمْ ذٰلِكَ

الى سباب ومشاتمة واحتقار قوم قوما ورجع بهم الى القدح في السلف وصار الاختلاف بين اهل المذاهب منشئا لعداوة ان لم تكن فوق العداوة بين اهل الاديان فليست دونها. فكثيرا ما كانت سببا لتجريد السيوف يقاتل بعضهم بعضا حتى دخل بينهم الحكام لاصلاحهم وكانوا هم الاولى بذلك. وهو حقهم الذي ما كان ينبغي ان يمكنوا منه غيرهم وصاروا احزابا يتحاز كل حزب الى ملك من ملوك النواحي وصارت المدائن بمنزلة المعاقل والحصون حتى دخل اهلها تحت نظر السياسة وقهرها وبدلت سيوف المنابر بقطع خشب في صورتها يتكئ عليها الخطباء حال صعودهم وهبوطهم. وآل امر العلماء الى كونهم طائفة من الطوائف المربوبة المسوسة تلحظ حركاتهم ارصاد الحكومة وتأخذهم عيونها منعا لتعدي بعضهم على بعض وحسما لمادة الشر بينهم. ولعبت بهم اهواء الملوك الحائرة الجهلة من التتر والديلم وغيرهم. ونشأ من ذلك مفاسد عظيمة منها تمكن كثير من الجهلة الذين امضوا صدور اعمارهم في اللهو واللعب دون فكرة في تحصيل سبب من اسباب المعيشة حتى دهمهم وقت الاحتياج لذلك من الانتساب الى العلم واهله فصنفوا كتبا ملأوها احاديث كاذبة وحكايات غير معقولة وروجوها على العامة واكلوا بها الخبز وخلطوا ما ليس من الدين به. فاي مفسدة اكبر من ذلك وليس له سبب الا افراق العلماء واهمالهم امر الرعاية. ولم يزل الاختلاف الذي هو منشأ تلك

ٱلعَدَاوَةِ مُسْتَتِرًا يُخْفِيهِ ٱلضَّعْفُ وَتُظْهِرُهُ ٱلْقُوَّةُ كَمَا تَرَى. فَهَلْ يَسُوغُ لَكَ بَعْدَ مَعْرِفَةِ هٰذَا اَنْ تَقُولَ اِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ. وَاِنْ قُلْتَ اِنَّهَا ٱلْوُعَّاظُ قُلْتُ هٰذَا اَقْرَبُ فَاِنَّ ٱلْوِعَاظَةَ كَانَتْ حِرْفَةً شَائِعَةً وَصِنَاعَةً فَاشِيَةً كَانَ اَهْلُهَا يَتَنَافَسُونَهَا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ اَخَذَ عَلَيْهَا ٱلرَّوَاتِبَ مِنْ بُيُوتِ ٱلْاَمْوَالِ وَاَكْثَرُهُمْ كَانَ يَلُمُّ بِهَا ٱلْقِطَعُ مِنَ ٱلْعَامَّةِ ٱلَّذِينَ يَحْضُرُونَ مَجَالِسَهُمْ. فَكَانَ ٱلْوَاعِظُ اِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ ٱلَّذِي اَعَدَّهُ لِذٰلِكَ ٱلْمَجْلِسِ بَسَطَ مِنْدِيلَهُ وَطَرَحَ فِيهِ كُلَّ مَا سَمَحَتْ بِهِ نَفْسُهُ

وَصُنِّفَتْ لِاَجْلِ ٱلْوِعَاظَةِ كُتُبٌ لَقَّبُوهَا بِٱلْمَجَالِسِ تَشْتَمِلُ عَلَى تَفْسِيرِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ ٱلتَّرْغِيبِ وَٱلتَّرْهِيبِ وَبَعْضِ اَحَادِيثَ صَحِيحَةٍ وَبَعْضِ اَشْعَارٍ وَحِكَايَاتٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَادِي. وَنُمُوذَجُ ذٰلِكَ مَا تَرَاهُ فِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحُسَيْنِيِّ بَعْدَ ٱلْعَصْرِ فِي رَمَضَانَ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَمَحْصُولُ تِلْكَ ٱلْكُتُبِ هُوَ مَحْصُولُ خُطَبِ ٱلْمَنَابِرِ. وَاِنْ كَانَ بَعْضُ اَهْلِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ وَهُمْ قَلِيلٌ كَانُوا مِنَ ٱلْفِطْنَةِ وَٱلذَّكَاءِ وَبَرَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَبَلَاغَةِ ٱلْعِبَارَةِ بِمَكَانٍ رَفِيعٍ. فَاِنَّ اَكْثَرَهُمُ ٱلْقُصَّاصُ ٱلْجَهَلَةُ ٱلَّذِينَ غَايَةُ اَمْرِ ٱلْوَاحِدِ مِنْهُمْ اَنْ يُلَفِّقَ اَحَادِيثَ يَضَعُهَا اَوْ وَضَعَهَا غَيْرُهُ يُفْرِحُ بِهَا نُفُوسَ ٱلْعَامَّةِ بِمَا يَذْكُرُ مِنْ كَثْرَةِ ٱلثَّوَابِ مَعَ قِلَّةِ ٱلْعَمَلِ وَمَا يُهَوِّنُ مِنْ اَمْرِ ٱلْمَعْصِيَةِ حَتَّى يَكُونَ ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ ٱلتَّحْرِيضِ عَلَى ٱرْتِكَابِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِاسْتِرْسَالِ مَعَ ٱلْاَهْوَاءِ وَطَرْحِ ٱلْمُبَالَاةِ اِعْتِمَادًا عَلَى مَا رَكَزُوهُ فِي نُفُوسِهِمْ وَشَغَلُوا بِهِ عُقُولَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ اَسْبَابِ ٱلْمَغْفِرَةِ وَسَعَةِ ٱلرَّحْمَةِ وَعِظَمِ ٱلْعَفْوِ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ. لَا

يَتَكَلَّمُونَ فِي سِوَاهُ حَتَّى صَارَ سَبَبًا قَوِيًّا فِي خُمُودِ ٱلطِّبَاعِ وَٱسْتِحْكَامِ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلِٱنْصِرَافِ عَنْ تَذَكُّرِ مَعْنَى ٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَتَعَقُّلِ ضَرُورَةِ ٱلتَّعَاوُنِ وَٱلتَّفَكُّرِ فِي إِحْكَامِ أَسْبَابِ ٱلتَّعَارُفِ وَٱلتَّوَاصُلِ وَمُحَاوَرَةِ ٱلنَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا يُوجِبُ عِزَّ ٱلْأُمَّةِ وَسَعَادَتَهَا وَسُرُورَ آحَادِهَا وَٱبْتِهَاجَهُمْ بِٱلتَّنَاصُفِ وَإِفْضَالَ ٱلْأَقْوِيَاءِ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ مِنْ ثِمَارِ قِوَاهُمْ فَلَا يَتَلَاقَوْنَ إِلَّا وَصُدُورُهُمْ مُنْشَرِحَةٌ وَقُلُوبُهُمْ فَرِحَةٌ وَثُغُورُهُمْ بَاسِمَةٌ وَوُجُوهُهُمْ مُنْبَسِطَةٌ . قَدْ أَمِنَ بَعْضُهُمْ غَوَائِلَ بَعْضٍ وَتَحَقَّقُوا ٱلسَّلَامَةَ مِنْ مَقَاصِدِ ٱلسُّوءِ وَٱلتَّمَاكُرِ بِٱسْتِلَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَقَهْرِ ٱلنُّفُوسِ وَتَسْخِيرِ ٱلْأَقْوِيَاءِ ٱلضُّعَفَاءَ فِيمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ مِنَ ٱللَّذَاتِ وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ بِجُدْرَانِ ٱلصُّخُورِ وَأَبْوَابِ ٱلْحَدِيدِ حَتَّى كَانَ ذٰلِكَ مُوَلِّدًا فِي ٱلنَّاسِ كَثِيرًا مِنْ خَسِيسِ ٱلطِّبَاعِ ٱلَّتِي تَمِيلُ بِأَصْحَابِهَا نَحْوَ ٱلِٱكْتِسَابِ بِجِهَةِ ٱلسَّرِقَةِ وَٱلسُّؤَالِ بِٱلضَّرَاعَةِ وَٱلتَّرَامِي عَلَى أَعْتَابِ ٱلْمُكْثِرِينَ . وَأَنْتَ لِذٰلِكَ عَارِفٌ وَإِلَيْهِ نَاظِرٌ لَا تَجْهَلُ تِلْكَ ٱلطَّوَائِفَ ٱلْكَاسِبَةَ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ ٱلرَّدِيئَةِ . وَأَسْوَأُهَا حَالًا وَأَخَسُّهَا عَمَلًا وَأَبْغَضُهَا مُتَرَدِّدًا هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَطْفَأُوا أَنْوَارَ عُقُولِهِمُ ٱلْخَلْقِيَّةِ وَأَخْمَدُوا لَهَبَ قِوَاهُمُ ٱلطَّبْعِيَّةِ وَعَطَّلُوا جَوَارِحَ أَبْدَانِهِمْ بِمَا يَمْلَأُونَ بِهِ رُؤُوسَهُمْ مِنْ أَشْرِبَةِ خُرَافَاتٍ تَخْرُجُ بِهِمْ مِنْ نَوْعِ ٱلْحَيَوَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ أَقُولَ مِنْ نَوْعِ ٱلْإِنْسَانِ يَؤُولُ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱلِٱحْتِيَاجِ وَطَلَبِ ٱلْمَعَاشِ بِأَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانٍ ٱنْتَقَضَتْ عَنْهُمْ وَشَغَلُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْفَرَاغِ أَيْ أَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانَ نَسْلِهِمْ إِلَى أَنْ يَطْرَحُوا نُفُوسَهُمْ بَيْنَ أَيْدِي أَهْلِ ٱلْمَكَاسِبِ بِطُرُقٍ

ٱلْأَعْمَالِ ٱلْمُتْعِبَةِ وَٱلْمُحَاوَلَاتِ ٱلشَّاقَّةِ . يُذَكِّرُونَهُمْ ثَوَابَ ٱلصَّدَقَاتِ وَيُلْحِفُونَ فِي ٱلسُّؤَالِ حَتَّى تَمَلَّ ذٰلِكَ نُفُوسُهُمْ وَيَضْعُفَ يَقِينُهُمْ وَتَقْسُوَ قُلُوبُهُمْ وَيَلْتَمِسُوا وُجُوهًا لِلطَّعْنِ عَلَى تِلْكَ ٱلطَّائِفَةِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَهْلِ ٱلنَّزَاهَةِ مِنْهُمْ وَغَيْرِهِمْ . فَيَكُونُ ٱلْقَدْحُ عَامًّا وَٱلِٱحْتِقَارُ شَامِلًا . وَجِهَةُ ٱلِٱعْتِبَارِ فِيهِ أَنَّ مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِوَظِيفَةِ ٱلْهُدَى وَدُعَاءِ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلْخَيْرِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَبْعَدَهُمْ مِنَ ٱلتَّصَنُّعِ وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى ٱلْكَمَالِ . فَإِنَّ أَدْنَى هَفْوَةٍ مِنْهُ تُسْقِطُ ٱعْتِبَارَهُ وَتُسَهِّلُ ٱلتَّهَاوُنَ بِهِ فَلَا يَكُونُ لِكَلَامِهِ تَأْثِيرٌ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَصِيرُ مَجْلِسُهُ مَسْلَاةً يُتَلَهَّى بِحُضُورِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلْكَ ٱلْمَجَالِسُ مَوَاعِدَ لِأَهْلِ ٱلْخَلَاعَاتِ وَٱلْمُجُونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الجاحظ والشريشي والقيرواني)

إِنَّا لَا نَعْرِفُ ٱلْخُطَبَ إِلَّا لِلْعَرَبِ وَٱلْفُرْسِ . فَأَمَّا ٱلْهِنْدُ فَإِنَّمَا لَهُمْ مَعَانٍ مُدَوَّنَةٌ وَكُتُبٌ مُخَلَّدَةٌ لَا تُضَافُ إِلَى رَجُلٍ مَعْرُوفٍ وَلَا إِلَى عَالِمٍ مَوْصُوفٍ . وَإِنَّمَا هِيَ كُتُبٌ مُتَوَارَثَةٌ وَآدَابٌ عَلَى وَجْهِ ٱلدَّهْرِ سَائِرَةٌ مَذْكُورَةٌ . وَلِلْيُونَانِيِّينَ فَلْسَفَةٌ وَصِنَاعَةُ مَنْطِقٍ وَكَانَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ نَفْسُهُ عَيِيَّ ٱللِّسَانِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِٱلْبَيَانِ مَعَ عِلْمِهِ بِتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ وَتَفْصِيلِهِ وَمَعَانِيهِ وَبِخَصَائِصِهِ . وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ جَالِينُوسَ كَانَ أَنْطَقَ ٱلنَّاسِ وَلَمْ يَذْكُرُوهُ بِٱلْخَطَابَةِ وَلَا بِهٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ

ٱلْبَلَاغَةِ وَفِي ٱلْفُرْسِ خُطَبَاءُ إِلَّا أَنَّ كَلَامَ ٱلْفُرْسِ وَكُلَّ مَعْنًى لَهُمْ فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ طُولِ فِكْرَةٍ وَعَنِ ٱجْتِهَادِ رَأْيٍ وَعَنْ مُشَاوَرَةٍ وَمُعَاوَنَةٍ وَعَنْ طُولِ ٱلتَّفَكُّرِ وَدِرَاسَةِ ٱلْكُتُبِ وَحِكَايَةِ ٱلثَّانِي عِلْمَ ٱلْأَوَّلِ وَزِيَادَةِ ٱلثَّالِثِ فِي عِلْمِ ٱلثَّانِي حَتَّى ٱجْتَمَعَتْ ثِمَارُ تِلْكَ ٱلْفِكَرِ عِنْدَ آخِرِهِمْ. وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ بَدِيهَةٌ وَٱرْتِجَالٌ وَكَأَنَّهُ إِلْهَامٌ وَلَيْسَتْ هُنَاكَ مُعَانَاةٌ وَلَا مُكَابَدَةٌ وَلَا إِجَالَةُ فِكْرٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٌ وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ أَحَدُهُمْ وَهْمَهُ إِلَى ٱلْكَلَامِ وَإِلَى زَجْرِ يَوْمِ ٱلْخِصَامِ أَوْ حِينَ يَمْتَحُ عَلَى رَأْسِ بِئْرٍ أَوْ يَحْدُو بِبَعِيرٍ أَوْ عِنْدَ ٱلْمُقَارَعَةِ أَوِ ٱلْمُنَاقَلَةِ أَوْ عِنْدَ صِرَاعٍ أَوْ حَرْبٍ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إِلَى جُمْلَةِ ٱلْمَذْهَبِ وَإِلَى ٱلْعَمُودِ ٱلَّذِي إِلَيْهِ يَقْصِدُ فَتَأْتِيهِ ٱلْمَعَانِي ٱرْسَالًا وَتَنْهَالُ عَلَيْهِ ٱلْأَلْفَاظُ ٱنْهِيَالًا. ثُمَّ لَا يُقَيِّدُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرُسُهُ أَحَدٌ مِنْ وُلْدِهِ وَكَانُوا أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ وَكَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْجَيِّدُ عِنْدَهُمْ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ وَهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَرُ وَلَهُ أَقْهَرُ وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ أَنْطَقُ وَمَكَانُهُ مِنَ ٱلْبَيَانِ أَرْفَعُ وَخُطَاهُمْ لِلْكَلَامِ أَجْوَدُ وَٱلْكَلَامُ عَلَيْهِمْ أَسْهَلُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَفْتَقِرُوا إِلَى تَحَفُّظٍ وَيَحْتَاجُوا إِلَى تَدَارُسٍ. وَلَيْسَ هُمْ كَمَنْ حَفِظَ عِلْمَ غَيْرِهِ وَٱحْتَذَى عَلَى كَلَامِ مَنْ قَبْلَهُ فَمَا يَحْفَظُونَ إِلَّا مَا عَلِقَ بِقُلُوبِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِصُدُورِهِمْ وَٱتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا قَصْدٍ وَلَا تَحَفُّظٍ وَلَا طَلَبٍ وَإِنَّ هٰذَا ٱلَّذِي فِي أَيْدِينَا جُزْءٌ مِنْهُ (اه)

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ فِي ٱلْخَطَابَةِ أَيْضًا قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ ٱلْإِيَادِيُّ أُسْقُفُ

نَجْرَانَ خَطِيبُ ٱلْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَلِيمُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرَفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَفَصْلُ ٱلْخِطَابِ وَٱلَّذِي أُوتِيَهُ قُسٌّ هُوَ فَصْلُ ٱلْخُصُومَةِ وَهٰذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَالَ: ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى ٱلْمُدَّعِي وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَأَوَّلُ مَنِ ٱتَّكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصًا. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. أَدْرَكَهُ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرَآهُ بِعُكَاظَ فَكَانَ يَأْثِرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِٱللهِ وَٱلْبَعْثِ. بَلِيغَ ٱلنُّطْقِ وَفِيهِ يَقُولُ ٱلْأَعْشَى:

وَأَفْصَحُ مِنْ قُسٍّ وَأَجْرَى مِنَ ٱلَّذِي
بِذِي ٱلْعَيْنِ (١) مِنْ خَفَّانَ أَضْحَى خَادِرًا

وَكَانَ قُسٌّ يَفِدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعَظِّمُهُ فَقَالَ لَهُ قَيْصَرُ: مَا أَفْضَلُ ٱلْعِلْمِ. قَالَ: مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْعَقْلِ. قَالَ: وُقُوفُ ٱلْمَرْءِ عِنْدَ عِلْمِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْأَدَبِ. قَالَ: ٱسْتِبْقَاءُ ٱلرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمُرُوءَةِ. قَالَ: قِلَّةُ رَغْبَةِ ٱلْمَرْءِ فِي إِخْلَافِ وَعْدِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمَالِ. قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ ٱلْحَقُّ

وَقِيلَ إِنَّ ٱلْجَارُودَ بْنَ عَبْدِ ٱللهِ لَمَّا وَفَدَ فِي وَفْدِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَأَسْلَمَ سَأَلَهُ

(١) وروى الميداني: بذي الغيل

ٱلرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًّا. قَالَ: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو أَثَرَهُ وَأَطَّلِعُ خَبَرَهُ. كَانَ قُسٌّ سَبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ ٱلْعَرَبِ. صَحِيحَ ٱلنَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْبَةٍ حَسَنَةٍ يَتَقَرَّ ٱلْقِفَارَ. وَلَا تَكُنُّهُ دَارٌ. وَلَا يُقِرُّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَشُّفِهِ بَعْضَ ٱلطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِٱلْوُحُوشِ وَٱلْهَوَامِّ. يَلْبَسُ ٱلْمُسُوحَ. وَيَتَّبِعُ ٱلسُّيَّاحَ عَلَى مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ. لَا يُغَيِّرُ ٱلرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِٱلْوَحْدَانِيَّةِ. تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ ٱلْأَمْثَالُ. وَتُكْسَفُ بِهِ ٱلْأَهْوَالُ. وَتَتْبَعُهُ ٱلْأَبْدَالُ. أَدْرَكَ رَأْسَ ٱلْحَوَارِيِّينَ سِمْعَانَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ ٱلْعَرَبِ. وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي ٱلْحِقَبِ. وَأَيْقَنَ بِٱلْبَعْثِ وَٱلْحِسَابِ. وَحَذِرَ سُوءَ ٱلْمُنْقَلَبِ وَٱلْمَآبِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِٱلْعَمَلِ قَبْلَ ٱلْفَوْتِ. ٱلْحَسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ. ٱلْخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاظَ. ٱلْعَارِفُ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ. وَيَابِسٍ وَرَطْبٍ. وَأُجَاجٍ وَعَذْبٍ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَٱلْعَرَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِٱلرَّبِّ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُوَفَّيَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ لِلْقَلْبِ مِنْ هَوَاهُ أُدِّكَارُ ... وَلَيَالٍ خِلَالَهُنَّ نَهَارُ

وَجِبَالٌ شَوَامِخٌ رَاسِيَاتٌ ... وَبِحَارٌ مِيَاهُهُنَّ غِزَارُ

وَنُجُومٌ يَحْتُّهَا قَمَرُ ٱللَّيْلِ (١) م ... وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ

ضَوْؤُهَا يَطْمُسُ ٱلْعُيُونَ وَإِنْ ... عَادٌ شَدِيدٌ فِي ٱلْخَافِقَيْنِ مُثَارُ (٢)

وَغُلَامٌ وَأَشْمَطٌ وَرَضِيعٌ ... كُلُّهُمْ فِي ٱلتُّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ

(١) ويروى: ونجوم تلوح في ظلم الليل (٢) ويُروى: مُطار

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوَتِ ٱلْخَيْـ م وَأُخْرَى خَوَتْ (١) فَهُنَّ قِفَارُ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقَصِّرُ عَنْهُ حَدْسَةُ ٱلنَّاظِرِ ٱلَّذِي لَا يَحَارُ
وَٱلَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى ٱللهِ م نُفُوسًا لَهَا هُدًى وَٱعْتِبَارُ

فَقَالَ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ: يَرْحَمُ ٱللهُ قُسًّا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ

وَمِنْ خُطَبِ قُسٍّ ٱلْمَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ قَالَ: لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظَ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ ٱلنَّخْلَةِ وَٱلطَّائِفِ كَانَ لِثَقِيفٍ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ. وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مُؤْنِقٍ. فَقَالَ حِينَ خَطَبَ فَأَطْنَبَ. وَرَغَّبَ وَرَهَّبَ. وَحَذَّرَ وَأَنْذَرَ. وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱسْمَعُوا وَعُوا. وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَٱنْتَفِعُوا. إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ. وَمَنْ مَاتَ فَاتَ. وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. مَطَرٌ وَنَبَاتٌ. وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ. وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ. وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ. وَجَمْعٌ وَشَتَاتٌ. وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ. لَيْلٌ مَوْضُوعٌ. وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ. وَنُجُومٌ تَغُورُ. وَأَرَاضٍ تَمُورُ. وَبُحُورٌ تَمُوجُ. وَتِجَارَةٌ تُرُوجُ. وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ. وَبِرٌّ وَآثَامٌ. وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ. وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ. أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ ٱلْعِظَاتِ. ٱلسَّيْرُ فِي ٱلْفَلَوَاتِ. وَٱلنَّظَرُ إِلَى مَحَلِّ ٱلْأَمْوَاتِ. إِنَّ فِي ٱلسَّمَاءِ لَخَبَرًا. وَإِنَّ فِي ٱلْأَرْضِ لَعِبَرًا. لَيْلٌ دَاجٍ. وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ. وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ. وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ. مَا لِي أَرَى ٱلنَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ. أَرَضُوا بِٱلْمُقَامِ فَأَقَامُوا. أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا. أَقْسَمَ قُسٌّ

(١) ويروى: خلت

بِاللهِ قَسَماً حَقًّا لَا آثِمًا فِيهِ وَلَا حَانِثًا إِنَّ لِلهِ دِيناً هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبًّا لِأَرْبَابِ الْغَفْلَةِ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ. وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ إِيَادٍ. أَيْنَ الْآبَاءُ وَالْأَجْدَادُ. وَأَيْنَ الْمَرِيضُ وَالْعُوَّادُ. وَأَيْنَ الْقَرَاعِنَةُ الشِّدَادُ. أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ. وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ. وَغَرَّهُ الْمَالُ وَالْوَلَدُ. أَيْنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى. وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى. أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا. وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ آجَالًا. طَحَنَهُمُ الثَّرَى بِكَلْكَلِهِ. وَمَزَّقَهُمْ بِتَطَاوُلِهِ. فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بَالِيَةٌ. وَبُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ. عَمَرَتْهَا الذِّئَابُ الْعَاوِيَةُ. كَلَّا بَلْ هُوَ الْمَعْبُودُ. ثُمَّ انْشَأَ يَقُولُ:

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَابِرْ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرْ (١)
أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرْ

وَمِمَّنِ اشْتَهَرَ عِنْدَ الْعَرَبِ سَحْبَانُ بْنُ زُفَرَ بْنِ إِيَاسٍ الْوَائِلِيُّ وَائِلُ بَاهِلَةٍ خَطِيبٌ مُفْصِحٌ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْبَيَانِ. أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ. وَحَكَى الْأَصْمَعِيُّ قَالَ: كَانَ إِذَا خَطَبَ يَسِيلُ عَرَقًا وَلَا يُعِيدُ كَلِمَةً وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَقْعُدُ حَتَّى يَفْرُغَ. وَقَدِمَ

---

(١) ويروى: لا يرجع الماضي اليَّ ولا من الماضين غابر

عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفْدٌ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَحْبَانَ فَلَمْ يُوجَدْ فِي مَنْزِلِهِ فَاقْتُضِبَ مِنْ نَاحِيَةِ اقْتِضَابًا وَأُدْخِلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى عَصًا تُقَوَّمُ مِنْ أَوَدِي. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَأَنْتَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطِبُ رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصًا فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ فَرَكَّبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عِصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَأَخَذَهَا. ثُمَّ قَامَ وَتَكَلَّمَ مُنْذُ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ مَا تَنَخْنَخَ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ابْتَدَأَ فِي مَعْنًى فَخَرَجَ مِنْهُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالُهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَحْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: الصَّلَاةُ. قَالَ: هِيَ أَمَامَكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ الْعَرَبِ. فَقَالَ سَحْبَانُ: وَالْعَجَمِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَمِمَّا رُوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ الْبَلِيغَةِ يَقُولُ: إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاغٍ وَالْآخِرَةَ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا النَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِّكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ. وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُخْرَجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. فَفِيهَا حَبِيتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلَّهِ. قَدِّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ وَلَا تُخَلِّفُوا كُلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شِعْرِهِ يَمْدَحُ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخُزَاعِيُّ:

يَا طَلْحَ اَكْرَمُ مَنْ بِهَا حَسَبًا وَاَعْطَاهُمْ لِتَالِدْ
مِنْكَ الْعَطَاءَ فَاَعْطِنِي وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي الْمَشَاهِدْ

فَيُقَالُ اِنَّ طَلْحَةَ قَالَ لَهُ: اَحْتَكِمْ. قَالَ: فَرَسَكَ الْوَرْدَ وَقَصْرَكَ بِكَذَا. فَقَالَ طَلْحَةُ اُفٍّ لَكَ لَوْ سَاَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي اَعْطَيْتُكَ كُلَّ فَرَسٍ لِي وَكُلَّ قَصْرٍ وَلٰكِنْ اَبَيْتُ اِلَّا بِاَهْلِيَّتِكَ

وَذَكَرَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى فِي مَجْلِسِ ثُمَامَةَ بْنِ اَشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَاَيْتُ اَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللّٰهِ كَانَ اَبْسَطَ لِسَانًا وَلَا اَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ وَلَا اَقْدَرَ عَلَى كَلَامٍ بِنَظْمٍ حَسَنٍ وَاَلْفَاظٍ عَذْبَةٍ وَمَنْطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَحَبَّسُ وَلَا يَصِلُ كَلَامَهُ بِحَشْوٍ مِنَ الْكَلَامِ وَلَا يُعِيدُ لَفْظًا وَلَا مَعْنًى وَلَا يَخْرُجُ مِنْ فَنٍّ اِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا اِلَّا حَكَاهُ وَلَا يَحْكِي شَيْئًا اِلَّا كَانَ اَكْثَرَ مِنْهُ وَلَا يَمُرُّ بِذِهْنِهِ شَيْءٌ اِلَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ اِذَا شَاءَ اَضْحَكَ الثَّكْلَى وَاَذْهَلَ الزَّاهِدَ وَخَشَّنَ قَلْبَ الْعَابِدِ. قُلْتُ فَكَيْفَ كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ اَعْلَمِ النَّاسِ بِالْخَبَرِ الْبَاهِرِ وَالشِّعْرِ النَّادِرِ وَالْمَثَلِ السَّائِرِ وَالْفَصَاحَةِ التَّامَّةِ وَاللِّسَانِ الْبَسِيطِ. قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ وَاَبْنَهُ جَعْفَرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ الْكَلَامُ مُتَصَوَّرًا دُرًّا وَيُلْقِيهِ الْمَنْطِقُ جَوْهَرًا لَكَانَ كَلَامُهُمَا وَالْمُنْتَقَى مِنْ اَلْفَاظِهِمَا. وَلَقَدْ غَبَرْتُ مَعَهُمَا وَاَدْرَكْتُ طَبَقَةَ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي اَيَّامِهِمَا وَهُمْ يَرَوْنَ الْبَلَاغَةَ لَمْ تَسْتَكْمِلْ اِلَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ مَقْصُورَةً اِلَّا عَلَيْهِمَا وَلَا اَنْقَادَتْ اِلَّا لَهُمَا وَاِنَّهُمَا لَلْبَابُ الْكَرِمُ

عَتْقَ مَنْظَرٍ وَجُودَةَ مَخْبَرٍ وَسُهُولَةَ لَفْظٍ وَجَزَالَةَ مَنْطِقٍ وَنَزَاهَةَ نَفْسٍ وَكَمَالَ خِصَالٍ حَتَّى لَوْ فَاخَرَتِ ٱلدُّنْيَا بِقَلِيلِ أَيَّامِهِمَا وَٱلْمَأْثُورِ مِنْ خَصَائِصِهِمَا جَمِيعَ أَيَّامِ مَنْ سِوَاهُمَا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ يُنْفَخَ فِي ٱلصُّورِ وَيُبْعَثَ أَهْلُ ٱلْقُبُورِ حَاشَا أَنْبِيَاءَ ٱللهِ ٱلْكِرَامَ وَسَلَفَ عِبَادِهِ ٱلصَّالِحِينَ لَمَا بَاهَتْ إِلَّا بِهِمَا وَلَا عَوَّلَتْ فِي ٱلْفَخْرِ إِلَّا عَلَيْهِمَا. وَلَقَدْ كَانَا مَعَ تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِمَا وَمَعْسُولِ مَذَاقِهِمَا وَسَنَا إِشْرَاقِهِمَا وَكَمَالِ خِصَالِ ٱلْخَيْرِ فِيهِمَا فِي مَحَاسِنِ ٱلْمَأْمُونِ كَٱلنُّقْطَةِ فِي ٱلْبَحْرِ وَٱلْخَرْدَلَةِ فِي ٱلْقَفْرِ

القسم الثاني

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(من ابن خلدون)

اِعْلَمْ اَنَّ لِسَانَ اَلْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَّيْنِ فَنِّ اَلشِّعْرِ اَلْمَنْظُومِ وَهُوَ اَلْكَلَامُ اَلْمَوْزُونُ اَلْمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ اَلَّذِي تَكُونُ اَوْزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ اَلْقَافِيَةُ. وَفَنِّ اَلنَّثْرِ وَهُوَ اَلْكَلَامُ غَيْرُ اَلْمَوْزُونِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ اَلْفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبَ فِي اَلْكَلَامِ. فَاَمَّا اَلشِّعْرُ فَمِنْهُ اَلْمَدْحُ وَاَلْهِجَاءُ وَاَلرِّثَاءُ. وَاَمَّا اَلنَّثْرُ فَمِنْهُ اَلْكَلَامُ اَلَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى سَجْعًا. وَمِنْهُ اَلْمُرْسَلُ وَهُوَ اَلَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ اَلْكَلَامُ اِطْلَاقًا

وَلَا يُقَطَّعُ أَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا. وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطَبِ وَالدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ. وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ الذَّوْقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا. ثُمَّ يُعَادُ الْكَلَامُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيْرِ الْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا أَوْ قَافِيَةً. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْقُرْآنِ: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ. وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ. وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا الْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ. وَأُطْلِقَ اسْمُ الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَاخْتَصَّتْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهَذَا سُمِّيَتِ السَّبْعَ الْمَثَانِيَ. وَانْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ. وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ الْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ النَّسِيبِ الْمُخْتَصِّ بِالشِّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْخُطَبِ وَالدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَقَدِ اسْتَعْمَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي الْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَسْجَاعِ وَالْتِزَامِ التَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَغْرَاضِ وَصَارَ هَذَا الْمَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي الْوَزْنِ. وَاسْتَمَرَّ

ٱلْمُتَاخِرُونَ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ وَٱسْتَعْمَلُوهَا فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا ٱلِاسْتِعْمَالَ فِي ٱلْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلَّذِي ٱرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا ٱلْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا ٱلْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ وَصَارَتِ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عِنْدَ ٱلْكُتَّابِ ٱلْغُفْلِ جَارِيَةً عَلَى هٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ ٱلَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ. وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطِبِ وَٱلْمُخَاطَبِ. وَهٰذَا ٱلْفَنُّ ٱلْمَنْثُورُ ٱلْمُقَفَّى أَدْخَلَ ٱلْمُتَاخِرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ ٱلشِّعْرِ تُنَافِيهَا ٱللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلْطُ ٱلْجِدِّ بِٱلْهَزْلِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي ٱلْأَوْصَافِ وَضَرْبُ ٱلْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلِاسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْخِطَابِ. وَٱلْمَحْمُودُ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلتَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ ٱلْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ ٱلْمَلَكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاءُ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَإِنَّ ٱلْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ وَكِنَايَةٍ وَٱسْتِعَارَةٍ. وَأَمَّا إِجْرَاءُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْعَصْرِ إِلَّا ٱسْتِيلَاءُ ٱلْعُجْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ

فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَٱنْفِسَاحِ خَطْوَتِهِ وَوَلِعُوا بِهٰذَا ٱلْمِسْجَعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذٰلِكَ ٱلْقَدْرِ مِنَ ٱلتَّزْيِينِ بِٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْأَلْقَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ. وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَّابُ ٱلْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِٱلْإِعْرَابِ فِي ٱلْكَلِمَاتِ وَٱلتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفَ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ ٱلْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ ٱلْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ ٱلتَّجْنِيسَ. فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ إِلَى ٱلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

البحث الثاني

في صناعة الشعر وانواع الاشعار

(عن تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الشعر تأليف ابي الوليد بن رشد)

ٱلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْقَوْلِ تَلْخِيصُ مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْكُلِّيَّةِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ إِذْ كَثِيرٌ مِمَّا فِيهِ هِيَ قَوَانِينُ خَاصَّةٌ بِأَشْعَارِهِمْ وَعَادَتِهِمْ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نِسَبًا مَوْجُودَةً فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَوْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْسِنَةِ. (قَالَ) إِنَّ قَصْدَنَا ٱلْآنَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَفِي أَنْوَاعِ ٱلْأَشْعَارِ. وَقَدْ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ ٱلْقَوَانِينُ

ٱلَّتِي يُعْطَى فِيهَا تَجْرِي مَجْرَى ٱلْجُودَةِ ٱنْ يَقُولَ اَوَّلًا مَا فِعْلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَمِمَّاذَا تَتَقَوَّمُ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَمِنْ كَمْ شَيْءٍ تَتَقَوَّمُ وَاَيْمَا هِيَ اَجْزَاؤُهَا ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا وَكَمْ اَصْنَافُ ٱلْاَغْرَاضِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ. وَاَنْ يَجْعَلَ كَلَامَهُ مِنَ ٱلْاَوَائِلِ ٱلَّتِي لَنَا بِٱلطَّبْعِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى. (قَالَ) فَكُلُّ شِعْرٍ وَكُلُّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ فَهُوَ اِمَّا هِجَاءٌ وَاِمَّا مَدِيحٌ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ بِٱسْتِقْرَاءِ ٱلْاَشْعَارِ وَبِخَاصَّةٍ اَشْعَارُهُمُ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْاِرَادِيَّةِ اَعْنِي ٱلْحَسَنَةَ وَٱلْقَبِيحَةَ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمُحَاكِيَةِ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلضَّرْبُ بِٱلْعِيدَانِ وَٱلزَّمْرُ وَٱلرَّقْصُ اَعْنِي اَنَّهَا مُعَدَّةٌ بِٱلطَّبْعِ لِهٰذَيْنِ ٱلْغَرَضَيْنِ. وَٱلْاَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ هِيَ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْمُخَيِّلَةُ. وَاَصْنَافُ ٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّشْبِيهِ ثَلَاثَةٌ اِثْنَانِ بَسِيطَانِ وَثَالِثٌ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا. اَمَّا ٱلْاِثْنَانِ ٱلْبَسِيطَانِ فَاَحَدُهُمَا تَشْبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَتَمْثِيلُهُ بِهِ وَذٰلِكَ يَكُونُ فِي لِسَانٍ لِسَانٍ بِاَلْفَاظٍ خَاصَّةٍ عِنْدَهُمْ مِثْلَ كَاَنَّ وَاِخَالُ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِنْدَهُمْ حُرُوفَ ٱلتَّشْبِيهِ. وَاَمَّا اَخْذُ ٱلشَّبِيهِ بِعَيْنِهِ بَدَلَ ٱلشَّبِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْاِبْدَالَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

هُوَ ٱلْبَحْرُ مِنْ اَيِّ ٱلْمَوَاضِعِ جِئْتَهُ

وَيَنْبَغِي اَنْ نَعْلَمَ اَنَّ فِي هٰذَا ٱلْقِسْمِ تَدْخُلُ ٱلْاَنْوَاعُ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا اَهْلُ زَمَانِنَا ٱسْتِعَارَةً وَكِنَايَةً مِثْلَ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَعُرِّيَ اَفْرَاسُ ٱلصِّبَا وَرَوَاحِلُهْ

اِلَّا اَنَّ اَلْكِنَايَاتِ اَكْثَرُ ذٰلِكَ هِيَ اِبْدَالَاتٌ مِنْ لَوَاحِقِ اَلشَّيْءِ . وَالْاِسْتِعَارَةُ هِيَ اِبْدَالٌ مِنْ مُنَاسِبِهِ اَعْنِي اِذَا كَانَ شَيْءٌ نِسْبَتُهُ اِلَى اَلثَّانِي نِسْبَةُ اَلثَّالِثِ اِلَى اَلرَّابِعِ فَاِبْدَالُ اِسْمِ اَلثَّالِثِ اِلَى اَلْاَوَّلِ وَبِالْعَكْسِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كِتَابِ اَلْخَطَابَةِ مِنْ كَمْ شَيْءٍ تَكُونُ اَلْاِبْدَالَاتُ . وَاَمَّا اَلْقِسْمُ اَلثَّانِي فَهُوَ اَنْ يُبَدَّلَ اَلتَّشْبِيهُ مِثْلَ اَنْ تَقُولَ : اَلشَّمْسُ كَاَنَّهَا فُلَانٌ اَوِ اَلشَّمْسُ هِيَ فُلَانٌ لَا فُلَانٌ كَالشَّمْسِ وَلَا هُوَ اَلشَّمْسُ

وَاَلصِّنْفُ اَلثَّالِثُ مِنَ اَلْاَقَاوِيلِ اَلشِّعْرِيَّةِ هُوَ اَلْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذَيْنِ (قَالَ) وَكَمَا اَنَّ اَلنَّاسَ بِالطَّبْعِ قَدْ يُخَيِّلُونَ وَيُحَاكُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْاَفْعَالِ مِثْلَ مُحَاكَاةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِالْاَلْوَانِ وَالْاَشْكَالِ وَالْاَصْوَاتِ وَذٰلِكَ اِمَّا بِصِنَاعَةٍ وَمَلَكَةٍ تُوجَدُ لِلْمُحَاكِينَ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ عَادَةٍ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ فِي ذٰلِكَ . كَذٰلِكَ تُوجَدُ لَهُمُ اَلْمُحَاكَاةُ بِالْاَقَاوِيلِ بِالطَّبْعِ وَالتَّخْيِيلِ . وَاَلْمُحَاكَاةُ فِي اَلْاَقَاوِيلِ اَلشِّعْرِيَّةِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ ثَلَاثَةِ اَشْيَاءَ : مِنْ قِبَلِ اَلنَّغَمِ اَلْمُتَّفِقَةِ وَمِنْ قِبَلِ اَلْوَزْنِ وَمِنْ قِبَلِ اَلتَّشْبِيهِ نَفْسِهِ . وَهٰذِهِ قَدْ يُوجَدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُفْرَدًا عَنْ صَاحِبِهِ مِثْلُ وُجُودِ اَلنَّغَمِ فِي اَلْمَزَامِيرِ وَاَلْوَزْنِ فِي اَلرَّقْصِ وَاَلْمُحَاكَاةِ فِي اَللَّفْظِ . اَعْنِي اَلْاَقَاوِيلَ اَلْمُخَيِّلَةَ اَلْغَيْرَ مَوْزُونَةٍ . وَقَدْ تَجْتَمِعُ هٰذِهِ اَلثَّلَاثَةُ بِاَسْرِهَا مِثْلَ مَا يُوجَدُ عِنْدَنَا فِي اَلنَّوْعِ اَلَّذِي يُسَمَّى اَلْمُوَشَّحَاتِ وَالْاَزْجَالَ وَهِيَ اَلْاَشْعَارُ اَلَّتِي اَسْتَنْبَطَهَا فِي هٰذَا اَللِّسَانِ اَهْلُ هٰذِهِ اَلْجَزِيرَةِ اِذْ كَانَتِ اَلْاَشْعَارُ اَلطَّبِيعِيَّةُ هِيَ مَا جُمِعَتِ

ٱلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا. وَٱلْأُمُورُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ إِنَّمَا تُوجَدُ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّ أَشْعَارَ ٱلْعَرَبِ لَيْسَ فِيهَا لَحْنٌ. وَإِنَّمَا هِيَ إِمَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَإِمَّا ٱلْوَزْنُ وَٱلْمُحَاكَاةُ مَعًا فِيهَا. وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمُحَيِّلَةُ أَوِ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِعْلَ ٱلتَّخْيِيلِ ثَلَاثَةٌ. صِنَاعَةُ ٱللَّحْنِ وَصِنَاعَةُ ٱلْوَزْنِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُحَاكِيَةِ وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِيَّةُ ٱلَّتِي نَنْظُرُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ. (قَالَ): وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تُسَمَّى أَشْعَارًا مَا لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ كَأَقَاوِيلِ سُقْرَاطَ ٱلْمَوْزُونَةِ وَأَقَاوِيلِ إِنْبَادُقْلِيسَ فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ بِخِلَافِ ٱلْأَمْرِ فِي أَشْعَارِ أُومِيرُوسَ فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا. (قَالَ): وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى شِعْرًا بِٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا مَا جَمَعَ هٰذَيْنِ. وَأَمَّا تِلْكَ فَهِيَ أَنْ تُسَمَّى أَقَاوِيلَ أُخْرَى مِنْهَا أَنْ تُسَمَّى شِعْرًا وَكَذٰلِكَ ٱلْفَاعِلُ أَقَاوِيلَ مَوْزُونَةً بِٱلطَّبِيعِيَّاتِ هُوَ أُخْرَى أَنْ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا مِنْ أَنْ يُسَمَّى شَاعِرًا. وَكَذٰلِكَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُحَيِّلَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ لَيْسَتْ أَشْعَارًا. وَحُكِيَ أَنْ كَانَتْ تُوجَدُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ عِنْدَنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ كَمْ هِيَ أَصْنَافُ ٱلْمُحَاكَاةِ وَمِنْ أَيِّ ٱلصَّنَائِعِ تَلْتَئِمُ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ حَتَّى تَكُونَ تَامَّةَ ٱلْفِعْلِ

البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسه)

(قال) ولما كان المحاكون والمشبهون انما يقصدون بذلك ان يحثوا على عمل بعض الافعال الارادية وان يكفوا عن عمل بعضها فقد يجب ضرورة ان تكون الامور التي تقصد محاكاتها اما فضائل واما رذائل وذلك ان كل فعل وكل خلق انما هو تابع لاحد هذين اعني الفضيلة والرذيلة فقد يجب ضرورة ان تكون الفضائل انما تحاكى بالفضائل والفاضلين وان تكون الرذائل تحاكى بالرذائل والارذلين. واذا كان كل تشبيه وحكاية انما تكون بالحسن والقبيح فظاهر ان كل تشبيه وحكاية انما يقصد بها التحسين والتقبيح وقد يجب مع هذا ضرورة ان يكون المحاكون للفضائل اعني الماثلين بالطبع الى محاكاتها افاضل. والمحاكون للرذائل انقص طبعا من هؤلاء واقرب الى الرذيلة وعن هذين الصنفين من الناس وجد المديح والهجو. اعني مدح الفضائل وهجو الرذائل ولهذا كان بعض الشعراء يجيد المدح ولا يجيد الهجو وبعضهم بالعكس اعني يجيد الهجو ولا يجيد المدح فاذن بالواجب ما كان يوجد لكل تشبيه وحكاية هذان

ٱلْفَصْلَانِ اَعْنِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلتَّقْبِيحَ وَهٰذَانِ ٱلْفَصْلَانِ اِنَّمَا يُوجَدَانِ لِلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْقَوْلِ لَا ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْوَزْنِ وَلَا ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱللَّحْنِ. وَقَدْ يُوجَدُ لِلتَّشْبِيهِ بِٱلْقَوْلِ فَصْلٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُقْصَدَ فِي ذٰلِكَ تَحْسِينٌ اَوْ تَقْبِيحٌ لٰكِنْ نَفْسُ ٱلْمُطَابَقَةِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ كَٱلْمَادَّةِ ٱلْمُعَدَّةِ لِاَنْ يَسْتَحِيلَ اِلَى ٱلطَّرَفَيْنِ اَعْنِي اَنَّهَا تَسْتَحِيلُ تَارَةً اِلَى ٱلتَّحْسِينِ بِزِيَادَةٍ عَلَيْهَا وَتَارَةً اِلَى ٱلتَّقْبِيحِ بِزِيَادَةٍ اَيْضًا عَلَيْهَا (قَالَ) وَهٰذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةُ اُومِيرُوسَ اَعْنِي اَنَّهُ كَانَ يَأْتِي فِي تَشْبِيهَاتِهِ بِٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلزِّيَادَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُسْتَحْسَنَةِ. وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ اِجَادَتُهُ اِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُطَابَقَةِ فَقَطْ. وَمِنْهُمْ مَنْ اِجَادَتُهُ فِي ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّقْبِيحِ. وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ ٱلْاَمْرَيْنِ مِثْلُ اُومِيرُوسَ وَتَمَثَّلَ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ هٰؤُلَاءِ بِاَصْنَافٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَانُوا مَشْهُورِينَ فِي مُدَّتِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ بِٱسْتِعْمَالِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ هٰذِهِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلثَّلَاثَةِ. وَاَنْتَ فَلَيْسَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ وُجُودُ مِثَالَاتِ ذٰلِكَ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَاِنْ كَانَتْ اَكْثَرُ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ اِنَّمَا هِيَ كَمَا يَقُولُ اَبُو نَصْرٍ فِي ٱلْفَهِمِ وَٱلْكَرِيهِ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ ٱلنَّسِيبَ اِنَّمَا هُوَ حَثٌّ عَلَى ٱلْفُسُوقِ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي اَنْ يَتَجَنَّبَهُ ٱلْوِلْدَانُ وَيُؤَدَّبُونَ مِنْ اَشْعَارِهِمْ بِمَا يُحَثُّ فِيهِ عَلَى ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْكَرَمِ. فَاِنَّهُ لَيْسَ تَحُثُّ ٱلْعَرَبُ فِي اَشْعَارِهَا مِنَ ٱلْفَضَائِلِ عَلَى سِوَى هَاتَيْنِ ٱلْفَضِيلَتَيْنِ وَاِنْ كَانَتْ لَيْسَ تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَيْهِمَا

وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْفَخْرِ. وَأَمَّا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ ٱلَّذِي ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْمُطَابَقَةُ فَقَطْ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَلِذٰلِكَ يَصِفُونَ ٱلْجَمَادَاتِ كَثِيرًا وَٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلنَّبَاتَ. وَأَمَّا ٱلْيُونَانِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ ذٰلِكَ شِعْرًا إِلَّا وَهُوَ مُوَجَّهٌ نَحْوَ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْكَفِّ عَنِ ٱلرَّذِيلَةِ أَوْ مَا يُفِيدُ أَدَبًا مِنَ ٱلْآدَابِ أَوْ مَعْرِفَةً مِنَ ٱلْمَعَارِفِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَنَّ أَصْنَافَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ وَأَنَّ فُصُولَهَا ثَلَاثَةٌ وَتَبَيَّنَ مَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ ٱلثَّلَاثَةُ وَٱلْأَصْنَافُ ٱلثَّلَاثَةُ. وَيُشْبِهُ إِذَا ٱسْتُقْرِيَتِ ٱلْأَشْعَارُ أَنْ يَقَعَ ٱلْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنْ أَصْنَافِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَلَا فَصْلٌ رَابِعٌ مِنْ فُصُولِ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ

البحث الثالث

في العلل المولّدة للشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْعِلَلُ ٱلْمُوَلِّدَةُ لِلشِّعْرِ بِٱلطَّبْعِ فِي ٱلنَّاسِ عِلَّتَيْنِ. أَمَّا ٱلْعِلَّةُ ٱلْأُولَى فَوُجُودُ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلْإِنْسَانِ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَنْشَأُ أَعْنِي أَنَّ هٰذَا ٱلْفِعْلَ يُوجَدُ لِلنَّاسِ وَهُمْ أَطْفَالٌ وَهٰذَا شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْعِلَّةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ هُوَ ٱلَّذِي

يَلتَذُّ بِالتَّشبِيهِ لِلأَشيَاءِ ٱلَّتِي قَد أَحَسَّهَا وَبِالمُحَاكَاةِ لَهَا. وَٱلدَّلِيلُ عَلَى
أَنَّ ٱلإِنسَانَ يُسَرُّ بِالتَّشبِيهِ بِالطَّبعِ وَيَفرَحُ هُوَ أَنَّا نَلتَذُّ وَنُسَرُّ
بِمُحَاكَاةِ ٱلأَشيَاءِ ٱلَّتِي لَا نَلتَذُّ بِإِحسَاسِهَا وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ
ٱلمُحَاكَاةُ شَدِيدَةَ ٱلِاستِقصَاءِ مِثلُ مَا يَعرِضُ فِي تَصَاوِيرِ كَثِيرٍ
مِنَ ٱلحَيَوَانَاتِ ٱلَّتِي يَعمَلُهَا ٱلمَهَرَةُ مِنَ ٱلمُصَوِّرِينَ وَلِهٰذِهِ ٱلعِلَّةِ
ٱستُعمِلَ فِي ٱلتَّعلِيمِ عِندَ ٱلإِفهَامِ وَٱلتَّخَاطُبِ ٱلإِشَارَاتُ فَإِنَّهَا أَدَاةٌ
مُعِينَةٌ عَلَى فَهمِ ٱلأَمرِ ٱلَّذِي يُقصَدُ تَفهِيمُهُ لِمَكَانِ مَا فِيهَا مِنَ
ٱلإِلتِذَاذِ ٱلَّذِي هُوَ مَوجُودٌ فِي ٱلإِشَارَاتِ مِن قِبَلِ مَا فِيهَا مِنَ
ٱلتَّخيِيلِ فَتَكُونُ ٱلنَّفسُ بِحَسَبِ ٱلتِذَاذِهَا بِهِ أَتَمَّ قَبُولًا لَهُ. فَإِنَّ
ٱلتَّعلِيمَ لَيسَ إِنَّمَا يُوجَدُ لِلفَيلَسُوفِ فَقَط بَل وَلِلنَّاسِ فِي ذٰلِكَ
مُشَارَكَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ ٱلفَيلَسُوفِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ يُوجَدُ ٱلتَّعلِيمُ بِالطَّبعِ
يَصدُرُ مِن إِنسَانٍ إِلَى إِنسَانٍ بِحَسَبِ قِيَاسِ ذٰلِكَ ٱلإِنسَانِ ٱلمُعَلِّمِ
مِنَ ٱلإِنسَانِ ٱلمُتَعَلِّمِ. وَٱلإِشَارَاتُ لَمَّا كَانَتْ إِنَّمَا هِيَ تَشبِيهَاتٌ
لِأُمُورٍ قَد أُحِسَّتْ فَبَيِّنٌ أَنَّهَا إِنَّمَا تُستَعمَلُ لِمَوَاضِعِ ٱلمُسَارَعَةِ إِلَى
ٱلفَهمِ وَٱلقَبُولِ لَهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُفهَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ ٱلإِلتِذَاذِ لِمَوضِعِ
ٱلتَّخيِيلِ ٱلَّذِي فِيهَا. فَهٰذِهِ هِيَ ٱلعِلَّةُ ٱلأُولَى ٱلمُوَلِّدَةُ لِلشِّعرِ. وَأَمَّا
ٱلعِلَّةُ ٱلثَّانِيَةُ فَٱلتِذَاذُ ٱلإِنسَانِ أَيضًا بِالطَّبعِ بِالوَزنِ وَٱلأَلحَانِ فَإِنَّ
ٱلأَلحَانَ يَظهَرُ مِن أَمرِهَا أَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِلوَزنِ عِندَ ٱلَّذِينَ فِي طِبَاعِهِم
أَن يُدرِكُوا ٱلأَوزَانَ وَٱلأَلحَانَ فَٱلتِذَاذُ ٱلنَّفسِ بِالطَّبعِ بِالمُحَاكَاةِ
وَٱلأَلحَانِ وَٱلأَوزَانِ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلشِّعرِيَّةِ

وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلْفِطَرِ ٱلْفَائِقَةِ فِي ذٰلِكَ فَإِذَا نَشَأَتِ ٱلْأُمَّةُ تَوَلَّدَتْ فِيهِمْ صِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ ٱلْأَوَّلَ يَأْتِي مِنْهَا أَوَّلًا بِجُزْءٍ يَسِيرٍ ثُمَّ يَأْتِي مَنْ بَعْدَهُ بِجُزْءٍ آخَرَ وَهٰكَذَا إِلَى أَنْ تَكْمُلَ ٱلصِّنَاعَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ . وَتَكْمُلُ أَيْضًا أَصْنَافُهَا بِحَسَبِ ٱسْتِعْدَادِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ لِلِٱلْتِذَاذِ أَكْثَرَ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ . مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلنُّفُوسَ ٱلَّتِي هِيَ فَاضِلَةٌ وَشَرِيفَةٌ بِٱلطَّبْعِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ أَوَّلًا صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ أَعْنِي مَدِيحَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْجَمِيلَةِ . وَٱلنُّفُوسُ ٱلَّتِي هِيَ أَخَسُّ مِنْ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ صِنَاعَةَ ٱلْهِجَاءِ أَعْنِي هِجَاءَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْقَبِيحَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُضْطَرُّ ٱلَّذِي مَقْصَدُهُ ٱلْهِجَاءُ لِلْأَشْرَارِ وَٱلشُّرُورِ أَنْ يَمْدَحَ ٱلْأَخْيَارَ وَٱلْأَفْعَالَ ٱلْفَاضِلَةَ لِيَكُونَ ظُهُورُ قُبْحِ ٱلشُّرُورِ أَكْثَرَ أَعْنِي إِذَا ذَكَرَهَا ثُمَّ ذَكَرَ بِإِزَائِهَا ٱلْأَفْعَالَ ٱلْقَبِيحَةَ . فَهٰذَا مَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ وَسَائِرُ مَا يُذْكَرُ فِيهِ فَكُلُّهُ أَوْ جُلُّهُ مِمَّا يَخُصُّ أَشْعَارَهُمْ وَعَادَتَهُمْ فِيهَا وَذٰلِكَ أَنَّهُ يَذْكُرُ أَصْنَافَ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ وَكَيْفَ كَانَ مَنْشَأُ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِٱلطَّبْعِ وَأَيُّ جُزْءٍ هُوَ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي ٱلْكَوْنِ عَلَى أَيِّ جُزْءٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ ٱلْمَشْهُورَتَيْنِ عِنْدَهُمْ وَيَذْكُرُ مَعَ هٰذَا أَوَّلَ مَنِ ٱبْتَدَأَ صِنَاعَةً صِنَاعَةً مِنْ تِلْكَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْمُعْتَادَةِ عِنْدَهُمْ وَمَنْ زَادَ فِيهَا وَمَنْ كَمَّلَهَا بَعْدُ . وَهُوَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ يُثْنِي عَلَى أُومِيرُوشَ ثَنَاءً كَثِيرًا وَيَعْرِفُ أَنَّهُ ٱلَّذِي أَعْطَى مَبَادِئَ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ

قَبْلَهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ عَمَلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ وَلَا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ . قَالَ وَٱلْأَنْقَصُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلْمُتَقَدِّمَةُ بِٱلزَّمَانِ لِأَنَّ ٱلطِّبَاعَ أَسْهَلُ وُقُوعًا عَلَيْهَا أَوَّلًا. وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ مَقَاطِعَ أَقَلَّ وَٱلْأَنْقَصُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ نَغَمَاتٍ أَقَلَّ أَيْضًا. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعَ أَسْبَقُ إِلَى ٱلنُّفُوسِ أَنَّ ٱلنَّاسَ عِنْدَ ٱلْمُنَازَعَاتِ قَدْ يَرْتَجِلُونَ مَصَارِيعَ مِنْ هٰذِهِ فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْحَرَجِ. يُرِيدُ فِيمَا أَحْسِبُ مِثْلَ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: لَا لَا لَا يُمِدُّ بِهَا صَوْتَهُ. وَمِثْلَ قَوْلِهِ لَيْسَ هٰذَا كَذَا مَادًّا بِهَا صَوْتَهُ فَإِنَّ أَمْثَالَ هٰذِهِ ٱلْمُرَاجَعَاتِ هِيَ مَصَارِيعُ مَوْزُونَةٌ ذَاتُ لَحْنٍ وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَطْوَلُ وَأَتَمُّ فَإِنَّمَا ظَهَرَتْ بِآخِرَةٍ كَٱلْحَالِ فِي سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ. (قَالَ) وَصِنَاعَةُ ٱلْهِجَاءِ لَيْسَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلْمُحَاكَاةُ بِكُلِّ مَا هُوَ شَرٌّ وَقَبِيحٌ فَقَطْ بَلْ وَبِكُلِّ مَا هُوَ شَيْءٌ مُسْتَهْزَأٌ بِهِ أَيْ مَرْذُولٌ قَبِيحٌ غَيْرُ مُغْتَمٍّ بِهِ. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ٱلِٱسْتِهْزَاءَ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَوْصَافَ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي وَجْهِ ٱلْمُسْتَهْزِئِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالُ ٱلثَّلَاثَةُ أَعْنِي قَبَاحَةَ ٱلْوَجْهِ وَهَيْئَةَ ٱلِٱسْتِصْغَارِ وَقِلَّةَ ٱلِٱكْتِرَابِ بِٱلْمُسْتَهْزَإِ بِهِ وَذٰلِكَ بِخِلَافِ وَجْهِ ٱلْغَاضِبِ أَعْنِي أَنَّ فِيهِ قُبْحًا وَٱهْتِمَامًا وَتِلْكَ هِيَ حَالَةُ نَفْسِ ٱلْغَاضِبِ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُغْضَبُ عَلَيْهِ

البحث الرابع

في وزن الشعر ولحنه

(من الكتاب نفسه)

(قال) وايجاد صناعة المديح يكون تعلمها في الاعاريض الطويلة لا في القصيرة ولذلك رفض المتاخرون الاعاريض القصار التي كانت تستعمل فيها وفي غيرها من صنائع الشعر. واخص الاوزان بها هو الوزن البسيط الغير مركب ولكن ينبغي الا يبلغ فيها من الطول الى حد يستكره. والحد المفهم جوهر صناعة المديح هو انها نسبة ومحاكاة للعمل الارادي الفاضل الكامل الذي له قوة كلية في الامور الفاضلة لا قوة جزئية في واحد واحد من الامور الفاضلة محاكاة تنفعل لها النفوس انفعالا معتدلا بما يولد فيها من الرحمة والخوف وذلك بما يخيل في الفاضلين من النقي والنظافة فان المحاكاة انما هي للهيئات التي تلزم الفضائل لا للملكات اذ ليس يمكن فيها ان يتخيل. وهذه المحاكاة بالقول تكمل اذا قرن بها اللحن والوزن وقد توجد من المنشدين احوال اخر خارجة عن الوزن واللحن تجعل القول اتم محاكاة وهي الاشارات والاخذ بالوجوه الذي قيل في كتاب الخطابة فاول اجزاء صناعة المديح الشعري في العمل هو ان تحصى

ٱلْمَعَانِي ٱلشَّرِيفَةُ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ ٱلتَّخْيِيلُ . ثُمَّ تُكْسَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱللَّحْنَ وَٱلْوَزْنَ ٱللَّائِمَيْنِ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . وَعَمَلُ ٱللَّحْنِ فِي ٱلشِّعْرِ هُوَ أَنَّهُ يُعِدُّ ٱلنَّفْسَ لِقَبُولِ خَيَالِ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُقْصَدُ تَخْيِيلُهُ فَكَانَ ٱللَّحْنُ هُوَ ٱلَّذِي يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ ٱلِاسْتِعْدَادَ ٱلَّذِي بِهِ يُقْبَلُ ٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ تَشْبِيهُهُ . وَإِنَّمَا يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةَ فِي نَوْعٍ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ ٱللَّحْنُ ٱلْمُلَائِمُ لِذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلشِّعْرِ بِنَغَمَاتِهِ وَتَأْلِيفِهِ . فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّا نَجِدُ ٱلنَّغَمَ ٱلْحَادَّةَ تُلَائِمُ نَوْعًا مِنَ ٱلْقَوْلِ غَيْرَ ٱلَّذِي تُلَائِمُهُ ٱلنَّغَمَاتُ ٱلثِّقَالُ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْتَقِدَ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْحَانِ وَهَيْئَاتِ ٱلْمُحْدِثِينَ وَٱلْقُصَّاصِ ٱلَّتِي تُكْمِلُ ٱلتَّخْيِيلَ ٱلْمَوْجُودَ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَنْفُسِهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ أَعْنِي ٱلتَّشْبِيهَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ ٱلَّتِي هِيَ ٱسْطُقُسَّاتُ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ هَيْئَتَانِ إِحْدَاهُمَا هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى خُلُقٍ وَعَادَةٍ كَمَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامَ عَاقِلٍ أَوْ كَلَامَ غَضُوبٍ وَٱلثَّانِيَةُ هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱعْتِقَادٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَيْئَةُ مَنْ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ مُتَحَقِّقٌ بِٱلشَّيْءِ هَيْئَةَ مَنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ شَاكٌّ . فَٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحْدِثُ فِي ٱلْمَدِيحِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَيْئَةُ قَوْلِهِ وَشَكْلِهِ هَيْئَةَ مُحِقٍّ لَا شَاكٍّ وَهَيْئَةَ جَادٍّ لَا هَازِلٍ وَٱلْقَصَصُ وَٱلْحَدِيثُ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَرَ عَنْهُ ٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحْدِثُ وَهُوَ بِهَاتَيْنِ ٱلْحَالَتَيْنِ هُوَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَأَعْنِي بِٱلْخُرَافَةِ تَرْكِيبَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا بِحَسَبِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهَا أَعْنِي فِي ٱلْوُجُودِ وَإِمَّا بِحَسَبِ مَا ٱعْتِيدَ فِي ٱلشِّعْرِ

مِنْ ذٰلِكَ وَاِنْ كَانَ كَذِبًا. وَلِهٰذَا قِيلَ لِلْاَقَاوِيلِ الشِّعْرِيَّةِ خُرَافَاتٌ فَالْقُصَّاصُ وَالْمُحَدِّثُونَ بِالْجُمْلَةِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مُحَاكَاةِ الْعَادَاتِ وَالْاِعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ اَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ سِتَّةً : الْاَقَاوِيلُ الْخُرَافِيَّةُ وَالْعَادَاتُ وَالْوَزْنُ وَالْاِعْتِقَادَاتُ وَالنَّظَرُ وَاللَّحْنُ. وَالدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ قَدْ يَنْقَسِمُ اِلَى مُشَبَّهٍ وَمُشَبَّهٍ بِهِ وَالَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ اَلْمُحَاكَاةُ وَالْوَزْنُ وَاللَّحْنُ وَالَّذِي يُشَبَّهُ فِي الْمَدْحِ ثَلَاثَةٌ اَيْضًا: اَلْعَادَاتُ وَالْاِعْتِقَادَاتُ وَالنَّظَرُ اَعْنِي الْاِسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ الْاِعْتِقَادِ فَتَكُونُ اَجْزَاءُ صِنَاعَةِ الْمَدِيحِ ضَرُورَةً سِتَّةً. وَاِنَّمَا كَانَتِ الْعَادَاتُ وَالْاِعْتِقَادَاتُ اَعْظَمَ اَجْزَاءِ الْمَدِيحِ لِاَنَّ صِنَاعَةَ الْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةً تُحَاكِي النَّاسَ اَنْفُسَهُمْ مِنْ جِهَةِ مَا هُمْ اَشْخَاصُ نَاسٍ مَحْسُوسُونَ بَلْ اِنَّمَا تُحَاكِيهِمْ مِنْ قِبَلِ عَادَاتِهِمُ الْجَمِيلَةِ وَاَفْعَالِهِمُ الْحَسَنَةِ وَاَعْتِقَادَاتِهِمُ السَّعِيدَةِ تَشْمَلُ الْاَفْعَالَ وَالْخُلُقَ وَلِذٰلِكَ جُعِلَتِ الْعَادَةُ اَحَدَ اَجْزَاءِ السِّتَّةِ وَاَسْتُغْنِيَ بِذِكْرِهَا فِي التَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ الْاَفْعَالِ وَالْخُلُقِ. وَاَمَّا النَّظَرُ فَهُوَ اِبَانَةُ صَوَابِ الْاِعْتِقَادِ وَكَاَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ الْاِحْتِجَاجِ لِصَوَابِ الْاِعْتِقَادِ الْمَمْدُوحِ بِهِ. وَهٰذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ الْعَرَبِ وَاِنَّمَا يُوجَدُ فِي الْاَقَاوِيلِ الشَّرْعِيَّةِ الْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هٰذِهِ الثَّلَاثَةَ الْاَشْيَاءَ اَعْنِي الْعَادَاتِ وَالْاِعْتِقَادَاتِ وَالْاِسْتِدْلَالَ بِالثَّلَاثَةِ الْاَصْنَافِ مِنَ الْاَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا يُحَاكَى اَعْنِي الْقَوْلَ الْمُخَيَّلَ وَالْوَزْنَ وَاللَّحْنَ (قَالَ) وَاَجْزَاءُ الْقَوْلِ الْخُرَافِيِّ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ مُحَاكٍ جُزْءَانِ وَذٰلِكَ اَنَّ

كُلَّ مُحَاكَاةٍ فَإِمَّا اَنْ تُوطِئَ لِمُحَاكَاتِهِ بِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ اِلَى مُحَاكَاتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِٱلْاِدَارَةِ وَاِمَّا اَنْ يُحَاكِيَ ٱلشَّيْءَ نَفْسَهُ دُونَ اَنْ يَعْرِضَ لِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِٱلْاِسْتِدْلَالِ . وَٱلَّذِي يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبْدَإِ وَٱلْاُسِّ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْخُرَافِيُّ ٱلْمُحَاكِي . وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْعَادَاتُ وَهُوَ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ اَوَّلًا فِيهِ ٱلْمُحَاكَاةُ اَعْنِي اَنَّهُ ٱلَّذِي يُحَاكَى وَاِنَّمَا كَانَتِ ٱلْحِكَايَةُ هِيَ ٱلْعَمُودَ وَٱلْاُسَّ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِاَنَّ ٱلْاِلْتِذَاذَ لَيْسَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ ذِكْرُهُ دُونَ اَنْ يُحَاكَى بَلْ اِنَّمَا يَكُونُ ٱلْاِلْتِذَاذُ بِهِ وَٱلْقَبُولُ لَهُ اِذَا حُوكِيَ . وَلِذٰلِكَ لَا يَلْتَذُّ ٱلْاِنْسَانُ بِٱلنَّظَرِ اِلَى صُوَرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ اَنْفُسِهَا وَيَلْتَذُّ بِمُحَاكَاتِهَا وَتَصَوُّرِهَا بِٱلْاَصْبَاغِ وَٱلْاَلْوَانِ وَلِذٰلِكَ ٱسْتَعْمَلَ ٱلنَّاسُ صِنَاعَةَ ٱلزَّوَاقَةِ وَٱلتَّصْوِيرِ . وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ اَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّانِي هُوَ ٱلْاِعْتِقَادُ وَهٰذَا هُوَ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى مُحَاكَاةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ كَذَا اَوْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ كَذَا . وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ ٱلْخَطَابَةُ مِنْ تَبْيِينِ اَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ اَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ اِلَّا اَنَّ ٱلْخَطَابَةَ تَتَكَلَّفُ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ مُقْنِعٍ وَٱلشِّعْرَ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ اَيْضًا مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ . (قَالَ) وَقَدْ كَانَ ٱلْاَقْدَمُونَ مِنْ وَاضِعِي ٱلسِّيَاسَاتِ يَقْتَصِرُونَ عَلَى تَمْكِينِ ٱلْاِعْتِقَادَاتِ فِي ٱلنُّفُوسِ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ ٱلْمُتَاخِرُونَ بِٱلطُّرُقِ ٱلْخَطَابِيَّةِ وَٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْاِعْتِقَادِ وَٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ .

إنَّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ يَحُثُّ عَلَى عَمَلِ شَيْءٍ اَوْ عَلَى ٱلْهَرَبِ مِنْ شَيْءٍ وَٱلْقَوْلَ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِٱعْتِقَادِ إِنَّمَا يَحُثُّ عَلَى اَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ اَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ لَا عَلَى شَيْءٍ يُطْلَبُ اَوْ يُهْرَبُ عَنْهُ. وَٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ لِهٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ اَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّالِثِ هُوَ ٱلْوَزْنُ وَمِنْ تَمَامِهِ اَنْ يَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْغَرَضِ قَرْبٌ وَزْنٍ يُنَاسِبُ غَرَضًا وَلَا يُنَاسِبُ غَرَضًا آخَرَ. وَٱلْجُزْءُ ٱلْخَامِسُ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ هُوَ ٱللَّحْنُ وَهُوَ اَعْظَمُ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ تَأْثِيرًا وَاَفْعَلُهَا فِي ٱلنُّفُوسِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ هُوَ ٱلنَّظْرُ اَعْنِي ٱلِٱحْتِجَاجَ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ اَوْ صَوَابِ ٱلْعَمَلِ لَا بِقَوْلٍ إِقْنَاعِيٍّ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُلَائِمٍ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بَلْ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ فَإِنَّ صِنَاعَةَ ٱلشِّعْرِ لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى ٱلِٱحْتِجَاجِ وَٱلْمُنَاظَرَةِ وَبِخَاصَّةٍ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُ ٱلْمَدِيحُ صِنَاعَةَ ٱلتِّفَاقِ وَٱلْاَخْذِ بِٱلْوُجُوهِ كَمَا تَسْتَعْمِلُهَا ٱلْخَطَابَةُ. (قَالَ) وَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْعِلْمِيَّةُ ٱلَّتِي تُعْرَفُ مِمَّاذَا تُعْمَلُ ٱلْاَشْعَارُ وَكَيْفَ تُعْمَلُ اَتَمُّ رِئَاسَةً مِنْ عَمَلِ ٱلْاَشْعَارِ فَإِنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ تُوَقِّفُ مَا تَحْتَهَا مِنَ ٱلصَّانِعِ عَلَى عَمَلِهَا هِيَ اَرْأَسُ مِمَّا تَحْتَهَا

البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فاذ قد قيل ما هي صناعة المديح وبماذا تلتئم وكم اجزاؤها وما هي فلنقل في الاشياء التي بها يكون حسن الامور التي يتقوم بها الشعر. فان القول في هذه الاشياء ضروري في صناعة المديح وفي غيرها وهو لها بمنزلة المبدإ وذلك ان الامور التي تتقوم منها الصنائع صنفان امور ضرورية وامور تكون بها اتم وافضل فنقول انه يجب ان تكون صناعة المديح مستوفية غايات فعلها اعني ان تبلغ من التشبيه والمحاكاة الغاية التي في طباعها ان تبلغها وذلك يكون باشياء احدها ان يكون للقصيدة عظم ما محدود تكون به كلاً وكاملة والكل والكامل هو ما كان له مبدأ ووسط وآخر والمبدأ قبل وليس يجب ان يكون مع الاشياء التي هو لها مبدأ والآخر هو مع الاشياء التي هو لها آخر وليس قبل والوسط هو قبل ومعا فهو افضل من الطرفين اذ كان الوسط في المكان قبل وبعد فان الشجعان هم الذين مكانهم في الحرب ما بين مكان الجبناء والمتهورين وهو المكان الوسط وكذلك الحد الفاضل في التركيب هو الوسط وهو الذي يتركب من الاطراف ولا تتركب الاطراف منه وليس يجب ان

يَكُونَ ٱلْمُتَوَسِّطُ وَسَطًا اَيْ خِيَارًا فِي ٱلتَّرْكِيبِ وَٱلتَّرْتِيبِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمِقْدَارِ وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ اَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَاَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ وَسَطًا فِي ٱلْمِقْدَارِ وَكَذٰلِكَ يَجِبُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا اَنْ تَكُونَ بِقَدْرٍ مَحْدُودٍ لَا اَنْ تَكُونَ بِاَيِّ عِظَمٍ اُتُّفِقَ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْجَوْدَةَ فِي ٱلْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ شَيْئَيْنِ اَحَدُهُمَا ٱلتَّرْتِيبُ وَٱلثَّانِي ٱلْمِقْدَارُ وَلِهٰذَا لَا يُقَالُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلصَّغِيرِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى اَشْخَاصِ نَوْعِهِ اِنَّهُ جَيِّدٌ. وَٱلْحَالُ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْبُرْهَانِيِّ اَعْنِي اَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ اِنْ كَانَ قَصِيرَ ٱلْمُدَّةِ لَمْ يَكُنِ ٱلْفَهْمُ جَيِّدًا وَلَا اِنْ كَانَ اَطْوَلَ مِمَّا يَنْبَغِي لِاَنَّهُ يَلْحَقُ ٱلْمُتَعَلِّمَ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّسْيَانُ وَٱلْحَالُ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلنَّظَرِ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اَعْنِي اَنَّ ٱلنَّظَرَ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا اِذَا كَانَ بَيْنَ ٱلنَّاظِرِ وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا اِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ جِدًّا وَلَا اِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جِدًّا. وَٱلَّذِي يَعْرِضُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ بِعَيْنِهِ يَعْرِضُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي اَنَّهُ اِذَا كَانَتِ ٱلْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ اَجْزَاءَ ٱلْمَدِيحِ وَاِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُمْكِنْ اَنْ تُحْفَظَ فِي ذِكْرِ ٱلسَّامِعِينَ اَجْزَاؤُهَا فَيُعْرِضُ لَهُمْ اِذَا سَمِعُوا ٱلْاَجْزَاءَ ٱلْاَخِيرَةَ اَنْ يَكُونُوا قَدْ نَسُوا ٱلْاُولَى وَاَمَّا ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْخَطَابِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدْرٌ مَحْدُودٌ بِٱلطَّبْعِ وَلِذٰلِكَ اَحْتَاجَ ٱلنَّاسُ اَنْ يُقَدِّرُوا زَمَانَ ٱلْمُنَاظَرَةِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ اِمَّا بِآلَةِ ٱلْمَاءِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

ٱلعَادَةُ عِنْدَ ٱليُونَانِيِّينَ اِذْ كَانُوا اِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ ٱلضَّمَائِرَ فَقَطْ وَاِمَّا بِتَأْجِيلِ ٱلاَيَّامِ كَالحَالِ عِنْدَنَا اِذْ كَانَ ٱلمُعْتَمَدُ فِي ٱلخُصُومَاتِ عِنْدَنَا اِنَّمَا هِيَ ٱلاَشْيَاءُ ٱلمُقْنِعَةُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَلِذٰلِكَ لَوْ كَانَتْ صِنَاعَةُ ٱلمَدِيحِ بِٱلمُنَاظَرَةِ لَكَانَ يُحْتَاجُ فِيهَا اِلَى تَقْدِيرِ زَمَانِ ٱلمُنَاظَرَةِ بِسَاعَاتِ ٱلمَاءِ اَوْ غَيْرِهَا. لٰكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنِ ٱلاَمْرُ كَذٰلِكَ وَجَبَ اَنْ يَكُونَ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ كَٱلحَالِ فِي ٱلاَقْدَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلاُمُورِ ٱلمَوْجُودَةِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ كَمَا اَنَّ جَمِيعَ ٱلمُتَكَوِّنَاتِ اِذْ لَمْ يَعُقْهَا فِي حَالِ ٱلكَوْنِ سُوءُ ٱلنَّبْتِ صَارَتْ اِلَى عِظَمٍ مَحْدُودٍ بِٱلطَّبْعِ كَذٰلِكَ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ ٱلحَالُ فِي ٱلاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنْفَيِ ٱلمُحَاكَاةِ اَعْنِي ٱلَّتِي يُنْتَقَلُ فِيهَا مِنَ ٱلضِّدِّ اِلَى ٱلضِّدِّ اَوْ يُحَاكَى فِيهَا ٱلشَّيْءُ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُنْتَقَلَ اِلَى ضِدِّهِ (قَالَ) وَمِمَّا يُحَسَّنُ بِهِ قِوَامُ ٱلشِّعْرِ اَلَّا يُطَوَّلَ فِيهِ بِذِكْرِ ٱلاَشْيَاءِ ٱلكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ لِلشَّيْءِ ٱلوَاحِدِ ٱلمَقْصُودِ بِٱلشِّعْرِ فَاِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلوَاحِدَ تَعْرِضُ لَهُ اَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ وَكَذٰلِكَ يُوجَدُ لِلشَّيْءِ ٱلوَاحِدِ ٱلمُشَارِ اِلَيْهِ اَفْعَالٌ كَثِيرَةٌ (قَالَ) وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ لَا يَتَحَفَّظُونَ بِهٰذَا بَلْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ اِلَى شَيْءٍ وَلَا يَلْزَمُونَ غَرَضًا وَاحِدًا بِعَيْنِهِ مَا عَدَا اُومِيرُوسَ. وَاَنْتَ تَجِدُ هٰذَا كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ فِي اَشْعَارِ ٱلعَرَبِ وَٱلمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلمَدْحِ اَعْنِي اَنَّهُ اِذَا عَنَّ لَهُمْ شَيْءٌ مَا مِنْ اَسْبَابِ ٱلمَمْدُوحِ مِثْلُ سَيْفٍ اَوْ قَوْسٍ اَشْتَغَلُوا بِمُحَاكَاتِهِ وَاَضْرَبُوا عَنْ ذِكْرِ ٱلمَمْدُوحِ وَبِٱلجُمْلَةِ فَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ ٱلصِّنَاعَةُ تَتَشَبَّهُ بِٱلطَّبِيعَةِ

اَعْنِي اَنْ تَكُونَ اِنَّمَا تَفْعَلُ جَمِيعَ مَا تَفْعَلُهُ مِنْ اَجْلِ غَرَضٍ وَاحِدٍ وَغَايَةٍ وَاحِدَةٍ. وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَوَاجِبٌ اَنْ يَكُونَ اَلتَّشْبِيهُ وَاَلْحَاكَاةُ لِوَاحِدٍ وَمَقْصُودًا بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ وَاَنْ يَكُونَ لِاَجْزَائِهِ عِظَمٌ مَحْدُودٌ وَاَنْ يَكُونَ فِيهَا مَبْدَاٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَاَنْ يَكُونَ اَلْوَسَطُ اَفْضَلَهَا فَاِنَّ اَلْمَوْجُودَاتِ اَلَّتِي وُجُودُهَا فِي اَلتَّرْتِيبِ وَحُسْنِ اَلنِّظَامِ اِذَا عُدِمَتْ تَرْتِيبَهَا لَمْ يُوجَدْ لَهَا اَلْفِعْلُ اَلْخَاصُّ بِهَا. (قَالَ) وَظَاهِرٌ اَيْضًا مِمَّا قِيلَ مِنْ مَقْصَدِ اَلْاَقَاوِيلِ اَلشِّعْرِيَّةِ اَنَّ اَلْحَاكَاةَ اَلَّتِي تَكُونُ بِالْاُمُورِ اَلْمُخْتَرَعَةِ اَلْكَاذِبَةِ لَيْسَتْ مِنْ فِعْلِ اَلشَّاعِرِ وَهِيَ اَلَّتِي تُسَمَّى اَمْثَالًا وَقِصَصًا مِثْلُ مَا فِي كِتَابِ دِمْنَةَ وَكَلِيلَةَ. لٰكِنَّ اَلشَّاعِرَ اِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِي اَلْاُمُورِ اَلْمَوْجُودَةِ اَوِ اَلْمُمْكِنَةِ اَلْوُجُودِ لِاَنَّ هٰذِهِ هِيَ اَلَّتِي يُقْصَدُ اَلْهَرَبُ عَنْهَا اَوْ طَلَبُهَا اَوْ مُطَابَقَةُ اَلتَّشْبِيهِ لَهَا عَلَى مَا قِيلَ فِي فُصُولِ اَلْحَاكَاةِ. وَاَمَّا اَلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلْاَمْثَالَ وَالْقِصَصَ فَاِنَّ عَمَلَهُمْ غَيْرُ عَمَلِ اَلشُّعَرَاءِ وَاِنْ كَانُوا قَدْ يَعْمَلُونَ تِلْكَ اَلْاَمْثَالَ وَالْاَحَادِيثَ اَلْمُخْتَرَعَةَ بِكَلَامٍ مَوْزُونٍ. وَذٰلِكَ اَنَّ كِلَيْهِمَا وَاِنْ كَانَا يَشْتَرِكَانِ فِي اَلْوَزْنِ فَاَحَدُهُمَا يَتِمُّ لَهُ اَلْعَمَلُ اَلَّذِي قَصَدَهُ بِاَلْخُرَافَةِ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ مَوْزُونَةً وَهُوَ اَلتَّعَقُّلُ اَلَّذِي يُسْتَفَادُ مِنَ اَلْاَحَادِيثِ اَلْمُخْتَرَعَةِ وَالشَّاعِرُ لَا يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُهُ عَلَى اَلتَّمَامِ مِنَ اَلتَّخْيِيلِ اِلَّا بِاَلْوَزْنِ فَالْفَاعِلُ لِلْاَمْثَالِ اَلْمُخْتَرَعَةِ وَالْقِصَصِ اِنَّمَا يَخْتَرِعُ اَشْخَاصًا لَيْسَ لَهَا وُجُودٌ اَصْلًا وَيَضَعُ لَهَا اَسْمَاءً وَاَمَّا اَلشَّاعِرُ فَاِنَّمَا يَضَعُ اَسْمَاءً لِاَشْيَاءَ مَوْجُودَةٍ وَرُبَّمَا تَكَلَّمُوا فِي اَلْكُلِّيَّاتِ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ صِنَاعَةُ اَلشِّعْرِ اَقْرَبَ اِلَى اَلْفَلْسَفَةِ مِنْ صِنَاعَةِ اِخْتِرَاعِ اَلْاَمْثَالِ وَهٰذَا اَلَّذِي

قالَهُ هُوَ بِحَسَبِ عادَتِهِمْ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُشْبِهُ ٱنْ يَكُونَ هُوَ ٱلْأَمْرَ ٱلطَّبِيعِيَّ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ (قالَ) وَأَكْثَرُ مَا يَجِبُ ٱنْ يُعْتَمَدَ فِي صِناعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱنْ تَكُونَ ٱلْأَشْياءُ ٱلْمُحاكِياتُ أُمُورًا مَوْجُودَةً لَا أُمُورًا لَهَا أَسْماءٌ مُخْتَرَعَةٌ فَإِنَّ ٱلْمَدِيحَ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ ٱلتَّحْرِيكِ إِلَى ٱلْأَفْعالِ ٱلْإِرادِيَّةِ فَإِذَا كانَتِ ٱلْأَفْعالُ مُمْكِنَةً كانَ ٱلْإِقْناعُ فِيهَا أَكْثَرَ وُقُوعًا أَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلشِّعْرِيَّ ٱلَّذِي يُحَرِّكُ ٱلنَّفْسَ إِلَى ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ. وَأَمَّا ٱلْأَشْياءُ ٱلْغَيْرُ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ تُوضَعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا أَسْماءٌ فِي صِناعَةِ ٱلْمَدِيحِ إِلَّا أَقَلَّ ذٰلِكَ مِثْلُ وَضْعِهِمِ ٱلْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ يَضَعُونَ أَفْعالًا لَهُ وَيُحاكُونَهَا وَيُطْنِبُونَ فِي مَدْحِهِ. وَهٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَإِنْ كانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنْفَعَةً غَيْرَ يَسِيرَةٍ لِمُناسَبَةِ أَفْعالِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُخْتَرَعِ وَٱنْفِعالَاتِهِ لِلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي ٱنْ يُعْتَمَدَ فِي صِناعَةِ ٱلْمَدِيحِ فَإِنَّ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لَيْسَ مِمَّا يُوافِقُ جَمِيعَ ٱلطِّباعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْبابِ لِلْعَرَبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى:

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ نَواظِرُ ... إِلَى ضَوْءِ نارٍ بِٱلْيَفاعِ تُحَرِّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى ٱلنَّارِ ٱلنَّدَى وَٱلْمُحَلَّقُ
رَضِيعَيْ لِبانِ ثَدْيَ أُمٍّ تَحالَفَا ... بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

وَإِذَا كانَ هٰذَا هٰكَذَا فَظَاهِرٌ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا يَكُونُ شاعِرًا بِعَمَلِ ٱلْخُرافاتِ وَٱلْأَوْزانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قادِرًا عَلَى عَمَلِ ٱلتَّشْبِيهِ

وَٱلْحَاكَاةِ وَهُوَ إِنَّمَا يَعْمَلُ ٱلتَّشْبِيهَ لِلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ ٱنْ يُحَاكِيَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ يُحَاكِي ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا ٱنَّهَا مُمْكِنَةُ ٱلْوُجُودِ وَهُوَ فِي ذٰلِكَ شَاعِرٌ لَيْسَ بِدُونِ مَا هُوَ فِي مُحَاكَاةِ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ مِنْ قِبَلِ ٱنَّهُ لَيْسَ مَانِعٌ يَمْنَعُ ٱنْ تُوجَدَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ عَلَى مِثْلِ حَالِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ فِي ٱلتَّخْيِيلِ ٱلشِّعْرِيِّ إِلَى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ ٱلْمُخْتَرَعَةِ وَلَا ٱيْضًا يَحْتَاجُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُفْلِقُ ٱنْ تَتِمَّ مُحَاكَاتُهُ بِٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَهُوَ ٱلَّذِي يُدْعَى نِفَاقًا وَٱخْذًا بِٱلْوُجُوهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْمُمَوِّهُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ٱعْنِي ٱلَّذِينَ يَرَوْنَ ٱنَّهُمْ شُعَرَاءُ وَلَيْسُوا شُعَرَاءَ. وَأَمَّا ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْحَقِيقَةِ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ إِلَّا عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ ٱنْ يُقَابِلُوا بِهِ ٱسْتِعْمَالَ شُعَرَاءِ ٱلزُّورِ لَهُ وَأَمَّا إِذَا قَابَلُوا ٱلشُّعَرَاءَ ٱلْمُجِيدِينَ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ أَصْلًا. وَقَدْ يُضْطَرُّ ٱلْمُفْلِقُونَ فِي مَوَاضِعَ ٱنْ يَسْتَعِينُوا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْ عَمُودِ ٱلشِّعْرِ مِنْ قِبَلِ ٱنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لِلْأَشْيَاءِ ٱلْكَامِلَةِ ٱلَّتِي تُمْكِنُ مُحَاكَاتُهَا عَلَى ٱلتَّمَامِ بَلْ لِأَشْيَاءَ نَاقِصَةٍ تَعْسُرُ مُحَاكَاتُهَا بِٱلْقَوْلِ فَيُسْتَعَانُ عَلَى مُحَاكَاتِهَا بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا قَصَدُوا مُحَاكَاةَ ٱلِٱعْتِقَادَاتِ لِأَنَّ تَخْيِيلَهَا يَعْسُرُ إِنْ كَانَتْ لَيْسَتْ أَفْعَالًا وَلَا جَوَاهِرَ وَقَدْ تُمْزَجُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ بِٱلْحَاكِيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَحْيَانًا كَأَنَّهَا بِٱتِّفَاقٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَهَا فِعْلٌ مُعْجِبٌ إِذَا كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا ٱنْ تَقَعَ بِٱتِّفَاقٍ مُعْجِبَةً

(قال) وكثير من الاقاويل الشعرية تكون جودتها في المحاكاة البسيطة الغير المتفننة وكثير منها انما تكون جودتها في نفس التشبيه والمحاكاة وذلك ان الحال في التشبيه كالحال في الاعمال فكما ان من الاعمال ما ينال بفعل واحد بسيط ومنها ما ينال بفعل مركب كذلك الامر في المحاكاة. والمحاكاة البسيطة هي التي يستعمل فيها احد نوعي التخييل اعني النوع الذي يسمى الاداءة او النوع الذي يسمى الاستدلال. واما المحاكاة المركبة فهي التي يستعمل فيها الصنفان جميعا وذلك اما بان يبتدأ بالاداءة ثم ينتقل منه الى الاستدلال او يبتدأ بالاستدلال ثم ينتقل منه الى الاداءة والاعتماد هو ان يبدأ بالاداءة ثم ينتقل منه الى الاستدلال فانه فرق كبير بين ان يبدأ اولا بالاداءة ثم ينتقل الى الاستدلال او يبدأ بالاستدلال ثم ينتقل الى الاداءة. (قال) واعني بالاداءة محاكاة ضد المقصود مدحه اولا بما ينفر النفس عنه ثم ينتقل منه الى محاكاة الممدوح نفسه مثلا انه اذا اراد ان يحاكي السعادة واهلها ابتدأ اولا بمحاكاة الشقاوة واهلها ثم انتقل الى محاكاة اهل السعادة وذلك بضد ما حاكى به اهل الشقاوة. واما الاستدلال فهو محاكاة الشيء فقط (قال) واحسن الاستدلال ما خلط بالاداءة. (قال) وقد يستعمل الاستدلال والاداءة في الاشياء الغير المتنفسة وفي المتنفسة لا من جهة ما يقصد به عمل

اَوْ تَرْكٌ بَلْ مِنْ جِهَةِ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ اَعْنِي ٱلْمُطَابَقَةَ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْاِسْتِدْلَالِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلْغَالِبُ عَلَى اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ اَعْنِي ٱلْاِسْتِدْلَالَ وَٱلْاِدَارَةَ فِي غَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ :

كَمْ زَوْرَةٍ لَكَ فِي ٱلْاَعْرَابِ خَافِيَةٍ
اِذْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زَوْرَةِ ٱلذِّيبِ

اَزُورُهُمْ وَسَوَادُ ٱللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي
وَاَنْثَنِي وَبَيَاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فَاِنَّ ٱلْبَيْتَ ٱلْاَوَّلَ هُوَ ٱسْتِدْلَالٌ . وَٱلثَّانِي اِدَارَةٌ وَلَمَّا جَمَعَ هٰذَانِ ٱلْبَيْتَانِ صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ كَانَا فِي غَايَةٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ (قَالَ) وَٱلْاِسْتِدْلَالُ ٱلْاِنْسَانِيُّ وَٱلْاِدَارَةُ اِنَّمَا يُسْتَعْمَلَانِ فِي ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْاِسْتِدْلَالِ هُوَ ٱلَّذِي يُثِيرُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلرَّحْمَةَ تَارَةً وَٱلْخَوْفَ تَارَةً وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي نَحْتَاجُ اِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ مَدِيحِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَهَجْوِ ٱلْقَبِيحَةِ (قَالَ) فَهٰذَانِ ٱلْجُزْءَانِ ٱللَّذَانِ اَخْبَرْنَا عَنْهُمَا هُمَا جُزْءَا صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَهَا هُنَا جُزْءٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُوَلِّدُ ٱلْاِنْفِعَالَاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةَ اَعْنِي ٱنْفِعَالَاتِ ٱلْخَوْفِ وَٱلرَّحْمَةِ وَٱلْحُزْنِ وَهُوَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلْمَصَائِبِ وَٱلرَّزَايَا ٱلنَّازِلَةِ بِٱلنَّاسِ فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءَ هِيَ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ وَهُوَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْاَفْعَالِ ٱلَّتِي هِيَ مَقْصُودَةُ ٱلْمَدِيحِ عِنْدَهُمْ

البحث السادس

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسه)

(قال) فاما اجزاء صناعة المديح من باب الكيفية فقد تكلمنا فيها . واما اجزاؤها من جهة الكمية فينبغي ان نتكلم فيها وهو يذكر في هذا المعنى اجزاء خاصة باشعارهم والذي يوجد منها في اشعار العرب فهو ثلاثة . الجزء الذي يجري عندهم مجرى الصدر في الخطبة وهو الذي فيه يذكرون الديار والآثار ويتغزلون فيه والجزء الثاني المدح . والجزء الثالث الذي يجري مجرى الخاتمة في الخطبة وهذا الجزء اكثر ما هو عندهم اما دعاء للممدوح واما في تقريض الشعر الذي قاله والجزء الاول اشهر من هذا الآخر ولذلك يسمون الانتقال من الجزء الاول الى الثاني استطرادا وربما اتوا بالمديح دون صدر . مثل قول ابي تمام :

لهان علينا ان نقول ونفعلا

ومثل قول ابي الطيب :

لكل امرىء من دهره ما تعودا

ولما فرغ من تعديد اجزاء الشعر عندهم (قال) فاما اجزاء صناعة المديح التي من جهة الكيفية والتي من جهة الكمية فقد

اخبرنا بها. فاما من اي المواضع يمكن عمل صناعة المديح فنحن مخبرون عنها بعد ومضيفون ذلك الى ما تقدم (قال) وينبغي كما قيل ان لا يكون تركيب المدائح من محاكاة بسيطة بل مخلوطة من انواع الاستدلالات وانواع الادارة ومن المحاكاة التي توجب الانفعالات المخيفة المحركة المرققة للنفوس وذلك انه يجب ان تكون المدائح التي يقصد بها الحث على الفضائل مركبة من محاكاة الفضائل ومن محاكاة اشياء محوقة محزنة يتفجع لها وهي الشقاوة التي تلحق من عدم الفضائل لا باستيهال وذلك ان بهذه الاشياء يشتد تحرك النفس لقبول الفضائل فان انتقال الشاعر من محاكاة فضيلة الى محاكاة لا فضيلة او من محاكاة فاضل الى محاكاة لا فاضل ليس فيه شيء مما يحث الانسان ويزعجه الى فعل الفضائل اذا كان ليس يوجب محبة لها زائدة ولا خوفا. والاقاويل المديحية يجب ان يوجد فيها هذان الامران وذلك يكون اذا انتقل من محاكاة الفضائل الى محاكاة الشقاوة ورداءة النجت النازلة بالافاضل او انتقل من هذه الى محاكاة اهل الفضائل فان هذه المحاكاة ترق النفوس وتذعجها الى قبول الفضائل وانت تجد اكثر المحاكاة الواقعة في الاقاويل الشرعية على هذا النحو الذي ذكر اذ كانت تلك هي اقاويل مديحية تدل على العمل مثل ما ورد من حديث يوسف واخوته وغير ذلك من الاقاصيص التي تسمى مواعظ (قال) وانما تحدث الرحمة والرقة بذكر حدوث الشقاوة

بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْوَاجِبِ . وَٱلْخَوْفُ إِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ ذِكْرِ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ تَخَيُّلِ وُقُوعِ ٱلضَّارِّ بِمَنْ هُوَ دُونَهُمْ أَعْنِي بِنَفْسِ ٱلسَّامِعِ إِذْ كَانَ أَحْرَى بِذٰلِكَ وَٱلْحُزْنُ وَٱلرَّحْمَةُ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ وُقُوعِهَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ ٱلْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا يُوقِعُ فِي ٱلنَّفْسِ خَوْفًا مِنْ فَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَمَحَبَّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَحُثَّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلْحُزْنَ وَٱلْخَوْفَ وَٱلرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلْحِسَانُ ٱلْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ هِيَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هٰذَا ٱلتَّرْكِيبُ أَعْنِي ذِكْرَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ وَٱلْمُرَقِّقَةِ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ يُخْطِئُ ٱلَّذِينَ يَأْلُمُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شِعْرِهِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذٰلِكَ نَافِعٌ فِي ٱلْمَدِيحِ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا ٱلْمُغْضِبَاتُ وَٱلْغَضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبٍّ شَدِيدٍ لِلِانْتِقَامِ وَإِذْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَذِكْرُ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ ٱلنَّازِلَةِ بِأَهْلِ ٱلْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ فَوَاتِ ٱلْفَضَائِلِ فَأَمَّا مُحَاكَاةُ ٱلنَّقَائِصِ فِي ٱلْمَدَائِحِ فَقَدْ يُدْخِلُهَا قَوْمٌ فِيهَا لِأَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ ٱلْإِدَارَةِ لٰكِنَّ مُنَاسَبَةَ ذَمِّ ٱلنَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَخْيِيلُهَا فِي ٱلْمَدَائِحِ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمَدِيحِيُّ تُذْكَرُ فِيهِ ٱلنَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ ٱلْأَعْدَاءِ ٱلْمُبْغِضِينَ وَٱلْمَدَائِحُ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَفْعَالِ ٱلْأَوْلِيَاءِ

وَٱلْأَصْدِقَاءِ. وَأَمَّا عَدُوُّ ٱلْعَدُوِّ أَوِ صَدِيقُ ٱلصَّدِيقِ فَلَيْسَ يُذْكَرُ لَا فِي ٱلْمَدْحِ وَلَا فِي ٱلذَّمِّ إِذْ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عَدُوًّا (قَالَ) وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلْمُخْتَرَعَةُ ٱلْمُخَيِّلَةُ مَخْرَجُهَا مَخْرَجَ مَا يَقَعُ تَحْتَ ٱلْبَصَرِ يُرِيدُ مِنْ وُقُوعِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهَا لِأَنَّهُ إِذْ كَانَتِ ٱلْخُرَافَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا أَوْ أُخْرِجَتْ مُخْرَجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفْعَلِ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَقْصُودَ بِهَا وَذٰلِكَ أَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ ٱلْمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشْفِقُ لَهُ. وَهٰذَا ٱلَّذِي ذُكِرَ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي أَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِٱلْقَصَصِ ٱلشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ أَرَاذِلَ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِٱلطَّبْعِ لِأَحَدِ قَوْلَيْنِ إِمَّا قَوْلٍ بُرْهَانِيٍّ وَإِمَّا قَوْلٍ لَيْسَ بُرْهَانِيًا. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ ٱلْخَسِيسُ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ عَدِمَ ٱلتَّحَرُّكَ عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي ٱلْمَدَائِحِ مُحَاكَاةَ أَشْيَاءَ يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّعَجُّبُ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مُخَيِّلَةً وَلَا مُخْتَرَعَةً وَأَنْتَ تَجِدُ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا كَثِيرًا فِي ٱلْمَكْتُوبَاتِ ٱلشَّرْعِيَّةِ إِذْ كَانَتْ مَدَائِحُ ٱلْفَضَائِلِ لَيْسَ تُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا فِي ٱلسُّنَنِ ٱلْمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهٰذَا ٱلْفِعْلُ لَيْسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ بِوَجْهٍ مِنَ ٱلْوُجُوهِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ أَيُّ لَذَّةٍ ٱتَّفَقَتْ لٰكِنْ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا حُصُولُ ٱلِٱلْتِذَاذِ بِتَخْيِيلِ ٱلْفَضَائِلِ وَهِيَ ٱللَّذَّةُ ٱلْمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعْلُومٌ مَا هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱللَّذَّاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْحَقَ عَنْ ذٰلِكَ حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ مَعَ ٱلِٱلْتِذَاذِ بِمُحَاكَاتِهَا

ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ فَإِنَّمَا يَقْدِرُ ٱلْإِنْسَانُ عَلَى ذٰلِكَ إِذَا ٱلْتَمَسَ أَيَّ
ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ ٱلصَّعْبَةُ مِنَ ٱلنَّوَائِبِ ٱلَّتِي تَنُوبُ وَأَيَّ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ
ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْيَسِيرَةُ ٱلْهَيِّنَةُ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُ عَنْهَا كِبَرُ حُزْنٍ وَلَا خَوْفٍ
وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ مَا يَنْزِلُ بِٱلْأَصْدِقَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ
مِنْ قِبَلِ ٱلْإِرَادَةِ مِنَ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ لَا مَا يَنْزِلُ بِٱلْأَعْدَاءِ
بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيْسَ يَحْزَنُ وَلَا يُشْفِقُ لِمَا يَنْزِلُ
مِنَ ٱلسُّوءِ بِٱلْعَدُوِّ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا يَحْزَنُ وَيَخَافُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلنَّازِلِ
بِٱلصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَلْحَقُ عَنْ ذٰلِكَ أَلَمٌ فَلَيْسَ
يَلْحَقُ مِثْلُ ٱلْأَلَمِ ٱلَّذِي يَلْحَقُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلَّذِي يَنْزِلُ مِنَ ٱلْمُحِبِّينَ
بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ مِثْلُ قَتْلِ ٱلْإِخْوَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا أَوْ قَتْلِ ٱلْآبَاءِ ٱلْأَبْنَاءَ
أَوِ ٱلْأَبْنَاءِ ٱلْآبَاءَ وَلِهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْهُ كَانَ قَصَصُ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أُمِرَ فِي
ٱبْنِهِ فِي غَايَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُوجِبَةِ لِلْحُزْنِ وَٱلْخَوْفِ (قَالَ) وَٱلْمَدْحُ إِنَّمَا
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ ٱلَّتِي تَصْدُرُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ
لِأَنَّ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ مَا يُفْعَلُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ وَمِنْهَا مَا يُفْعَلُ لَا عَنْ
إِرَادَةٍ وَلَا عِلْمٍ وَمِنْهَا يُفْعَلُ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ إِرَادَةٍ أَوْ عَنْ إِرَادَةٍ
لَا عَنْ عِلْمٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَفْعَالُ مِنْهَا مَا تَكُونُ لِمَنْ يَعْرِفُ وَلِمَنْ لَا
يَعْرِفُ فَٱلْفِعْلُ إِذَا صَدَرَ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا إِرَادَةٍ فَلَيْسَ يَدْخُلُ فِي
بَابِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ صَادِرًا مِنْ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِأَنَّهُ يَكُونُ
حِينَئِذٍ فِي ٱلْأُكْذُوبَاتِ أُدْخِلَ مِنْهُ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَا يَجِبُ أَنْ
يُحَاكَى. وَأَمَّا ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي لَا يُشَكُّ أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَةٍ وَمَعْرِفَةٍ

وَعَنْ مَعْرُوفِينَ فَمَا اَحْسَنَ ٱلِاسْتِدْلَالَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَفْعَالِ (قَالَ) فَاَمَّا فِي حُسْنِ قِوَامِ ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي تُرَكَّبُ مِنْهَا ٱلْاَشْعَارُ وَكَيْفَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا فَقَدْ قُلْنَا فِي ذٰلِكَ قَوْلًا كَافِيًا فَاَمَّا اَيُّ ٱلْعَادَاتُ هِيَ ٱلْعَادَاتُ ٱلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تُحَاكَى فِي ٱلْمَدْحِ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ نَقُولَ فِيهَا فَنَقُولُ اِنَّ ٱلْعَادَاتِ ٱلَّتِي تُحَاكَى عِنْدَ ٱلْمَدْحِ ٱلْجَيِّدِ اَعْنِي ٱلَّذِي يَحْسُنُ مَوْقِعُهَا مِنَ ٱلسَّامِعِينَ اَرْبَعَةٌ اِحْدَاهَا ٱلْعَادَاتُ ٱلَّتِي هِيَ خَيِّرَةٌ وَفَاضِلَةٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ فَاِنَّ ٱلَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ٱلنَّفْسِ هُوَ مُحَاكَاةُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْحَقِّ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ وَكُلُّ جِنْسٍ فَفِيهِ خَيْرٌ مَا وَاِنْ كَانَ فِيهِ اَشْيَاءُ لَيْسَتْ خَيْرًا. وَٱلثَّانِيَةُ اَنْ تَكُونَ ٱلْعَادَاتُ مِنَ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَتَصْلُحُ لَهُ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْعَادَاتِ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَرْاَةِ لَيْسَتْ تَلِيقُ بِٱلرَّجُلِ. وَٱلثَّالِثَةُ اَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِيهِ عَلَى اَتَمِّ مَا يُمْكِنُ اَنْ تُوجَدَ فِيهِ مِنَ ٱلشَّبَهِ وَٱلْمُوَافَقَةِ. وَٱلرَّابِعَةُ اَنْ تَكُونَ مُعْتَدِلَةً مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ ٱلْاَطْرَافِ وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْعَوَائِدَ ٱلرَّذْلَةَ لَيْسَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱلَّتِي لَا تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَاِنْ كَانَتْ جِيَادًا وَكَذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱللَّائِقَةُ اِذَا لَمْ تُوجَدْ عَلَى اَتَمِّ مَا يُمْكِنُ فِيهَا مِنَ ٱلْمُشَابَهَةِ اَوْ لَمْ تُوجَدْ مُسْتَوْفَاةً وَٱلْعَوَائِدُ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَتَدُلُّ عَلَى ٱلْخُلُقِ ٱلْخَيِّرِ ٱلْفَاضِلِ مِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَمِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ وَمِنْهَا مَا هِيَ شَبِيهَةٌ بِهٰذَيْنِ وَٱلْعَوَائِدُ ٱلْجِيَادُ اِمَّا حَقِيقِيَّةٌ وَاِمَّا شَبِيهَةٌ بِٱلْحَقِيقِيَّةِ وَاِمَّا مَشْهُورَةٌ اَوْ شَبِيهَةٌ بِٱلْمَشْهُورَةِ وَكُلُّ

هٰذِهِ تَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ ٱنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ ٱلْاَشْعَارِ وَٱلْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِاِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي وَقَعَ ٱلْمَدْحُ بِهَا كَٱلْحَالِ فِي خَوَاتِمِ ٱلْخُطَبِ وَٱنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ لَا يُورِدُ فِي شِعْرِهِ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْخَارِجَةِ عَنِ ٱلْقَوْلِ اِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ ٱلْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذٰلِكَ اِلَى ٱلْغُلُوِّ وَٱلْخُرُوجِ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ (قَالَ) وَٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ مَدَائِحُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي فِي غَايَةِ ٱلْفَضِيلَةِ فَكَمَا اَنَّ ٱلْمُصَوِّرَ ٱلْحَاذِقَ يُصَوِّرُ ٱلشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ حَتَّى اَنَّهُمْ قَدْ يُصَوِّرُونَ ٱلْغِضَابَ وَٱلْكَسَالَى مَعَ اَنَّهَا صِفَاتٌ نَفْسَانِيَّةٌ كَذٰلِكَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاتِهِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يُحَاكِيَ ٱلْاَخْلَاقَ وَاَحْوَالَ ٱلنَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِ لِاُومِيرُوسَ قَالَهُ فِي صِفَةِ قَضِيَّةٍ عَرَضَتْ لِرَجُلٍ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ اَعْنِي ٱلَّذِي يُحَاكِي حَالَ ٱلنَّفْسِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ يَصِفُ رَسُولَ ٱلرُّومِ ٱلْوَاصِلَ اِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ:

اَتَاكَ يَكَادُ ٱلرَّأْسُ يَخْرُجُ عُنْقَهُ ... وَتَنْقَدُّ تَحْتَ ٱلذُّعْرِ مِنْهُ ٱلْمَفَاصِلُ

يُقَوِّمُ تَقْوِيمُ ٱلسَّمَاطَيْنِ مَشْيَهُ ... اِلَيْكَ اِذَا مَا عَوَّجَتْهُ ٱلْاَفَاكِلُ

(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَلْزَمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَمُحَاكَيَاتِهِ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِاسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَاَلَّا يَتَعَدَّى فِي ذٰلِكَ طَرِيقَةَ ٱلشِّعْرِ (قَالَ) وَاَنْوَاعُ ٱلْاِسْتِدْلَالَاتِ ٱلَّتِي تَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى اَعْنِي ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلْجَارِيَةَ مَجْرَى ٱلْجُودَةِ عَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلصِّنَاعِيِّ

انواعٌ كثيرةٌ فمنها ان تكونَ المحاكاةُ لاشياء محسوسةٍ باشياء محسوسةٍ من شأنها ان توقعَ الشكَّ لمن ينظرُ اليها وتوهمُ انها هي لاشتراكها في احوالٍ محسوسةٍ وذلكَ مثلُ تشبيههم لبعضِ صورِ الكواكبِ سرطانًا ولبعضها ممسكَ الحربةِ لانها من جهةِ الشكلِ يمكنُ ان يتوهمَ متوهمٌ انها هي هي. وجلُّ تشبيهاتِ العربِ راجعةٌ الى هذا الموضعِ ولذلكَ كانتْ حروفُ التشبيهِ عندهم تقتضي الشكَّ وكلما كانتْ هذهِ المتوهماتُ اقربَ الى وقوعِ الشكِّ كانتْ اتمَّ تشبيهًا وكلما كانتْ ابعدَ من وقوعِ الشكِّ كانتْ انقصَ تشبيهًا وهذهِ هي المحاكاةُ البعيدةُ وينبغي ان تطرحَ وذلكَ مثلُ قولِ امرىء القيسِ في الفرسِ:

كانها هراوةُ منوالِ

ومثلُ قولهِ:

اذا اقبلتْ قلتُ دُبّاءةٌ من الخضرِ مغمورةٌ في الغدرْ
وان ادبرتْ قلتُ اثفيةٌ مُلمْلمةٌ ليسَ فيها اثرْ

وانْ كانَ هذا اقربَ من الاولِ لانَّ فيهِ مقابلةً ما. ومنها ان تكونَ المحاكاةُ لامورٍ معنويةٍ بامورٍ محسوسةٍ اذ كانَ لتلكَ الامورِ افعالٌ مناسبةٌ لتلكَ المعاني حتى توهمَ انها هي مثلُ قولهم في المنةِ انها طوقُ العنقِ وفي الاحسانِ قيدٌ كما قالَ ابو الطيبِ:

ومن وجدَ الاحسانَ قيدًا تقيدا

وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ اِمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ اَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَبِيهٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يُطْرَحَ وَهٰذَا كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ فِي شِعْرِ اَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ ٱلْمَلَامِ

فَاِنَّ ٱلْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ. وَاَسْخَفُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

كُتُبَ ٱلْمَوْتِ رَائِبًا وَحَلِيبَا

وَكَمَا اَنَّ ٱلْبَعِيدَ ٱلْوُجُودِ هَا هُنَا مُطَّرَحٌ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْخَسِيسِ ٱلْوُجُودِ مُطَّرَحًا اَيْضًا وَاَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاضِلَةِ. فَمِثَالُ تَشْبِيهِ ٱلشَّرِيفِ بِٱلْخَسِيسِ قَوْلُ ٱلرَّاجِزِ:

وَٱلشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلِ فَكَاَنَّهَا فِي ٱلْاُفْقِ عَيْنُ ٱلْاَحْوَلِ

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ:

وَقَدْ عَلِمَ ٱلرُّومُ ٱلشَّقِيُّونَ اَنَّهُمْ سَتَلْقَاهُمُ يَوْمًا وَتَلْقَى ٱلدُّمُسْتُقَا

وَكَانُوا كُفَارٍ وَشَوْشُوا خَلْفَ حَائِطٍ وَكُنْتَ كَسِنَّوْرٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

قَالَ وَهُنَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ ٱلْاَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ فِي بَابِ ٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْاِقْنَاعِ اُدْخِلَ مِنْهَا فِي بَابِ ٱلتَّخْيِيلِ وَهِيَ اَقْرَبُ اِلَى ٱلْمِثَالَاتِ ٱلْخَطَابِيَّةِ مِنْهَا اِلَى ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ كَٱلْكَحَلِ

وقولِهِ :

في طلعةِ الشمسِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ

ومِنْ احسنِ ما في هذا المعنى قولُ ابي فِراسٍ :

ونحنُ اناسٌ لا توسُّطَ عندنا لنا الصدرُ دونَ العالمينَ او القبرُ
تهونُ علينا في المعالي نفوسُنا ومَنْ خطبَ الحسناءَ لم يغلُهُ المهرُ

(قالَ) والنوعُ الثالثُ من المحاكاةِ هي المحاكاةُ التي تقعُ بالتذكُّرِ وذلكَ انْ يوردَ الشاعرُ شيئًا يتذكَّرُ بهِ شيئًا آخرَ مثلَ انْ يرى الانسانُ خطَّ انسانٍ فيتذكَّرُهُ فيحزنُ عليهِ انْ كانَ ميتًا او يتشوَّقُ اليهِ انْ كانَ حيًّا وهذا موجودٌ في اشعارِ العربِ كثيرًا مثلُ قولِ متمِّمِ بنِ نُويرةَ :

وقالوا اتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَهُ لقبرٍ ثوى بينَ اللِّوى والدكادكِ
فقلتُ لهم انَّ الاسى يبعثُ الاسى دعوني فهذا كلُّهُ قبرُ مالكِ

ومنهُ قولُ قيسٍ المجنونِ :

وداعٍ دعا اذ نحنُ بالخيفِ من منًى
فهيَّجَ احزانَ الفؤادِ وما يدري
دعا باسمِ ليلى غيرَها فكأنما
اطارَ بليلى طائرًا كانَ في صدري

ومِنْ هذا النوعِ قولُ الخنساءِ :

يذكِّرُني طلوعُ الشمسِ صخرًا واذكرُهُ لكلِّ غروبِ شمسِ

وقولُ الهذليِّ :

أَبَى ٱلصَّبْرُ إِنِّي لَا يَزَالُ يَهِيجُنِي مَبِيتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلُ
إِذَا مَا بَيَاضُ ٱلصُّبْحِ آنَسْتُ ضَوْءَهُ يُعَاوِدُنِي جِنْحٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ تَذَكُّرُهَا ٱلْأَحِبَّةَ بِٱلدِّيَارِ وَٱلْأَطْلَالِ كَمَا قَالَ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ ٱلْعَرَبِ مِنْ تَذَكُّرِ ٱلْأَحِبَّةِ بِٱلْخَيَالِ وَإِقَامَتِهِ مُقَامَ ٱلتَّخَيُّلِ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ:

وَإِنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلْبُيُوتِ لَعَلَّنِي أُحَدِّثُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ فِي ٱلسِّرِّ خَالِيَا

وَتَصَرُّفُ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فِي ٱلْخَيَالِ مُتَفَنِّنٌ وَأَنْحَاءُ ٱسْتِعْمَالِهِمْ لَهُ كَثِيرَةٌ وَلِذٰلِكَ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْخَاصَّةِ بِٱلنَّسِيبِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي ٱلرِّثَاءِ كَمَا قَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ:

خَلَا نَاظِرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ فَقْدٌ عَلَى فَقْدِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلنَّوْعُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّ شَخْصًا مَا شَبِيهٌ بِشَخْصٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ بِعَيْنِهِ وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلْخَلْقِ أَوِ ٱلْخُلُقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ جَاءَ شَبِيهُ يُوسُفَ وَلَمْ يَأْتِ إِلَّا فُلَانٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلًا

وَٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ خِلَافُ ٱلتَّشْبِيهِ فَإِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ هُوَ إِيقَاعُ شَكٍّ وَٱلتَّصْرِيحَ بِٱلشَّبِيهِ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ هُوَ تَحْقِيقٌ لِوُجُودِ ٱلشَّبَهِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ فِي

مُطَابَقَةِ ٱلتَّخْيِيلِ اَعْنِي اِذْ قِيلَ شَبِيهُ فُلَانٍ (قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلْخَامِسُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ ٱلسُّوفُسْطَائِيُّونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَهُوَ ٱلْغُلُوُّ ٱلْكَاذِبُ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

تَقُدُّ ٱلسَّلُوقِيَّ ٱلْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوقِدُ بِٱلصُّفَّاحِ نَارَ ٱلْحُبَاحِبِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَلَوْلَا ٱلرِّيحُ اُسْمِعَ مَنْ بِحَجْرٍ صَلِيلَ ٱلْبِيضِ تُقْرَعُ بِٱلذُّكُورِ .

وَهٰذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ اَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ

وَقَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

لَوِ ٱلْفَلَكُ ٱلدَّوَّارُ اَبْغَضْتَ سَيْرَهُ لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ ٱلدَّوَرَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ ٱلطَّرْفَ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ
مِنَ ٱلذَّرِّ فَوْقَ ٱلْاِتْبِ مِنْهَا لَاَثَّرَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجِدُ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ مِنْهُ شَيْئًا اِذْ كَانَ يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ ٱلْقَوْلِ اَعْنِي ٱلشِّعْرَ مَنْزِلَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلسُّوفُسْطَائِيِّ مِنَ ٱلْبُرْهَانِ وَلٰكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

وَاَنِّي اَهْتَدِي هٰذَا ٱلرَّسُولُ بِاَرْضِهِ
وَمَا سَكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فِيهَا ٱلْقَسَاطِلُ

وَمِنْ اَيِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقِي جِيَادَهُ
وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَزْجِ الدِّمَاءِ اَلْمَنَاهِلُ

وَقَوْلِهِ:

لَبِسْنَ اَلْوَشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ وَلٰكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ اَلْجَمَالَا
وَضَفَّرْنَ اَلْغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ وَلٰكِنْ خِفْنَ فِي اَلشَّعَرِ اَلضَّلَالَا

وَهَا هُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ اَلْعَرَبُ وَهُوَ اِقَامَةُ اَلْجَمَادَاتِ مُقَامَ اَلنَّاطِقِينَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ اِذَا كَانَتْ فِيهَا اَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى اَلنُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ اَلشَّاعِرِ:

وَاَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَاذِ لَمَّا رَاَيْتُهُ وَكَبَّرَ لِلرَّحْمٰنِ حِينَ رَآنِي
فَقُلْتُ لَهُ اَيْنَ اَلَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ حَوَالَيْكَ فِي اَمْنٍ وَخَفْضِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا وَاَسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ وَمَنْ ذَا اَلَّذِي يَبْقَى عَلَى اَلْحَدَثَانِ

وَمِنْ هٰذَا اَلْبَابِ مُخَاطَبَتُهُمُ اَلدِّيَارَ وَاَلْاَطْلَالَ وَمُجَاوَبَتُهَا لَهُمْ كَقَوْلِ ذِي اَلرُّمَّةِ:

وَاَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا اَبُثُّهُ تُكَلِّمُنِي اَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

وَقَوْلِ عَنْتَرَةَ:

اَعْيَاكَ رَسْمُ اَلدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ حَتَّى تَكَلَّمَ كَالْاَصَمِّ اَلْاَعْجَمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالْجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَاَسْلَمِي

اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُشْبِهُ هٰذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ هٰذَا اَلْمَوْضِعَ فِي كِتَابِ اَلْخَطَابَةِ وَذَكَرَ اَنَّ اُورِيبُرُوشَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ كَثِيرًا (قَالَ) وَالْاِسْتِدْلَالُ اَلْفَاضِلُ وَالْاِدَارَةُ اِنَّمَا تَكُونُ لِلْاَفْعَالِ

ٱلْإِرَادِيَّةِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْاِسْتِدْلَالِ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ أَعْنِي فِي مَدْحِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ وَذَمِّ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْغَيْرِ فَاضِلَةٍ وَهُوَ قَلِيلٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ. وَمِثَالُ ٱلْإِدَارَةِ فِي ٱلْمَدْحِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ: ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً إِلَى قَوْلِهِ: مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. وَمِثَالُ ٱلْاِسْتِدْلَالِ. قَوْلُهُ: كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ٱلْآيَةَ. (قَالَ) وَإِجَادَةُ ٱلْقَصَصِ ٱلشِّعْرِيِّ وَٱلْبُلُوغُ بِهِ إِلَى غَايَةِ ٱلتَّمَامِ إِنَّمَا يَكُونُ مَتَى بَلَغَ ٱلشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ أَوِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاقِعَةِ ٱلَّتِي يَصِفُهَا مَبْلَغًا يُرِي ٱلسَّامِعِينَ لَهُ كَأَنَّهُ مَحْسُوسٌ وَمَنْظُورٌ إِلَيْهِ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا ضِدُّهُ غَيْرَ ذَاهِبٍ عَلَيْهِمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ وَهٰذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي شِعْرِ ٱلْفُحُولِ وَٱلْمُفْلِقِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لٰكِنْ إِنَّمَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لِلْعَرَبِ إِمَّا فِي أَفْعَالٍ غَيْرِ عَفِيفَةٍ وَإِمَّا فِيمَا ٱلْقَصْدُ مِنْهُ مُطَابَقَةُ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ فَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلْفُجُورِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ ٱلْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ

فَقَالَتْ سَبَاكَ ٱللهُ إِنَّكَ فَاضِحِي ... أَلَسْتَ تَرَى ٱلسَّمَّارَ وَٱلنَّاسَ أَحْوَالِي

فَقُلْتُ يَمِينُ ٱللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

وَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ مِمَّا ٱلْقَصْدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلتَّشْبِيهِ فَقَطْ قَوْلُ ذِي ٱلرُّمَّةِ يَصِفُ ٱلنَّارَ:

وَسِقْطٍ كَعَيْنِ ٱلدِّيكِ عَاوَرْتُ صُحْبَتِي ... أَبَاهَا وَهَيَّأْنَا لِمَوْقِعِهَا وَكْرَا

فَقُلْتُ لَهَا ٱرْفَعْهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا
بِرُوحِكَ وَٱقْتَتْهُ لَهَا قُتَّةَ قِدْرَا
وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ ٱلشَّحْتِ وَٱسْتَعِنْ
عَلَيْهَا ٱلصَّبَا وَٱجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا

وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ مِثْلِ ٱلْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَمَدَّحُونَ بِهِ وَٱلْمُتَنَبِّي أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذٰلِكَ يُحْكَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِجَادَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ يَتَأَتَّى بِأَنْ يَحْصُلَ لِلْإِنْسَانِ أَوَّلًا جَمِيعُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يُرَكِّبَ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْأَجْزَاءَ ٱلثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ أَعْنِي ٱلتَّخْيِيلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ ٱلِٱسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا أَشَارَ بِذٰلِكَ إِلَى كَثْرَتِهَا وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ فَمِنْهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ ٱلْأَشْيَاءِ شَبَهًا بِٱلرِّبَاطِ ٱلْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلِٱسْتِطْرَادَ وَهُوَ رَبْطُ جُزْءِ ٱلنَّسِيبِ وَبِٱلْجُمْلَةِ صَدْرِ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلْجُزْءِ ٱلْمَدِيحِيِّ. وَٱلْحَلُّ تَفْصِيلُ ٱلْجُزْئَيْنِ أَحَدِهِمَا مِنَ ٱلْآخَرِ أَيْ يُؤْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا. وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

عَامِي وَعَامُ ٱلْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَنْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ

حَتَّى أُغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا ... لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ
هَيْهَاتِ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ ... حَتَّى تُنَاخَ بِأَحْمَدَ الْمَحْمُودِ

وَكَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا
مِنْ أَيْنَ جَالَسَ هٰذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا
فَاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَالْمُغِيثِ يُرَى
لَيْثَ الشَّرَى وَهُوَ مِنْ عِجْلٍ إِذَا انْتَسَبَا

وَأَمَّا الْحَلُّ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ:

دَعْ ذَا وَعَدِّ الْقَوْلَ فِي هَرِمٍ

(قَالَ) وَأَنْوَاعُ الْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ الَّتِي تَقَدَّمَتْ أَحَدُهَا الْإِدَارَةُ. وَالثَّانِي الِاسْتِدْلَالُ. وَالثَّالِثُ الِانْفِعَالُ (قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ الْجَحِيمِ فَإِنَّ هٰذِهِ مُخْزِنَةٌ مُفْزِعَةٌ. وَالرَّابِعُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثَتِهَا وَإِمَّا مِنِ اثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هٰذِهِ الْمَدَائِحِ الْأَرْبَعَةِ لِلْفِعْلِ الْإِرَادِيِّ الْفَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ كَثِيرًا (قَالَ) وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يُجِيدُ الْقَوْلَ فِي الْقَصَائِدِ الْمُطَوَّلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ الْأَشْعَارَ الْقِصَارَ وَالْقَصَائِدَ الْقَصِيرَةَ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا الْمُقَطَّعَاتِ وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الشَّاعِرُ الْمُجِيدُ هُوَ الَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِخَوَاصِّهِ وَعَلَى كُنْهِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ الْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِالْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ شَيْءٍ مِنْ

ٱلْاَشْيَاء ٱلْمَوْصُوفَةِ وَجَبَ اَنْ يَكُونَ ٱلتَّخْيِيلُ ٱلْفَاضِلُ هُوَ ٱلَّذِي لَا يَتَجَاوَزُ خَوَاصَّ ٱلشَّيْءِ وَلَا حَقِيقَتَهَا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ لَقَدِ ٱعْتَادَ اَوْ مَنْ فِطْرَتُهُ مُعِدَّةٌ نَحْوَ تَخْيِيلِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْقَلِيلَةِ ٱلْخَوَاصِّ فَهٰؤُلَاءِ تَجُودُ اَشْعَارُهُمْ فِي ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَلَا تَجُودُ فِي ٱلْقَصَائِدِ وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ هُوَ عَلَى ضِدِّ هٰؤُلَاءِ وَهُمُ ٱلْمُقَصِّدُونَ كَٱلْمُتَنَبِّي وَحَبِيبٍ وَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَادُوا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلْخَوَاصِّ اَوْ هُمْ بِفِطَرِهِمْ مُعَدُّونَ لِمُحَاكَاتِهَا اَوِ ٱجْتَمَعَ لَهُمُ ٱلْاَمْرَانِ جَمِيعًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلتَّخْيِيلَاتِ وَٱلْمَعَانِي مَا يُنَاسِبُ ٱلْاَوْزَانَ ٱلطَّوِيلَةَ وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ ٱلْقَصِيرَةَ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْوَزْنُ مُنَاسِبًا لِلْمَعْنَى غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلتَّخْيِيلِ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْاَمْرُ بِٱلْعَكْسِ وَرُبَّمَا كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِكِلَيْهِمَا وَاَمْثِلَةُ هٰذِهِ مِمَّا يَعْسُرُ وُجُودُهَا فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ اَوْ تَكُونُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِيهَا اِذْ اَعَارِيضُهُمْ قَلِيلَةُ ٱلْقَدْرِ (قَالَ) وَقَدْ يُضَافُ اِلَى ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا قِوَامُ ٱلْاَشْعَارِ اُمُورٌ مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ ٱلْهَيْئَاتُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِي صَوْتِ ٱلشَّاعِرِ وَصُورَتِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَاَكْثَرُ مَا تُوجَدُ هٰذِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُسْتَعْمِلِينَ لَهَا فِي ٱلْاَشْعَارِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ مِثْلُ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي اَهْلِ ٱلْجَحِيمِ وَغَيْرِهِمْ وَلَمَّا كُنَّا قَدْ قُلْنَا فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلْاَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ اَجْزَاؤُهَا بِٱلْحَقِيقَةِ فَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ نَقُولَ فِي هٰذِهِ اَيْضًا فَنَقُولُ: اِنَّ هٰذِهِ ٱلْاَفْعَالَ بِٱلْجُمْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا ٱلْاَقْوَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلِٱنْفِعَالِيَّةَ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي اِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ اَنْ تُسْتَعْمَلَ مَعَ هٰذِهِ ٱلْاَقَاوِيلِ. وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ تُرِي ٱلِٱنْفِعَالَ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِٱلْقَوْلِ تَثْبِيتُهُ كَاَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

وَٱسْتَيْقَنَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَضُرُوبُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ ٱلَّتِي تَفْعَلُهَا هٰذِهِ ٱلْاَقَاوِيلُ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْاَفْعَالُ اَخَصَّ بِكِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ مِنْهَا بِكِتَابِ ٱلشِّعْرِ. وَٱلِٱنْفِعَالَاتُ ٱلَّتِي تُثَبَّتُ بِٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ اَوِ ٱلشِّعْرِيِّ هِيَ ٱلْخَوْفُ وَٱلْغَضَبُ وَٱلرَّحْمَةُ وَٱلتَّعْظِيمُ وَسَائِرُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي عُدِّدَتْ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ. وَهُوَ ظَاهِرٌ اَنَّهُ كَمَا اَنَّ هَا هُنَا اَقْوَالًا تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ كَذٰلِكَ هَا هُنَا هَيْئَاتٌ وَاَشْكَالٌ تَدُلُّ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّمِ عَلَى حُضُورِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ وَاَنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ لِوُقُوعِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لَهَا فَيَنْفَعِلُ لِذٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ لَهَا فَهٰذِهِ ٱلصُّوَرُ وَٱلْهَيْئَاتُ اِنَّمَا يَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي ٱلشِّعْرِ اِنِ ٱسْتُعْمِلَتْ مَعَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَذٰلِكَ اِمَّا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَاِمَّا فِي ٱلتَّصْغِيرِ وَاِمَّا فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُخْزِيَةِ ٱلْمُحَرَّقَةِ اِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءُ هِيَ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ عَلَى مَا سَلَفَ. وَاِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ هٰذِهِ مَعَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ صَادِقَةً اَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَتْ هِيَ ظَاهِرَةَ ٱلتَّخْيِيلِ. وَاَمَّا ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ ظَاهِرَةُ ٱلتَّخْيِيلِ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ وَهِيَ حَقٌّ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ اَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيهَا هٰذِهِ ٱلْاُمُورُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَاِنَّهَا تُهَجِّنُهَا اِذْ كَانَتْ هٰذِهِ اِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تَضْعُفُ اَنْ تَفْعَلَ مَا قُصِدَ بِهَا اِلَّا بِٱقْتِرَانِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ بِهَا وَهِيَ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ فَاِنَّ ٱلْقَائِلَ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ يَحْضُرُ ٱلْمَلَاَ مِنْ اَهْلِ قُرْطُبَةَ يُحَرِّضُهُ عَلَى حَسْدَايَ ٱلْيَهُودِيِّ:

اِنَّ ٱلَّذِي شَرَّفْتَ مِنْ اَجْلِهِ ... يَزْعُمُ هٰذَا اَنَّهُ كَاذِبُ

لَمْ يَحْتَجْ فِي اِغْضَابِ ٱلنَّاصِرِ عَلَيْهِ اِلَى اَكْثَرَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ وَاِنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سِمَتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكَوْنِ هٰذَا ٱلْقَوْلِ حَقًّا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ اَنْ يَسْتَعْمِلَهَا اِذْ كَانَتْ لَيْسَتْ اِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ تُهَجِّنُ ٱلْقَوْلَ وَٱلْقَائِلَ اِذَا كَانَ بِٱلسِّمَتِ وَٱلْوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ يَكْتَفِي ٱلشَّاعِرُ مِنْ هٰذِهِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْاَشْكَالِ ٱلْخَاصَّةِ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلْاَقَاوِيلِ وَذٰلِكَ اِذَا اُضْطُرَّ اِلَى ذٰلِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ ٱلْاَخْذَ بِٱلْوُجُوهِ . وَاَعْنِي بِاَشْكَالِ ٱلْقَوْلِ شَكْلَ ٱلْخَبَرِ وَشَكْلَ ٱلسُّؤَالِ وَشَكْلَ ٱلْاَمْرِ وَشَكْلَ ٱلتَّضَرُّعِ وَذٰلِكَ اَنَّ شَكْلَ ٱلْمُخْبِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلسَّائِلِ وَشَكْلَ ٱلْاٰمِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلطَّالِبِ اَوِ ٱلْمُتَضَرِّعِ فَٱلشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِاَشْكَالِ ٱلْاَقَاوِيلِ عَنْ سَائِرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَاِنَّ تِلْكَ اِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهْجِينُ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَاِنَّمَا يَنْبَغِي اَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ اُخْرَى

البحث السابع

في اسطقسات الاقاويل الشعريَّة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَٱلْاَسْمَاءُ صِنْفَانِ اِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَيْسَ هُوَ مُرَكَّبًا مِنْ اَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَاِمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ اَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَاِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تَدُلُّ تِلكَ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلَّتِي رُكِّبَ مِنْهَا مِثْلُ عَبْدِ شَمْسٍ وَعَبْدِ ٱلْقَيْسِ
(قَالَ) وَكُلُّ ٱسْمٍ فَهُوَ إِمَّا حَقِيقِيٌّ وَإِمَّا دَخِيلٌ فِي ٱللِّسَانِ
وَإِمَّا مَنْقُولٌ نَادِرُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ وَإِمَّا مُزَيَّنٌ وَإِمَّا مَعْمُولٌ وَإِمَّا مَعْقُولٌ
وَإِمَّا مُفَارَقٌ وَإِمَّا مُغَيَّرٌ . فَٱلْحَقِيقِيُّ هُوَ ٱلِٱسْمُ ٱلَّذِي يَكُونُ خَاصًّا
بِأُمَّةٍ أُمَّةٍ وَٱلدَّخِيلُ هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ لِأُمَّةٍ أُخْرَى فَيُدْخِلُهُ
ٱلشَّاعِرُ فِي شِعْرِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ ٱلْإِسْتَبْرَقِ وَٱلْمِشْكَاةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ
ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْأَعْجَمِيَّةِ ٱلدَّخِيلَةِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ . وَأَمَّا ٱلِٱسْمُ ٱلنَّادِرُ
ٱلْمَنْقُولُ فَهُوَ نَقْلُ ٱسْمٍ غَرِيبٍ إِمَّا مِنَ ٱلنَّوْعِ إِلَى ٱلْجِنْسِ مِثْلُ
تَسْمِيَةِ ٱلْقَتْلِ مَوْتًا وَإِمَّا مِنَ ٱلْجِنْسِ إِلَى ٱلنَّوْعِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلثُّقْلَةِ
حَرَكَةً وَإِمَّا مِنْ نَوْعٍ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلْخِيَانَةِ سَرِقَةً
وَإِمَّا أَنْ يُنْقَلَ شَيْءٌ مَنْسُوبٌ إِلَى ثَانٍ إِلَى شَيْءٍ ثَالِثٍ مَنْسُوبٍ إِلَى
رَابِعٍ مِثْلُ نِسْبَةِ ٱلْأَوَّلِ إِلَى ٱلثَّانِي مِثْلَ مَا كَانَ يُسَمِّي بَعْضُ
ٱلْقُدَمَاءِ ٱلشَّيْخُوخَةَ عَشِيَّةَ ٱلْعُمْرِ وَيُسَمِّي ٱلْعَشِيَّةَ شَيْخُوخَةَ ٱلنَّهَارِ وَذٰلِكَ
أَنَّ نِسْبَةَ ٱلشَّيْخُوخَةِ إِلَى ٱلْعُمْرِ نِسْبَةُ ٱلْعَشِيَّةِ إِلَى ٱلنَّهَارِ وَأَمَّا
ٱلِٱسْمُ ٱلْمَعْمُولُ ٱلْمُرْتَجَلُ فَهُوَ ٱلِٱسْمُ ٱلَّذِي يَخْتَرِعُهُ ٱلشَّاعِرُ ٱخْتِرَاعًا
وَيَكُونُ هُوَ أَوَّلَ مَنِ ٱسْتَعْمَلَهُ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي أَشْعَارِ
ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلنَّاشِئَةِ وَأَكْثَرُ مَا فِي ٱلصَّنَائِعِ
هُوَ مَنْقُولٌ لَا مَعْمُولٌ مُخْتَرَعٌ وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُحْدَثُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ
عَلَى طَرِيقِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ أَعْنِي ٱلْمَنْقُولَ إِلَى ٱلصَّنَائِعِ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي
ٱلطَّيِّبِ :

اِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا

مَضَى قَبْلَ اَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ اَلْجَوَازِمُ

وَرُبَّمَا اَسْتَعْمَلُوا تَصْرِيفًا لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَبْلُ مِثْلُ قَوْلِهِ :

تَفَاوَحَ مِسْكُ اَلْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ

وَاَمَّا اَلْمُفَارَقُ وَاَلْمَعْقُولُ فَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ اَلْعَرَبِ. وَاَلْمُزَيَّنَةُ هِيَ اَسْمَاءٌ كَانَتْ تُجْعَلُ بَعْضُ اَجْزَائِهَا نَعْتًا فَتُزَيَّنُ بِهَا وَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ يَعْنِي بِاَلْمُفَارَقِ اَلْاَسْمَاءَ اَلْمُغَيَّرَةَ بِاَلزِّيَادَةِ فِيهَا وَاَلنُّقْصَانِ مِنْهَا وَاَلْحَذْفِ اَوِ اَلْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذٰلِكَ اَلْاَسْمَاءَ اَلَّتِي يَعْسُرُ اَلنُّطْقُ بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ اَسْمٌ كَانَ يُؤَلَّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعَ مَحْدُودَةٍ وَاَلِاسْمُ اَلْمَعْقُولُ فَاِنَّهُ فِيمَا اَحْسِبُ اَلَّذِي سَمَّاهُ اَلْمُخْتَلَفَ وَظَاهِرُ كَلَامِهِ اَنَّهُ اَلِاسْمُ اَلْمَحْذُوفُ بِاَلنُّقْصَانِ مِثْلُ اَلْاَسْمَاءِ اَلْمُرَخَّمَةِ عِنْدَمَا وَاَمَّا اَلْمُغَيَّرَةُ فَهِيَ اَلْمُسْتَعَارَةُ اَلَّتِي تُسْتَعَارُ اِمَّا مِنَ اَلشَّبِيهِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ اَلْكَوْكَبَ نَسْرًا وَاِمَّا مِنَ اَلضِّدِّ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ اَلشَّمْسَ جَوْنَةً وَاِمَّا مِنَ اَللَّازِمِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ اَلشَّحْمَ نَدًا وَاَلْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَاَفْضَلُ اَلْقَوْلِ فِي اَلتَّفْهِيمِ اِنَّمَا هُوَ اَلْقَوْلُ اَلْمَشْهُورُ اَلْمُبْتَذَلُ اَلَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى اَحَدٍ وَهٰذِهِ اَلْاَقَاوِيلُ اِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ اَلْاَسْمَاءِ اَلْمَشْهُورَةِ اَلْمُبْتَذَلَةِ وَهِيَ اَلَّتِي سَمَّاهَا فِي مَا قَبْلُ اَلْحَقِيقِيَّةَ وَتُسَمَّى اَلْمُسْتَوْلِيَةَ وَاَلْاَهْلِيَّةَ (قَالَ) وَذٰلِكَ مِثْلُ شِعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ عِنْدَهُمْ. وَيَنْبَغِي اَنْ نَتَفَقَّدَ مَنِ اَلْغَالِبُ عَلَى اَشْعَارِهِ هٰذَا اَلنَّوْعُ مِنَ اَلْاَلْفَاظِ مِنْ شُعَرَاءِ اَلْعَرَبِ (قَالَ) وَاَلْاَقَاوِيلُ اَلْعَفِيفَةُ اَلْمَدِيحِيَّةُ

فهي الاقاويل التي تؤلف من الاسماء المبتذلة ومن الاسماء الاخر اعني المنقولة الغريبة المغيرة واللغوية لانه متى تعرى الشعر كله من الالفاظ الحقيقية المستولية كان رمزا ولغزا ولذلك كانت الالغاز والرموز هي التي تؤلف من الاسماء الغريبة اعني بالغريبة المنقول المستعار والمشترك واللغوي. والرمز واللغز هو القول الذي يشتمل على معان لا يمكن او يعسر اتصال تلك المعاني التي يشتمل عليها بعضا ببعض حتى يطابق بذلك احد الموجودات. ويكون اما بحسب الالفاظ المشهورة فاتصال تلك المعاني بعضها ببعض غير ممكن واما بحسب الالفاظ الغير المشهورة فممكن وذلك كثير في شعر ذي الرمة من شعراء العرب. وفضيلة القول الشعري العفيفي ان يكون مؤلفا من الاسماء المستولية من تلك الانواع الاخر وان يكون الشاعر حيث يريد الايضاح يأتي بالاسماء المستولية وحيث يريد التعجب والالذاذ يأتي بالصنف الاخر من الاسماء ولذلك قد يتضاحك بمن يريد الايضاح فيأتي بالاسماء المشتركة او الغريبة او الالسن او المعمولات ويتضاحك ايضا بمن يريد التعجب والالذاذ فيأتي بالاسماء المبتذلة وكان الشاعر يجب له الا يفرط في استعمال الاسماء الغير المستولية فيخرج الى حد الرمز ولا ايضا يفرط في الاسماء المستولية فيخرج عن طريقة الشعر الى الكلام المتعارف (قال) واما موافقة الالفاظ بعضها لبعض في المقدار

ومُعادَلَةُ ٱلمَعاني بَعضِها لِبَعضٍ ومُوازَنَتُها فَأَمرٌ يَجِبُ ان يَكونَ عامًّا ومُشتَرَكًا لِجَميعِ ٱلأَلفاظِ ٱلَّتي هي اَجزاءُ ٱلقَولِ ٱلشِّعرِيِّ وذٰلِكَ انَّا نَجِدُ ٱلشُّعَراءَ وانِ ٱستَعمَلوا ٱلأَلفاظَ ٱلحَقيقِيَّةَ في ٱلمَواضِعِ ٱلَّتي يُجيزُها فِي ٱستِعمالِهِم اِيّاها لَيسَ يَخلو شِعرُهُم مِن هٰذَينِ ٱلأَمرَينِ اَعني مِنَ ٱلمُوازَنَةِ وَٱلمُوافَقَةِ فِي ٱلمِقدارِ ولٰكِن كانَ هٰذا عامًّا لِجَميعِ اَنواعِ ٱلشِّعرِ. وَاَمّا ٱلاَشعارُ ٱلَّتي تَأتَلِفُ مِنَ ٱلاَسماءِ ٱلمُختَلِفَةِ فَوُجودُ هٰذا ٱلمَعنى فيها اَبيَنُ ومُوافَقَةُ ٱلأَلفاظِ ٱلَّتي ذُكِرَ فِي ٱلمِقدارِ هِيَ مُقارَنَةُ بَعضِها لِبَعضٍ فِي عَدَدِ ٱلحُروفِ وَاِنْ وافَقَتْ مَعَ هٰذا فِي كُلِّ ٱللَّفظِ اَوْ فِي بَعضِ ٱللَّفظِ فَهُوَ ٱلَّذي يُعرَفُ بِٱلمُطابَقَةِ وَٱلمُجانَسَةِ عِندَ اَهلِ زَمانِنا. وَٱلمُوافَقَةُ اَنحاءٌ وَذٰلِكَ اَنَّهُ لَا تَخلو ٱلمُوافَقَةُ اَنْ تَكونَ فِي كُلِّ ٱللَّفظِ وَكُلِّ ٱلمَعنى وهٰذا مِثلُ قَولِ ٱلشّاعِرِ:

لَا اَرَى ٱلمَوتَ يَسبِقُ ٱلمَوتُ شَيءٌ

وَمِثلُ قَولِهِم طَويلُ ٱلنِّجادِ طَويلُ ٱلعِمادِ. اَوْ اَنْ تَكونَ فِي بَعضِ ٱللَّفظِ وَبَعضِ ٱلمَعنى اَوْ اَنْ تَكونَ فِي بَعضِ ٱللَّفظِ وَكُلِّ ٱلمَعنى اَوْ تَكونَ فِي كُلِّ ٱللَّفظِ وَبَعضِ ٱلمَعنى اَوْ تَكونَ فِي كُلِّ ٱللَّفظِ فَقَطْ اَوْ فِي بَعضِ ٱللَّفظِ فَقَطْ اَوْ تَكونَ فِي كُلِّ ٱلمَعنى فَقَطْ اَوْ فِي بَعضِ ٱلمَعنى فَمِثالُ ٱلمُوافَقَةِ فِي بَعضِ ٱللَّفظِ وَبَعضِ ٱلمَعنى ٱلاَسماءُ ٱلمُشتَقَّةُ مِنْ تَصريفِ واحِدٍ وَذٰلِكَ مِثلُ قَولِ ٱلمُتَنَبّي:

عَلَى قَدْرِ اَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وَمِثَالُ الْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ وَكُلِّ الْمَعْنَى قَوْلُهُمْ دِرْهَمٌ ضَرْبُ الْاَمِيرِ وَمَضْرُوبُ الْاَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكْسِ هٰذَا اَعْنِي فِي كُلِّ اللَّفْظِ وَبَعْضِ الْمَعْنَى الْاَسْمَاءُ الْمُشَكِّكَةُ وَالشُّعَرَاءُ يَسْتَعْمِلُونَهَا كَثِيرًا وَمِثَالُ الْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ اللَّفْظِ فَقَطِ الْاَسْمَاءُ الْمُشْتَرَكَةُ مِثْلُ قَوْلِ الْمَعَرِّيِّ:

مَعَانٌ مِنْ اِحِبَّتِنَا مَعَانُ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ:

فَزَنْدُكَ مُغْتَالٌ وَطَرْفُكَ مُغْتَالُ

وَمِثَالُ الْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ اللَّفْظِ فَقَطْ قَوْلُ حَبِيبٍ:

مَا اَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةٍ بِذَاهِلِ

وَقَوْلُ اَبِي الطَّيِّبِ:

اُقَلِّبُ الطَّرْفَ بَيْنَ الْخَيْلِ وَالْخَوَلِ

وَهٰذَا كُلُّهُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مِثْلُ الضَّرْبِ وَالضَّرَبِ وَالْحَمْلِ وَالْحَمَلِ وَاَشْرَقَتِ الشَّمْسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ الْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ الْمَعْنَى فَقَطِ الْاَسْمَاءُ الْمُتَرَادِفَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ اَقْوَى وَاَقْفَرَ. وَمِثَالُ الْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ الْمَعْنَى فَقَطِ الْاَسْمَاءُ الْمُخْتَلِفَةُ الَّتِي تَدُلُّ مِنَ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِثْلَ الصَّارِمِ وَالذَّكَرِ. وَالْقَوَافِي عِنْدَ الْعَرَبِ هِيَ مُوَافَقَةٌ فِي الْمِقْدَارِ وَفِي بَعْضِ اللَّفْظِ وَذٰلِكَ اِمَّا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ

وَهُوَ ٱلْآخِيرُ وَإِمَّا فِي حَرْفَيْنِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعَرِّفُهُ ٱلْمُحْدَثُونَ بِٱللُّزُومِ وَأَمَّا ٱلْمُوَازَنَةُ فِي أَجْزَاءِ ٱلْقَوْلِ فَهِيَ عَلَى أَنْحَاءٍ أَرْبَعَةٍ أَحَدُهَا أَنْ يَأْتِيَ ٱلشَّاعِرُ بِٱلشَّيْءِ وَشَبِيهِهِ مِثْلَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلْأَضْدَادِ مِثْلَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلشَّيْءِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ ٱلْقَوْسِ وَٱلسَّهْمِ وَٱلْفَرَسِ وَٱللِّجَامِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُنَاسِبَةِ مِثْلُ ٱلْمَلِكِ وَٱلْإِلٰهِ وَهٰذِهِ ٱلْمُنَاسَبَةُ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ. وَفِي هٰذَا ٱلْبَابِ عِيبَ عَلَى ٱلْكُمَيْتِ:

تَكَامَلَ فِيهِ ٱلذُّلُّ وَٱلشَّنَبُ

لِأَنَّ ٱلذُّلَّ غَيْرُ شَبِيهٍ بِٱلشَّنَبِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ . وَلَمْ أَتَعَرَّفْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبِإِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

إِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَإِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ هُوَ عَكْسُ مَا فَعَلَ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ صَدْرَ ٱلثَّانِي وَصَدْرُ ٱلثَّانِي صَدْرَ ٱلْأَوَّلِ وَمِثْلُ هٰذَا قِيلَ فِي قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

وَقَفْتَ وَمَا فِي ٱلْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ ٱلرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تُمُرُّ بِكَ ٱلْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً
وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

إِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ لِلثَّانِي وَصَدْرُ

ٱلثَّانِي لِلْأَوَّلِ وَمَا قَالَهُ اَبُو ٱلطَّيِّبِ لَهُ وَجْهٌ مِنَ ٱلتَّنَاسُبِ وَكَذٰلِكَ مَا قَالَهُ اَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ (قَالَ) وَٱلْقَوْلُ اِنَّمَا يَكُونُ مُخْتَلِفًا اَيْ مُغَيَّرًا عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلْحَقِيقِيِّ مِنْ حَيْثُ تُوضَعُ فِيهِ ٱلْاَسْمَاءُ مُتَوَافِقَةً فِي ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمِقْدَارِ وَبِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ وَبِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلتَّغْيِيرِ. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْقَوْلَ ٱلشِّعْرِيَّ هُوَ ٱلْمُغَيَّرُ اَنَّهُ اِذَا غُيِّرَ ٱلْقَوْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ سُمِّيَ شِعْرًا اَوْ قَوْلًا شِعْرِيًا وَوُجِدَ لَهُ فِعْلُ ٱلشِّعْرِ مِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِٱلْاَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

اَخَذْنَا بِاَطْرَافِ ٱلْاَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِاَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْاَبَاطِحُ

اِنَّمَا صَارَ شِعْرًا مِنْ قِبَلِ اَنَّهُ اَسْتَعْمَلَ قَوْلَهُ:

اَخَذْنَا بِاَطْرَافِ ٱلْاَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِاَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْاَبَاطِحُ

بَدَلَ قَوْلِهِ تَحَدَّثْنَا وَمَشَيْنَا وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ:

بَعِيدَةُ مَهْوَى ٱلْقُرْطِ

اِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِاَنَّهُ اَسْتَعْمَلَ هٰذَا ٱلْقَوْلَ بَدَلَ قَوْلِهِ طَوِيلَةُ ٱلْعُنُقِ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْاٰخَرِ:

يَا دَارُ اَيْنَ ظِبَاؤُكِ ٱلْاُنْسُ قَدْ كَانَ لِي فِي اِنْسِهَا اُنْسُ

اِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِاَنَّهُ اَقَامَ ٱلدَّارَ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِ بِمُخَاطَبَتِهَا وَاَبْدَلَ لَفْظَ ٱلنِّسَاءِ بِٱلظِّبَاءِ وَاَتَى بِمُوَافَقَةِ ٱلْاِنْسِ وَٱلْاُنْسِ فِي ٱللَّفْظِ وَاَنْتَ اِذَا تَاَمَّلْتَ ٱلْاَشْعَارَ ٱلْمُحَرَّكَةَ وَجَدْتَهَا بِهٰذِهِ ٱلْحَالِ. وَمَا عَدَا هٰذِهِ ٱلتَّغْيِيرَاتِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ اِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَٱلتَّغْيِيرَاتُ

تَكُونُ بِالْمُوَازَنَةِ وَالْمُدَافَعَةِ وَالْإِبْدَالِ وَالتَّشْبِيهِ وَبِالْجُمْلَةِ بِإِخْرَاجِ الْقَوْلِ غَيْرَ مُخْرَجِ الْعَادَةِ مِثْلُ الْقَلْبِ وَالْحَذْفِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَتَغْيِيرِ الْقَوْلِ مِنَ الْإِيجَابِ إِلَى السَّلْبِ وَمِنَ السَّلْبِ إِلَى الْإِيجَابِ وَبِالْجُمْلَةِ مِنَ الْمُقَابِلِ إِلَى الْمُقَابَلِ وَبِالْجُمْلَةِ بِجَمِيعِ الْأَنْوَاعِ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا مَجَازًا فَالْحَذْفُ مِثْلُ قَوْلِ الْقُرْآنِ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ. وَقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى. وَالْقَلْبُ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ: فُلَانٌ مِنْ أَجْلِ بَنِيهِ لَا بَنُوهُ مِنْ أَجْلِهِ وَالسُّنَّةُ سَبَبُ الْإِنْسَانِ لَا الْإِنْسَانُ سَبَبُ السُّنَّةِ. وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ مِثْلُ قَوْلِهِ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا. وَقَوْلِهِ: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ. وَالزِّيَادَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَمِثْلُ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَمِثْلُ قَوْلِهِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ وَمِثَالُ التَّغْيِيرِ مِنَ الْإِيجَابِ إِلَى السَّلْبِ قَوْلُ الْقَائِلِ: مَا فَعَلَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَنْتَ بَدَلَ قَوْلِهِ: أَنْتَ فَعَلْتَهُ وَمِنْ هٰذَا الْمَعْنَى قَوْلُ النَّابِغَةِ:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

فَإِنَّهُ أَوْجَبَ لَهُمُ الْفَضَائِلَ لِيَنْفِيَ الْعُيُوبَ وَاسْتَثْنَى مِنْهَا مَا لَيْسَ بِعَيْبٍ عَلَى جِهَةِ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ ضِدِّهِ. وَمِنَ التَّغْيِيرَاتِ اللَّذِيذَةِ جَمْعُ الْأَضْدَادِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ:

فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ

وَكَوْنُ الضِّدِّ سَبَبًا لِضِدٍّ كَقَوْلِهِ: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَنْوَاعُهَا الْبَسِيطَةُ وَالْمُرَكَّبَةُ الْمَحْصُورَةُ فِي هٰذِهِ الْكُلِّيَّاتِ

وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ اِحْصَاءُ اَنْوَاعِهَا اَلْاَخِيرَةِ عَسِيرًا جِدًّا وَلِذٰلِكَ اَقْتَصَرَ هُنَا عَلَى اَلْكُلِّيَّاتِ فَقَطْ. وَالْفَاضِلُ مِنْ هٰذِهِ اَلْاَشْيَاءِ هُوَ اَنْ يُسْتَعْمَلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا هُوَ اَبْيَنُ وَاَظْهَرُ وَاَشْبَهُ وَهٰذَا لَا يُوجَدُ اِلَّا فِي اَلنَّادِرِ مِنَ اَلشُّعَرَاءِ وَذٰلِكَ اَنَّ اَسْتِعْمَالَ اَلْاَبْيَنِ مِنْ هٰذِهِ اَلْاَشْيَاءِ وَاَلْاَشْبَهِ هُوَ دَلِيلُ اَلْمَهَارَةِ. وَهٰذَا اَلصِّنْفُ هُوَ اَلَّذِي يَجْمَعُ اِلَى جُودَةِ اَلْاِفْهَامِ فِعْلَ اَلْاَقَاوِيلِ اَلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي تَحْرِيكَ اَلنَّفْسِ مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ اَلْاِبْدَالَ اِذَا كَانَ شَدِيدَ اَلشَّبَهِ اَفَادَ جُودَةَ اَلتَّخْيِيلِ وَاَلْاِفْهَامِ مَعًا وَرُبَّمَا عَرَضَ مِنَ اَلْاِبْدَالِ اَلْمُنَاسِبِ قِلَّةُ فَهْمٍ عِنْدَ اَلْفِدَامِ مِنَ اَلسَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَوْلِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ اَلْخَيْطُ اَلْاَبْيَضُ مِنَ اَلْخَيْطِ اَلْاَسْوَدِ اَنْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ اَنَّهُ اَلْخَيْطُ اَلْحَقِيقِيُّ فَتَرَكَتْ مِنَ اَلْفَجْرِ. (قَالَ) وَاَلْاَسْمَاءُ اَلْمُرَكَّبَةُ تَصْلُحُ لِلْوَزْنِ اَلَّذِي يُثْنَى فِيهِ عَلَى اَلْاَخْيَارِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهٰذِهِ اَلْاَسْمَاءُ هِيَ قَلِيلَةُ اَلْوُجُودِ فِي لِسَانِ اَلْعَرَبِ وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمِ اَلْعَبْشَمِيُّ اَلْمَنْسُوبُ اِلَى عَبْدِ شَمْسٍ. وَاَمَّا اَللُّغَاتُ فَتَصْلُحُ لِلشِّعْرِ اَلَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ اَمْرُ اَلْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ اَلْاَهْوَالِ وَكَانَ صِنْفًا مِنَ اَلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ مَعْرُوفًا. وَاَمَّا اَلْاَسْمَاءُ اَلْمَنْقُولَةُ اَلْغَرِيبَةُ فَتَخْتَصُّ بِالْاَشْعَارِ اَلَّتِي تُقَالُ فِي اَلْاَمْثَالِ وَاَلْحِكَمِ وَاَلْقِصَصِ اَلْمَشْهُورَةِ

البحث الثامن

في صناعة الاشعار القصصية

(من الكتاب نفسه)

(قال) ففيما قلناه في صناعة المديح وفي الاشياء المشتركة لاصناف الاشعار من التشبيه وغير ذلك كفاية. والاشعار القصصية سبيلها في الاجزاء التي هي المبدأ والوسط والنهاية سبيل اجزاء صناعة المديح وكذلك في المحاكاة الا ان المحاكاة ليس تكون للافعال فيها وانما تكون للازمنة الواقعة فيها تلك الافعال وذلك انه انما يحاكى في هذه كيف كانت احوال المتقدم مع احوال المتاخر وكيف تنقل الدول والممالك والايام. ومحاكاة هذا النوع من الوجود قليل في لسان العرب وهو كثير في الكتب الشرعية. وذكر مجيدين في هذا الصنف من شعرائهم واثنى ثناء عاما على اوميروش. ومن جيد ما في هذا المعنى للعرب قول الاسود بن يعفر:

ماذا اؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد اياد

ارض الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد

نزلوا بانقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجيء من اطواد

جرت الرياح على محل ديارهم ... فكانهم كانوا على ميعاد

فارى النعيم وكل ما يلهى به ... يوما يصير الى بلى ونفاد

(قالَ) وَاَجزاءُ هٰذا النَّوعِ هِيَ اَجزاءُ صِناعَةِ المَدِيحِ العَفِيفِيَّةِ مِنَ الإِدارَةِ وَالاِستِدلالِ وَالتَّركِيبِ مِنهُما. وَرُبَّما كانَ بَعضُ اَجزائِها اَنفِعالِيًّا كَالحالِ فِي صِناعَةِ المَدِيحِ. وَصَنائِعُ الشِّعرِ وَاَحكامُها فِي التَّلحِينِ وَالغِناءِ اَحكامُ صِناعَةِ المَدِيحِ. وَذَكَرَ فُروقًا بَينَ صِناعَةِ المَدِيحِ وَبَينَ صَنائِعِ الشِّعرِ الاُخَرِ عَنهُم وَخَواصَّ تَختَصُّ بِها تِلكَ الاَشعارُ الاُخَرُ فِي الاَوزانِ وَالاَجزاءِ وَالمُحاكاةِ وَالقَدرِ وَاَنَّ هاهُنا اَوزانًا هِيَ اَلْيَقُ بِبَعضِ الاَشعارِ مِن بَعضٍ وَذَكَرَ مَن اَجادَ مِنَ الشُّعَراءِ فِي هٰذِهِ الاَشياءِ وَمَن لَم يُجِدْ وَاَثنَى فِي هٰذا كُلِّهِ عَلى اُومِيرُوشَ وَكُلُّ ذٰلِكَ خاصٌّ بِهِم وَغَيرُ مَوجُودٍ مِثالُهُ عِندَنا اِمّا لِاَنَّ ذٰلِكَ الَّذِي ذَكَرَ غَيرُ مُشتَرَكٍ لِلاَكثَرِ مِنَ الاُمَمِ وَاِمّا اَنَّهُ عَرَضَ لِلعَرَبِ فِي هٰذِهِ الاَشياءِ اَمرٌ خارِجٌ عَنِ الطَّبعِ وَهُوَ اَبيَنُ فَاِنَّهُ ما كانَ لِيُثبِتَ فِي كِتابِهِ هٰذا ما هُوَ خاصٌّ بِهِم بَل ما هُوَ مُشتَرَكٌ لِلاُمَمِ الطَّبِيعِيَّةِ

البحث التاسع

في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته

(من الكتاب نفسه)

وَيَنبَغِي اَن يَكُونَ ما يَأتِي بِهِ الشّاعِرُ مِنَ الكَلامِ يَسِيرًا بِالاِضافَةِ اِلَى الكَلامِ المُحاكِي كَما كانَ يَفعَلُ اُومِيرُوشُ فَاِنَّهُ اِنَّما كانَ يَعمَلُ صَدرًا يَسِيرًا ثُمَّ يَتَخَلَّصُ اِلى ما يُرِيدُ مُحاكاتَهُ مِن غَيرِ اَن يَأتِيَ فِي ذٰلِكَ بِشَيءٍ لَم يُعتَدْ لٰكِن ما قَد اُعتِيدَ فَاِنَّ غَيرَ المُعتادِ

مُنكَرٌ وَانَّما قَالَ ذٰلِكَ فِيمَا اَحسِبُ لِاَنَّ لِلاُمَمِ فِي تَشبِيهَاتِهِم عَوَائِدَ خَاصَّةً مِثلُ قَولِ اَمرِىء القَيسِ :

يُهِيلُ وَيُذرِي تُربَهَا وَيُثِيرُهُ اِثَارَةَ نَبَّاثِ الهَوَاجِرِ مُخمِسِ

وَكَذٰلِكَ تَشبِيهُهُم الضَّبَّ بِالنُّونِ لِمَكَانِ السَّرَابِ المَوجُودِ فِي بِلَادِهِم وَمِن هٰذَا قَولُهُ : وَالَّذِينَ كَفَرُوا اَعمَالُهُم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (قَالَ) وَمَتَى طَالَ الكَلَامُ وَلَيسَ فِيهِ تَغيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنبَغِي اَن يُعتَنَى فِي ذٰلِكَ بِاِيرَادِ الاَلفَاظِ البَيِّنَةِ الدَّلَالَةِ وَهِيَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى اَشيَاء بِاَعيَانِهَا لَا عَلَى اَشيَاء مُتَضَادَّةٍ اَو مُختَلِفَةٍ وَاَن يَكُونَ تَركِيبُهَا عَلَى المَشهُورِ عِندَهُم وَتَكُونَ سَهلَةً عِندَ النُّطقِ. وَيُشبِهُ اَن يَكُونَ هٰذَا هُوَ اَكثَرُ مَا يُطلَقُ عَلَيهِ فِي لِسَانِ العَرَبِ اَسمُ الفَصَاحَةِ اِلَّا اَن يَكُونَ ذٰلِكَ القَولُ ظَاهِرَ الصِّدقِ وَمَشهُورًا فَاِنَّ الصِّدقَ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشفَعُ لِمَا فِيهِ مِن قِلَّةِ الفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ التَّغيِيرِ وَالمُحَاكَاةِ

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَالغَلَطُ الَّذِي يَقَعُ فِي الشِّعرِ وَيَجِبُ عَلَى الشَّاعِرِ تَوَقِّيهِ فِيهِ سِتَّةُ اَصنَافٍ. اَحَدُهَا اَن يُحَاكِيَ بِغَيرِ مُمكِنٍ بَل مُمتَنِعٍ. وَمِثَالُ هٰذَا عِندِي قَولُ ابنِ المُعتَزِّ يَصِفُ القَمَرَ فِي تَنَقُّصِهِ :

اُنظُر اِلَيهِ كَزَورَقٍ مِن فِضَّةٍ قَد اَثقَلَتهُ حُمُولَةٌ مِن عَنبَرِ

فَإِنَّ هٰذَا مُمْتَنِعٌ . وَإِنَّمَا آنَسَهُ بِذٰلِكَ شِدَّةُ الشَّبَهِ وَإِنَّهُ لَمْ يُقْصَدْ بِهِ حَثٌّ وَلَا نَهْيٌ بَلْ إِنَّمَا يَجِبُ انْ يُحَاكَى بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ اَوْ يُظَنُّ اَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ الْاَشْرَارِ بِالشَّيَاطِينِ اَوْ بِمَا هُوَ مُمْكِنُ الْوُجُودِ فِي الْاَكْثَرِ لَا فِي الْاَقَلِّ اَوْ عَلَى التَّسَاوِي فَإِنَّ هٰذَا النَّوْعَ مِنَ الْوُجُودِ هُوَ اَلْيَقُ بِالْخَطَابَةِ مِنْهُ بِالشِّعْرِ . وَالْمَوْضِعُ الثَّانِي مِنْ غَلَطِ الشَّاعِرِ اَنْ يُحَرِّفَ الْمُحَاكَاةَ وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ لِلْمُصَوِّرِ اَنْ يَزِيدَ فِي الصُّورَةِ عُضْوًا لَيْسَ فِيهَا اَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ الْمَكَانِ الَّذِي هُوَ فِيهِ كَمَنْ يُصَوِّرُ الرِّجْلَيْنِ فِي مُقَدَّمِ الْحَيَوَانِ ذِي الْاَرْبَعِ وَالْيَدَيْنِ فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَنْبَغِي اَنْ يُتَفَقَّدَ مِثَالُ هٰذَا فِي اَشْعَارِ الْعَرَبِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ الْمُحْدَثِينَ الْاَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ الْفَرَسَ :

وَعَلَى اُذُنَيْهِ اُذْنٌ ثَالِثٌ مِنْ سِنَانِ السَّمْهَرِيِّ الْاَزْرَقِ

وَالْمَوْضِعُ الثَّالِثُ اَنْ يُحَاكِيَ النَّاطِقِينَ بِاَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَإِنَّ هٰذَا اَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ التَّوْبِيخِ وَذٰلِكَ اَنَّ الصِّدْقَ فِي هٰذِهِ الْمُحَاكَاةِ يَكُونُ قَلِيلًا وَالْكَذِبَ كَثِيرًا اِلَّا اَنْ يُشَبِّهَ مِنَ النَّاطِقِ صِفَةً مُشْتَرَكَةً لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ النَّاطِقِ وَقَدْ تُؤْنِسُ بِمِثْلِ هٰذَا الْعَادَةُ مِثْلُ تَشْبِيهِ الْعَرَبِ النِّسَاءَ بِالظِّبَاءِ وَبَقَرِ الْوَحْشِ . وَالْمَوْضِعُ الرَّابِعُ اَنْ يُشَبِّهَ الشَّيْءَ بِشَبِيهِ ضِدِّهِ اَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ الْعَرَبِ سَقِيمَةُ الْجُفُونِ فِي الْحَسَنَةِ الْغَاضَّةِ النَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ :

رَاحُوا كَاَنَّهُمُ مَرْضَى مِنَ الْكَرَمِ

وَقَوْلُ الْاٰخَرِ :

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ ٱلْقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسْطَ ٱلْبُيُوتِ مِنَ ٱلْحَيَاءِ سَقِيمَا

فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا هِيَ اَضْدَادُ ٱلصِّفَاتِ ٱلْحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذٰلِكَ ٱلْعَادَةُ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلْخَامِسُ اَنْ يَأْتِيَ بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى ٱلْمُتَضَادَّيْنِ بِٱلسَّوَاءِ مِثْلُ ٱلصَّرِيمِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْقُرْءِ وَٱلْجَلَلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا قَدْ ذَكَرَهُ اَهْلُ ٱللُّغَةِ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلسَّادِسُ اَنْ يَتْرُكَ ٱلْحَاكَاةَ ٱلشِّعْرِيَّةَ وَيَنْتَقِلَ اِلَى ٱلْاِقْنَاعِ وَٱلْاَقَاوِيلِ ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ ٱلْقَوْلُ هَجِينًا قَلِيلَ ٱلْاِقْنَاعِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ اِمْرِءِ ٱلْقَيْسِ يَعْتَذِرُ عَنْ جُبْنِهِ:

وَمَا جُبْنُ خَيْلِي وَلٰكِنْ تَذَكَّرَتْ مَرَابِطَهَا مِنْ بُرَيْصَ وَمَيْسَرَا

وَقَدْ يَحْسُنُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ اِذَا كَانَ حَسَنَ ٱلْاِقْنَاعِ اَوْ صَادِقًا مِثْلُ قَوْلِ ٱلْآخَرِ يَعْتَذِرُ عَنِ ٱلْفِرَارِ:

اَللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِاَشْقَرَ مُزْبِدِ

وَعَلِمْتُ اَنِّي اِنْ اُقَاتِلْ وَاحِدًا اُقْتَلْ وَلَا يَنْكِي عَدُوِّيَ مَشْهَدِي

فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَٱلْاَحِبَّةُ فِيهِمُ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

فَإِنَّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ اِنَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْاَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِاَنَّ ٱلتَّغْيِيرَ ٱلَّذِي فِيهِ يَسِيرٌ وَلِذٰلِكَ قَالَ ٱلْقَائِلُ: يَا مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ لَقَدْ حَسَّنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى ٱلْفِرَارَ (قَالَ) وَاِذَا كَانَتْ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ سِتَّةً وَمَوَاضِعُ ٱلتَّوْبِيخِ مُقَابِلَتُهَا فَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ ٱلذَّاتِيِّ وَٱلتَّوْبِيخِ ٱلْخَاصِّيِّ اَثْنَيْ عَشَرَ مَوْضِعًا سِتَّةٌ اَغَالِيطُ وَسِتَّةٌ تَوْبِيخَاتٌ وَاَمْثِلَةُ ٱلتَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا اِذْ كَانَ شُعَرَاؤُنَا لَمْ تَتَمَيَّزْ

لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ وَلَا شَعَرُوا بِهَا فَهٰذَا هُوَ مَا تَأَدَّى إِلَى فَهْمِنَا مِمَّا ذَكَرَهُ أَرِسْطُو فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَاصَّةِ بِٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلْمُشْتَرَكَةَ مِنْهَا أَيْضًا لِلْأَكْثَرِ أَوْ لِلْجَمِيعِ وَسَائِرُ مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلَّتِي بَيْنَ سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَبَيْنَ صِنْفِ ٱلْمَدِيحِ فَهُوَ خَاصٌّ بِهِمْ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَسْنَا نَجِدُهُ ذَكَرَ مِنْ ذٰلِكَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْوَاصِلِ إِلَيْنَا إِلَّا بَعْضَ ذٰلِكَ. وَذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذَا ٱلْكِتَابَ لَمْ يُتَرْجَمْ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَأَنَّهُ بَقِيَ مِنْهُ ٱلتَّكَلُّمُ فِي سَائِرِ فُصُولِ أَصْنَافِ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَدَ بِٱلتَّكَلُّمِ فِي هٰذِهِ كُلِّهَا فِي صَدْرِ كِتَابِهِ. وَٱلَّذِي نَقَصَ مِمَّا هُوَ مُشْتَرَكٌ هُوَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ذٰلِكَ بِقُرْبٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قِيلَتْ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ إِذْ كَانَتِ ٱلْأَضْدَادُ يُعْرَفُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. وَأَنْتَ تَتَبَيَّنُ إِذَا وَقَفْتَ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ هَاهُنَا أَنَّ مَا شَعَرَ بِهِ أَهْلُ لِسَانِنَا مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلشِّعْرِيَّةِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطُو هٰذَا وَفِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ نَزْرٌ يَسِيرٌ كَمَا يَقُولُهُ أَبُو نَصْرٍ. وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَيْضًا كَيْفَ تَرْجِعُ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ إِلَى هٰذِهِ وَلَا مَا ذَكَرُوا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى وَجْهِ ٱلصَّوَابِ مِمَّا ذُكِرَ عَلَى غَيْرِ ذٰلِكَ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ

الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهر في علوم اللغة للعلّامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ ٱعْصُرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ وَهُوَ مُنَبِّهٌ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٌّ وَٱلطُّفَاوَةُ. وَمِنْهُمْ ٱلْمُسْتَوْعِرُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱبْنِ كَعْبِ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ:

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ وَطُولِهَا ... وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلسِّنِينَ مِنِينَا
مِائَةٌ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي ... وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلشُّهُورِ سِنِينَا

وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابِ ٱلْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ:

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا ... فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

وَمِنْهُمْ جَذِيمَةُ ٱلْأَبْرَشُ وَلُجَيْمُ بْنُ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرِ ٱبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ ٱلْقَائِلُ:

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ ٱلْفَتَى ... قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا ٱلتَّحِيَّهْ

وقالَ امرؤُ القيسِ بنُ حُجرٍ:

عُوجا على طَلَلِ الدِّيارِ لعلَّنا ... نَبكي الدِّيارَ كما بكى ابنُ حذامِ

وهو رجلٌ من طَيِّئٍ لم نَسمعْ شِعرَهُ الذي بكى فيهِ ولا شِعرًا غيرَ هذا البيتِ الذي ذكرَهُ امرؤُ القيسِ. وكانَ اوَّلَ من قصَّدَ القصائدَ وذكرَ الوقائعَ المُهلهِلُ بنُ ربيعةَ التغلبيُّ في قتلِ اخيهِ كُليبٍ قالَ الفرزدقُ:

ومُهلهِلُ الشُّعراءِ ذاكَ الاوَّلُ

وزعمتِ العربُ انَّهُ كانَ يتكثَّرُ ويدَّعي في قولِهِ اكثرَ من فعلِهِ. وكانَ شُعراءُ الجاهليَّةِ في ربيعةَ اوَّلُهم المُهلهِلَ وهو خالُ امرئِ القيسِ بنِ حُجرٍ الكِنديِّ والمُرقِّشانِ والاكبرُ منهما عمُّ الاصغرِ والاصغرُ عمُّ طرفةَ بنِ العبدِ. واسمُ الاكبرِ عوفُ بنُ سعدٍ واسمُ الاصغرِ عمرُو بنُ حرملةَ وقيلَ ربيعةُ بنُ سُفيانَ. ومنهم سعدُ بنُ مالكٍ وطرفةُ بنُ العبدِ وعمرُو بنُ قميئةَ والمُتلمِّسُ وهو خالُ طرفةَ. والاعشى والمُسيَّبُ بنُ علسٍ والحارثُ بنُ حِلِّزةَ. ثمَّ تحوَّلَ الشِّعرُ في قيسٍ فمنهمُ النَّابغتانِ وزهيرُ بنُ ابي سلمى وابنُهُ كعبٌ ولبيدٌ والحُطيئةُ والشَّمَّاخُ واخوهُ مُزرِّدٌ وخِداشُ بنُ زهيرٍ ثمَّ آلَ الى تميمٍ فلم يزلْ فيهم الى اليومِ ومنهم كانَ اوسُ بنُ حجرٍ شاعرُ مُضرَ في الجاهليَّةِ لم يتقدَّمهُ احدٌ منهم حتَّى نشأَ النَّابغةُ وزهيرٌ واخمَلاهُ وبقيَ شاعرَ تميمٍ في الجاهليَّةِ غيرَ مُدافعٍ. وكانَ الاصمعيُّ يقولُ اوسُ اشعرُ من زهيرٍ ولكنِ النابغةُ طأطأَ منهُ

وَكَانَ رَاوِيَةَ اَوْسِ زُهَيْرٌ وَكَانَ اَوْسٌ زَوْجَ اُمِّ زُهَيْرٍ (قَالَ عُمَرُ بْنُ شَبَّةَ) فِي طَبَقَاتِ الشُّعَرَاءِ: لِلشِّعْرِ وَالشُّعَرَاءِ اَوَّلٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ وَقَدِ اخْتَلَفَ فِي ذٰلِكَ الْعُلَمَاءُ وَادَّعَتِ الْقَبَائِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِشَاعِرِهَا اَنَّهُ الْاَوَّلُ وَلَمْ يَدَّعُوا ذٰلِكَ لِقَائِلِ الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ لِاَنَّهُمْ لَا يُسَمُّونَ ذٰلِكَ شِعْرًا فَادَّعَتِ الْيَمَانِيَةُ لِاَمْرِئِ الْقَيْسِ وَبَنُو اَسَدٍ لِعُبَيْدِ بْنِ الْاَبْرَصِ وَتَغْلِبُ لِلْمُهَلْهِلِ وَبَكْرٌ لِعَمْرِو بْنِ قَمِيئَةَ وَالْمُزْدَلِفُ الْاَكْبَرِ وَاِيَادٌ لِاَبِي دُؤَادٍ (قَالَ) وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ اَنَّ الْاَفْوَهَ الْاَوْدِيَّ اَقْدَمُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَاَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ قَصَّدَ الْقَصِيدَ (قَالَ) وَهٰؤُلَاءِ النَّفَرُ الْمُدَّعَى لَهُمُ التَّقَدُّمُ فِي الشِّعْرِ مُتَقَارِبُونَ لَعَلَّ اَقْدَمَهُمْ لَا يَسْبِقُ الْهِجْرَةَ بِمِائَةِ سَنَةٍ اَوْ نَحْوِهَا (وَقَالَ ثَعْلَبٌ فِي اَمَالِيهِ) قَالَ الْاَصْمَعِيُّ: اَوَّلُ مَنْ يُرْوَى لَهُ كَلِمَةٌ تَبْلُغُ ثَلَاثِينَ بَيْتًا مِنَ الشِّعْرِ مُهَلْهِلٌ ثُمَّ ذُؤَيْبُ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ ثُمَّ ضَمْرَةُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَالْاَضْبَطُ بْنُ مُرَاعِبٍ (قَالَ) وَكَانَ بَيْنَ هٰؤُلَاءِ وَبَيْنَ الْاِسْلَامِ اَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ اَمْرُؤُ الْقَيْسِ بَعْدَ هٰؤُلَاءِ بِكَثِيرٍ (وَقَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ لَيْسَ) اَوَّلُ مَنْ قَالَ الشِّعْرَ ابْنُ حَذَامٍ (وَقَالَ ابْنُ رَشِيقٍ فِي الْعُمْدَةِ): اَلْمَشَاهِيرُ مِنَ الشُّعَرَاءِ اَكْثَرُ مِنْ اَنْ يُحِيطَ بِهِمْ عَدَدٌ وَمِنْهُمْ مَشَاهِيرُ قَدْ طَارَتْ اَسْمَاؤُهُمْ وَسَارَ شِعْرُهُمْ وَكَثُرَ ذِكْرُهُمْ حَتَّى غَلَبُوا عَلَى سَائِرِ مَنْ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ وَلِكُلِّ اَحَدٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ تُفَضِّلُهُ وَتَتَعَصَّبُ لَهُ وَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ عَلَى وَاحِدٍ اِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ الرَّسُولِ فِي امْرِئِ الْقَيْسِ اَنَّهُ اَشْعَرُ الشُّعَرَاءِ وَقَائِدُهُمْ اِلَى النَّارِ يَعْنِي شُعَرَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْمُشْرِكِينَ

قَالَ دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْخُزَاعِيُّ : وَلَا يَقُودُ قَوْمًا إِلَّا أَمِيرُهُمْ . قَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ ٱلشُّعَرَاءِ: أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ سَابِقُهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنَ ٱلشِّعْرِ فَٱفْتَقَرَ عَنْ مَعَانٍ عُورٍ أَصَحَّ بَصَرًا (قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ) خَسَفَ مِنَ ٱلْخَسْفِ وَهِيَ ٱلْبِئْرُ ٱلَّتِي حُفِرَتْ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ . وَقَوْلُهُ ٱفْتَقَرَ أَيْ فَتَحَ وَهُوَ مِنَ ٱلْفَقْرِ وَهُوَ فَمُ ٱلْقَنَاةِ وَقَوْلُهُ : عَنْ مَعَانٍ عُورٍ يُرِيدُ أَنَّ أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ مِنَ ٱلْيَمَنِ وَأَنَّ أَهْلَ ٱلْيَمَنِ لَيْسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةُ نِزَارٍ فَجَعَلَ لَهُمْ مَعَانِيَ عُورًا فَكَانَ فَتْحُ أَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ أَصَحَّ بَصَرًا فَإِنَّ أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ يَمَانِيُّ ٱلنَّسَبِ نِزَارِيُّ ٱلدَّارِ وَٱلْمَنْشَإِ . وَفَصَّلَهُ عَلِيٌّ بِأَنْ قَالَ : رَأَيْتُهُ أَحْسَنَهُمْ نَادِرَةً وَأَسْبَقَهُمْ بَادِرَةً وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ (وَقَدْ قَالَ ٱلْعُلَمَاءُ بِٱلشِّعْرِ) إِنَّ أَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمْ يَتَقَدَّمِ ٱلشُّعَرَاءَ لِأَنَّهُ قَالَ مَا لَمْ يَقُولُوا وَلٰكِنَّهُ سَبَقَ إِلَى أَشْيَاءَ فَٱسْتَحْسَنَهَا ٱلشُّعَرَاءُ وَٱتَّبَعُوهُ فِيهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَطَّفَ ٱلْمَعَانِيَ وَمِنْ ٱسْتَوْقَفَ عَلَى ٱلطُّلُولِ وَوَصَفَ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَٱلْمَهَى وَٱلْبِيضِ وَشَبَّهَ ٱلْخَيْلَ بِٱلْعِقْبَانِ وَٱلْعِصِيِّ وَفَرَّقَ بَيْنَ ٱلنَّسِيبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ ٱلْقَصِيدَةِ وَقَرَّبَ مَأْخَذَ ٱلْكَلَامِ فَقَيَّدَ ٱلْأَوَابِدَ وَأَجَادَ ٱلِٱسْتِعَارَةَ وَٱلتَّشْبِيهَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَّامٍ ٱلْجُمَحِيُّ : إِنَّ سَائِلًا سَأَلَ ٱلْفَرَزْدَقَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ذُو ٱلْقُرُوحِ (وَسُئِلَ لَبِيدٌ) : مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱلضَّلِيلُ قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ: ٱلشَّابُّ ٱلْقَتِيلُ قِيلَ : ثُمَّ مَنْ قَالَ: ٱلشَّيْخُ أَبُو عَقِيلٍ يَعْنِي نَفْسَهُ . وَكَانَ ٱلْحُذَّاقُ يَقُولُونَ : ٱلْفُحُولُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَٱلْفَرَزْدَقُ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَخْطَلُ وَٱلْأَعْشَى وَجَرِيرٌ وَكَانَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ يَقُولُ: أَجْمَعُهُمْ ٱلْأَعْشَى. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ: مَثَلُهُ مَثَلُ ٱلْبَازِي يَضْرِبُ كَبِيرَ ٱلطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ. وَكَانَ أَبُو ٱلْخَطَّابِ ٱلْأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا. وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَرَفَةَ: كَفَاكَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَرْبَعَةٌ زُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ وَعَنْتَرَةُ إِذَا كَلِبَ وَزَادَ قَوْمٌ: وَجَرِيرٌ إِذَا غَضِبَ. وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ أَوْ لِنَصِيبٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ: أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا شَرِبَ. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ ٱلنَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ أَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَأَعْذَبُهُمْ بَحْرًا وَأَبْعَدُهُمْ قَعْرًا. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ٱلْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمَوْسُومِ بِجَمْهَرَةِ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَالَ: أَصْحَابُ ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمُطَ أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَزُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَعْشَى وَلَبِيدٌ وَعَمْرٌو وَطَرَفَةُ. (قَالَ) وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمُطَ لِأَحَدٍ غَيْرِ هٰؤُلَاءِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَأَسْقَطَا مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ عَنْتَرَةَ وَٱلْحَرْثَ بْنَ حِلِزَةَ وَأَثْبَتَا ٱلْأَعْشَى وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَتِ ٱلْمُعَلَّقَاتُ تُسَمَّى ٱلْمُذَهَّبَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّهَا ٱخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ ٱلشِّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي ٱلْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ ٱلذَّهَبِ وَعُلِّقَتْ عَلَى ٱلْكَعْبَةِ فَلِذٰلِكَ يُقَالُ مُذَهَّبَةُ فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ أَجْوَدَ شِعْرِهِ. ذَكَرَ ذٰلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَقِيلَ بَلْ كَانَ ٱلْمَلِكُ إِذَا ٱسْتُجِيدَتْ قَصِيدَةٌ يَقُولُ: عَلِّقُوا لَنَا هٰذِهِ

لِتَكُونَ فِي خِزَانَتِهِ (وَقَالَ ٱلْجُمَحِيُّ) سَأَلَ عِكْرِمَةُ بْنُ جَرِيرٍ أَبَاهُ جَرِيرًا. مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ قَالَ: أَعَنِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْأَلُنِي أَمِ ٱلْإِسْلَامِ قَالَ: مَا أَرَدْتُ إِلَّا ٱلْإِسْلَامَ فَإِذْ ذَكَرْتَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِهَا قَالَ: زُهَيْرٌ شَاعِرُهُمْ (قَالَ) قُلْتُ: فَٱلْإِسْلَامُ قَالَ: ٱلْفَرَزْدَقُ نَبْعَةُ ٱلشِّعْرِ قُلْتُ: وَٱلْأَخْطَلُ قَالَ: يُجِيدُ مَدْحَ ٱلْمُلُوكِ وَيُصِيبُ صِفَةَ ٱلْخَمْرِ قُلْتُ: فَمَا تَرَكْتَ لِنَفْسِكَ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي بَحَرْتُ ٱلشِّعْرَ بَحْرًا (وَسُئِلَ) ٱلْفَرَزْدَقُ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا. قَالَ: بِقَوْلِهِ:

ثَوَى فِي مُلْحَدٍ لَا بُدَّ مِنْهُ كَفَى بِٱلْمَوْتِ نَأْيًا وَٱغْتِرَابَا

ثُمَّ سُئِلَ جَرِيرٌ فَقَالَ: بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ: لَهُ بِمَاذَا قَالَ بِقَوْلِهِ:

رَهِينُ بِلًى وَكُلُّ فَتًى سَيَبْلَى فَسُقْيَ ٱلْجَيْبَ وَٱنْتَحِبِي ٱنْتِحَابَا

فَٱتَّفَقَا عَلَى بِشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ كَمَا تَرَى (وَكَتَبَ) ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْعَرِ ٱلشُّعَرَاءِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَرِ شُعَرَاءِ وَقْتِهِ فَقَالَ: أَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَأَضْرَبُهُمْ مَثَلًا طَرَفَةُ. وَأَمَّا شُعَرَاءُ ٱلْوَقْتِ فَٱلْفَرَزْدَقُ أَفْخَرُهُمْ وَجَرِيرٌ أَهْجَاهُمْ وَٱلْأَخْطَلُ أَوْصَفُهُمْ (وَأَمَّا ٱلْحُطَيْئَةُ) فَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ أَبُو دُؤَادٍ حَيْثُ يَقُولُ:

لَا أَعُدُّ ٱلْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُهُ ٱلْإِعْدَامُ

وَهُوَ كَانَ فَحْلًا قَدِيمًا وَكَانَ أَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ

وَيَرْوِي شِعْرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ اَحَدٌ مِنَ ٱلنُّقَّادِ مَقَالَةَ ٱلْحُطَيْئَةِ (وَسَأَلَهُ ٱبْنُ عَبَّاسٍ مَرَّةً اُخْرَى) فَقَالَ ٱلَّذِي يَقُولُ :

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرْهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ ٱلشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَلَيْسَ ٱلَّذِي يَقُولُ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ اَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ اَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلٰكِنِ ٱلضَّرَاعَةُ اَفْسَدَتْهُ كَمَا اَفْسَدَتْ جَرْوَلًا وَٱللّٰهِ لَوْلَا وَلَوْلَا لَكُنْتُ اَشْعَرَ ٱلْمَاضِينَ . وَاَمَّا ٱلْبَاقُونَ فَلَا اَشُكُّ اَنِّي اَشْعَرُهُمْ (وَزَعَمَ) ٱبْنُ اَبِي ٱلْخَطَّابِ اَنَّ اَبَا عَمْرٍو يَقُولُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ : اَرْبَعَةٌ اَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَٱلنَّابِغَةُ وَطَرَفَةُ وَمُهَلْهِلٌ وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ : سُئِلَ ٱلْفَرَزْدَقُ فَقَالَ : اَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ : ٱلنَّابِغَةُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْاَخْطَلُ : ٱلْاَعْشَى اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱبْنُ اَحْمَرَ : زُهَيْرٌ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ : لَبِيدٌ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ نَضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ : طَرَفَةُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْكُمَيْتُ : عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى ٱخْتِلَافِ ٱلْاَهْوَاءِ وَقِلَّةِ ٱلْاِتِّفَاقِ . وَكَانَ ٱبْنُ اَبِي اِسْحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ نَاقِدٌ وَمُقَدَّمٌ مَشْهُورٌ يَقُولُ : اَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْمُرَقِّشُ ٱلْاَكْبَرُ وَاَشْعَرُ ٱلْاِسْلَامِيِّينَ كُثَيِّرٌ وَهٰذَا غُلُوٌّ مُفْرِطٌ غَيْرَ اَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى اَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ اَطَالَ ٱلْمَدْحَ (وَقِيلَ) لِنُصَيْبٍ مَرَّةً : مَنْ اَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ : اَخُو تَمِيمٍ يَعْنِي عَلْقَمَةَ بْنَ عَبْدَةَ وَقِيلَ اَوْسَ بْنَ حَجَرٍ . وَلَيْسَ لِاَحَدٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بَعْدَ اَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ مَا

لِزُهَيْرٍ وَٱلنَّابِغَةِ وَٱلْاَعْشَى فِي ٱلنُّفُوسِ . وَعُلَمَاءُ ٱلْبَصْرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ اَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ . وَاَهْلُ ٱلْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱلْاَعْشَى وَاَهْلُ ٱلْحِجَازِ وَٱلْبَادِيَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَ اَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ لَا يَعْدِلُونَ بِٱلنَّابِغَةِ اَحَدًا كَمَا اَنَّ اَهْلَ ٱلْحِجَازِ لَا يَعْدِلُونَ بِزُهَيْرٍ اَحَدًا .

قَالَ ٱبْنُ سَلَامٍ : قَالَ اَهْلُ ٱلنَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ اَحْصَفَهُمْ شِعْرًا وَاَبْعَدَهُمْ مِنْ سَخَفٍ وَاَجْمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلْمَنْطِقِ . وَاَمَّا ٱلنَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَحْتَجُّ لَهُ كَانَ اَحْسَنَهُمْ دِيبَاجَةَ شِعْرٍ وَاَكْثَرَهُمْ رَوْنَقَ كَلَامٍ وَاَجْزَلَهُمْ بَيْتًا كَاَنَّ شِعْرَهُ كَلَامٌ لَيْسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ . وَزَعَمَ اَصْحَابُ ٱلْاَعْشَى اَنَّهُ اَكْثَرُهُمْ عَرُوضًا وَاَذْهَبُهُمْ فِي فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَاَكْثَرُهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَدْحًا وَهِجَاءً وَفَخْرًا وَصِفَةً (وَقَالَ بَعْضُ مُتَقَدِّمِي ٱلْعُلَمَاءِ) ٱلْاَعْشَى اَشْعَرُ ٱلْاَرْبَعَةِ قِيلَ لَهُ : فَاَيْنَ ٱلْخَبَرُ عَنِ ٱلنَّبِيِّ اِنَّ اَمْرَأَ ٱلْقَيْسِ بِيَدِهِ لِوَاءُ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ : بِهٰذَا ٱلْخَبَرِ صَحَّ لِلْاَعْشَى مَا قُلْتُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلِ لِوَاءٍ اِلَّا عَلَى رَأْسِ اَمِيرٍ فَاَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ حَامِلُ ٱللِّوَاءِ وَٱلْاَعْشَى ٱلْاَمِيرُ (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَنْ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ : اَرَجُلًا اَمْ حَيًّا قِيلَ بَلْ حَيًّا قَالَ : اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ حَيًّا هُذَيْلٌ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ وَاَشْعَرُ هُذَيْلٍ اَبُو ذُؤَيْبٍ غَيْرُ مُدَافَعٍ (وَقَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ) قَالَ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ : اَفْصَحُ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلسُّنَا وَاَعْرَبُهُمْ اَهْلُ ٱلسَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ ٱلْجِبَالُ ٱلْمُطِلَّةُ عَلَى تِهَامَةَ مِمَّا يَلِي ٱلْيَمَنَ فَاَوَّلُهَا هُذَيْلٌ وَهِيَ تَلِي ٱلرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةَ ثُمَّ عِلِّيَةُ ٱلسَّرَاةِ

ٱلْوُسْطَى وَقَدْ شَرِكَتْهُمْ ثَقِيفٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا . ثُمَّ سَرَاةُ ٱلْأَزْدِ
ٱزْدِ شَنُوءَةَ وَهُمْ بَنُو ٱلْحَرِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ ٱلْحَرِثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ
ٱلْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا: أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ عُلْيَا تَمِيمٍ وَسُفْلَى قَيْسٍ
وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ) أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ سَافِلَةُ ٱلْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ ٱلسَّافِلَةِ يَعْنِي
هَوَازِنَ وَأَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا
وَلُغَتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ. وَقَوْمٌ يَرَوْنَ تَقْدِمَةَ ٱلشِّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ
بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَفِي ٱلْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي ٱلْمُوَلَّدِينَ
بِٱلْحَسَنِ بْنِ هَانِئٍ وَأَصْحَابِهِ. وَأَشْعَرُ أَهْلِ ٱلْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ ٱلنَّاسِ
وَٱتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: خُتِمَ ٱلشِّعْرُ
بِذِي ٱلرُّمَّةِ وَٱلرَّجَزُ بِرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ. وَزَعَمَ يُونُسُ: أَنَّ ٱلْعَجَّاجَ
لَيْسَ فِي شِعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: لَوْ كَانَ مَكَانَهُ
غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ يَقُولُ
مِنَ ٱلرَّجَزِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةَ وَنَحْوَ ذٰلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ
فَاخَرَ حَتَّى كَانَ ٱلْعَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدَهُ وَشَبَّبَ فِيهِ وَذَكَرَ
ٱلدِّيَارَ وَٱسْتَوْقَفَ ٱلرِّكَابَ عَلَيْهَا وَٱسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى
ٱلشَّبَابِ وَوَصَفَ ٱلرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْقَصِيدِ فَكَانَ فِي
ٱلرَّجَّازِ كَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلشُّعَرَاءِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ
شِعْرَ ٱلرَّجَزِ ٱلْأَغْلَبُ ٱلْعِجْلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ. وَزَعَمَ ٱلْجُمَحِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ
مَنْ رَجَزَ. وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ: وَلَا أَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لَهُ
لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ وَنَحْنُ نَجِدُ ٱلرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذٰلِكَ.

وَكَانَ اَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ: اُفْتُتِحَ الشِّعْرُ بِاَمْرِئِ الْقَيْسِ وَخُتِمَ بِابْنِ هَرْمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: اَلشُّعَرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَاِسْلَامِيٌّ وَمُوَلَّدٌ فَالْجَاهِلِيُّ اَمْرُؤُ الْقَيْسِ وَالْاِسْلَامِيُّ ذُو الرُّمَّةِ وَالْمُوَلَّدُ اَبْنُ الْمُعْتَزِّ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُفَضِّلُ الْبَدِيعَ وَخَاصَّةً التَّشْبِيهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ الشِّعْرِ. وَطَائِفَةٌ اُخْرَى تَقُولُ بَلِ الثَّلَاثَةُ الْاَعْشَى وَالْاَخْطَلُ وَاَبُو الْفَوَارِسِ وَهٰذَا مَذْهَبُ اَصْحَابِ الْخَبَرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ بِالتَّصَرُّفِ وَقِلَّةِ التَّكَلُّفِ. وَقَالَ قَوْمٌ بَلِ الثَّلَاثَةُ مُهَلْهِلٌ وَاَبْنُ اَبِي رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ الْاَحْنَفِ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُؤْثِرُ الْاَنَفَةَ وَسُهُولَةَ الْكَلَامِ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الصَّنْعَةِ وَالتَّجْوِيدَ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي الْمُوَلَّدِينَ اَشْهَرُ اِسْمًا مِنَ الْحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٍ وَالْبُحْتُرِيِّ. وَيُقَالُ اِنَّهُمَا اَحْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسِمِائَةِ شَاعِرٍ كُلُّهُمْ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي الْاِشْتِهَارِ اَبْنُ الرُّومِيِّ وَاَبْنُ الْمُعْتَزِّ وَطَارَ اِسْمُ اَبْنِ الْمُعْتَزِّ حَتَّى صَارَ كَالْحَسَنِ فِي الْمُوَلَّدِينَ وَاَمْرِئِ الْقَيْسِ فِي الْقُدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ الْمُتَنَبِّي فَمَلَأَ الدُّنْيَا وَهٰذَا كُلُّهُ كَلَامُ اَبْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ الْاَغَانِيِّ:

وَمِمَّنْ صَنَعَ مِنْ اَوْلَادِ الْخُلَفَاءِ فَاَجَادَ وَاَحْسَنَ وَبَرَعَ وَتَقَدَّمَ اَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَاَدَبًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا وَتَصَرُّفًا فِي سَائِرِ الْاٰدَابِ اَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ بِاللّٰهِ وَاَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هٰذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَاٰدَابِهِ. وَشِعْرُهُ وَاِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةُ الْمُلُوكِيَّةِ وَغَزَلُ الظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ الْمُحْدَثِينَ

فَانَّ فِيهِ اَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي اُسْلُوبِ ٱلْمُجِيدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ مَدَى ٱلسَّابِقِينَ وَاَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ اَشْعَارِ ٱلْمُلُوكِ فِي جِنْسِ مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِفُحُولِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ. فَلَيْسَ يُمْكِنُ وَاصِفًا لِصَبُوحٍ فِي مَجْلِسٍ شَكْلٍ ظَرِيفٍ بَيْنَ نُدَامَى وَقِيَانٍ وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ ٱلنُّورِ وَٱلْبَنَفْسَجِ وَٱلنَّرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ اَمْثَالِ ذٰلِكَ اِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْمَجَالِسِ وَفَاخِرِ ٱلْفَرْشِ وَمُخْتَارِ ٱلْآلَاتِ وَرِقَّةِ ٱلْخَدَمِ اَنْ يَعْدِلَ بِذٰلِكَ عَمَّا يُشْبِهُهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّبْطِ ٱلرَّقِيقِ ٱلَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ اِلَى جَعْدِ ٱلْكَلَامِ وَوَحْشِيِّهِ وَاِلَى وَصْفِ ٱلْبِيدِ وَٱلْمَهَامِهِ وَٱلظِّبَاءِ وَٱلظَّلِيمِ وَٱلنَّاقَةِ وَٱلْجَمَلِ وَٱلدِّيَارِ وَٱلْقِفَارِ وَٱلْمَنَازِلِ ٱلْخَالِيَةِ ٱلْمَهْجُورَةِ وَلَا اِذَا عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَاَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا اَنْ يُغْمَطَ حَقُّهُ كُلُّهُ اِذَا اَحْسَنَ ٱلْكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي ٱلْبَعْضِ وَقَصَّرَ فِي ٱلْيَسِيرِ وَيُنْسَبَ اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ فِي ٱلْجَمِيعِ لِنَشْرِ ٱلْمَقَابِحِ وَطَيِّ ٱلْمَحَاسِنِ. فَلَوْ شَاءَ اَنْ يَفْعَلَ هٰذَا كُلُّ اَحَدٍ مِمَّنْ تَقَدَّمَ لَوَجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ اَنَّ قَائِلًا اَرَادَ ٱلطَّعْنَ عَلَى صُدُورِ ٱلشُّعَرَاءِ لَقَدَرَ اَيْ اَنْ يَطْعَنَ عَلَى ٱلْاَعْشَى وَهُوَ اَحَدُ مَنْ يُقَدِّمُهُ ٱلْاَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ ٱلشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ:

فَاَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالِهَا

وَبِقَوْلِهِ:

وَقَدْ كَانَ اِنْ يَأْمُرْهُمُ كُلَّ لَيْلَةٍ بِقِتٍّ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَادَ يَسْبُقُ

وَاَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرَةٌ. وَاِنَّمَا عَلَى ٱلْاِنْسَانِ اَنْ يَحْفَظَ مِنْ

الشيء احسنه ويلغي مالا يستحسنه فليس مأخوذا به ولكن اقواما
ارادوا ان يرفعوا انفسهم الوضيعة ويشيدوا بذكرهم الخامل
ويعلوا اقدارهم الساقطة بالطعن على اهل الفضل والقدح فيهم
فلا يزدادون بذلك الا ضعة ولا يزداد الآخر الا ارتفاعا. الا ترى
الى ابن المعتز قد قتل اسوأ قتلة ودرج فلم يبق له خلف يفرطه
ولا عقب يرفع منه وما يزداد بادبه وشعره وفضله وحسن اخباره
وتصرفه في كل فن من العلوم الا رفعة وعلوا ولا نظر الى اضداده
كلما ازدادوا في طعنه وتقريظ انفسهم. واسلافهم الذين كانوا
مثلهم في ثلبه والطعن عليه زادوها سقوطا وضعة وكلما وصفوا
اشعارهم وقرظوا آدابهم زادوا بها ثقلا ومقتا فاذا وقع عليهم
المحصل الموافق عدلوا عن ثلبه في الآداب الى التشنيع بامر
الدين وهجاء آل ابي طالب وهم اول من فعل ذلك وشنع به على
آل ابي طالب عند المكتفي حتى نهاهم عنه فعدلوا عن عيب
انفسهم بذلك الى عيبه وارتكبوا اكثر منه. وكان عبد الله
حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها وله في
ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت
بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حمدون
وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وادبه ولقد قرأت بخط عبيد
الله بن طاهر رقعة اليه بخطه وقد بعث اليه برسالة الى ابن
حمدون في انه يجوز ولا ينكر ان يغير الانسان بعض نغم الغناء

ٱلْقَدِيمِ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلُقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحْصَوْا ذَكَرْتُ مِنَ ٱلْمُقِلِّينَ مَنْ وَسِعَ ذِكْرُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَمِنْهُمْ طَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعُبَيْدُ بْنُ ٱلْأَبْرَصِ وَعَلْقَمَةُ ٱلْفَحْلُ وَعَدِيُّ ٱبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَفَةُ فَضَلَ ٱلنَّاسَ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ ٱلْعُلَمَاءِ وَهِيَ ٱلْمُعَلَّقَةُ:

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ تَهْمَدِ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ ٱلْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ وَأَصَحُّ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا
فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا فَحْمَا

أَنْشَدَهُ ٱلْمُبَرِّدُ وَٱلْفَحْمُ ٱلْمُتَنَاهِي فِي ٱلسِّنِّ. وَعُبَيْدٌ قَلِيلُ ٱلشِّعْرِ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ عَلَى قِدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ وَكَذٰلِكَ أَبُو دُؤَادٍ. وَلِعَلْقَمَةَ ٱلْفَحْلِ ثَلَاثُ قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٌ إِحْدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبَتْ مِنَ ٱلْهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ) وَٱلثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَحَا بِكَ قَلْبٌ

فِي ٱلْحِسَانِ طَرُوبُ) وَٱلثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا ٱسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ)

وَأَمَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَشْهُورَاتُهُ أَرْبَعٌ قَوْلُهُ: (أَرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أَمْ بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (أَتَعْرِفُ رَسْمَ ٱلدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى ٱلْمَنُونِ بِبَاقِ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلْفِتْيَانِ فِي غِيَرِ ٱلْأَ يَّامِ يَنْسَوْنَ مَا عَوَاقِبُهَا

وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: عَدِيٌّ فِي ٱلشُّعَرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي ٱلنُّجُومِ يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا. هٰؤُلَاءِ أَشْعَارُهُمْ كَثِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ ٱلرُّوَاةِ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا.

وَمِنَ ٱلْمُقِلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ كُلُّ أَشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ ٱلْجُمْلَةِ. وَيُرْوَى عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ قَالَ: ٱتَّفَقُوا أَنَّ أَشْعَرَ ٱلْمُقِلِّينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ. وَأَمَّا أَصْحَابُ ٱلْوَاحِدَةِ فَطَرَقَةُ أَوَّلُهُمْ وَمِنْهُمْ عَنْتَرَةُ وَٱلْحَرِثُ ٱبْنُ حِلِّزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ أَصْحَابُ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَٱلْأَشْعَرُ بْنُ حُمْرَانَ ٱلْجَعْفِيُّ وَسُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ وَٱلْأَسْوَدُ بْنُ يَعْفُرَ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مُقِلًّا كَثِيرَ ٱلْمَعَانِي وَٱلتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ إِلَّا نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ

البحث الثالث

في المغلَّبين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

وَاَمَّا اَلْمُغَلَّبُونَ فَمِنْهُمْ نَابِغَةُ بْنُ جَعْدَةَ وَمَعْنَى اَلْمُغَلَّبِ اَلَّذِي لَا زَالَ مَغْلُوبًا قَالَ اَمْرُؤُ اَلْقَيْسِ:

فَاِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

يَعْنِي اِذَا قَدَرَ لَمْ يُبْقِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى اَلْجَعْدِيِّ اَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ وَلَيْلَى اَلْاَخْيَلِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ اِنَّ مَوْتَ اَلْجَعْدِيِّ كَانَ بِسَبَبِ لَيْلَى اَلْاَخْيَلِيَّةِ فَرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَمَاتَ فِي اَلطَّرِيقِ مُسَافِرًا. وَاَلْمُغَلَّبُونَ اَلزِّبْرِقَانُ غَلَبَهُ عَمْرُو بْنُ اَلْاَهْتَمِ وَغَلَبَهُ اَلْمُعَيْلُ اَلسَّعْدِيُّ وَغَلَبَهُ اَلْحُطَيْئَةُ وَقَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ كَانَ اَلْبَعِيثُ مُغَلَّبًا فِي اَلْخُطَبِ

قَالَ اَبْنُ رَشِيقٍ فِي اَلْعُمْدَةِ فِي بَابِ اَلْقُدَمَاءِ وَاَلْمُحْدَثِينَ: كُلُّ قَدِيمٍ مِنَ اَلشُّعَرَاءِ فَهُوَ مُحْدَثٌ فِي زَمَانِهِ بِاَلْاِضَافَةِ اِلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وَكَانَ اَبُو عَمْرِو بْنُ اَلْعَلَاءِ يَقُولُ لَقَدْ حَسُنَ هٰذَا اَلْمُوَلَّدُ حَتَّى هَمَمْتُ اَنْ آمُرَ صِبْيَانَنَا بِرِوَايَتِهِ يَعْنِي بِذٰلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ وَاَلْفَرَزْدَقِ فَجَعَلَهُ مُوَلَّدًا بِاَلْاِضَافَةِ اِلَى شِعْرِ اَلْجَاهِلِيَّةِ وَاَلْمُخَضْرَمِينَ وَكَانَ لَا يَعُدُّ اَلشِّعْرَ اِلَّا مَا كَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ قَالَ اَلْاَصْمَعِيُّ: جَلَسْتُ اِلَيْهِ عَشْرَ حِجَجٍ فَمَا سَمِعْتُهُ يَحْتَجُّ بِبَيْتٍ اِسْلَامِيٍّ وَسُئِلَ عَنِ اَلْمُوَلَّدِينَ فَقَالَ: مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سُبِقُوا اِلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ

قبيح فهو من عندهم ليس النمط واحدا. هذا مذهب ابي عمرو واصحابه كالاصمعي وابن الاعرابي اعني ان كل واحد منهم يذهب في اهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم وليس ذلك لشيء الا لحاجتهم في الشعر الى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون فاما ابن قتيبة فقال: لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثا في عصره. ثم قال ابن رشيق في باب آخر: طبقات الشعراء اربع جاهلي قديم ومخضرم وهو الذي ادرك الجاهلية والاسلامي ومحدث ثم صار المحدثون طبقات اولى وثانية على التدريج هكذا في الهبوط الى وقتنا هذا فليعلم المتأخر مقدار ما بقي له من الشعر متصفحا اشعار من قبله لينظر كم بين المخضرم والجاهلي وبين الاسلامي والمخضرم وان للمحدث الاول فضلا عمن بعده في المنزلة. ففي الجاهلية والاسلاميين من ذهب بكل ملاحة ورشاقة وسبق الى كل طلاوة ولباقة (قال) ابو الحسن الاخفش: يقال ماء خضرم اذا تناهى في الكثرة والسعة فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والاسلام مخضرما كأنه استوفى الامرين (قال) ويقال: اذن مخضرمة اذ كانت مقطوعة فكأنه انقطع عن الجاهلية الى الاسلام. (وحكى) ابن قتيبة عن الاصمعي قال: اسلم قوم في

ٱلْجَاهِلِيَّةِ عَلَى إِبِلٍ قَطَعُوا آذَانَهَا فَسُمِّيَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخَضْرَمًا وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُخَضْرَمًا حَتَّى يَكُونَ إِسْلَامُهُ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ كَبِيرًا فَلَمْ يُسْلِمْ (قَالَ) ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَهٰذَا عِنْدِي خَطَأٌ لِأَنَّ ٱلنَّابِغَةَ ٱلْجَعْدِيَّ وَلَبِيدًا قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِمَا هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ ٱلْحَسَنِ كُرَاعٌ فَقَدْ حَكَى: شَاعِرٌ مُخَضْرَمٌ بِجَاءٍ غَيْرِ مُعْجَمَةٍ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْخَضْرَمَةِ وَهِيَ ٱلْخَلْطَةُ لِأَنَّهُ خَلَطَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ وَقَالُوا: ٱلشُّعَرَاءُ أَرْبَعَةٌ: شَاعِرٌ خِنْذِيذٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جَوْدَةِ شِعْرِهِ رِوَايَةَ ٱلْجَيِّدِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ. وَسُئِلَ رُؤْبَةُ عَنِ ٱلْفُحُولِ فَقَالَ: هُمُ ٱلرُّوَاةُ. وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا رِوَايَةَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُجَوِّدٌ كَٱلْخِنْذِيذِ فِي شِعْرِهِ. وَشَاعِرٌ فَقَطْ وَهُوَ فَوْقَ ٱلرَّدِيءِ بِدَرَجَةٍ وَشُعْرُورٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ. قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

يَا رَابِعَ ٱلشُّعَرَاءِ كَيْفَ هَجَوْتَنِي ... وَزَعَمْتَ أَنِّي مُفْحَمٌ لَا أَنْطِقُ

وَقِيلَ بَلْ هُمْ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ مُطْبِقٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ وَٱلْمُفْلِقُ ٱلَّذِي يَأْتِي فِي شِعْرِهِ بِٱلْفِلَقِ وَهُوَ ٱلْعَجَبُ وَقِيلَ ٱلدَّاهِيَةُ (قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) ٱلشُّوَيْعِرُ حُمْرَانُ بْنُ أَبِي حُمْرَانَ سَمَّاهُ بِذٰلِكَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَمِثْلُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلشُّوَيْعِرِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ: وَٱلشَّاعِرُ عَبْدُ بَالِيلَ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ وَقِيلَ ٱسْمُهُ رَبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ شَاعِرٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ. قَالَ ٱلْعَبْدِيُّ فِي شَاعِرٍ يُدْعَى ٱلْمُغَوَّفَ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ ثُمَّ مِنْ بَنِي خَمِيسٍ:

أَلَا تَنْهَى سَرَاةُ بَنِي خَمِيسٍ ... شُوَيْعِرَهَا فُوَيْلِيَةَ ٱلْأَفَاعِي

فَسَمَّاهُ شُوَيْعِرًا. وَقَالَتْ الْأَعْرَابِيَّةُ دُوَيْبَّةٌ فَوْقَ الْخُنْفَسَاءِ فَصَغَّرَهَا تَحْقِيرًا بِهِ وَزَعَمَ الْحَاتِمِيُّ أَنَّ النَّابِغَةَ سُئِلَ: مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ مَنْ أَسْتَجِيدَ جَيِّدَهُ وَأَضْحَكَ رَدِيئُهُ كَانَ مِنْ سَفِلَةِ الشُّعَرَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي الْهِجَاءِ خَاصَّةً وَقَالَ الْحُطَيْئَةُ:

الشِّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهْ وَالشِّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهْ
إِذَا ارْتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهْ زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهْ
يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهْ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

الشُّعَرَاءُ فَاعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ فَشَاعِرٌ لَا يُرْتَجَى لِمَنْفَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ الْمَجْمَعَهْ وَشَاعِرٌ آخَرُ لَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَمْرٌ فِي دَعَهْ

قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ: وَإِنَّمَا سُمِّيَ الشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ. قَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي شَرْحِ الدُّرَيْدِيَّةِ يُقَالُ: أَنْشَدْتُهُ مُقَلَّدَاتِ الشُّعَرَاءِ أَيْ أَبْيَاتَهُمُ الطَّنَّانَةَ الْمُسْتَحْسَنَةَ وَيَقُولُ آخَرُونَ: إِنَّ الْمُقَلَّدَ مِنَ الشِّعْرِ مَا كَانَ اسْمُ الْمَمْدُوحِ فِيهِ مَذْكُورًا فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ: هٰذَا الْبَيْتُ عُقْرُ هٰذِهِ الْقَصِيدَةِ أَيْ أَجْوَدُ بَيْتٍ فِيهَا كَمَا يُقَالُ: هٰذَا بَيْتٌ طَنَّانٌ. اه. وَفِي الْمَقْصُورِ وَالْمَمْدُودِ لِلْقَالِي: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ:

يَصُدُّ الشَّاعِرُ الثُّنْيَانُ عَنِّي صُدُودَ الْبِكْرِ عَنْ قَرْمِ الْهِجَانِ

قَالَ الثُّنْيَانُ الَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَأَبُوهُ شَاعِرٌ كَكَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ

وَعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ بْنِ حَسَّانَ وَرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو ٱلشَّيْبَانِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى فَيُقَالُ مَا فِي ٱلْقَوْمِ أَشْعَرُ مِنْ فُلَانٍ إِلَّا فُلَانٌ فَفُلَانٌ ٱلْمُسْتَثْنَى هُوَ ٱلْأَفْضَلُ ٱلْأَشْعَرُ. وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي تُثْنَى عَلَيْهِ ٱلْخَنَاصِرُ فِي ٱلْعَدَدِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ وَقَالَ ٱبْنُ هِشَامٍ هُوَ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لِأَنَّهُ دُونَهُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ ٱلثُّنْيَانُ ٱلضَّعِيفُ. وَقَالَ ٱلْقَالِي: ٱلثُّنْيَانُ عِنْدِي ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلْقَوْمِ رَفِيعًا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا فَيُقَالُ لِلدُّونِ وَٱلضَّعِيفِ ثُنْيَانٌ وَلِلرَّفِيعِ وَٱلشَّاعِرِ ثُنْيَانٌ (وَقَالَ ٱلْقَالِي) فِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ. حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنِ دُرَيْدٍ قَالَ. ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَحْسِبُ ٱلْأَصْمَعِيَّ قَدْ ذَكَرَهُ أَيْضًا قَالَ. لَقِيَتِ ٱلسِّعْلَاةُ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ ٱلشِّعْرَ فَبَرَكَتْ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَتْ أَنْتَ ٱلَّذِي تَجُو قَوْمَكَ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَهُمْ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ. فَأَنْشِدْنِي ثَلَاثَةَ أَبْيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ فَقَالَ:

إِذَا مَا تَرْعَرَعَ فِينَا ٱلْغُلَا ... مُ فَمَا إِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَهْ
إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ ٱلْفَدَ ... مِ لِكَ فِينَا ٱلَّذِي لَا هُوَهْ
وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي ٱلشَّيْصُبَا ... نِ فَحِينًا أَقُولُ وَحِينًا هُوَهْ

فَخَلَّتْ سَبِيلَهُ وَقَالَتْ: أَوْلَى لَكَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ ٱلسِّعْلَاةُ سَاحِرَةُ ٱلْجِنِّ

(فَائِدَةٌ) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ ٱلْبَطَلْيُوسِيُّ. وَقَدْ أَنْشَدَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ:

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

هٰذَا وَٱمْثَالُهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي ٱلْإِعْرَابِ. فَلَيْسَ يَحْسُنُ فِي ٱلشِّعْرِ عِنْدَ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ. لِمَا فِيهِ مِنْ وَهْيِ ٱلنَّسْجِ وَٱلِاضْطِرَابِ. وَٱلشِّعْرُ إِذَا أَخْرَجَ إِلَى شَرْحٍ لَمْ يُعَدَّ فِي فَاخِرِ ٱلْمَسَاقِ. وَلَا قَامَ فِي ٱلْإِحْسَانِ عَلَى سَاقٍ. وَلَا عَذُبَ فِي ٱلْمَذَاقِ. فَهُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ. وَيَحْتَاجُ ٱلشِّعْرُ إِلَى أَنْ يَسْبِقَ مَعْنَاهُ لَفْظَهُ. فَتَسْتَلِذَّ ٱلنُّفُوسُ رِوَايَتَهُ وَحِفْظَهُ. وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ وَٱلْمُتَكَلِّمِ. بَيَانُ مَا يُحَاوِلُهُ لِلْعَالِمِ وَٱلْمُتَعَلِّمِ. فَإِنْ تَكَلَّمَ بِقُلُوبٍ. مَجَّتْهُ ٱلْأَسْمَاعُ وَٱلْقُلُوبُ. وَلَمْ يَتَحَصَّلْ مِنْهُ ٱلْغَرَضُ ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ أَمَا تَرَى فِي ٱلْأَشْعَارِ أَمْثَالَ هٰذَا كَقَوْلِهِ:

لَهَا مُقْلَتَا آدَاءِ طَلٍّ خَرِيدَةٍ مِنَ ٱلْوَحْشِ مَا يَنْفَكُّ يَرْعَى عَرَارَهَا

قِيلَ لَهُ وَهٰذَا أَيْضًا قَدْ أَحَالَ وَمَنْ تَكَلَّفَ مِثْلَ هٰذَا لَمْ يُخَفِّفْ عَنْ نَفْسِهِ ٱلْكُلْفَةَ وَٱلْمَلَامَ. وَتَعَرَّضَ لِأَنْ يُلَامَ. وَتَرَكَ بَيْنَ ٱلْكَلَامِ. وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلْكَلَامُ وَٱلشِّعْرُ بِحُسْنِ ٱلْعِبَارَةِ وَٱلدِّيبَاجَةِ. وَرَوْنَقِ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى تَكُونَ أَلْفَاظُهَا كَٱلزُّجَاجَةِ. وَإِلَّا فَٱلْمَعَانِي مُعَرَّضَةٌ لِكُلِّ جِيلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلشِّرْكِ حَتَّى لِلزَّنْجِ وَٱلتَّتَرِ وَٱلتُّرْكِ لٰكِنَّهُمْ قَصُرَتْ بِهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ عَنْ بُلُوغِ مَا رَامُوهُ مِنْ أَرَبٍ. قَدْ تَهَيَّأَ عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلْعَرَبِ. وَأَقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَى ٱلْمُتَكَلِّمِ ٱلْبَيَانُ لِمُخَاطِبِهِ. وَإِلَّا كَانَ كَمُخَاطِبِ ٱللَّيْلِ وَحَاطِبِهِ. يُخَاطِبُ ٱلْعَرَبِيَّ بِٱلْعَجَمِيَّةِ وَيُخَاطِبُ ٱلْعَجَمِيَّ بِٱلْعَرَبِيَّةِ. وَصِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ أَشَدُّ

حَضْرًا . وَأَمَدُّ عَصْرًا وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ رَاهِبٌ أَوْ مُعَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ فَإِنْ حَكَى عَنْ نَفْسِهِ وَإِلَّا كَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يَهْلِكَ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا رَوَاهُ ٱبْنُ جِنِّيٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ زَكَرِيَّاءَ حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلْغِلَابِيُّ حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ سَابِقٍ قَالَ : دَخَلَ ٱلنَّابِغَةُ عَلَى ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ فَقَالَ :

تَخِفُّ ٱلْأَرْضُ إِنْ تَفْقِدْكَ يَوْمًا ... وَتَبْقَى مَا بَقِيتَ بِهَا ثَقِيلَا

فَنَظَرَ إِلَيْهِ ٱلنُّعْمَانُ نَظَرَ غَضْبَانَ . وَكَانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ حَاضِرًا فَقَالَ : أَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْمَلِكَ إِنَّ مَعَ هٰذَا بَيْتًا ضَلَّ عَنْهُ هُوَ

لِأَنَّكَ مَوْضِعُ ٱلْقِسْطَاسِ مِنْهَا ... فَتَمْنَعُ جَانِبَيْهَا أَنْ تَمِيلَا

فَضَحِكَ ٱلنُّعْمَانُ وَأَمَرَ لَهُمَا بِجَائِزَتَيْنِ فَلَوْلَا كَعْبٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ . فَإِنْ كَانَ ٱلشَّاعِرُ مُخَاطِبًا مَنْ دُونَ ٱلْمَلِكِ ٱلْأَشَمِّ بِمَا لَا يَفْهَمُ وَكَانَ رَاغِبًا فِي دِرْهَمٍ كَانَ ذٰلِكَ سَبَبًا لِبُطْلَانِ حَاجَتِهِ وَٱسْتِهْجَانِ شِعْرِهِ وَتَحْقِيرِ أَمْرِهِ وَٱلْقُدَمَاءُ فِي هٰذَا أَعْذَرُ لِأَنَّهَا لُغَتُهُمْ

الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

وَمِنَ ٱلشِّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَٱلْمَطْبُوعُ هُوَ ٱلْأَصْلُ وُضِعَ عَلَيْهِ اَوَّلًا وَعَلَيْهِ ٱلْمَدَارُ وَٱلْمَصْنُوعُ وَاِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلْاِسْمُ فَلَيْسَ مُتَكَلَّفًا تَكَلُّفَ اَشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ. لٰكِنْ وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّلٍ لٰكِنْ بِطِبَاعِ ٱلْقَوْمِ. عُنُوا وَٱسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا اِلَيْهِ بَعْضَ ٱلْمَيْلِ بَعْدَ اَنْ عَرَفُوا وَجْهَ ٱخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرٌ ٱلْحَوْلِيَّاتِ عَلَى ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّثْقِيفِ يَصْنَعُ ٱلْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظَرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ ٱلتَّعَقُّبِ بَعْدَ اَنْ يَكُونَ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ اَوْ لَيْلَةٍ. وَرُبَّمَا قَصَدَ اِقَامَةَ نَشَاطِهِ فَتَبَاطَأَ عَمَلُهُ لِذٰلِكَ. وَٱلْعَرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي اَعْطَافِ شِعْرِهَا بِاَنْ تُجَنِّسَ اَوْ تُطَابِقَ اَوْ تُقَابِلَ فَتَتْرُكَ لَفْظَةً لِلَفْظَةٍ اَوْ مَعْنًى لِمَعْنًى كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ وَلٰكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ ٱلْكَلَامِ اَوْ جَزَالَتِهِ

وَبَسْطِ ٱلْمَعْنَى أَوْ إِبْرَازِهِ وَإِتْقَانِ بِنْيَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِحْكَامِ ٱلْقَافِيَةِ وَتَلَاحُمِ ٱلْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى عَدُّوا مِنْ فَضْلِ صَنْعَةِ ٱلْحُطَيْئَةِ حَتَّى نَسْقَهُ ٱلْكَلَامَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ:

فَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ ... بِأَنْ يَبْنُوا ٱلْمَكَارِمَ حَيْثُ شَاؤُوا

وَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ ... وَلَا عَنَفُوا بِذَاكَ وَلَا أَسَاؤُوا

فَإِنَّ ٱلْجَارَ مِثْلَ ٱلضَّيْفِ يَغْدُو ... لِوُجْهَتِهِ وَإِنْ طَالَ ٱلثَّوَاءُ

وَإِنِّي قَدْ عَلِقْتُ بِحَبْلِ قَوْمٍ ... أَعَانَهُمُ عَلَى ٱلْحَسَبِ ٱلثَّرَاءُ

وَٱسْتَظْرَفُوا مَا جَاءَ مِنَ ٱلصَّنْعَةِ نَحْوَ ٱلْبَيْتِ وَٱلْبَيْتَيْنِ فِي ٱلْقَصِيدَةِ بَيْنَ ٱلْقَصَائِدِ يُسْتَدَلُّ بِذٰلِكَ عَلَى جُودَةِ شِعْرِ ٱلرَّجُلِ وَصِدْقِ حِسِّهِ وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ. وَأَمَّا إِذَا كَثُرَ ذٰلِكَ فَهُوَ عَيْبٌ يَشْهَدُ بِخِلَافِ ٱلطَّبْعِ وَإِيثَارِ ٱلْكُلْفَةِ وَلَيْسَ يَتَّجِهُ ٱلْبَتَّةَ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ ٱلشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا مُتَصَنَّعٌ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ كَٱلَّذِي يَأْتِي مِنْ أَشْعَارِ حَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَغَيْرِهِمَا وَقَدْ كَانَا يَطْلُبَانِ ٱلصَّنْعَةَ وَيُولَعَانِ بِهَا. فَأَمَّا حَبِيبٌ فَيَذْهَبُ إِلَى حُزُونَةِ ٱللَّفْظِ وَمَا يَمْلَأُ ٱلْأَسْمَاعَ مِنْهُ مَعَ ٱلتَّصْنِيعِ ٱلْمُحْكَمِ طَوْعًا وَكَرْهًا يَأْتِي ٱلْأَشْيَاءَ مِنْ بُعْدٍ وَيَطْلُبُهَا بِكُلْفَةٍ وَيَأْخُذُهَا بِقُوَّةٍ. وَأَمَّا ٱلْبُحْتُرِيُّ فَكَانَ أَمْلَحَ وَأَحْسَنَ مَذْهَبًا فِي ٱلْكَلَامِ يَسْلُكُ مِنْهُ دَمَاثَةً وَسُهُولًا مَعَ إِحْكَامِ ٱلتَّصَنُّعِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ كُلْفَةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ. وَمَا أَعْلَمُ شَاعِرًا أَكْمَلَ وَلَا أَمْلَحَ تَصَنُّعًا مِنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَإِنَّ صَنْعَتَهُ خَفِيَّةٌ لَا تَكَادُ تَظْهَرُ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ إِلَّا لِلْبَصِيرِ بِدَقَائِقِ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ عِنْدِي

أنظفُ أصحابِهِ شِعرًا وأكثرُهم بديعًا وأفتنُّا وأقربُهم قوافيَ وأوزانًا ولا أرى وراءهُ غايةً لطالبِها في هذا البابِ. غيرَ أنّا لا نجدُ المُبتدئَ في طلبِ التّضنيعِ ومُزاولةِ الكلامِ أكثرَ انتفاعًا منهُ بمُطالعةِ شعرِ حبيبٍ وشعرِ مُسلمِ بنِ الوليدِ لما فيهما من الفضيلةِ لمُبتغيها ولأنّهما طرقا إلى الصّنعةِ ومعرفتِها طريقًا سابلةً وكثّرا منها في أشعارِهما تكثيرًا سهّلها عندَ النّاسِ وحسّرهم عليها. على أنّ مُسلمًا أسهلُ شعرًا من حبيبٍ وأقلُّ تكلّفًا وهو أوّلُ من تكلّفَ البديعَ من المُولّدينَ وأخذَ نفسهُ بالصّنعةِ وكثّرَ منها ولم يكنْ في الأشعارِ المُحدثةِ قبلَ مُسلمٍ إلّا النُّبذُ اليسيرةُ. وهو زهيرُ المُولّدينَ كانَ يُبطئُ في صنعتِهِ ويُجيدُها. وقالوا: أوّلُ من فتقَ البديعَ من المُحدثينَ بشّارُ بنُ بُردٍ وهو ساقةُ العربِ وآخرُ من يُستشهدُ بشعرِهِ ثمّ أتبعهما مُقتديًا بهما كلثومُ بنُ عمرٍو العتّابيُّ ومنصورٌ النّمريُّ ومُسلمُ بنُ الوليدِ وأبو نواسٍ وأتبعَ هؤلاءِ أبو تمّامٍ والبحتريُّ وعبدُ اللهِ بنُ المُعتزِّ فانتهى علمُ البديعِ والصّنعةِ وختمَ بهِ. وشبّهَ قومٌ أبا نواسٍ بالنّابغةِ لما اجتمعَ لهُ من الجزالةِ مع الرّشاقةِ وحسنِ الدّيباجةِ والمعرفةِ بمدحِ المُلوكِ. وأمّا بشّارٌ فقد شبّهوهُ بامرئِ القيسِ لتقدّمِهِ على المُولّدينَ وأخذِهم عنهُ. ومن كلامِهم: بشّارٌ أبو المُحدثينَ. وسمعنا أبا عبدِ اللهِ غيرَ مرّةٍ يقولُ: إنّما سُمّيَ الأعشى صنّاجةَ العربِ لأنّهُ أوّلُ من ذكرَ الصّنجَ في شعرِهِ. قالَ ويُقالُ بل سُمّيَ صنّاجةً لقوّةِ طبعِهِ وحِليةِ شعرِهِ يُخيّلُ إليكَ إذا

أنشدته أن آخر ينشد معك. ومثله بشار بن برد تنشد أقصر شعره عروضا وألينه كلاما فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع.

انقضى كلام عبد الله ورجعنا إلى القول في الطبع والتصنيع. فإذا كان الشاعر مصنعا فإن جيده من سائر شعره كأبي تمام. فصار محصورا معروفا بأعيانه فإذا كان الطبع غالبا عليه لم يبن جيده كل البنونة وكان قريبا من قريب كالبحتري. ومن شاكله وقد نص ابن الرومي في بعض تسطيراته على محمد بن أبي حكيمة الشاعر حين عاب عليه قوله في الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن طاهر:

فله شهامة سوداني باكر وحوافر حفر ورأس صلتع

وذكر قول أبي تمام (بحوافر حفر وصلب صلب) فحفل به واعتذر له وخرج التخاريج الحسان وذكر أن الحافر الوأب والحافر المقعب ونحوهما أشرف في اللفظ من الحافر الأحفر إلا أن أبا تمام كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها. والذي أراه أن ابن الرومي أبصر بأبي تمام وغيره منا وأن التسليم له والرجوع إليه أحزم. غير أني لو شئت أن أقول ولست رادا عليه ولا معترضا بين يديه أن المعنى الذي أراده وأشار إليه من جهة أبي تمام إنما هو معنى الصنعة مثل التطبيق والتجنيس وما أشبههما لا معنى الكلام الذي هو روحه. وأما اللفظ الذي ذكر أنه لا يبالي به إنما هو فصيح

ٱلْكَلَامِ وَمُسْتَعْمَلُهُ وَيَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا ٱدَّعَيْتُهُ عَلَى ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ قَوْلُهُ اِنَّ ٱلْحَافِرَ ٱلْوَأْبَ وَٱلْمُقَعَّبَ اَشْرَفُ فِي ٱللَّفْظِ مِنَ ٱلْحَافِرِ ٱلْاَحْفَرِ . فَكَلَامُهُ رَاجِعٌ اِلَى مَا قُلْتُهُ فِي اَبِي تَمَّامٍ غَيْرُ مُخَالِفٍ لَهُ وَاِنْ كَانَ فِي ٱلظَّاهِرِ عَلَى خِلَافِهِ لَسَاغَ ذٰلِكَ اِلَّا اَنَّ اَكْثَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى مَا قَالَ وَاِنَّمَا هُوَ هٰذَا مَعْرِضٌ لِلْكَلَامِ لَا مُخَالَفَةٌ . وَقَالَ ٱلْجَاحِظُ : كَمَا لَا يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ عَامِيًّا وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا فَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ وَحْشِيًّا اِلَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِهِ بَدَوِيًّا اَعْرَابِيًّا فَاِنَّ ٱلْوَحْشِيَّ مِنَ ٱلْكَلَامِ يَفْهَمُهُ ٱلْوَحْشِيُّ مِنَ ٱلنَّاسِ كَمَا يَفْهَمُ ٱلسُّوقِيُّ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ (قَالَ) وَاَنْشَدَ رَجُلٌ قَوْمًا شِعْرًا فَاسْتَغْرَبُوهُ فَقَالَ : وَٱللّٰهِ مَا هُوَ بِغَرِيبٍ وَلٰكِنَّكُمْ فِي ٱلْاَدَبِ غُرَبَاءُ . وَعَنْ غَيْرِهِ اَنَّ رَجُلًا قَالَ لِاَبِي تَمَّامٍ فِي مَجْلِسٍ قَدْ حَفَلَ وَاَرَادَ تَبْكِيتَهُ لَمَّا اَنْشَدَهُ : يَا اَبَا تَمَّامٍ لِمَ لَا تَقُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يُفْهَمُ . فَقَالَ لَهُ : وَاَنْتَ لِمَ لَا تَفْهَمُ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يُقَالُ فَفَضَحَهُ . وَيُرْوَى اَنَّ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَةَ كَانَتْ مَعَ اَبِي ٱلْعَمَيْثَلِ وَصَاحِبَيْنِ لَهُ خَاطَبَاهُ فَاَجَابَهُمَا . وَقَالَ بَعْضُ مَنْ نَظَرَ بَيْنَ اَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ اِنَّمَا اَبُو تَمَّامٍ كَٱلْقَاضِي ٱلْعَدْلِ يَضَعُ ٱللَّفْظَةَ مَوْضِعَهَا وَيُعْطِي ٱلْمَعْنَى حَقَّهُ بَعْدَ طُولِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَحْثِ عَنِ ٱلْبَيِّنَةِ اَوْ كَٱلْفَقِيهِ ٱلْوَرِعِ يَتَحَرَّى فِي كَلَامِهِ وَيَتَحَرَّجُ . وَاَبُو ٱلطَّيِّبِ كَٱلشُّجَاعِ ٱلْجَرِيءِ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ لَا يُبَالِي مَا لَقِيَ وَلَا حَيْثُ وَقَعَ . وَكَانَ ٱلْاَصْمَعِيُّ يَقُولُ زُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ مِنْ عَبِيدِ ٱلشِّعْرِ يُرِيدُ اَنَّهُمَا يَتَكَلَّفَانِ اِصْلَاحَهُ وَيُشْغِلَانِ بِهِ خَوَاطِرَهُمَا وَحَوَاسَّهُمَا . وَمِنْ

اَضحَابِهِمَا فِي ٱلتَّنقِيحِ وَفِي ٱلتَّثقِيفِ وَٱلتَّحكِيكِ طُفَيلٌ ٱلغَنَوِيُّ. وَقَد قِيلَ اِنَّ زُهَيرًا اَيضًا رَوَى لَهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحَبِّرًا لِحُسنِ شِعرِهِ. وَمِنهُم ٱلحُطَيئَةُ وَٱلنَّمِرُ بنُ تَولَبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ اَبُو عَمرِو بنُ ٱلعَلَاءِ ٱلكَيِّسَ. وَكَانَ بَعضُ ٱلحُذَّاقِ يَقُولُ: قُل مِنَ ٱلشِّعرِ مَا يَخدُمُكَ وَلَا تَقُل مِنهُ مَا تَخدُمُهُ وَهُوَ مَعنَى كَلَامِ ٱلاَصمَعِيِّ. وَسَاُحَلِّي هٰذَا ٱلبَابَ مِن كَلَامِ ٱلسَّيِّدِ اَبِي ٱلحَسَنِ بِحِليَةٍ تَكُونُ لَهُ زِينَةً فَائِقَةً وَاَختِمُهُ بِخَاتِمَةٍ تَكسُوهُ حُلَّةً رَائِقَةً لِاُوفِيَ بِذٰلِكَ بَعضَ مَا ضَمِنتُ وَاَقضِيَ بِهِ حَقَّ مَا شَرَطتُ اِن شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى. فَمِن ذٰلِكَ قَولُهُ سَنَةَ ٤٠٥ يَتَشَوَّقُ اَهلَهُ:

وَلِي كَبِدٌ مَكلُومَةٌ لِفِرَاقِكُم ... اُطَأُ مِنهَا صَبرًا عَلَى مَا اَجَنَّتِ

تَمَنَّيتُكُم شَوقًا اِلَيكُم وَصَبوَةً ... عَسَى ٱللهُ اَن يُبدِي لَهَا مَا تَمَنَّتِ

وَعَينٌ جَفَاهَا ٱلنَّومُ وَٱعتَادَهَا ٱلبُكَا ... اِذَا عَنَّ ذِكرُ ٱلقَيرَوَانِ ٱستَهَلَّتِ

فَلَو اَنَّ اَعرَابِيًّا تَذَكَّرَ نَجدًا فَحَنَّ بِهِ اِلَى ٱلوَطَنِ اَو تَشَوَّقَ فِيهِ بَعضَ ٱلسَّكَنِ مَا حَسِبتُهُ يَزِيدُ عَلَى مَا اَتَى بِهِ هٰذَا ٱلوَلَدُ ٱلحَضَرِيُّ ٱلمُتَاَخِّرُ ٱلعَصرِ. وَمَا اَنحَطُّ فِي هٰذَا ٱلتَّميِيزِ فِي هَوَايَ وَلَا اَتَّبِعُ بِهَذَا ٱلقَولِ عِندَ مَولَايَ وَلَا ٱلخَدِيعَةُ مِمَّا نَظُنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلٰكِن قَد رَاَيتُ وَجهَ ٱلحَقِّ فَعَرَفتُهُ وَٱلحَقُّ لَا يَتِمُّ وَمَا هُوَ فِي بَلَاغَتِهِ وَاِيجَازِهِ اِلَّا كَمَا قَالَ ٱلاَحمَرُ ٱلسَّعدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ:

مِنَ ٱلقَولِ مَا يَكفِي ٱلمُصِيبَ قَلِيلُهُ

وَمِنهُ ٱلَّذِي لَا يَكتَفِي ٱلدَّهرَ قَائِلُهُ

يَصُدُّ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَتْرُكُ مَا نَجَا
وَيَذْهَبُ فِي ٱلتَّقْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهْ
فَلَا تَكُ مِكْثَارًا تَزِيدُ عَلَى ٱلَّذِي
عُنِيتَ بِهِ فِي خَطْبِ أَمْرٍ تُزَاوِلُهْ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ ٱلشِّعْرِ أَرْبَعَةٌ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلْحِكْمَةُ وَٱللَّهْوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذٰلِكَ فُنُونٌ فَيَكُونُ فِي ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَرَاثِي وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلذَّمُّ وَٱلْعِتَابُ وَٱلِٱسْتِبْطَاءُ وَمِنَ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْأَمْثَالُ وَٱلتَّزْهِيدُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَيَكُونُ مِنَ ٱللَّهْوِ ٱلْغَزَلُ وَصِفَةُ ٱلْخَمْرِ وَٱلْخُمُورِ. وَقَالَ قَوْمٌ ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهِجَاءٌ فَإِلَى ٱلْمَدْحِ يَرْجِعُ ٱلرِّثَاءُ وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلتَّشْبِيبُ وَمَا تَعَلَّقَ بِذٰلِكَ مِنْ مَحْمُودِ ٱلْوَصْفِ كَصِفَاتِ ٱلْخُيُولِ وَٱلْآثَارِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْحِسَانِ وَكَذٰلِكَ تَحْسِينُ ٱلْخُلُقِ كَٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْمَوَاعِظِ وَٱلزُّهْدِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْقَنَاعَةِ. وَٱلْهِجَاءُ ضِدُّ ذٰلِكَ كُلِّهِ غَيْرَ أَنَّ ٱلْعِتَابَ حَالٌ مِنَ ٱلْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذٰلِكَ ٱلْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولَ إِنَّهُ حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى ٱلْمُغْرَى ٱلدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

ايضاً بمدحه الثناء عليه فيكون ذلك على وجهه. والبيت من الشعر كالبيت من الابنية والشعر قراره الطبع وسمكه الرواية ودعائمه القلم وبابه الدربة وساكنه المعنى ولا خير في بيت غير مسكون. وصارت الاعاريض والقوافي كالموازين والامثلة للابنية او كالاواخي والاوتاد للاخبية. واما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فانما هو زينة مستأنفة لو لم تكن لاستغني عنها. قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة: الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من اسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان. قال ولست افصل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والاعرابي والمولد الا اني ارى حاجة المحدث الى الرواية امس واجده الى كثرة الحفظ افقر فاذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها ان المطبوع الذي لا يمكنه تناول الفاظ العرب الا رواية ولا رواية ولا طريق الى الرواية الا السمع وملاك السمع الحفظ. وقال دعبل في كتابه من اراد المديح فبالرغبة ومن اراد الهجاء فبالبغضاء ومن اراد التشبيب فبالشوق والعشق ومن اراد المعاتبة فبالاستبطاء: فقسم الشعر كهذه الاقسام الاربعة وكان الرثاء عنده من باب المدح على ما قدمت. الا انه جعل العتاب

بَدَلًا مِنْهُ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ: ٱلشِّعْرُ مَا ٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلِٱسْتِعَارَةِ ٱلرَّائِعَةِ وَٱلتَّشْبِيهِ ٱلوَاقِعِ وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَإِنَّمَا لِقَائِلِهِ فَضْلُ ٱلوَزْنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسه)

وَسَبِيلُ ٱلشَّاعِرِ إِذَا مَدَحَ مَلِكًا أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَةَ ٱلإِفْصَاحِ وَٱلإِشَادَةِ بِذِكْرِ ٱلمَمْدُوحِ وَأَنْ يَجْعَلَ مَعَانِيَهُ جَزْلَةً وَأَلْفَاظَهُ نَقِيَّةً غَيْرَ مُبْتَذَلَةٍ سُوقِيَّةٍ وَيَجْتَنِبَ مَعَ ذٰلِكَ ٱلتَّقْصِيرَ وَٱلتَّطْوِيلَ فَإِنَّ لِلْمَلِكِ سَآمَةً وَضَجَرًا وَرُبَّمَا عَابَ مِنْ أَجْلِهَا مَا لَا يُرِيدُ حِرْمَانَهُ وَقَدْ رَأَيْتَ عَمَلَ ٱلبُحْتُرِيِّ إِذَا مَدَحَ ٱلخَلِيفَةَ كَيْفَ يُقِلُّ ٱلأَبْيَاتَ وَيُبَرِّرُ وُجُوهَ ٱلمَعَانِي فَإِذَا مَدَحَ ٱلكُتَّابَ عَمِلَ طَاقَتَهُ وَبَلَغَ مُرَادَهُ. وَقَدْ حُكِيَ عَنْ عَمَّارَةَ أَنَّ جَدَّهُ جَرِيرًا قَالَ: يَا بُنَيَّ إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا ٱلمَمَادَحَةَ وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا. وَحَكَى آخَرُ قَالَ: دَخَلَ ٱلفَرَزْدَقُ عَلَى عَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱبْنِ أُمِّ ٱلحَكَمِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَانِ: يَا أَبَا فِرَاسٍ دَعْنِي مِنْ شِعْرِكَ ٱلَّذِي لَيْسَ يَأْتِي آخِرُهُ حَتَّى يُنْسَى أَوَّلُهُ وَقُلْ فِيَّ بَيْتَيْنِ يَعْلَقَانِ بِٱلرِّوَايَةِ وَأَنَا أُعْطِيكَ عَطِيَّةً لَمْ يُعْطِكَهَا أَحَدٌ قَبْلِي فَغَدَا عَلَيْهِ وَقَالَ:

وَأَنتَ أَبْنُ بَطْحَاوَى قُرَيشٍ وَإِنْ تَشَا
تَكُنْ مِنْ ثَقِيفٍ سُبْلَ ذِي حَذَرٍ عُمَرِ
وَأَنتَ أَبْنُ سَوَّارِ ٱلْيَدَيْنِ إِلَى ٱلْعُلَا
تَلَقَّتْ بِكَ ٱلشَّمْسُ ٱلْمُضِيئَةُ لِلْبَدْرِ

فَقَالَ لَهُ: أَحْسَنْتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافٍ. وَإِذَا كَانَ ٱلْمَمْدُوحُ مَلِكًا لَمْ يُبَالِ ٱلشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيْفَ أَطْنَبَ وَذٰلِكَ مَحْمُودٌ وَسِوَاهُ ٱلْمَذْمُومُ. فَإِنْ كَانَ سُوقَةً فَإِيَّاهُ وَٱلتَّجَاوُزَ بِهِ خُطَّتَهُ فَإِنَّهُ مَتَى تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتَهُ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنْهَا وَكَذٰلِكَ لَا يَجِبُ أَنْ يُقَصِّرَ بِهِ عَمَّا يَسْتَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعْطِيَهُ صِفَةَ غَيْرِهِ فَيَصِفَ ٱلْكَاتِبَ بِٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْقَاضِيَ بِٱلْحَمِيَّةِ وَٱلْمَهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هٰذَا لِشُعَرَاءِ وَقْتِنَا وَهُوَ خَطَأٌ إِلَّا أَنْ تَصْحَبَهُ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ ٱلرَّأْيِ فِيهِ وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمَلِكُ بِبَعْضِ مَا يَحُقُّ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَإِنْ كَانَ فَضِيلَةً وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْمُعْتَزِّ:

لَا ٱلْعَذْلُ يَرْدَعُهُ وَلَا ٱلتَّعْنِيفُ عَنْ كَرَمٍ يَصُدُّهُ

فَإِنَّهُ مِمَّا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدِ ٱللّٰهِ قَالَ: وَمَنْ ذَا يُعَنِّفُ ٱلْخَلِيفَةَ عَنِ ٱلْكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ. هٰذَا بِٱلْهِجَاءِ أَوْلَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ. وَعِيبَ عَلَى ٱلْأَخْطَلِ قَوْلُهُ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ هٰذَا ٱلْبَيْتَ:

وَقَدْ جَعَلَ ٱللّٰهُ ٱلْخِلَافَةَ مِنْهُمُ
لِأَبْيَضَ لَا عَارِي ٱلْخَوَانِ وَلَا جَدْبِ

وَقَالُوا: لَوْ مَدَحَ بِهٰذَا حَرَسِيًّا لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَكَانَ قَصَّرَ بِهِ.
وَأَجْوَدُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ ٱلْبَرِيصَ عَلَيْهِمُ
بَرَدَى يُصَفَّقُ بِٱلرَّحِيقِ ٱلسَّلْسَلِ

وَيُرْوَى مِسْكًا. وَعَابُوا عَلَى ٱلْأَخْوَصِ قَوْلَهُ لِلْمَلِكِ:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ
مَذْقُ ٱللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قَالُوا لِأَنَّ ٱلْمُلُوكَ لَا تُمْدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمْدَحُ بِهِ ٱلْعَامَّةُ وَإِنَّمَا تُمْدَحُ بِٱلْإِغْرَاقِ وَٱلتَّفَضُّلِ لَا بِمَا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذْلِهِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ كُثَيِّرٍ:

رَأَيْتُ ٱبْنَ لَيْلَى يَعْتَرِي صُلْبَ مَالِهِ
مَسَائِلُ شَتَّى مِنْ غَنِيٍّ وَمُعْدِمِ
مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدْ لَدَيْكَ تَجُدْ بِهَا
يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمْ بِهَا تَتَظَلَّمِ

لِأَنَّ هٰذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ ٱلْخَلِيفَةِ وَٱلْمَلِكِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرِمٍ. وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذٰلِكَ حَسُنَ قَوْلُهُ:

هُوَ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفْوًا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيَظْلِمُ

يُرِيدُ أَنَّهُ يُسْأَلُ مَا لَيْسَ قِبَلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ. وَحُكِيَ عَنِ ٱلصُّولِيِّ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كُثَيِّرًا فِي ٱلْمَدْحِ عَلَى جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ. وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ:

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ النَّجْمِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ اَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

وَقَدَّمَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدِ الشِّعْرِ لَوْ كَانَتْ فَضَائِلُ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقِ مَا هُمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ الْحَيَوَانِ عَلَى مَا عَلَيْهِ اَهْلُ الْاَلْبَابِ مِنَ الْاِتِّفَاقِ فِي ذٰلِكَ اِنَّمَا هِيَ الْعَقْلَ وَالْعِفَّةَ وَالْعَدَالَةَ وَالشَّجَاعَةَ كَانَ الْقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهٰذِهِ الْاَرْبَعَةِ مُصِيباً وَبِمَا سِوَاهَا مُخْطِئاً. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:

اَخِي ثِقَةٍ لَا يُتْلِفُ الْخَمْرَ مَالَهُ وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ الْمَالَ نَائِلُهْ

لِاَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِالْعِفَّةِ لِقِلَّةِ اِمْعَانِهِ فِي اللَّذَّاتِ وَاَنَّهُ لَا يُنْفِدُ فِيهَا مَالَهُ بِالسَّخَاءِ لِاَهْلَاكِ مَالِهِ فِي النَّوَالِ وَاَتْحِرَافِهِ فِي ذٰلِكَ عَنِ اللَّذَّاتِ وَذٰلِكَ هُوَ الْعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ:

تَرَاهُ اِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلَا كَاَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي اَنْتَ سَائِلُهْ

اَرَادَ اَنَّ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي اَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَاْخُذُ فَزَادَ فِي وَصْفِ السَّخَاءِ مِنْهُ بِاَنَّهُ جَعَلَهُ يَهَشُّ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ وَلَا تَكَرُّهٌ لِفِعْلِهِ ثُمَّ قَالَ:

وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي الْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ
لِاِنْكَارِ ضَيْمٍ اَوْ لِاَمْرٍ يُحَاوِلُهْ

وَيُرْوَى اَوْ لِخَصْمٍ يُجَادِلُهْ. فَاَتَى فِي هٰذَا الْبَيْتِ بِالْوَصْفِ مِنْ جِهَةِ الشَّجَاعَةِ وَالْعَقْلِ فَاسْتَوْفَى فِي ضُرُوبِ الْمَدْحِ الْاَرْبَعَةِ الَّتِي هِيَ فَضَائِلُ الْاِنْسَانِ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهٰذَا وَاِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجْهَ دُخُولِهِ فِيهَا حَيْثُ قَالَ : (أَخِي ثِقَةٌ) فَوَصَفَهُ بِٱلْوَفَاءِ وَٱلْوَفَاءُ دَاخِلٌ فِي هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي قَدَّمْنَا وَقَدْ يَحْدُثُ هٰذَا لِلشُّعَرَاءِ فَيَعُدُّونَ أَنْوَاعَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ وَأَقْسَامَهَا وَكُلَّ دَاخِلٍ فِي جُمْلَتِهَا مِثْلَ أَنْ يَذْكُرُوا ٱلْمَعْرِفَةَ وَٱلْحَيَاءَ وَٱلْبَيَانَ وَٱلسِّيَاسَةَ وَٱلصَّدْعَ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَقْلِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْقَنَاعَةَ وَقِلَّةَ ٱلشَّرَهِ وَطَهَارَةَ ٱلْإِزَارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعِفَّةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْحِمَايَةَ وَٱلْأَخْذَ بِٱلثَّارِ وَٱلدِّفَاعَ عَنِ ٱلْجَارِ وَٱلنِّكَايَةَ فِي ٱلْعَدُوِّ وَقَتْلَ ٱلْأَقْرَانِ وَٱلْمَهَابَةَ وَٱلسَّيْرَ فِي ٱلْمَهَامِهِ وَٱلْقِفَارِ ٱلْمُوحِشَةِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلشَّجَاعَةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلسَّمَاحَةَ وَٱلتَّغَابُنَ وَٱلْإِنْظِلَامَ وَٱلتَّبَرُّعَ بِٱلنَّائِلِ وَإِجَابَةَ ٱلسَّائِلِ وَقِرَى ٱلْأَضْيَافِ وَمَا جَانَسَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَدْلِ

وَأَمَّا تَرْكِيبُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَتَحْدُثُ مِنْهُ سِتَّةُ أَقْسَامٍ : يَحْدُثُ مِنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ مَعَ ٱلشَّجَاعَةِ ٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ وَنَوَازِلِ ٱلْخُطُوبِ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلسَّخَاءِ ٱلْبِرُّ وَإِنْجَازُ ٱلْوَعْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ ٱلتَّنَزُّهُ وَٱلرَّغْبَةُ عَنِ ٱلْمَسْئَلَةِ وَٱلْإِقْتِصَارُ عَلَى أَدْنَى مَعِيشَةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلسَّخَاءِ ٱلْإِتْلَافُ وَٱلْإِسْرَافُ وَمَا جَانَسَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ إِنْكَارُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرِيمِ . وَعَنِ ٱلسَّخَاءِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ ٱلْإِسْعَافُ بِٱلْقُوتِ وَٱلْإِيثَارُ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . قَالَ وَكُلُّ

وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مَذْمُومَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَفِيهِ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ ... مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ ... وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ... فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا

وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ وَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُهُ :

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا ... يَلْقَ ٱلسَّمَاحَةَ مِنْهُ وَٱلنَّدَى خُلُقَا

أَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ ٱلرِّجَالَ إِذَا ... مَا كَذَّبَ ٱللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

يَطْعَنُهُمْ مَا ٱرْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ... ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا ٱعْتَنَقَا

لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ ... أُفُقَ ٱلسَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ ٱلْأُفُقَا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ ٱلشِّعْرِ فِي مَدْحِ ٱلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ مَا نَاسَبَ حُسْنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَسُرْعَةَ ٱلْخَاطِرِ بِٱلصَّوَابِ وَشِدَّةَ ٱلْحَزْمِ وَقِلَّةَ ٱلْغَفْلَةِ وَجُودَةَ ٱلنَّظَرِ لِلْخَلِيفَةِ وَٱلنِّيَابَةِ عَنْهُ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ بِٱلرَّأْيِ أَوْ بِٱلذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ فَأَمَّا كَفَيْتَهُ ... وَإِمَّا عَلَيْهِ بِٱلْكَفِيِّ تُشِيرُ

وَبِأَنَّهُ مَحْمُودُ ٱلسِّيرَةِ حَسَنُ ٱلسِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْخَطِّ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلْعِلْمِ كَانَ غَايَةً. وَأَفْضَلُ مَا

مُدِحَ بِهِ ٱلْقَائِدُ ٱلْجُودُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا مِنَ ٱلْإِفْرَاطِ فِي ٱلنَّجْدَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْبَطْشِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ. وَيُمْدَحُ ٱلْقَاضِي بِمَا نَاسَبَ ٱلْعَدْلَ وَٱلْإِنْصَافَ وَتَقْرِيبَ ٱلْبَعِيدِ فِي ٱلْحَقِّ وَتَبْعِيدَ ٱلْقَرِيبِ فِي ٱلْأَخْذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمُسَاوَاةِ بَيْنَ ٱلْفَقِيرِ وَٱلْغَنِيِّ بِبَسْطِ ٱلْوَجْهِ وَلِينِ ٱلْجَانِبِ وَقِلَّةِ ٱلْمُبَالَاةِ فِي إِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱسْتِخْرَاجِ ٱلْحُقُوقِ فَإِنْ زَادَ إِلَى ذٰلِكَ وَذَكَرَ ٱلْوَرَعَ وَٱلتَّحَرُّجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ ٱلنِّهَايَةَ. وَصِفَاتُ ٱلْقَاضِي كُلُّهَا لَائِقَةٌ بِصَاحِبِ ٱلْمَظَالِمِ وَمَنْ كَانَ دُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلطَّبَقَاتِ سِوَى طَبَقَةِ ٱلْمَلِكِ فَلَا أَرَى لِمَدْحِهِ وَجْهًا فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذٰلِكَ ضَرُورَةٌ مُدِحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلْفَضْلِ فِي صِنَاعَتِهِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِطَرِيقَتِهِ ٱلَّتِي هُوَ فِيهَا. وَأَكْثَرُ مَا يُعَوَّلُ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا قُدَامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا فَضَائِلُ عَرَضِيَّةٌ أَوْ جِسْمِيَّةٌ كَٱلْجَمَالِ وَٱلْأُبَّهَةِ وَبَسْطَةِ ٱلْخُلُقِ وَسَعَةِ ٱلدُّنْيَا وَكَثْرَةِ ٱلْعَيْشِ كَانَ ذٰلِكَ جَيِّدًا. إِلَّا أَنَّ قُدَامَةَ قَدْ أَبَى مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ جُمْلَةً وَلَيْسَ ذٰلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا ٱلْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: ٱلْمَدْحُ بِٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ أَشْرَفُ وَأَصَحُّ فَأَمَّا إِنْكَارُ مَا سِوَاهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً فَمَا أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمُلُوكُ بِمَا نَاسَبَ قَوْلَ مُوسَى شَهَوَاتٍ وَيُرْوَى لِغَيْرِهِ:

أَنْتَ نِعْمَ ٱلْمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

لَيْسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِثْلُكَ عَيْبٌ ... عَابَهُ ٱلنَّاسُ غَيْرَ أَنَّكَ فَانِي

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهٰؤُلَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ قَاتَلَهُمُ ٱللهُ رُبَّمَا ذَكَّرُونَا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيَنْغِصُونَ بِهِ عَلَيْنَا أَوْقَاتَ لَذَّاتِنَا يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْمَوْتَ. وَمِنْ أَبْشَعِ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْ ... سٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبَا

مَا ٱلَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ هٰهُنَا إِلَّا ٱلنَّكَدُ وَٱلْبَغَاضَةُ

وَأَجْمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ بِمَدْحِ ٱلرَّسُولِ:

تَحْمِلُهُ ٱلنَّاقَةُ ٱلْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا ... بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ

وَفِي عِطَافَيْهِ أَوْ أَثْنَاءِ رَيْطَتِهِ ... مَا يَعْلَمُ ٱللهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

وَٱلْجُهَّالُ يَرْوُونَ ٱلْبَيْتَ لِأَبِي دِغْفِلٍ ٱلْجُمَحِيِّ. وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ:

يَخْبِلْنَ كُلَّ سُؤْدُدٍ وَفَخْرِ ... يَخْبِلْنَ مَا نَدْرِي وَمَا لَا نَدْرِي

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ أَصْلُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ:

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ ٱللهُ ... مُ وَإِنْ يُلْحَمُوا يَئِنُّوا وَمَاءِ

قَالَ وَلَمْ يُقَلْ شِعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَعَانِي. قَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُبَرِّدُ: مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَخْبِلُ ٱلْمَدْحَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ وَجْهًا حَسَنًا لِبُلُوغِهِ ٱلْإِرَادَةَ مَعَ خُلُوِّهِ مِنَ ٱلْإِطَالَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ ٱلْإِكْثَارِ وَدُخُولِهِ فِي ٱلْإِخْتِصَارِ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ:

تَرُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى ٱلْحَمْدِ مَالَهُ ... وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

كَسُوبٌ وَمِتْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ ... تَهَلَّلَ وَٱهْتَزَّ ٱهْتِزَازَ ٱلْمُهَنَّدِ

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

تَصَرَّفَ فِي أَبْيَاتِهِ هٰذِهِ فِي أَصْنَافِ ٱلْمَدِيحِ وَأَتَى بِجِمَاعِ ٱلْوَصْفِ وَجُمْلَةِ ٱلْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ ٱلْاِقْتِصَادِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلشَّمَّاخِ:

رَأَيْتُ عُرَابَةَ ٱلْأَوْسِيَّ يَسْمُو إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِينِ

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِٱلْيَمِينِ

وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِحَ بِهِ ٱلْمُلُوكُ وَأَكْثَرُهُ إِصَابَةً لِلْغَرَضِ مَا يُنَاسِبُ قَوْلَ ٱبْنِ هَرْمَةَ فِي ٱلْمَنْصُورِ:

لَهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَافِ سَرِيرِهِ إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ

فَأَمَّا ٱلَّذِي آمَنْتَ آمَنَهُ ٱلرَّدَى وَأَمَّا ٱلَّذِي أَوْعَدْتَ بِٱلنُّكْلِ ثَاكِلُ

وَقَوْلَ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ ٱلْهَادِيَ:

يَضْطَرِبُ ٱلْخَوْفُ وَٱلرَّجَاءُ إِذَا حَرَّكَ مُوسَى ٱلْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرْ

وَكَذٰلِكَ قَوْلَ ٱلْحَزِينِ ٱلْكِنَانِيِّ فِي عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱبْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا فِي ٱللَّعِينِ ٱلْمِنْقَرِيِّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُثَمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبَّاسٍ:

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

وَٱجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلْمُعْتَصِمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورٍ ٱلنَّمَرِيِّ فِي ٱلرَّشِيدِ:

إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ وَٱلْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ ... أَحَلَّكَ ٱللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
إِذَا رَفَعْتَ أَمْرَأً فَٱللهُ رَافِعُهُ ... وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ ٱلْأَقْوَامِ مُتَّضِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ ٱللهِ مُعْتَصِماً ... فَلَيْسَ بِٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ أَخْلَفَ ٱلْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ ... أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فَلْيَدْخُلْ. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وُهَيْبٍ: فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْراً مِنْهُ وَأَنْشَدَ:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ ٱلدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ ... شَمْسُ ٱلضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَٱلْقَمَرُ
تَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... ٱلْغَيْثَ وَٱللَّيْثَ وَٱلصَّمْصَامَةَ ٱلذَّكَرُ

فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُ

وَقَالُوا لَمَّا حَضَرَتِ ٱلْحُطَيْئَةَ ٱلْوَفَاةُ قَالَ: بَلِّغُوا ٱلْأَنْصَارَ أَنَّ أَخَاهُمْ أَمْدَحُ ٱلنَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ ... لَا يَسْأَلُونَ عَنِ ٱلسَّوَادِ ٱلْمُقْبِلِ

قَالَ ثَعْلَبٌ بَلْ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى:

فَتًى لَوْ يُنَادِي ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا ... أَوِ ٱلْقَمَرَ ٱلسَّارِي لَأَلْقَى ٱلْمَقَالِدَا

أَمْدَحُ مِنْهُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: بَيْتُ جَرِيرٍ

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْمَطَايَا ... وَأَنْدَى ٱلْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

أَسْيَرُ مَا قِيلَ فِي ٱلْمَدْحِ وَأَسْهَلُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْأَخْطَلِ:

شَمْسُ ٱلْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ ... وَأَعْظَمُ ٱلنَّاسِ أَحْلَاماً إِذَا قَدَرُوا

وَقَالَ دِعْبِلٌ بَلْ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّمْحَانِ ٱلْقَيْنِيِّ

اَضَاءَتْ لَهُمْ اَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ
دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجِزْعَ ثَاقِبُهْ

قَالَ : وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ يَعْنِي بَيْتَ اَبِي ٱلطَّمْحَانِ قَوْمٌ وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ وَبَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ :

بِاَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكَ كَوَاكِبٌ اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَبَيْتُ اَبِي ٱلطَّمْحَانِ اَشْعَرُهَا. قَالَ ٱلْحَاتِمِيُّ : بَلْ بَيْتُ زُهَيْرٍ :

تَرَاهُ اِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَاَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي اَنْتَ سَائِلُهْ

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ عَنْ اَبِيهِ اَنَّهُ قَالَ : اَجْمَعَ اَهْلُ ٱلْعِلْمِ اَنَّ بَيْتَيْ اَبِي نُوَاسٍ اَجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي ٱلْمَدِيحِ لِلْمُوَلَّدِينَ وَهُمَا :

اَنْتَ ٱلَّذِي تَاْخُذُ ٱلْاَيْدِي بِحُجْزَتِهِ
اِذَا ٱلزَّمَانُ عَلَى اَنْيَابِهِ كَلِحَا

وَكُلْتَ بِٱلدَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ
مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَاْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكَى ٱلْحَاتِمِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ عَنْ اَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى قَالَ : سَمِعْتُ اَبْنَ ٱلْاَعْرَابِيِّ يَقُولُ : اَمْدَحُ بَيْتٍ قَالَهُ مُوَلَّدٌ قَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسَاَلُ ٱلْاَجْدَاثَ مَا اَسْمِي مَا دَرَتْ
وَاَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: نَحْنُ إِلَى ٱلْإِنْصَافِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى ٱلْمُكَابَرَةِ وَٱلْخِلَافِ وَأَبُو نُوَاسٍ ذَهَبَ مَذْهَبًا لَطِيفًا يَخْرُجُ لَهُ فِيهِ ٱلْعُذْرُ وَٱلتَّأْوِيلُ وَإِلَّا فَمَا فِي صِفَةِ ٱلْخُمُولِ أَشَدُّ مِمَّا ذُكِرَ لَاسِيَّمَا عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَى (فَلَوْ تَسَاءَلُ ٱلْأَيَّامَ). وَمِنْ جَيِّدِ مَا سَمِعْتُ لِلْمُحْدَثِ وَأَظُنُّهُ لِٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَرَأَيْتُ مَنْ يَرْوِيهِ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْكَاتِبِ أَبِي ٱلْحَسَنِ:

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا
لَمْ يُحْمَدِ ٱلْأَجْوَدَانِ ٱلْبَحْرُ وَٱلْمَطَرُ
وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ
تَضَاءَلَ ٱلنَّيِّرَانِ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَإِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزْمَتُهُ
تَأَخَّرَ ٱلْمَاضِيَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْقَدَرُ
مَنْ لَمْ يَبِتْ حَذِرًا مِنْ سَطْوِ صَوْلَتِهِ
لَمْ يَدْرِ مَا ٱلْمُزْعِجَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْحَذَرُ
يُنَالُ بِٱلظَّنِّ مَا يُعْيَا ٱلْعِيَانُ بِهِ
وَٱلشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ ٱلْعَيْنُ وَٱلْأَثَرُ
كَأَنَّهُ وَزِمَامُ ٱلدَّهْرِ فِي يَدِهِ
يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ

قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَغْلَبُ ٱلْمَدْحِ وَأَكْثَرُهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ
أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ قُعُودًا لَدَيْهِ بِٱلصَّرِيمِ عَوَاذِلُهْ
يُغَدِّينَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلُمْنَهُ وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَحَاتِلُهْ
فَأَعْرَضْتُ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ جُمُوعٍ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ فَاعِلُهْ

وَقَوْلُ طُفَيْلٍ:

جَزَى ٱللّٰهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ وَزَلَّتِ(١)
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَسَأَلَ ٱلرَّشِيدُ ٱلْمُفَضَّلَ ٱلضَّبِّيَّ: أَيُّ بَيْتٍ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ أَمْدَحُ فَقَالَ:

أَغَرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قَالَ شَرَاحِيلُ بْنُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ: كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةِ يَحْيَى ٱبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ ٱلرَّشِيدِ وَعَدِيلُهُ أَبُو يُوسُفَ ٱلْقَاضِي إِذْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ: يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ جَارِهِمِ بَيْنَ ٱلسِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بِهَا لِيلُ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ ٱلْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

(١) وكان الاصل: بنا فعلنا في الواطئين وزلت وهو تصحيف

وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِمَنْ هٰذَا ٱلشِّعْرُ أَصْلَحَكَ ٱللهُ فَمَا سَمِعْتُ أَحْسَنَ مِنْهُ فَقَالَ يَحْيَى يَقُولُهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِي هٰذَا ٱلْفَتَى وَأَوْمَأَ إِلَيَّ فَكَانَ قَوْلُهُ أَسَرَّ إِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ ٱلْفَوَائِدِ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ يَا شَرَاحِيلُ أَنْشِدْنِي أَجْوَدَ مَا قَالَهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِيكَ فَأَنْشَدْتُهُ:

نِعْمَ ٱلْمُنَاخُ لِرَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ ... يَمْنٌ تُصِيبُ حَوَائِجُ ٱلْأَزْمَانِ

مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِي زِيدَتْ بِهِ ... شَرَفًا إِلَى شَرَفِ بَنُو شَيْبَانِ

إِنْ عُدَّ أَيَّامُ ٱللِّقَاءِ فَإِنَّمَا ... يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدًى وَيَوْمُ طِعَانِ

يَكْسُو ٱلْأَسِرَّةَ وَٱلْمَنَابِرَ بَهْجَةً ... وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانِ

تَمْضِي أَسِنَّتُهُ وَيَسْفِرُ وَجْهُهُ ... فِي ٱلْحَرْبِ عِنْدَ تَغَيُّرِ ٱلْأَلْوَانِ

نَفْسِي فِدَاكَ أَبَا ٱلْوَلِيدِ إِذَا بَدَا ... رَهَجُ ٱلسَّنَابِكِ وَٱلرِّمَاحُ دَوَانِ

فَقَالَ يَحْيَى أَنْتَ لَا تَدْرِي جَيِّدَ مَا مُدِحَ بِهِ أَبُوكَ وَأَجْوَدُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا ... فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ

أَيَوْمُ نَدَاهُ ٱلْغُمْرُ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ ... وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَنْقُلُ ٱلْمَدِيحَ عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ ذٰلِكَ دَأْبَ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصَائِدَ مِنْهَا:

قَدْكَ أَتْئِبْ أَرْبَيْتَ فِي ٱلْغُلَوَاءِ

نَقَلَهَا عَنْ يَحْيَى بْنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانَ ٱلضَّبِّيِّ

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسه)

اَلاِفْتِخَارُ هُوَ اَلْمَدْحُ بِعَيْنِهِ اِلَّا اَنَّ اَلشَّاعِرَ يَخُصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي اَلْمَدْحِ حَسُنَ فِي اَلاِفْتِخَارِ وَكُلَّمَا قَبُحَ فِيهِ قَبُحَ فِي اَلاِفْتِخَارِ فَمِنْ اَبْيَاتِ اَلاِفْتِخَارِ قَوْلُ اَلْفَرَزْدَقِ :

اِنَّ اَلَّذِي سَمَكَ اَلسَّمَاءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتًا دَعَائِمُهُ اَعَزُّ وَاَطْوَلُ

قَالَ اَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ ثَعْلَبٍ : اَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ اَلْعَرَبُ قَوْلُ اَمْرِئِ اَلْقَيْسِ :

مَا يُنْكِرُ اَلنَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ ... كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ اَرْبَابَا

وَقَالَ دِعْبِلٌ اَفْخَرُ اَلشِّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ :

وَبِبَدْرٍ اِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ ... جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وَقَالَ اَلْحَاتِمِيُّ : قَوْلُ اَلْفَرَزْدَقِ :

تَرَى اَلنَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا ... وَاِنْ نَحْنُ اَوْمَأْنَا اِلَى اَلنَّاسِ وَقَّفُوا

قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ :

اِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ ... وَجَدْتَ اَلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَقَالَ آخَرُ : بَلْ قَوْلُ اَلْفَرَزْدَقِ :

وَنَحْنُ اِذَا عَدَّتْ مَعَدٌّ قَدِيمَهَا ... مَكَانَ اَلنَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ اَلسَّوَابِقِ

وَقَالَ غَيْرُهُ : بَلْ قَوْلُ اَلْفَرَزْدَقِ لِجَرِيرٍ :

فَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ فَوْقَكَ دَارِمًا وَالشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ الْأَبْصَارُ

وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ابْنِ مَيَّادَةَ :

وَلَوْ أَنَّ قَيْسًا قَيْسَ غَيْلَانَ أَقْسَمَتْ

عَلَى الشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وَأَفْخَرُ بَيْتٍ صَنَعَهُ مُحْدَثٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً

هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا (١)

إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

وَمِنْ جَيِّدِ الْافْتِخَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ النَّطَّاحِ :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلِ

وَنَحْنُ وُصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِبَأْسٍ شَدِيدٍ فِي الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ

وَإِنَّا لَنَلْهُو فِي الْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ فَتَاةٌ بِعِقْدٍ أَوْ سِخَابٍ قَرَنْفُلِ

يَعْنِي قَوْلَ الْقُرْآنِ : سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . وَبِسَبَبِ هٰذَا الشِّعْرِ وَأَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ الرَّشِيدُ أَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ : كَيْفَ تَفْتَخِرُ عَلَى مُضَرَ وَمِنْهُمُ النَّبِيُّ . فَهٰذَا الْافْتِخَارُ بِالشَّجَاعَةِ خَاصَّةً . وَمِمَّنِ افْتَخَرَ بِالْكَثْرَةِ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ فَقَالَ :

مَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ إِلَّا عِنْدَ أَوَّلِنَا وَلَا تَغِيبُ إِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا

وَقَدْ أَنْكَرَ قُدَامَةُ أَنْ يَمْدَحَ الْإِنْسَانُ بِآبَائِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَآبَائِهِمْ . وَالَّذِي

(١) ويروى : هتكنا سماء الله او امطرت دما

ذَهَبَ إِلَيْهِ حَسَنٌ. وَأَنْكَرَ الْجُرْجَانِيُّ عَلَى أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلَهُ:

مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي ... بَلْ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ:

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلًا مَآثِرُ عِنْدَهُمْ ... وَلَكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عِجْلُ

قَالَ وَهٰذَا مَعْنًى سُوءٍ يَغُضُّ مِنْ حَسَبِ الْمَمْدُوحِ وَيُحَقِّرُ مِنْ شَأْنِ سَلَفِهِ وَإِنَّمَا طَرِيقَةُ الْمَدْحِ أَنْ يَجْعَلَ الْمَمْدُوحَ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَالْآبَاءَ تَزْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجْعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ فِي الْفَخْرِ حَظًّا وَفِي الْمَدْحِ نَصِيبًا. وَإِذَا حُصِّلَتِ الْحَقَائِقُ كَانَ النَّصِيبَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ الْكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَرَفَ الْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ مِيرَاثِهِ وَمُنْتَقِلٌ إِلَى وَلَدِهِ كَانْتِقَالِ مَالِهِ فَإِذَا رُعِيَ وَحُرِثَ ثَبَتَ وَازْدَادَ وَإِنْ أُهْمِلَ وَضُيِّعَ هَلَكَ وَكَذٰلِكَ شَرَفُ الْوَالِدِ يَعُمُّ الْقَبِيلَةَ وَلِلْوَلَدِ مِنْهُ الْقِسْمُ الْأَوْفَرُ وَالْحَظُّ الْأَكْبَرُ

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ: وَالَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ الِاخْتِيَارُ عِنْدَهُمْ مَا نَاسَبَ قَوْلَ الْمُتَوَكِّلِ اللَّيْثِيِّ:

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ ... يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ:

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ ... وَفِي السِّرِّ مِنْهَا وَالصَّرِيحِ الْمُهَذَّبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... أَبَى اللّٰهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبِ

وَمِنْ أَفْخَرِ مَا قَالَ الْمُوَلَّدُونَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيِّ

يَفْخَرُ بِوِلَايَةٍ مِنْ خُزَيْمَةَ بْنِ خَازِمٍ النَّهْشَلِيِّ :

إِذَا مُضَرُ الْحَمْرَاءُ كَانَتْ أَرُومَتِي ... وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَابْنُ خَازِمِ

عَطَسْتُ بِأَنْفٍ شَامِخٍ وَتَنَاوَلَتْ ... يَدَايَ الثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

وَمِنْ قَوْلِ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ يَفْخَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ .

يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمُ ... وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ

أَنْتُمْ دَعَائِمُ هٰذَا الْمُلْكِ مُذْ رَكَضَتْ ... قَبْلَ الْخُيُولُ لِإِبْرَامٍ وَتَوْكِيدِ

الْمُنْعِمُونَ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... وَالْوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ الْمَزَاوِيدِ

سُيُوفُكُمْ أَفْقَدَتْ كِسْرَى مَرَازِبَهُ ... فِي يَوْمِ ذِي قَارَ إِذْ جَاؤُوا لِمَوْعُودِ

فَهٰذَا هُوَ الْفَخْرُ الْحَلَالُ غَيْرُ الْمُدَّعَى فِيهِ وَلَا الْمُنْتَحَلِ .

وَعَابَ الْأَصْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مُغْسِرِ بْنِ أَسْحَمَ يَصِفُ أَسِيرًا :

فَظَلَّ يُخَالِسُ الْمَذَقَاتِ فِينَا ... يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَبِيقُ

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ أَسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُخَالِسُ الْقَلِيلَ الْمَمْذُوقَ مِنَ اللَّبَنِ إِنَّمَا ذٰلِكَ مِنَ الْجَهْلِ . وَمِنْ أَجْوَدِ قَصِيدَةٍ افْتَخَرَ فِيهَا شَاعِرٌ قَصِيدَةُ السَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا ضُرُوبَ الْمَمَادِحِ وَأَنْوَاعَ الْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ

البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسه)

وليس بين الرثاء والمدح فرق الا ان يخلط بالرثاء شيء يدل على ان المقصود به ميت مثل كان او عدمنا كيت وكيت او ما شاكل ذلك ليعلم انه ميت. وسبيل الرثاء ان يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والاسف والاستعظام ان كان الميت ملكا او رئيسا كبيرا كما قال النابغة في حصن بن حذيفة:

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم ... وكيف بحصن والجبال جموح
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل ... نجوم السماء والاديم صحيح
فعما قليل ثم جاء نعيه ... فظل بذي القوم وهو ينوح

فهذا وما شاكله رثاء الملوك والرؤساء الجلة والى هذا ذهب ابو العتاهية حين قال: (مات الخليفة ايها الثقلان) فرفع الناس رؤوسهم وفتحوا عيونهم وقالوا: انعاه الى الجن والانس ثم قال: (فكأنني افطرت في رمضان) يريد اني جاهرتي بهذا القول كأنما جاهرت نهارا بالافطار في رمضان فكل احد ينكر علي ذلك ويستعظمه من فعلي وهذا معنى جيد غريب في لفظ رديء غير معرب عما في النفس. ومن افضل الرثاء قول

اَلْحُسَيْنِ بْنِ مَطِيرٍ يَرْثِي مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ وَيُرْوَى لِاَبْنِ اَبِي حَفْصَةَ:

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ اَنْتَ اَوَّلُ بُقْعَةٍ
مِنَ اَلْاَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَوْضِعَا
وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ اَلْبَرُّ وَالْبَحْرُ مُتْرَعَا
بَلَى قَدْ وَسِعْتَ اَلْجُودَ وَالْجُودُ مَيِّتٌ
وَلَوْ كَانَ حَيًّا عِشْتَ حَتَّى تَصَدَّعَا
فَتًى عِيشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
كَمَا كَانَ بَعْدَ اَلسَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا

وَمِمَّا قَصَّرَ بِهِ اَبُو تَمَّامٍ فِي رِثَائِهِ مُحَمَّدَ بْنَ حُمَيْدٍ بِاَلْقَصِيدَةِ اَلَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

اَلَا فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ مَنْ عُطِّلَتْ لَهُ فِجَاجُ سَبِيلِ اَللّٰهِ وَاَنْثَغَرَ اَلثَّغْرُ

وَقَدْ اَجَادَ اَيْضًا فِي اَلْقَصِيدَةِ اَلَّتِي رَثَى بِهَا اَدْرِيسَ بْنَ بَدْرٍ يَقُولُ فِيهَا:

وَلَمْ اَنْسَ سَعْيَ اَلْجُودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ بِاَكْسَفِ بَالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَطْلُعُ

وَاَبُو تَمَّامٍ مِنَ اَلْمَعْدُودِينَ فِي اِجَادَةِ اَلرِّثَاءِ وَمِثْلُهُ دِيكُ اَلْجِنِّ وَهُوَ اَشْهَرُ فِي هٰذَا مِنْ اَبِي تَمَّامٍ لَهُ فِيهِ طَرِيقٌ قَدِ اَنْفَرَدَ بِهَا قَالَ فِي عُبَيْدِ اَللّٰهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ:

قَدِ اَسْتَوَى اَلنَّاسُ وَمَاتَ اَلْكَمَالْ وَصَاحَ صَرْفُ اَلدَّهْرِ اَيْنَ اَلرِّجَالْ
هٰذَا اَبُو اَلْقَاسِمِ فِي نَعْشِهِ قُومُوا اُنْظُرُوا كَيْفَ تَسِيرُ اَلْجِبَالْ

وَمِنْ عَادَةِ ٱلْقُدَمَاءِ اَنْ يَضْرِبُوا ٱلْاَمْثَالَ فِي ٱلْمَرَاثِي بِٱلْمُلُوكِ ٱلْاَعِزَّةِ وَٱلْاُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ وَبِٱلْوُعُولِ ٱلْمُمْتَنِعَةِ فِي قُلَلِ ٱلْجِبَالِ وَٱلْاُسُودِ ٱلْخَادِرَةِ فِي ٱلْغِيَاضِ وَحُمُرِ ٱلْوَحْشِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ بَيْنَ ٱلْقِفَارِ وَبِٱلنُّسُورِ وَٱلْعِقْبَانِ وَٱلْحَيَاتِ لِبَأْسِهَا وَطُولِ اَعْمَارِهَا وَذٰلِكَ فِي اَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْهُ. فَاَمَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فَهُمْ اِلَى غَيْرِ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ اَمْيَلُ وَمَذْهَبُهُمْ فِي ٱلرِّثَاءِ اَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هٰذَا وَقَبْلَهُ وَرُبَّمَا جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ ٱقْتِدَاءً بِهِمْ وَاَخْذًا بِسُنَّتِهِمْ كَٱلَّذِي صَنَعَ اَبُو نُوَاسٍ فِي رِثَائِهِ اَبَا ٱلْوَلِيدِ ٱلْاَعْرَابِيَّ وَخَلَفًا ٱلْاَحْمَرَ وَمَرَاثِيهِ فِيهِمَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتٌ

وَكَمَا صَنَعَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يَرْثِي اَبَاهُ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلْمُقَيَّدَةِ فِي ٱلرَّمَلِ اَوَّلُهَا :

رُبَّ حَتْفٍ بَيْنَ اَثْنَاءِ ٱلْاَمَلْ وَحَيَاةُ ٱلْمَرْءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلْ

وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلَوْلَا ٱشْتِهَارُ هٰذِهِ ٱلْقَصَائِدِ وَوُجُودُهَا وَخِيفَةُ ٱلتَّطْوِيلِ لَاَثْبَتُّهَا بِهٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ ٱلشُّعَرَاءِ اَنْ يُقَدِّمُوا قَبْلَ ٱلرِّثَاءِ نَسِيبًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْكَلْبِيِّ وَكَانَ عَلَّامَةً لَا اَعْرِفُ مَرْثِيَةً فِي اَوَّلِهَا نَسِيبٌ اِلَّا قَصِيدَةَ دُرَيْدِ بْنِ ٱلصِّمَّةِ فِي رِثَاءِ اَخِيهِ خَالِدٍ :

اَرَثَّ جَدِيدُ ٱلْحَبْلِ مِنْ اُمِّ مَعْبَدِ لِعَاقِبَةٍ اَوْ اَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

وَحَكَى ٱلنَّحَّاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ اَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلْاَحْوَلِ اَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لِاَبِي ذُؤَابَةَ اَعْشَى بَاهِلَةَ اِنَّمَا هِيَ لِاَبْنَةِ ٱلْمُنْتَشِرِ

وَاَسْمُهَا ٱلدَّعْجَاء. وَٱلْحَاصِلُ اَنَّ ٱلْمُتَعَارَفَ عِنْدَ اَهْلِ ٱللُّغَةِ اَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ مَرْثِيَةٌ اَوَّلُهَا تَشْبِيبٌ اِلَّا قَصِيدَةُ دُرَيْدٍ. وَاَنَا اَقُولُ اِنَّهُ ٱلْوَاجِبُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْاِسْلَامِ اِلَى وَقْتِنَا هٰذَا وَمِنْ بَعْدِهِ لِاَنَّ ٱلْآخِذَ فِي ٱلرِّثَاءِ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ مَشْغُولًا عَنِ ٱلنَّسِيبِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ ٱلْحَسْرَةِ وَٱلْاِهْتِمَامِ بِٱلْمُصِيبَةِ وَاِنَّمَا تَغَزَّلَ دُرَيْدٌ بَعْدَ قَتْلِ اَخِيهِ بِسَنَةٍ وَحِينَ اَخَذَ بِثَارِهِ وَاَدْرَكَ طَائِلَتَهُ

وَمِنَ ٱلْعَجِيبِ اَنْ يَقُولَ عَبْدَةُ بْنُ ٱلطَّيِّبِ فِي تَأْبِينِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ ٱلْمِنْقَرِيِّ:

عَلَيْكَ سَلَامُ ٱللهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ اَنْ يَتَرَحَّمَا

وَيَقُولَ ٱلْكُمَيْتُ فِي تَأْبِينِ ٱلنَّبِيِّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ فَهَلَّا قَالَ مِثْلَ قَوْلِ فَاطِمَةَ:

اِغْبَرَّ آفَاقُ ٱلسَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ شَمْسُ ٱلنَّهَارِ وَاَظْلَمَ ٱلْعَصْرَانِ

وَٱلنِّسَاءُ اَشْجَى ٱلنَّاسِ قُلُوبًا عِنْدَ ٱلْمُصِيبَةِ وَاَشَدُّهُمْ جَزَعًا عَلَى هَالِكٍ لِمَا رَكَّبَ ٱللهُ تَعَالَى فِي طِبَاعِهِنَّ مِنْ ضُعْفِ ٱلْعَزِيمَةِ

فَٱنْظُرْ اِلَى قَوْلِ جَلِيلَةَ بِنْتِ مُرَّةَ تَرْثِي زَوْجَهَا كُلَيْبًا حِينَ قَتَلَهُ اَخُوهَا جَسَّاسٌ مَا اَشْجَى لَفْظَهَا وَاَظْهَرَ ٱلْفَجِيعَةَ فِيهِ وَكَيْفَ يُثِيرُ ٱلْاَشْجَانَ وَيَقْدَحُ شَرَرَ ٱلنِّيرَانِ وَذٰلِكَ:

يَا اَبْنَةَ ٱلْاَقْوَامِ اِنْ كُنْتِ فَلَا تَعْجَلِي بِٱللَّوْمِ حَتَّى تَسْاَلِي

وَمِنْ اَشَدِّ ٱلرِّثَاءِ صُعُوبَةً عَلَى ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَرْثِيَ طِفْلًا اَوِ ٱمْرَاَةً لِضِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ فِيهِمَا وَقِلَّةِ ٱلصِّفَاتِ. اَلَا تَرَى مَا صَنَعُوا بِاَبِي

ٱلطَّيِّبِ وَهُوَ مَحَلٌّ مُجَرَّدٌ اِذْ ذَكَرَ ٱلْمُحْدَثُونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ اُمَّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ ٱللهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُكَفَّنِ بِٱلْجَمَالِ

وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهٰذِهِ ٱلْعَجُوزِ يَصِفُ جَمَالَهَا وَقَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ : هٰذِهِ ٱسْتِعَارَةُ حِدَادٍ فِي عُرْسٍ فَانْ كَانَ اَرَادَ ٱلصَّاحِبُ بِٱلْاِسْتِعَارَةِ ٱلْحَنُوطَ فَقَدْ وَٱللهِ ظَلَمَ وَتَعَسَّفَ وَاِنْ كَانَ اَرَادَ ٱسْتِعَارَةَ ٱلْكَفَنِ لِجَمَالِ ٱلْعَجُوزِ فَقَدِ ٱعْتَرَضَ فِي مَوْضِعِ ٱعْتِرَاضٍ اِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ مَا يَمْحَقُ كُلَّ زَلَّةٍ وَيُعَفِّي كُلَّ اِسَاءَةٍ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَرْثِيَةٍ لَهُ فِي اُمِّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ تَدُلُّ مَعَ فَسَادِ ٱلْحُسْنِ عَلَى سُوءِ اَدَبِ ٱلنَّفْسِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُخَاطِبُ مَلِكًا فِي اُمِّهِ بِقَوْلِهِ :

رِوَاقُ ٱلْعِزِّ فَوْقَكَ مُسْبَطِرٌّ وَمُلْكُ عَلِيٍّ اَبْنِكَ فِي كَمَالِ

وَلَعَلَّ لَفْظَ ٱلْاِسْبِطْرَارِ فِي مَرَاثِي ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلْخِذْلَانِ ٱلصَّفِيقِ ٱلرَّقِيقِ . وَاَنَا اَقُولُ اِنَّ اَشَدَّ مَا هَجَّنَ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ قَصِيدَةِ هِجَاءٍ اَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقَكَ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًّا لَمْ يَبْقَ فِيهِ اِلَّا قَضَاءُ

وَمِنْ اَصْعَبِ ٱلرِّثَاءِ اَيْضًا جَمْعُ تَعْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ قَالُوا : لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ اَجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ بِبَابِ يَزِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ اَحَدٌ عَلَى ٱلْجَمْعِ بَيْنَ ٱلتَّعْزِيَةِ وَٱلتَّهْنِئَةِ حَتَّى اَتَى عَبْدُ ٱللهِ اَبْنُ هَمَّامٍ ٱلسَّلُولِيُّ فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ اَجَرَكَ ٱللهُ عَلَى ٱلرَّزِيَّةِ . وَبَارَكَ لَكَ فِي ٱلْعَطِيَّةِ . وَاَعَانَكَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَاُعْطِيتَ فَاَشْكُرِ

اللهَ عَلَى مَا أُعطِيتَ وَاصْبِرْ عَلَى مَا رُزِيتَ فَقَدتَّ خَلِيفَةَ اللهِ وَأُعطِيتَ خِلَافَةَ اللهِ فَفَارَقتَ جَلِيلًا وَأُعطِيتَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ وَوُلِّيتَ الرِّئَاسَةَ وَأُعطِيتَ السِّيَاسَةَ فَأَوْرَدَهُ اللهُ مَوَارِدَ السُّرُورِ وَوَفَّقَكَ لِمَصَالِحِ الْأُمُورِ :

فَاصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ
فَاشْكُرْ عَطَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ اصْفَاكَا
لَا رُزْءَ أَضْجَعَ فِي الْأَيَّامِ نَعْلَمُهُ كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَا

فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ الْقَوْلِ وَعَلَى هٰذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ جَرَى الشُّعَرَاءُ بَعْدَهُ

قَالَ أَبُو نُوَاسٍ يُعَزِّي الْفَضْلَ بْنَ الرَّبِيعِ وَيُهَنِّيهِ بِالْأَمِينِ :

تَعَزَّ أَبَا الْعَبَّاسِ عَنْ خَيْرِ هَالِكٍ بِأَكْرَمِ حَيٍّ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَاسِنُ
وَفِي الْحَيِّ بِالْمَيِّتِ الَّذِي غَيَّبَ الثَّرَى
فَلَا الْمُلْكُ مَغْبُونٌ وَلَا الْمَوْتُ غَابِنُ

وَيُرْوَى فَلَا أَنْتَ مَغْبُونٌ . وَأَتْبَعَهُ أَبُو تَمَّامٍ بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي أَوَّلُهَا (مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامِ) يَقُولُ فِيهَا لِلْوَاثِقِ بَعْدَ الْمُعْتَصِمِ صَرَفَ فِيهَا الْكَلَامَ حَيْثُ شَاءَ وَاطْنَبَ كَمَا أَرَادَ وَاحْتَجَّ وَاسْهَبَ وَتَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هٰذِهِ النَّاحِيَةَ مِنَ الشِّعْرِ . وَأَرَادَ ابْنُ الزَّيَّاتِ مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ التَّقْصِيرَ فَاقْتَصَرَ عَلَى :

قَدْ قُلْتُ إِنْ غَيَّبُوكَ وَاصْطَفَقَتْ عَلَيْكَ أَيْدٍ بِالتُّرْبِ وَالطِّينِ
اِذْهَبْ فَنِعْمَ الْمُعِينُ كُنْتَ عَلَى الدُّ نْيَا وَنِعْمَ الظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْبُرَ اللهُ أُمَّةً فَقَدَتْ مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْلِ هَارُونِ

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رُثِيَ بِهِ النِّسَاءُ وَأَشَدِّهِ تَأْثِيرًا فِي الْقَلْبِ وَإِثَارَةً لِلْحُزْنِ قَوْلُ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ هٰذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ:

أَلَا مَنْ رَأَى الطِّفْلَ الْمُفَارِقَ أُمَّهُ

بُعَيْدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ

يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا إِنَّ سَجْلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ مِنَ الدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي

وَإِنَّ مَكَانًا فِي الثَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ

لَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ

وَمِنْ أَشْجَى الشِّعْرِ رِثَاءُ قَوْلُهُ فِي هٰذِهِ الْقَصِيدَةِ:

فَهَبْنِي عَدِمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنَّنِي جَلِيدٌ فَمَنْ بِالصَّبْرِ لِابْنِ ثَمَانِ

فَهٰذِهِ الطَّرِيقُ هِيَ الَّتِي يَجْرِي حُذَّاقُ الشُّعَرَاءِ إِلَيْهَا وَيَعْتَمِدُونَ فِي الرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَكُنِ الْمَرْثِيَّةُ مِنْ نِسَاءِ الْمُلْكِ وَبَنَاتِ الْأَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مَحَارِمِ الشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يُتَجَافَى عَنْ هٰذِهِ الطَّرِيقَةِ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

وَلَوْ أَنَّ النِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ

وَقَوْلِهِ فِي هٰذِهِ الْقَصِيدَةِ:

مَشَى الْأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَاةً كَأَنَّ الْمَرْوَ مِنْ زِفِّ الرِّيَالِ

وَقَوْلِهِ لِأُخْتِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ

أجلُّ قدرِكِ أن تُسمَى مؤبَّنةً ومَن يَصِفكِ فقد سَمَّاكِ للعَرَبِ

ورثاءُ الأطفالِ أن يذكُرَ محاسِنَهم وما كانت الفِراسةُ تُعطيهِ فيهم ممَّن تحنَّنَ لمصابِهم وتفجَّعَ بهم كالَّذي صنعَ أبو تمّامٍ في ابنَي عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ

البحث السادس

في الاقتضاء والاستنجاز

(من الكتاب نفسه)

حسبُ الشاعرِ أن يكونَ مدحُهُ شريفًا واقتضاؤُهُ لطيفًا وهجاؤُهُ إن هجا عنيفًا فإنَّ الاقتضاءَ للخشنِ ربَّما كانَ سببَ المنعِ والحرمانِ ودواعيةَ القطيعةِ والهجرانِ. وقومٌ يُدرِجونَ العتابَ في الاقتضاءِ والاقتضاءَ بالعتابِ وأنا أرى غيرَ هذا المذهبِ أصوبَ فالاقتضاءُ طلبُ حاجةٍ وبابُ التلطُّفِ فيهِ أجودُ فإن بلغَ الأمرُ العتابَ فإنَّما هو طلبُ الإبقاءِ على المودَّةِ والمراعاةِ وفيهِ توبيخٌ ومضادَّةٌ لا يجوزُ معهما بعدُ اقتضاءٌ إلَّا أنَّ الناسَ قد خلطوا هذينِ وساووا بينهما. فمن أحسنِ الاقتضاءِ على ما تخيَّروهُ ونحوتُ إليهِ قولُ أميَّةَ بنِ أبي الصلتِ لعبدِ اللهِ بنِ جُدعانَ:

أأذكُرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤُكَ إنَّ شيمتَكَ الحياءُ

وعِلمُكَ بالحقوقِ وأنتَ فرعٌ لهُ الحسَبُ المهذَّبُ والسناءُ

خليلٌ لا يُغيِّرُهُ صباحٌ عنِ الخُلُقِ الجميلِ ولا مساءُ

اِذَا اَثْنَى عَلَيْكَ اَلْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ اَلثَّنَاءُ

فَاَنْتَ تَرَى هٰذَا اَلْاِقْتِضَاءَ كَيْفَ يُلِينُ اَلصَّخْرَ وَيَسْتَنْزِلُ اَلْقَطْرَ وَيَحُطُّ اَلْعُصْمَ اِلَى اَلسَّهْلِ وَمِثْلُهُ. قَوْلُ اَلْاٰخَرِ:

لَاَشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ اِنَّ اَهْتِمَامَكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ

وَلَا اَلُومُكَ اِنْ لَمْ يُمْضِهِ قَدَرٌ فَالشَّيْءُ بِالْقَدَرِ اَلْمَحْتُومِ مَصْرُوفُ

فَاَمَّا مَا نَاسَبَ قَوْلَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ اَلْاَمَوِيِّ لِعِيسَى بْنِ فَرْخَا اِذْ يَقُولُ لَهُ مُسْتَبْطِئًا:

لَقَدْ كُنْتُ اُرَجِّيكَ لِمَا اَخْشَى مِنَ اَلدَّهْرِ

فَقَدْ اَضْجَتْ مِنْ اَوْكَدِ م اَسْبَابِي اِلَى اَلْفَقْرِ

اَتَرْضَى لِي بِاَنْ اَرْضَى بِتَقْصِيرِكَ فِي اَمْرِي

وَقَدْ اَفْنَيْتُ مَا اَفْنَيْتُ فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي

فَهُوَ اَلْعِتَابُ اَلْمَحْضُ وَالتَّوْبِيخُ اَلَّذِي دُونَهُ اَلْجَلْدُ بِالسَّوْطِ بَلْ بِالسَّيْفِ. وَمِمَّا صَنَعَهُ فِي اَلْعِتَابِ عَلَى هٰذَا اَلشَّكْلِ بَعْدَ اَلْيَاْسِ اَلْمُحْكَمِ كَمَا شَرَطْتُ:

رَجَوْتُكَ لِلْاَمْرِ اَلْمُهِمِّ وَفِي يَدِي بَقَايَا اُمَنِّي اَلنَّفْسَ فِيهَا اَلْاَمَانِيَا

فَسَاوَفْتَ فِي اَلْاَيَّامِ حَتَّى اِذَا اَنْقَضَتْ

اَوَاخِرُ مَا عِنْدِي قَطَعْتُ رَجَائِيَا

وَكُنْتُ كَاٰتِي نَازِفُ اَلْبِئْرِ طَالِبًا لِاِحْمَامِهَا اَوْ يَرْجِعَ اَلْمَاءُ صَافِيَا

فَلَا هُوَ اَبْقَى مَا اَصَابَ لِنَفْسِهِ وَلَا هِيَ اَعْطَتْهُ اَلَّذِي كَانَ رَاجِيَا

وَمِنْ اَمْلَحِ مَا رَاَيْتُ فِي اَلْاِقْتِضَاءِ وَالْاِسْتِبْطَاءِ قَوْلُ اَبِي

ٱلْعَتَاهِيَةِ لِعَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاء. وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يُسَمِّي هٰذَا ٱلنَّوْعَ مَزْحًا يُرَادُ بِهِ ٱلْجِدُّ وَهُوَ:

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلْعَيْنُ يَا عُمَرْ ... فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ
سَنَرْقِيكَ بِٱلْأَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا ... فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وَكُنْتُ صَنَعْتُ فِي ٱلِٱسْتِبْطَاءِ:

أَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّةً ... لَوْ لَمْ تُؤَخِّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَهْ
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا ... بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَهْ
وَجَنَّةُ ٱلْفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَا ... آجِلَةً لِلْمَرْءِ لَا عَاجِلَهْ
لٰكِنَّمَا أَضْعَفُ مِنْ نِيَّتِي ... أَيَّامُ عَمْرٍو دُونَهَا زَائِلَهْ

وَٱلْعِتَابُ أَوْسَعُ جِدًّا مِنَ ٱلِٱقْتِضَاءِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلَهُ بِسَبَبِ ٱلْحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيرًا وَٱلِٱقْتِضَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسه)

وَإِنْ كَانَ حَيَاةَ ٱلْمَوَدَّةِ وَشَاهِدَ ٱلْوَفَاءِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْخَدِيعَةِ وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْقَطِيعَةِ وَٱلْجَفَاءِ وَإِذَا قَلَّ كَانَ دَاعِيَةَ ٱلْأُلْفَةِ وَقَيْدَ ٱلصُّحْبَةِ وَإِذَا كَثُرَ خَشُنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ. وَلِلْعِتَابِ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَٱلنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَمِنْهُ مَا يُمَازِجُهُ ٱلِٱسْتِعْطَافُ

وَٱلِاسْتِئْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ ٱلِاحْتِجَاجُ وَٱلِانْتِصَافُ . وَقَدْ يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْمَنُّ وَٱلِاجْحَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرَكُهُ ٱلِاعْتِذَارُ وَٱلِاعْتِرَافُ . وَأَحْسَنُ ٱلنَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ ٱلْأَشْرَافِ شَيْخُ ٱلصَّنَاعَةِ وَسَيِّدُ ٱلْجَمَاعَةِ أَبُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ ٱلَّذِي يَقُولُ :

يُرِيبُنِي ٱلشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ ... وَأَكْبِرُ قَدْرَكَ أَنْ أَسْتَرِيبَا
وَأَكْرَهُ أَنْ أَتَمَادَى عَلَى ... سَبِيلِ ٱعْتِذَارٍ فَأَلْقَى شَعُوبَا
أُكَذِّبُ ظَنِّي بِأَنْ قَدْ سَخِطْتُ ... وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ أَكُنْ ... أَذُمُّ ٱلزَّمَانَ وَأَشْكُو ٱلْخُطُوبَا
وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَحِي ... عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبَا
أَيُضْبِحُ وِرْدِي فِي سَاحَتَيْكَ ... طَرْقًا وَمَرْعَايَ مَحْلًا جَدِيبَا
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ ... يُشَقِّقُ فِيهِ ٱلْوَدَاعُ ٱلْجُيُوبَا

وَٱلَّذِي يَقُولُ :

وَأَغْيَدَ إِنْ نَازَعَتْهُ ٱللَّحْظَ رَدَّهُ ... كَلِيلًا وَإِنْ رَاجَعْتَهُ ٱلْقَوْلَ جَحْجَمَا
ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّي فَأَضْبَحَ مُعْرِضًا ... وَأَوْهَمَهُ ٱلْوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ ... رُبَاهُ وَطَلْقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا
يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ ... وَلَا خَوْفَ إِلَّا أَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا
أُعِيذُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ
تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقَدَّمَا
أَلَسْتُ ٱلْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ
هِيَ ٱلْأَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ أَنْجُمَا

فهذا اعتب كما قال :

عِتَابٌ بِأَطْرَافِ ٱلْقَوَافِي كَأَنَّهُ ... طِعَانٌ بِأَطْرَافِ ٱلْقَنَا ٱلْمُتَكَسِّرِ

وقد نحوت انا بعض هذا النحو في كلمة عاتبت بها القاضي جعفر بن عبد الله الكوفي قلت فيها :

وَقَدْ كُنْتُ لَا آتِي إِلَيْكَ مُخَايِلًا ... لَدَيْكَ وَلَا أُثْنِي عَلَيْكَ تَصَنُّعَا

وَلَكِنْ رَأَيْتُ ٱلْمَدْحَ فِيكَ فَرِيضَةً ... عَلَيَّ إِذَا كَانَ ٱلْمَدِيحُ تَطَوُّعَا

فَقُمْتُ بِمَا لَا يَخْفَى عَنْكَ مَكَانُهُ ... مِنَ ٱلْقَوْلِ حَتَّى ضَاقَ مِمَّا تَوَسَّعَا

إلى ان اقول :

فَوَٱللهِ مَا طَوَّلْتُ بِٱللَّوْمِ فِيكُمُ ... لِسَانِي وَلَا عَرَّضْتُ لِلذَّمِّ مِسْمَعَا

أَلُوذُ بِأَكْنَافِ ٱلرَّجَاءِ وَأَتَّقِي ... شَمَاتَ ٱلْعِدَا إِنْ لَمْ أَجِدْ فِيكَ مَطْمَعَا

ومن معاتبات ابي تمام قوله لابن عبد الملك الزيات :

تَقَطَّعَتِ ٱلْأَسْبَابُ إِنْ لَمْ تُعِزْ لَهَا
قُوًى أَوْ يَصِلْهَا مِنْ يَمِينِكَ وَاصِلُ

سِوَى مَطْلَبٍ يَنْضَى ٱلرَّجَاءَ بِطُولِهِ
وَتُخْلِقُ أَخْلَاقَ ٱلْجُفُونِ ٱلْوَسَائِلُ

وَقَدْ تَأْلَفُ ٱلْعَيْنُ ٱلدُّجَى وَهْوَ قَيْدُهَا
وَيُرْجَى شِفَاءُ ٱلسَّمِّ وَٱلسَّمُّ قَاتِلُ

إلى قوله :

وَإِنَّ ٱلْمَعَالِي يُسْتَرَمُّ بِنَاؤُهَا ... وَشِيكًا كَمَا قَدْ تُسْتَرَمُّ ٱلْمَنَازِلُ

مَنَحْتُكَهَا تَشْفِي ٱلْجَوَى وَهْوَ لَاعِجٌ ... وَتَبْعَثُ أَشْجَانَ ٱلْفَتَى وَهْوَ ذَاهِلُ

تَرُدُّ قَوَافِيهَا اِذَا هِيَ اُرْسِلَتْ هَوَامِلَ مَجْدِ الْقَوْمِ وَهْيَ هَوَامِلُ
فَكَيْفَ اِذَا حَلَّيْتَهَا بِحُلِيِّهَا تَكُونُ وَهٰذَا حُسْنُهَا وَهْيَ عَاطِلُ

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ لِأَبِي ٱلصَّغِيرِ يُعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ جَيِّدَةٍ :

عَذَرْتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءً تَقَشَّعَتْ سَحَابَتُهَا اَوْ كَانَ رَوْضًا تَصَوَّحَا
فَيَا لَكَ بَحْرًا لَمْ اَجِدْ فِيهِ مَشْرَعًا وَاِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْبَحَا
مَدِيحِي عَصَا مُوسَى وَذٰلِكَ اَنَّنِي ضَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ ٱلنَّدَى فَتَضَحْضَحَا

اِلَى اَنْ يَقُولَ :

سَاَمْدَحُ بَعْضَ ٱلْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ اِذَا اَطَّرَدَ ٱلْقِيَاسُ اَنْ يَتَسَمَّحَا

فَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُبْلَغُ جُودَةً وَلَا يُجَارَى سَبْقًا. عَلَى اَنَّ ٱلْبُحْتُرِيَّ قَدْ تَقَدَّمَ اِلَى بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ :

غَمَامٌ خَطَا فِي صَوْبِهِ وَهُوَ مُسْبِلُ وَبَحْرٌ عَدَا فِي فَيْضِهِ وَهُوَ مُنْعِمُ
وَبَدْرٌ اَضَاءَ ٱلْاَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ اَسْوَدُ اَقْتَمُ
وَمَا بَخَلَ ٱلْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ بِٱلنَّدَى وَلٰكِنَّهَا ٱلْاَقْدَارُ تُعْطِي وَتَحْرِمُ

فَاَمَّا اَبُو ٱلطَّيِّبِ فَكَانَتْ فِي طَبْعِهِ غِلْظَةٌ وَفِي عِتَابِهِ شِدَّةٌ وَكَانَ كَثِيرَ ٱلتَّحَامُلِ ظَاهِرَ ٱلْكِبْرِ وَٱلْاَنَفَةِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَقُولُ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

يَا اَعْدَلَ ٱلنَّاسِ اِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ ٱلْخِصَامُ وَاَنْتَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ
اُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً اَنْ تَحْسَبَ ٱلشَّحْمَ فِي مَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وَمَا ٱنْتِفَاعُ اَخِي ٱلدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ اِذَا ٱسْتَوَتْ عِنْدَهُ ٱلْاَنْوَارُ وَٱلظُّلَمُ

وَفِيهَا يَقُولُ :

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمُ

فَهٰذَا الْكَلَامُ فِي نِهَايَةِ الْجُودَةِ غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ الْوَاجِبِ وَالسِّيَاسَةِ غَايَةٌ فِي الْقُبْحِ وَالرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَّضَ بِقَوْمٍ يَنْتَقِصُونَهُ عِنْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَيُعَارِضُونَهُ فِي أَشْعَارِهِ . وَالْإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَبْيَاتٍ :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُ وِجْدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ

مَا كَانَ أَخْلَقَنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمُ مِنْ أَمْرِنَا أَمَمُ

وَبَيْنَنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةٌ إِنَّ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النُّهَى ذِمَمُ

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزَكُمْ وَاللّٰهُ يَكْلَؤُهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ

مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي

أَنَا الثُّرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبُ وَالْهَرَمُ

وَلَيْسَ هٰذَا عِتَابًا لٰكِنَّهُ سِبَابٌ وَبِسَبَبِ هٰذِهِ الْقَصِيدَةِ كَادَ يُقْتَلُ بَعْدَ انْصِرَافِهِ مِنْ مَجْلِسِ إِنْشَادِهَا . وَأَمَّا عِتَابُ الْأَكْفَاءِ وَأَهْلِ الْمَوَدَّاتِ مِنَ الظُّرَفَاءِ فَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبَّاسٍ الصَّوْلِيِّ يُعَاتِبُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الزَّيَّاتَ وَقَدْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ كَمَا وَرَدَ :

وَكُنْتَ أَخِي بِإِخَاءِ الزَّمَانِ فَلَمَّا نَبَا صِرْتَ حَرْبًا عَوَانَا

وَكُنْتُ أَذُمُّ إِلَيْكَ الزَّمَانَ فَأَصْبَحْتُ فِيكَ أَذُمُّ الزَّمَانَا

وَكُنْتُ أُعِدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ فَهَا أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ الْأَمَانَا

وَهٰذَا عِنْدِي مِنْ أَشَدِّ الْعِتَابِ وَأَوْجَعِهِ . وَمِنْ أَكْرَمِ الْعِتَابِ قَوْلُ السَّيِّدِ أَبِي الْحَسَنِ :

وَإِنِّي لَأُطْرِي كُلَّ خِلٍّ صَحِبْتُهُ ... وَأَنْتَ تَرَى سَمْتِي بِغَيْرِ حَيَاءِ

وَمِنْ مَلِيحِ مَا سَمِعْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا لَهُ:

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ ... وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ مَرَّةً وَيَمِيلُ

لَمْ أَبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ ... إِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْكَ حِينَ يَزُولُ

وَلِكُلِّ نَابِئَةٍ أَلَمَّتْ مُدَّةٌ ... وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلَتْ تَحْوِيلُ

وَالْمُنْتَوُونَ إِلَى الْإِخَاءِ عِصَابَةٌ ... إِنْ حَصَّلُوا أَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ

وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى ... يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ

فَلَئِنْ سَبَقْتُ لَتُنْكَبَنَّ بِحَسْرَةٍ ... وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ

وَلَتُفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ ... حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ

وَلَئِنْ سَبَقْتَ وَلَا سَبَقْتَ لَيَمْضِيَنْ ... مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

وَلَيَذْهَبَنَّ بِهَاءِ كُلِّ مُرُوءَةٍ ... وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَالُهَا الْمَجْهُولُ

وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا ... صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ

وُدٌّ بَدَا لِذَوِي الْإِخَاءِ كَمَالُهُ ... وَبَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَةٌ وَقَبُولُ

وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْإِخَاءِ قَصِيرَةٌ ... فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُولُ

وَإِلَى هُنَا أَوْمَأَ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ:

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا ... فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ وَأَوْرَدْتُ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ:

وَصِلْنَا نَصِلْكَ فِي هٰذِهِ الدَّا ... رِ يَا فَإِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

وَالْجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَجَنِّبًا
اَنَّ الصُّدُودَ هُوَ الْفِرَاقُ الْاَوَّلُ
حَسْبُ الْاَحِبَّةِ اَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ رَيْبُ الْمَنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

اِلَّا اَنَّ اَبْنَ حُمَيْدٍ قَدْ فَنَّنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا اَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ: لَئِنْ سَبَقْتُ اَنَا وَلَئِنْ سَبَقْتَ اَنْتَ وَلَا سَبَقْتَ فَلَهُ بِذٰلِكَ فَضْلُ بَيِّنٍ الرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا اَحْسَنَ اِيجَازَ الَّذِي قَالَ:

اَلْعُمْرُ اَقْصَرُ مُدَّةً مِنْ اَنْ يُحَقَّ بِالْعِتَابْ

وَقَالَ اَبُو الْمُحَدِّثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

اِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْاُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسه)

كَانَ الْعُقَلَاءُ مِنَ الشُّعَرَاءِ وَذَوُو الْحَزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِالْهِجَاءِ وَيَحْذَرُونَ مِنْ سُوءِ الْاُحْدُوثَةِ وَلَا يُمْضُونَ الْقَوْلَ اِلَّا ضَرُورَةً حِينَ لَا يَحْسُنُ السُّكُوتُ. قَالَ اَبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ تَخَيَّرَ آيَاتِ الْكِتَابِ هِجَائِيَا
اَ اَعْفُو كَمَا يَعْفُو الْكَرِيمُ فَاِنَّنِي اَرَى الشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا
اَ اَغْمِضُ بَيْنَ اللَّحْمِ وَالْجِلْدِ غَمْضَةً بِبُرْدٍ رُومِيٍّ يَقُطُّ الْنَّوَاصِيَا
فَاَمَّا سُرَاقَاتُ الْهِجَاءِ فَاِنَّهَا كَلَامٌ تَهَادَاهُ اللِّئَامُ تَهَادِيَا

وَعِنْدِي ٱلدُّهَيْمُ لَوْ أُحِلُّ عِقَالَهَا فَتُضِجَّ لَمْ تَعْدَمْ مِنَ ٱلْحَنِ حَادِيَا

شَبَّهَ لِسَانَهُ بِمِبْرَدٍ رُومِيٍّ لِمَضَائِهِ وَشَبَّهَ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لَوْ شَاءَ هِجَاءَهُمْ بِهَا بِٱلدُّهَيْمِ وَهُوَ ٱلدَّاهِيَةُ. وَأَصْلُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّهَيْمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ زَبَّانَ ٱلثَّعْلَبِيِّ ٱلَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا ٱلْحَيَّ فَضُرِبَ بِهَا ٱلْمَثَلُ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لِبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مَيْلُهُمْ مَعَ ٱلْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ حَكِّمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا

قَوْلُهُ حَكِّمُوا أَيْ كُفُّوا. وَقَالَ لِتَيْمِ ٱلرَّبَابِ رَهْطِ عَمْرِو بْنِ لَجَا:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا أَبَا لَكُمُ لَا يُلْفِيَنَّكُمُ فِي سَوْءَةٍ عُمَرُ

وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ:

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى أَنَّهُ لَوْ تُرِكَ ٱلْبُرْغُوثُ مَا أَوْجَعَا

كُلٌّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ وَآفَةُ ٱلنَّحْلَةِ أَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ أَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ ٱلْهِجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ ٱلْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَقْبُحُ بِمِثْلِهَا. نَحْوَ قَوْلِ جَرِيرٍ:

لَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جُمِّعَتْ أَحْسَابُهَا يَوْمَ ٱلتَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَا

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

وَلَمَّا أَطْلَقَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْحُطَيْئَةَ مِنْ حَبْسِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِ هِجَائِهِ الزِّبْرِقَانَ قَالَ لَهُ: تَدَعُ الْهِجَاءَ الْمُقْذِعَ. قَالَ: وَمَا الْهِجَاءُ الْمُقْذِعُ. قَالَ: الْمُقْذِعُ أَنْ تَقُولَ هٰؤُلَاءِ أَفْضَلُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَشْرَفُ وَتَبْنِيَ شِعْرًا عَلَى مَدْحِ لِقَوْمٍ وَذَمِّ لِمَنْ يُعَادِيهِمْ. قَالَ: أَنْتَ وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ مِنِّي بِمَذَاهِبِ الشِّعْرِ لَكِنِّي حَبَانِي هٰؤُلَاءِ فَمَدَحْتُهُمْ وَحَرَمَنِي هٰؤُلَاءِ فَذَكَرْتُ حِرْمَانَهُمْ وَلَمْ أَنَلْ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ شَيْئًا وَصَرَفْتُ مَدْحِي إِلَى مَنْ أَرَادَهُ وَرَغِبْتُ بِهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَزَهِدَ فِيهِ. يُرِيدُ قَصِيدَتَهُ الْمَهْمُوزَةَ وَهِيَ أَخْبَثُ مَا صَنَعَ وَفِيهَا أَوْ مِنْ أَجْلِهَا قَالَ خَلَفٌ الْأَحْمَرُ: أَشَدُّ الْهِجَاءِ أَعَفُّهُ وَأَصْدَقُهُ. وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: مَا عَفَّ لَفْظُهُ وَصَدَقَ مَعْنَاهُ. وَمِنْ كَلَامِ صَاحِبِ الْوَسَاطَةِ: فَأَمَّا الْهَجْوُ فَأَبْلَغُهُ مَا قَرُبَتْ مَعَانِيهِ وَسَهُلَ حِفْظُهُ وَأَسْرَعَ عُلُوقُهُ بِالْقَلْبِ وَلُصُوقُهُ بِالنَّفْسِ فَأَمَّا الْقَذْفُ وَالْفُحْشُ فَبَابٌ مَحْضٌ وَلَيْسَ لِلشَّاعِرِ فِيهِ إِلَّا إِقَامَةُ الْوَزْنِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ الْوَسَاطَةِ وَحُسْنِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِعْجَابُ الْحُذَّاقِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَفُرْسَانِ الْكَلَامِ بِقَوْلِ زُهَيْرٍ فِي تَشَكُّكِهِ وَتَهَزُّلِهِ وَتَجَاهُلِهِ فِيمَا يَعْلَمُ:

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

فَإِنَّ هٰذَا عِنْدَهُمْ مِنْ أَشَدِّ الْهِجَاءِ وَأَمَضِّهِ. وَلَمَّا قَدِمَ النَّابِغَةُ بَعْدَ وَقْعَةِ حُسًى سَأَلَ بَنِي ذُبْيَانَ مَا قُلْتُمْ لِعَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ وَمَا قَالَ

لَكُمْ . فَأَنْشَدُوهُ . فَقَالَ : أَفَخَشْتُمْ عَلَى ٱلرَّجُلِ وَهُوَ شَرِيفٌ لَا يُقَالُ لَهُ مِثْلُ هٰذَا وَلٰكِنِّي سَأَقُولُ ثُمَّ قَالَ :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنَّ مَظِنَّةَ ٱلْجَهْلِ ٱلشَّبَابُ (١)

فَلَمَّا بَلَغَ عَامِرًا قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ شَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ جَعَلَنِي ٱلْقَوْمُ رَئِيسًا وَجَعَلَنِي ٱلنَّابِغَةُ سَفِيهًا جَاهِلًا وَتَهَكَّمَ بِي . وَرُوِيَ أَنَّ شَاعِرًا مَدَحَ ٱلْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فَأَجْزَلَ عَطِيَّتَهُ فَلِيمَ عَلَى ذٰلِكَ فَقَالَ : أَتَرَوْنِي خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ ٱبْنَ فَاطِمَةَ وَلَا ٱبْنَ عَلِيٍّ . وَلٰكِنْ خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ كَٱلرَّسُولِ وَلَسْتَ كَعَلِيٍّ فَيَصْدُقُ وَيُحْمَلُ عَنْهُ وَيَبْقَى مُخَلَّدًا فِي ٱلْكُتُبِ مَحْفُوظًا عَلَى ٱلْسِنَةِ ٱلرُّوَاةِ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ : أَنْتَ وَٱللّٰهِ أَعْلَمُ مِنِّي بِٱلْمَدْحِ . وَقَدْ وَقَعَ ٱلْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بِبَعْضِ مَا قَالَ فِيهِ أَبُو عَاصِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ ٱلْاَسْلَمِيُّ ٱلْمَدَنِيُّ :

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ وَمَهْمَا قَالَ فَٱلْحَسَنُ ٱلْجَمِيلُ

وَجَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ يَرَوْنَ قَصْرَ ٱلْهِجَاءِ أَجْوَدَ وَتَرْكَ ٱلْفُحْشِ أَصْوَبَ إِلَّا جَرِيرًا فَإِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا . وَأَنَا أَرَى ٱلتَّعْرِيضَ أَهْجَى مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ لِٱتِّسَاعِ ٱلظَّنِّ فِي ٱلتَّعْرِيضِ وَشِدَّةِ قَلَقِ ٱلنَّفْسِ بِهِ وَٱلْبَحْثِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَطَلَبِ حَقِيقَتِهِ فَإِذَا كَانَ ٱلْهَجْوُ تَصْرِيحًا أَحَاطَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ عِلْمًا وَقَلَّتْهُ يَقِينًا فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ فِي نَقْصٍ لِنِسْيَانٍ أَوْ مَلَلٍ يَعْرِضُ . وَهٰذَا ٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ عَلَى أَنْ يَكُونَ ٱلْمَهْجُوُّ ذَا قَدْرٍ فِي نَفْسِهِ وَحَسَبِهِ . فَأَمَّا

(١) انظر تتمة هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصرانية

اِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُوقِظُهُ ٱلتَّلْوِيحُ وَلَا يُؤْلِمُهُ اِلَّا ٱلتَّصْرِيحُ فَذٰلِكَ .
وَلِهٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ ٱخْتَلَفَ هِجَاءُ اَبِي نُوَاسٍ وَكَذٰلِكَ هِجَاءُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ فِيهِ
اِخْتِلَافٌ لِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِ ٱلْمَهْجُوِّينَ فَمِنَ ٱلتَّفْضِيلِ فِي ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ
رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّقِّيِّ :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلْيَزِيدَيْنِ فِي ٱلنَّدَى يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَٱلْاَغَرِّ بْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْقَيْسِيِّ اِتْلَافُ مَالِهِ وَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْعَبْسِيِّ جَمْعُ ٱلدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبِ ٱلتَّمْتَامُ اَنِّي هَجَوْتُهُ وَلٰكِنَّنِي فَضَّلْتُ اَهْلَ ٱلْمَكَارِمِ

وَمِنَ ٱلْاِخْتِصَارِ وَٱلْاِسْتِخْفَافِ قَوْلُ زِيَادٍ ٱلْاَعْجَمِ :

قُمْ صَاغِرًا يَا شَيْخَ جُرْمٍ فَاِنَّمَا يُقَالُ لِشَيْخِ ٱلصِّدْقِ قُمْ غَيْرَ صَاغِرِ
فَمَنْ اَنْتُمُ اِنَّا نَسِينَا مَنَ اَنْتُمُ وَرِيحُكُمُ مِنْ اَيِّ رِيحِ ٱلْاَعَاصِرِ
اَاَنْتُمْ اُولَى جِنْتُمْ مَعَ ٱلرِّيحِ وَٱلدَّبَا فَطَارَ وَهٰذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرِ
قَضَى ٱللّٰهُ خَلْقَ ٱلنَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمُ بَقِيَّةَ خَلْقِ ٱللّٰهِ آخِرَ آخِرِ
فَلَمْ تَسْمَعُوا اِلَّا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
وَلَمْ تُدْرِكُوا اِلَّا مَدَقَّ ٱلْحَوَافِرِ

اَخَذَ مِنْهُ ٱلطِّرِمَّاحُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَمَا خُلِقَتْ تَيْمٌ وَعَبْدُ مَنَاتِهَا وَضَبَّةُ اِلَّا بَعْدَ خَلْقِ ٱلْقَبَائِلِ

وَمِنَ ٱلْاِحْتِقَارِ قَوْلُ جَرِيرٍ فِي تَيْمٍ :

وَيُقْضَى ٱلْاَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يُسْتَاْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ
وَاِنَّكَ لَوْ رَاَيْتَ عَبِيدَ تَيْمٍ وَتَيْمًا قُلْتَ اَيُّهُمَا ٱلْعَبِيدُ

وَمِنْ مَلِيحِ ٱلتَّهَكُّمِ قَوْلُ اَبِي هَفَّانَ :

سُلَيْمَانُ مَيْمُونُ ٱلنَّقِيبَةِ حَازِمٌ وَلٰكِنَّهُ وَقْفٌ عَلَيْهِ ٱلْهَزَائِمُ

وَفِيهِ يَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ:

قِرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضَرَّ بِهِ شَوْقٌ إِلَى وَجْهِهِ سَيُتْلِفُهُ

كَمْ يَعِدُ ٱلْقِرْنَ بِٱللِّقَاءِ وَكَمْ يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

أَخَذَ مَعْنَى ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ مِنْ قَوْلِ ٱلْخَارِجِيِّ. وَقَدْ قَالَ لَهُ ٱلْمَنْصُورُ: أَيُّ أَصْحَابِي كَانَ أَشَدَّ إِقْدَامًا فِي مُبَارَزَتِكُمْ فَقَالَ: مَا أَعْرِفُ وُجُوهَهُمْ وَلٰكِنْ أَعْرِفُ أَقْفَاءَهُمْ. وَأَجْوَدُ فِي ٱلْهِجَاءِ أَنْ يُسْلَبَ ٱلْإِنْسَانُ ٱلْفَضَائِلَ ٱلنَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا. فَأَمَّا مَا كَانَ فِي ٱلْخِلْقَةِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ ٱلْمَعَايِبِ فَإِنَّ ٱلْهِجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ وَقُدَامَةُ لَا يَرَاهُ هَجْوًا ٱلْبَتَّةَ وَكَذٰلِكَ مَا جَاءَ مِنَ ٱلْآبَاءِ وَٱلْأُمَّهَاتِ مِنَ ٱلنَّقْصِ وَٱلْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ ٱلْهِجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْجَعْدِيُّ يَقُولُ إِنِّي وَأَوْسًا لَنَبْتَدِرُ بَابًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَمَنْ غَلَبَ مِنَّا إِلَيْهِ غَلَبَ صَاحِبَهُ فَلَمَّا قَالَ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ:

لَعَمْرُكَ مَا تُبْلَى سَرَابِيلُ عَامِرٍ مِنَ ٱللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

قَالَ ٱلنَّابِغَةُ: هٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِي كُنَّا نَبْتَدِرُهُ. وَٱلَّذِي أَرَاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَّ أَشَدَّ ٱلْهِجَاءِ مَا أَصَابَ ٱلْغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى ٱلنُّكْتَةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ بِعَيْنِهِ

البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسه)

وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ اَنْ لَا يَقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ اَنْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَاِنِ اضْطَرَّهُ الْمِقْدَارُ اِلَى ذٰلِكَ وَاَوْقَعَهُ فِيهِ الْقَضَاءُ فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا لَطِيفًا وَلْيَقْصِدْ مَقْصَدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ الْمُعْتَذَرِ اِلَيْهِ مِنْ بَابِ الْاِحْتِجَاجِ وَاِقَامَةِ الدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ الْمُلُوكِ وَذَوِي السُّلْطَانِ وَحَقُّهُ اَنْ يُلَطِّفَ بُرْهَانَهُ مُدَرَّجًا فِي التَّضَرُّعِ وَالدُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ الْمُلُوكِ وَاِعَادَةِ النَّظَرِ فِي الْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ النَّاقِلِ وَالْحَاسِدِ فَاَمَّا مَعَ الْاِخْوَانِ فَتِلْكَ طَرِيقَةٌ اُخْرَى وَقَدْ اَحْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْاَصْبَهَانِيُّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ اَسَأْتُ فَبِالَّتِي سَلَفَتْ اِلَّا مَنَنْتَ بِعَفْوِ مَا لَهُ سَبَبُ

وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ مِنْ اَبْيَاتٍ يَعْتَذِرُ اِلَيْهِ :

اَللّٰهُ يَعْلَمُ مَا اَقُولُ فَاِنَّهَا جَهْدُ الْاَلِيَّةِ مِنْ مُقِرٍّ خَاضِعِ

مَا اِنْ عَصَيْتُكَ وَالْغُوَاةُ تَعُدُّنِي اَسْبَابُهَا اِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ

وَقَدْ سَلَكَ اَبُو عَلِيٍّ الْبَصِيرُ مَذْهَبَ الْحُجَّةِ وَاِقَامَةِ الدَّلِيلِ بَعْدَ اِرْتِكَابِ الْجِنَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ اَجْنِ ذَنْبًا فَاِنْ زَعَمْتَ بِاَنْ جَنَيْتُ ذَنْبًا فَغَيْرُ مُعْتَمِدِ

نَحَوْتُ هٰذَا النَّحْوَ فَقُلْتُ :

لَا يُبْعِدِ اللهُ اَبَا جَعْفَرٍ دَعَابَةٌ بِتُّ عَلَى نَارِهَا
وَاِنْ تَاَذَّيْتَ فَيَا رُبَّمَا تَاَذَّتِ الْعَيْنُ بِاَشْفَارِهَا

وَاَجَلُّ مَا وَقَعَ فِي الْاِعْتِذَارِ مِنْ مَشْهُورَاتِ الْعَرَبِ قَصَائِدُ النَّابِغَةِ الثَّلَاثُ اِحْدَاهُنَّ «يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ بِالسَّنَدِ» يَقُولُ فِيهَا:

فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وَمَا هُرِيقَ عَلَى الْاَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِذَاتِ الطَّيْرَ تَمْسَحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغِيلِ وَالسَّعَدِ
مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا اَتَيْتَ بِهِ اِذًا فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي اِلَيَّ يَدِي
اِلَّا مَقَالَةَ اَقْوَامٍ شَقِيتُ بِهَا كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرْعًا عَلَى الْكَبِدِ
اُنْبِئْتُ اَنَّ اَبَا قَابُوسَ اَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الْاَسَدِ

وَالثَّانِيَةُ (اَرَسْمًا جَدِيدًا مِنْ سُعَادَ تَجَنَّبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعْتَذِرًا مِنْ مَدْحِ آلِ جَفْنَةَ وَمُحْتَجًّا بِاِحْسَانِهِمْ اِلَيْهِ:

حَلَفْتُ فَلَمْ اَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً لَمُبْلِغُكَ الْوَاشِي اَغَشُّ وَاَكْذَبُ
وَلَكِنَّنِي كُنْتُ امْرَأً لِي جَانِبٌ مِنَ الْاَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَاِخْوَانٌ اِذَا مَا اَتَيْتُهُمْ اُحَكِّمُ فِي اَمْوَالِهِمْ وَاُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ اَرَاكَ اَصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرْهُمْ فِي شُكْرِ ذَلِكَ اَذْنَبُوا
فَلَا تَتْرُكَنِّي بِالْوَعِيدِ كَاَنَّنِي اِلَى النَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ الْقَارُ اَجْرَبُ
اَلَمْ تَرَ اَنَّ اللهَ اَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ
بِاَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَالثَّالِثَةُ (عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَا فَالْفَوَارِعُ) يَقُولُ فِيهَا بَعْدَ

قسم قدّمهُ على عادتهِ :

لَكَلَّفتني ذنبَ امرئٍ وتركتهُ كذي العُرِّ يُكوى غيرُهُ وهوَ راتعُ

فإنْ كنتَ لا ذو الضِّغنِ عنّي مُكذِّبٌ

ولا حلفي على البَراءةِ نافعُ

ولا انا مأمونٌ بشيءٍ اقولهُ وأنتَ بأمرٍ لا محالةَ واقعُ

فإنكَ كاللّيلِ الذي هوَ مُدركي وإنْ خِلتَ انَّ المنتأى عنكَ واسعُ

وقد علقَ بهذا المعنى جماعةٌ من الشُّعراء فقالَ سَلمٌ الخاسرُ يعتذرُ الى المهديِّ :

إنّي اعوذُ بخيرِ النّاسِ كُلِّهمِ وأنتَ ذاكَ لِما نأتي ونجتنبُ

وأنتَ كالدّهرِ مبثوثاً حبائلُهُ والدّهرُ لا ملجأٌ منهُ ولا هربُ

وقالَ عُبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ :

وإنّي وإنْ حدّثتُ نفسي بأنّني افوتُكَ انَّ الرّأيَ منّي لعازبُ

والى هذهِ النّاحيةِ اشارَ ابو الطّيّبِ بقولهِ :

ولكنّكَ الدّنيا اليَّ حبيبةٌ فما عنكِ لي الّا اليكِ ذهابُ

غيرَ انّهُ حرّفَ الكلامَ عن موانعهِ . واختارَ العُلماءُ بهذا الشّأنِ قولَ عليِّ بنِ جبلةَ :

وما لامرئٍ حاولتهُ عنكَ مهربٌ ولو رفعتهُ في السّماءِ المطالعُ

بلى هاربٌ لا يهتدي لمكانهِ ظلامٌ ولا ضوءٌ من الفجرِ ساطعُ

لانّهُ قد اجادَ مع معارضتهِ النّابغةَ وزادَ عليهِ ذكرَ الصُّبحِ واظنّهُ اقتدى بقولِ الاعشى في بيتِ النّابغةِ : ليسَ اللّيلُ اولى

بِهٰذَا ٱلْمَثَلِ مِنَ ٱلنَّهَارِ . وَفِي هٰذَا ٱلِٱعْتِرَاضِ كَلَامٌ يَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى . وَأَفْضَلُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنْفُذُوا . وَوَجَدَ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى عَلَى أَبِي ٱلْهَوْلِ ٱلْحِمْيَرِيِّ فَدَخَلَ إِلَيْهِ فَأَنْشَدَهُ :

كَسَانِي وَعِيدُ ٱلْفَضْلِ ثَوْبًا مِنَ ٱلْبِلَى
وَإِبْعَادُهُ عِنْدِي ٱلَّذِي مَا لَهُ رَدُّ
فَجُدْ بِٱلرِّضَى لَا ٱبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ عَلَى مَذْهَبِ ٱلْكُتَّابِ فِي تَحْرِيرِ ٱلْخِطَابِ : لَا أَحْتَمِلُ وَٱللهِ قَوْلَكَ (وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ) فَقَالَ أَبُو ٱلْهَوْلِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى قِصَرِ بَاعِي وَقِلَّةِ تَمْيِيزِي وَٱفْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ . فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ جَسِيمٍ وَرَضِيَ عَنْهُ وَقَرَّبَهُ

وَفِي ٱشْتِقَاقِ ٱلْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَحْوِ كَأَنَّكَ مَحَوْتَ آثَارَ ٱلْمَوْجِدَةِ مِنْ قَوْلِهِمِ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمَنَازِلُ إِذَا دَرَسَتْ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ٱبْنِ حُجْرٍ :

أَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ آيَاتٍ فَقَدْ جَعَلَتْ
أَطْلَالُ إِلْفِكَ بِٱلْوَذَّاءِ تَعْتَذِرُ

وَٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلِٱنْقِطَاعِ كَأَنَّكَ قَطَعْتَ ٱلرَّجُلَ عَمَّا أَمْسَكَ فِي قَلْبِهِ مِنَ ٱلْمَوْجِدَةِ وَيَقُولُونَ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمِيَاهُ إِذَا ٱنْقَطَعَتْ :

وَٱلْقَوْلُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحَجْرِ وَٱلْمَنْعِ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ

يُقَالُ عَذَرْتُ ٱلدَّابَّةَ اَيْ جَعَلْتُ لَهَا عِذَارًا يَخْجُزُهَا مِنَ ٱلشِّرَادِ فَمَعْنَى اَعْتَذَرَ ٱلرَّجُلُ اَحْتَجَزَ وَعَذَرْتُهُ جَعَلْتُ لَهُ حَاجِزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْعُقُوبَةِ اَوِ ٱلْعَتْبِ وَمِنْهُ تَعَذَّرَ ٱلْاَمْرُ وَاَحْتَجَزَ اَنْ يُقْضَى وَمِنْهُ جَارِيَةٌ عَذْرَاءُ

البحث الحادي عشر

في سيرورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كَانَ ٱلْاَعْشَى اَسْيَرَ ٱلنَّاسِ شِعْرًا وَاَعْظَمَهُمْ فِيهِ حَظًّا حَتَّى كَادَ يُنْسِي اَصْحَابَهُ ٱلْمَذْكُورِينَ مَعَهُ وَقَبْلَهُ زُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَاَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَكَانَ جَرِيرٌ بَاقِعَةً سَائِرَ ٱلشِّعْرِ مُظَفَّرًا. قَالَ ٱلْاَخْطَلُ لِلْفَرَزْدَقِ وَاَنَا وَٱللّٰهِ اَشْعَرُ مِنْ جَرِيرٍ غَيْرَ اَنَّهُ رُزِقَ مِنْ سَيْرُورَةِ ٱلشِّعْرِ مَا لَمْ اُرْزَقْهُ وَقَدْ قُلْتُ بَيْتًا لَا اَحْسَبُ اَحَدًا قَالَ اَهْجَا مِنْهُ

وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعَرَبِ قَبِيلَةٌ اِلَّا وَقَدْ نِيلَ مِنْهَا وَعُيِّرَتْ وَهُجِيَتْ فَحَطَّ ٱلشِّعْرُ مِنْهُمْ بَعْضًا بِمُوَافَقَةِ ٱلْحَقِيقَةِ وَمَضَى صَفْحًا عَلَى ٱلْآخَرِينَ لَمَّا لَمْ يُوَافِقِ ٱلْحَقِيقَةَ وَلَا صَادَفَ مَوْضِعَ ٱلرِّيبَةِ. فَمِنَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُحْكَ فِيهِمْ هِجَاءٌ اِلَّا قَلِيلًا عَلَى كَثْرَةِ مَا قِيلَ فِيهِمْ تَمِيمُ بْنُ مُرَّةَ وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ وَاَسَدُ بْنُ خُزَيْمَةَ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ ٱلْيَمَنِ. فَاَمَّا مَنْ شُقُوا بِٱلْهِجَاءِ وَمُزِّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ فِي ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْفَضْلِ اَحْيَاءٌ مِنْ قَيْسٍ نَحْوَ غَنِيٍّ وَبَاهِلَةَ بْنِ اَعْصُرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَاسْمُ غَنِيٍّ

عَمْرٌو وَكانُوا مَوالِيَ عامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِمُ الدِّيَاتِ وَالنَّوائِبَ وَنَحْوَ مُحارِبِ بْنِ خَصْفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلانَ وَجَسْرِ بْنِ مُحارِبٍ وَمِنْ وُلْدِ طابِخَةَ بْنِ إِلْياسَ بْنِ مُضَرَ تَيْمٌ وَعَكْلٌ أَبْنا عَبْدِ مَناةَ وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّبُّ فِي الْجاهِلِيَّةِ فَاسْتَهانَتِ الْعَرَبُ بِهِمْ وَانْطَبَعَ الْهِجاءُ فِيهِمْ وَعَدِيُّ بْنُ عَبْدِ مَناةَ كانُوا قَطِينًا لِحاجِبِ بْنِ زُرارَةَ وَأَرادَ انْ يَسْتَمْلِكَهُمْ مِلْكَ رِقٍّ بِسِجِلٍّ مِنْ قِبَلِ الْمُنْذِرِ. وَالْحِبْطاتُ وَهُمْ وُلْدُ الْحارِثِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ وَسُمِّيَ الْحِبْطَ لِعِظَمِ بَطْنِهِ شَبَّهُوهُ بِالْجَمَلِ الْحِبْطِ وَهُوَ الَّذِي انْتَفَخَ بَطْنُهُ مِنْ كَلإٍ يَسْتَوْبِلُهُ. فَأَمَّا السَّاوُلُ فَقَدْ قالَ فِيهِمْ أَبُو زِيادٍ الْكِلابِيُّ: كِرامٌ مِنْ كِرامٍ مَعْصَعَةَ لَمْ يُخالِفُوا فِي أَمْرٍ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي صَغارٍ وَإِنَّما كَلِمَةُ عامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ هِيَ الَّتِي شَأَمَتْهُمْ يُرِيدُ قَوْلَهُ: أَغُدَّةً كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ. قُلْتُ أَمَّا عامِرٌ فَقَدْ قالَ هٰذِهِ الْكَلِمَةَ حِينَ دَعا عَلَيْهِ الرَّسُولُ كَما يَصْنَعُ بِقَوْلِ السَّمَوْأَلِ بْنِ عادِيَاءَ:

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذا ما رَأَتْهُ عامِرٌ وَسَلُولُ

وَالسَّمَوْأَلُ فِي زَمانِ امْرِئِ الْقَيْسِ وَبَيْنَ امْرِئِ الْقَيْسِ وَمَبْعَثِ الرَّسُولِ مِئَةٌ وَأَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً. قالَ الْجاحِظُ لَمْ يُمْدَحْ قَبِيلَةٌ فِي الْجاهِلِيَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ كَما مُدِحَتْ مَخْزُومٌ. قالَ وَكانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوانَ أَخْطَأَ فِي الشِّعْرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خُلَفائِهِمْ. وَما أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ نِعْمَةً بَعْدَ وِلايَةِ اللهِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مُمَدَّحًا. قُلْتُ أَنا: أَمَّا هٰذِهِ النِّعْمَةُ فَقَدْ أَحَلَّها اللهُ مُضاعَفَةً

عِنْدَ ٱلسَّيِّدِ اَبِي ٱلْحَسَنِ وَقَرَنَهَا مِنْـهُ بِٱلِاسْتِحْقَاقِ فَقَرَّتْ مَقَرَّهَا وَنَزَلَتْ مَنْزِلَهَا ٱلْمُخْتَارَ لَهَا . وَاَحْيَا ٱللّٰهُ بِهِ لِبَنِي شَيْبَانَ حَمْدًا لَمْ يَشُبْهُ ذَمٌّ وَجُودٌ لَمْ يُعْقِبْهُ نَدَمٌ مِمَّا زَادَ عَلَى يَزِيدَ وَلَمْ يَدَعْ لِمَعْنٍ مَعْنًى فِي ٱلْجُودِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : كَانَ عَمْرُو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ مَمْدُوحًا وَفِيهِ يَقُولُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

قُلْ لِلْخَلِيفَـةِ اِنْ جِئْتَـهُ ... نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمُتَّهَمْ
اِذَا اَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ ٱلْعِدَا ... فَنَبِّـهْ لَهَا عُمَرًا ثُمَّ نَمْ
فَتًى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ ... وَلَا يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ اِلَّا بِدَمْ

وَقَالَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

اِنَّ ٱلْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِاَنَّهَا ... قَطَعَتْ اِلَيْكَ سَبَاسِبًا وَرِمَالَا

قَالَ اَبُو عُبَيْدَةَ : لَمْ يَمْدَحْ اَحَدٌ قَطُّ بَنِي كُلَيْبٍ غَيْرُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلْجَارُ فِي كُلَيْبٍ ... بِمُقْصًى فِي ٱلْجِوَارِ وَلَا مُضَاعِ

وَكَانَتْ قَيْسٌ تَفْتَخِرُ عَلَى تَمِيمَ لِاَنَّ شُعَرَاءَ تَمِيمَ تَضْرِبُ ٱلْمَثَلَ بِقَبَائِلِ قَيْسٍ وَرِجَالِهَا . فَاَقَامَتْ تَمِيمٌ دَهْرًا لَا تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى قَالَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ :

اَ بَنِي كُلَيْبٍ كَيْفَ تُنْفَى جَعْفَرٌ ... وَبَنُو ضُبَيْعَةَ حَاضِرُوا ٱلْاَجْنَابِ
قَتَلُوا ٱبْنَ عُرْوَةَ ثُمَّ لَطُّوا دُونَهُ ... حَتَّى يُحَاكِمَهُمْ اِلَى جَوَّابِ
يَرْعَوْنَ مُنْخَرَقَ ٱللَّدِيدِ كَاَنَّهُمْ ... فِي ٱلْعِزِّ اُسْرَةُ حَاجِبٍ وَشِهَابِ
مُتَظَاهِرٌ حَلَقُ ٱلْحَدِيدِ عَلَيْهِمِ ... كَبَنِي زُرَارَةَ اَوْ بَنِي عَتَّابِ

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدٌّ فَضْلَهُمْ وَٱلْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلْأَلْبَابِ

وَقَالَ ٱبْنُ مَنْظُورِ بْنِ سَيَّارٍ ٱلْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِجَمْعٍ مُجْزِلٍ كَأَنَّهُمْ بَنُو دَارِمٍ إِذْ كَانَ فِي ٱلنَّاسِ دَارِمُ

فَتَكَلَّمَتْ تَمِيمٌ وَٱفْتَخَرَتْ لِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ قَدْرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هٰذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا ٱحْظَى بِٱلْمَدْحِ مِنْ تَمِيمٍ . وَٱلْأَوَابِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْأَبْيَاتُ ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْأَمْثَالِ وَأَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ ٱلْأَوَابِدُ فِي ٱلْهِجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِأَبِدَةٍ فَتَكُونُ ٱلْأَبِدَةُ هٰهُنَا ٱلدَّاهِيَةَ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : ٱلْأَوَابِدُ ٱلدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَابِدُ ٱلشِّعْرِ حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : ٱلْأَوَابِدُ ٱلْإِبِلُ ٱلَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِٱلْعَقْرِ . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلطَّيْرُ ٱلَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ أَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْإِبِلِ ٱلشَّارِدَةِ ٱلْمُتَوَحِّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ ٱلْمُقِيمَةَ عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَإِقَامَةِ ٱلطَّيْرِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ كَٱلْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَأَمَّا ٱلْمُجَدِّدُونَ فِي ٱلْكَسْبِ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحُظْوَةِ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ فَمِنْهُمْ مُسْلِمٌ ٱلْخَاسِرُ مَاتَ عَنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ عَنَعَ :

تَعَالَى ٱللّٰهُ يَا مُسْلِمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ ٱلْحِرْصُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ

وَكَانَ صَدِيقَهُ جِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيْلِي مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ جَمَعَ ٱلْقَنَاطِيرَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ ٱلْحِرْصِ . وَلَمْ

يَرُدَّ ذٰلِكَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ وَمَرْوَانُ بْنُ اَبِي حَفْصَةَ لُعْطِيَ مِائَةَ اَلْفِ دِينَارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لَا يُقَابَلُ اِلَّا بِٱلْكَثِيرِ وَهُوَ لَعَمْرِي مِنْ ذَوِي ٱلْيُونَاتِ وَٱلْمَعْرُوفِينَ فِي ٱلْكَسْبِ وَٱلشِّعْرِ . وَكَانَ اَبُو نُوَاسٍ مَحْظُوظًا لَا يُدْرَى لِمَا وَصَلَ اِلَيْهِ لٰكِنَّهُ كَانَ مُتْلِفًا سَمْحًا وَكَانَ يَتَسَاجَلُ فِي ٱلْاِنْفَاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بْنُ اَحْنَفَ . وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ مَلِيًا قَدْ فَاضَ كَسْبُهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ . وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوْكِبٍ مِنْ عَبِيدِهِ . وَاَمَّا اَبُو تَمَّامٍ فَمَا وُفِّيَ حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْاَمْوَالِ لِاَنَّهُ تَبَذَّلَ وَجَابَ ٱلْاَرْضَ وَكَذٰلِكَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَنْشَدَنَا اَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلنَّحْوِيُّ عَنْ اَبِي عَلِيٍّ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ اِبْرٰهِيمَ ٱلْآمِدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَمِيمٍ :

تَضَيَّفَنِي وَهْنًا فَقُلْتُ اَسَابِقِي ... اِلَى ٱلزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ ٱلْاَصَابِعُ

وَلَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ ضَيْفًا بِقَفْرَةٍ ... مِنَ ٱلْاَرْضِ اِلَّا وَهْوَ عُرْيَانُ جَائِعُ

لَمْ يُرِدْ اَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيْفَهُ اِلَى ٱلزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ لٰكِنَّهُ وَصَفَ ذِئْبًا لَقِيَهُ لَيْلًا فَقَالَ : اَتَسْبِقُنِي اَنْتَ اِلَى ٱلْاَكْلِ اَيْ تَأْكُلُنِي شَلَّتْ اِذًا اَصَابِعِي اِذَا لَمْ اَرْمِكَ فَاَقْتُلَكَ وَآكُلَ لَحْمَكَ . ثُمَّ قَالَ عَلَى ٱلْمَثَلِ : لَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيْفًا فِي

قَفْرَةٍ يَعْنِي ٱلذِّئْبَ إِلَّا هُوَ جَائِعٌ فَهُوَ لَا يُبْقِي عَلَيَّ لِأَنِّي أَقْتُلُهُ قَبْلَ أَنْ يَشْبَعَ مِنْ لَحْمِي. وَمِنْ أَنَاشِيدِهِمْ:

أَبُوكَ ٱلَّذِي نُبِّئْتُ يَحْبِسُ خَيْلَهُ غَدَاةَ ٱلنَّدَى حَتَّى يَخِفَّ لَهَا ٱلْبَقْلُ

قَالُوا إِذَا أَخَذَ مَطَرُ ٱلصَّيْفِ ٱلْأَرْضَ أَنْبَتَتْ بَقْلًا فِي أُصُولِ بَقْلٍ قَدْ يَبِسَ فَذٰلِكَ ٱلْأَخْضَرُ هُوَ ٱلنَّشْرُ وَهُوَ ٱلْغَمِيرُ فَتَأْكُلُهُ ٱلْإِبِلُ فَيَأْخُذُهَا ٱلسَّهَامُ وَلَا سَهَامَ فِي ٱلْخَيْلِ فَعَابَهُ بِٱلْجَهْلِ بِٱلْخَيْلِ. قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: هٰذَا ٱلْقَوْلُ خَطَأٌ بَلْ مَدَحَهُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْخَيْلِ لِأَنَّ ٱلنَّشْرَ مُؤْذٍ لِكُلِّ مَا أَكَلَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ سَهَامٌ. وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ قُتَّةَ فِي رِثَاءِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَذِكْرِ آلِ ٱلرَّسُولِ:

أُولٰئِكَ قَوْمٌ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ وَلَمْ تَكْثُرِ ٱلْقَتْلَى بِهَا حِينَ سُلَّتِ

قَالَ قَوْمٌ أَرَادَ لَمْ يُغْمِدُوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا بَعْدَ كَثْرَةِ ٱلْقَتْلَى بِهَا كَمَا تَقُولُ لَمْ أَضْرِبْكَ وَلَمْ تَجْنِ عَلَيَّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: أَرَادَ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا ٱلْقَتْلَى كَمَا تَقُولُ: لَمْ أَلْقَكَ وَلَمْ أُحْسِنْ إِلَيْكَ أَيْ إِلَّا وَقَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ وَٱلْقَوْلَانِ مَعًا صَحِيحَانِ لِأَنَّهُ مِنَ ٱلْأَضْدَادِ وَيُنْشِدُونَ قَوْلَ ٱلْآخَرِ:

هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهْوَ يَكْعَمُ كَلْبَهُ دَعِ ٱلْكَلْبَ يَنْبَحْ إِنَّمَا ٱلْكَلْبُ نَابِحُ

وَيُرْوَى:

دَفَعْتُ إِلَيْهِ وَهْوَ يَخْنُقُ كَلْبَهُ أَلَا كُلُّ كَلْبٍ لَا أَبَا لَكَ نَابِحُ

وَأَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ:

فَجُنِّبَتِ ٱلْجُيُوشَ أَبَا حَبِيبٍ وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ

وَيُرْوَى اَنَّ اَبَا زَيْنَبَ قَالَ : اِنْ دَعَا لَهُ فَاِنَّمَا اَرَادَ اَنْ يُعَافَى مِنَ ٱلْجُيُوشِ وَاَنْ يَجُودَهُ ٱلسَّحَابُ فَتُخْصِبَ اَرْضُهُ وَاِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ : لَا اَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ ٱلْجُيُوشُ فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِعِلْمِهِمْ بِقِلَّةِ ٱلْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِاَنْ تَدْرُسَهَا ٱلْاَمْطَارُ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ فَاَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَةَ لَكَ فِيهَا فَذٰلِكَ اَشَدُّ لِهَمِّكَ وَغَمِّكَ وَيَكُونُ ٱلْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَخَيْفَاءَ اَلْقَى ٱللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ فَسَرَّتْ وَسَاءَتْ كُلَّ مَاشٍ وَمُضْرِمِ

اَيْ سَرَّتْ كُلَّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلَّ فَقِيرٍ . وَاَنْشَدَ اَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ اَيْضًا :

اِنِّي عَلَى كُلِّ اِيسَارٍ وَعَسْرَةٍ اَدْعُو خَبِيثًا كَمَا تُدْعَى اَبْنَةُ ٱلْجَبَلِ

وَرَوَى ٱلْمُبَرِّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ اَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَٱلصَّدَا وَهُوَ اَبْنَةُ ٱلْجَبَلِ وَقِيلَ اَبْنَةُ ٱلْجَبَلِ ٱلصَّخْرَةُ ٱلْمُنْحَدِرَةُ مِنْ اَعْلَاهُ . وَزَادَ اَبُو زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ :

اِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلْ بِجَانِبِهِ عَارِي ٱلْاَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فَهٰذَا مَدْحٌ لَا مَحَالَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ ٱلْآخَرِ :

كَاَنِّي اِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لُهُمُ ٱلْجِبَالَا

وَرَوَاهُ قَوْمٌ بَنِي سُلَيْمٍ فَمَنْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ ٱلْاَوَّلِ فِي سُرْعَةِ ٱلْاِجَابَةِ وَمَنْ ذَمَّ نَسَبَهُمْ اِلَى ٱلثِّقَلِ عَنْ اِجَابَتِهِ مِثْلَ ٱلْجِبَالِ . وَمِنَ ٱلدُّعَاءِ ٱلَّذِي يَدْخُلُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ :

تَفَرَّقَتْ غَنَمِي يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا ... يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا الذِّئْبَ وَالضَّبُعَا

قِيلَ اِنَّهُمَا اِذَا اجْتَمَعَا لَا يُؤْذِيَانِ وَشُغِلَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِالْآخَرِ وَاِذَا تَفَرَّقَا اَذَيَا وَقِيلَ : اِنَّ مَعْنَاهُ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهَا : قَتَلَ الذِّئْبُ الْاَحْيَاءَ عَبَثًا وَاَكَلَتِ الضَّبُعُ الْاَمْوَاتَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ . وَمِنْ لَطِيفِ مَا وَقَعَ فِي هٰذَا الْبَابِ قَوْلُ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ :

يَصُدُّ الشَّاعِرُ الثُّنْيَانُ عَنِّي ... صُدُودَ الْبِكْرِ عَنْ قَرْمِ الْهِجَانِ

وَلَمْ يُرِدْ اَنَّهُ يَغْلِبُ الثُّنْيَانَ وَلَا يَغْلِبُ الْفَحْلَ لٰكِنْ اَرَادَ التَّصْغِيرَ بِالَّذِي هَاجَاهُ فَجَعَلَهُ ثُنْيَانًا . وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَفْخَرْ بِمِثْلِ اَبِي وَجَدِّي ... يَجِي قَبْلَ السَّوَابِقِ وَهْوَ ثَانِ

اَرَادَ وَهْوَ ثَانٍ مِنْ عِنَانِهِ لَا يُسْبَقُ مُتَمَهِّلًا . وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ وَيُذَمُّ قَوْلُهُمْ بَيْضَةُ الْبَلَدِ فَمَنْ مَدَحَ اَرَادَ اَنَّهَا اَصْلُ الطَّائِرِ وَمَنْ ذَمَّ اَرَادَ اَنَّهَا لَا اَصْلَ لَهَا . قَالَتْ اُخْتُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ فِي عَلِيٍّ لَمَّا قَتَلَ اَخَاهَا :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ ... لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ الْاَبَدِ

لٰكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ ... مَنْ كَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيْضَةَ الْبَلَدِ

فَهٰذَا اَمْدَحُ كَمَا تَرَاهُ وَقَالَ الرَّاعِي النُّمَيْرِيُّ يَهْجُو عَدِيَّ بْنَ الرِّقَاعِ الْعَامِلِيَّ :

لَوْ كُنْتَ مِنْ اَحَدٍ تُهْجَى هَجَوْتُكُمُ
يَا اِبْنَ الرِّقَاعِ وَلٰكِنْ لَسْتَ مِنْ اَحَدِ

تَاْبَى قُضَاعَةُ اَنْ تَرْضَى بِكُمْ نَسَبًا
وَاَبْنَا نِزَارٍ فَاَنْتُمْ بَيْضَةُ الْبَلَدِ

وَأَنشَدَ بَعضُ ٱلعُلَمَاءِ:

وَإِنِّي لَظَلَّامٌ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ
عَرَارًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالَهُ ٱلدَّهْرُ
وَجَارٍ قَرِيبِ ٱلدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ
غَرِيبٍ بَعِيدِ ٱلدَّارِ لَيسَ لَهُ وَقْرُ

يَظُنُّهُ ٱلسَّامِعُ هَجَا نَفْسَهُ بِظُلْمِ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ ٱلنَّاقَةَ فَيَنْحَرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ هٰذَا هُوَ ٱلْأَشْعَثُ وَٱلْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

ٱلْبَدِيهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَوْسُومِينَ بِعِلْمِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ ٱلِٱرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ ٱلْبَدِيهَةَ فِيهَا ٱلْفِكْرُ وَٱلتَّأَيُّدُ . وَٱلِٱرْتِجَالُ مَا كَانَ ٱنْهِمَارًا وَتَدَفُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ فِيهِ قَائِلُهُ كَٱلَّذِي صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ ٱلرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا كَهَامًا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ أَرْتَجِلُ فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِنُبُوِّ سَيْفِ وَرْقَاءَ بْنِ زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ:

فَإِنْ يَكُ سَيْفٌ خَانَ أَوْ نَبَا حَدُّهُ
لِتَأْخِيرِ نَفْسٍ حَيْنُهَا غَيْرُ شَاهِدِ
فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ
نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ
كَذَاكَ سُيُوفُ ٱلْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا
وَيَقْطَعْنَ أَحْيَانًا مَنَاطَ ٱلْقَلَائِدِ
وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ ٱلسَّيْفُ مَا بَيْنَ أَنْفِهِ
إِلَى عَرَقٍ دُونَ ٱلشَّرَاسِيفِ حَاسِدِ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْتُلُ ٱلْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفُكُّهُمْ
إِذَا شَغَلَ ٱلْأَعْنَاقَ حَمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

وَأَعْظَمُ ٱرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو ٱبْنِ هِنْدٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ أَتَى بِهَا كَٱلْخُطْبَةِ. وَكَذٰلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ. وَقِيلَ: أَفْضَلُ ٱلْبَدِيهَةِ بَدِيهَةُ أَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعِ خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلِٱرْتِجَالِ وَهُوَ أَسْرَعُ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ. وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ قَوِيَّ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِٱرْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَتَقَطَّعُ وَلَا يَرْوِي إِلَّا فَلْتَةً. وَيُرْوَى أَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يُمَازِحُهُ وَهُوَ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ: وَأَنْتَ غَيْرُ مُدَافَعٍ فِي ٱلشِّعْرِ وَلٰكِنَّكَ لَا تَخْطُبُ. فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُولُ مُرْتَجِلًا:

مَنَحْتُكُمُ يَا أَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي أَلَا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِنَصِيبِ

رَمَاكُمْ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِحَيَّةٍ اَكُولٍ لِحَيَاتِ ٱلْبِلَادِ شَرُوبِ
فَاِنْ يَكُ بَاقِي سِحْرِ فِرْعَوْنَ فِيكُمُ فَاِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَطِيبِ

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ اِلَيْهِ : وَٱللهِ لَا يَأْتِي بِمِثْلِهَا خَطِيبٌ مِصْقَعٌ فَكَيْفَ رَاَيْتَ فَاعْتَذَرَ اِلَيْهِ فَحَلَفَ : اِنْ كُنْتُ اِلَّا مَازِحًا . وَسَمِعْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ : كَانَ مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ نَظِيرَ اَبِي نُوَاسٍ فِي وُقُوفِهِ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْ اَهْلِ زَمَانِهِ فِي اَشْيَاءَ اِلَّا اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَهَرَ بِٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِارْتِجَالِ مَعَ تَقَبُّضٍ كَانَ فِي مُسْلِمٍ وَاِظْهَارِ تَوَقُّدٍ وَكَانَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ وَرَوِيَّةٍ لَا يَبْتَدِهُ وَلَا يَرْتَجِلُ فَكَانَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ فِيمَا يُقَالُ اَقْدَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱرْتِجَالٍ وَبَدِيهَةٍ لِقُرْبِ مَأْخَذِهِ وَسُهُولَةِ طَرِيقِهِ

وَٱجْتَمَعَ عِدَّةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِيهِمْ اَبُو نُوَاسٍ فَشَرِبَ اَحَدُهُمْ مَاءً ثُمَّ قَالَ اَجِيزُونَا : بَرَدَ ٱلْمَاءُ وَطَابَا . فَكُلُّهُمْ تَلَعْثَمَ حَتَّى طَلَعَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ . قَالَ : فِيمَ اَنْتُمْ فَاَنْشَدُوهُ . فَقَالَ وَمَا تَرَدَّدَ : حَبَّذَا ٱلْمَاءُ شَرَابًا . فَاَتَى بِٱلْقَسِيمِ شَبِيهًا بِصَاحِبِهِ . وَذٰلِكَ هُوَ ٱلَّذِي اَعْوَزَ ٱلْقَوْمَ لَا وَزْنُ ٱلْكَلَامِ . وَصَحِبَ رِفْقَةً فَسَمِعَ زُقَاءَ ٱلدُّيُوكِ . فَقَالَ لِرَفِيقِهِ : هَلْ رَاَيْتَ ٱلصُّبْحَ لَاحَا . قَالَ نَعَمْ . قَالَ : وَسَمِعْتَ ٱلدِّيكَ صَاحَا . قَالَ نَعَمْ . قَالَ :

اِنَّمَا بَكَى عَلَى ٱلْمَـ ـرْءِ بِٱلدُّنْيَا وَنَاحَا

فَاسْتَيْقَظَ رَفِيقُهُ لِلْكَلَامِ اَنَّهُ شِعْرٌ فَرَوَاهُ . فَاَجْرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَهُوَ ٱلِارْتِجَالُ . وَاَمَّا ٱلْبَدِيهَةُ فَبَعْدَ اَنْ يُفَكِّرَ ٱلشَّاعِرُ يَسِيرًا وَيَكْتُبَ

سَرِيعًا اِنْ حَضَرَتْ آلَةٌ اِلَّا اَنَّهُ غَيْرُ بَطِيءٍ وَلَا مُتَرَاخٍ فَاِنْ اَطَالَ حَتَّى يُفْرِطَ اَوْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ لَمْ يَعُدْ بَدِيهًا

وَقَالُوا اَجْتَمَعَ الشُّعَرَاءُ بِبَابِ الرَّشِيدِ فَاِذَنَ لَهُمْ وَقَالَ: مَنْ يُجِيزُ هٰذَا الْقَسِيمَ وَلَهُ حُكْمُهُ. قَالُوا: مَا هُوَ يَا اَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: اَلْمُلْكُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ. فَقَالَ الْخَيَّازُ: وَلِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ وَلِلْمُحِبِّ اِذَا مَا حَبِيبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ. فَقَالَ: اَحْسَنْتَ وَاَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي وَاَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ. وَقَدْ كَانَ اَبُو الطَّيِّبِ كَثِيرَ الْبَدِيهَةِ وَالِارْتِجَالِ اِلَّا اَنَّ شِعْرَهُ فِيهَا نَازِلٌ عَنْ طَبَقَتِهِ جِدًّا وَهُوَ لَعَمْرِي فِي سَعَةٍ مِنَ الْفَنَدِ اِذْ كَانَتِ الْبَدِيهَةُ كَمَا قَالَ اَبْنُ الرُّومِيِّ فِيهَا:

نَارُ الرَّوِيَّةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ ... وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ

وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا ... لٰكِنَّ عَاجِلَهَا يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ

وَقَالَ اَبْنُ الْمُعْتَزِّ:

وَالْقَوْلُ بَعْدَ الْفِكْرِ يُؤْمَنُ زَيْفُهُ ... شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهَةِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ شِعْرُهُ فِي الرَّوِيَّةِ وَالْبَدِيهَةِ سَوَاءٌ وَعِنْدَ الْاَمْنِ وَالْخَوْفِ لِقُدْرَتِهِ وَسُكُونِ جَاْشِهِ وَقُوَّةِ غَرِيزَتِهِ كَهُدْبَةَ بْنِ الْخَشْرَمِ الْعُذْرِيِّ وَطَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ الْبَكْرِيِّ وَمُرَّةَ بْنِ مَحْكَانَ السَّعْدِيِّ اِذْ يَقُولُ وَقَدْ اَمَرَ مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ رَجُلًا مِنْ بَنِي اَسَدٍ بِقَتْلِهِ:

بَنِي اَسَدٍ اِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا ... تَمِيمًا اِذَا الْحَرْبُ الْعَوَانُ اُشْمَعَلَّتِ

وَاَسْتُ وَاِنْ كَانَتْ اِلَيَّ حَبِيبَةً ... بِبَاكٍ عَلَى الدُّنْيَا اِذَا مَا تَوَلَّتِ

وَهٰذَا شِعْرٌ لَوْ تَرَوَّى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى اَمْنِ وَدَعَةٍ وَفَرْطِ شَهْوَةٍ اَوْ شِدَّةٍ حَمِيَّةٍ لَمَا اَتَى بِهِ فَوْقَ هٰذَا وَكَذٰلِكَ عَبْدُ يَاغُوثَ بْنُ صَلَاءَةَ اِذْ يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ :

اَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ اَمَعْشَرَ تَيْمٍ اَطْلِقُوا مِنْ لِسَانِيَا
اَيَا رَاكِبًا اِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ نُدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ اَنْ لَا تَلَاقِيَا

وَكَانُوا شَدُّوا لِسَانَهُ خَوْفًا مِنَ الْهِجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَاَطْلَقُوهُ لِيَنُوحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ اَلْفَ نَاقَةٍ فَاَبَوْا اِلَّا قَتْلَهُ فَقَالَ :

فَاِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ وَاِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرِبُونِي بِمَالِيَا

وَهٰذِهِ شَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَشِدَّةٌ . وَمِنْ قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ لَمَّا اَيْقَنَ بِالْمَوْتِ :

اَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي
وَلَمْ اُعْطِكُمْ فِي الطَّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي
اَبَا مُنْذِرٍ اَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا
حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ اَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وَاَيْنَ هٰؤُلَاءِ مِنْ عُبَيْدِ بْنِ الْاَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ الصِّنَاعَةِ وَمُقَدَّمٌ فِي السِّنِّ عَلَى الْجَمَاعَةِ اِذْ يَقُولُ لَهُ النُّعْمَانُ يَوْمَ بُؤْسِهِ : اَنْشِدْنِي . قَالَ : حَالَ الْجَرِيضُ دُونَ الْقَرِيضِ . قَالَ : اَنْشِدْنِي قَوْلَكَ اَقْفَرَ مِنْ اَهْلِهِ مَلْحُوبُ . فَقَالَ :

اَقْفَرَ مِنْ اَهْلِهِ عُبَيْدُ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

فَبَلَغَتْ بِهِ حَالُ ٱلْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا عَلَى اَنَّ فِي طَرَفَةَ بَعْضَ ٱلضَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ٱلْمُتَوَكِّلِ إِذْ اَتَاهُ رَسُولُ اِسْحٰقَ بْنِ اِسْمٰعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:

اَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولِ جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ ٱلْغَلِيلِ
بِرَأْسِ اِسْحٰقَ بْنِ اِسْمَاعِيلِ

فَقَالَ ٱلْمُتَوَكِّلُ ٱلْقُطُوا هٰذَا ٱلْجَوْهَرَ لَا يَضِيعُ. وَٱشْتِقَاقُ ٱلْبَدِيهَةِ مِنْ بَدَهَ بِمَعْنَى بَدَأَ اُبْدِلَتِ ٱلْهَمْزَةُ هَاءً كَمَا اُبْدِلَتْ فِي اَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ لِقُرْبِهَا مِنْهَا. فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَهَ وَلِهَنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا بِمَعْنَى لِاَنَّكَ وَمِثْلُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ. وَٱلِارْتِجَالُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلِانْصِبَابِ. وَمِنْهُ قِيلَ: شَعَرَ ٱلرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَعَرُهُ سَبْطًا مُسْتَرْسِلًا غَيْرَ جَعْدٍ. وَقِيلَ هُوَ مِنِ ارْتِجَالِ ٱلْبِئْرِ وَهُوَ اَنْ تَتْرُكَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

مِنْ حِكَمِ ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَكُونَ حُلْوَ ٱلشَّمَائِلِ حَسَنَ ٱلْاَخْلَاقِ طَلْقَ ٱلْوَجْهِ بَعِيدَ ٱلْغَوْرِ مَأْمُونَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلنَّاحِيَةِ وَطِيءَ ٱلْاَكْنَافِ فَاِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَبِّبُهُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلْيَكُنْ مَعَ ذٰلِكَ شَرِيفَ ٱلنَّفْسِ لَطِيفَ ٱلْحِسِّ عَرُوفَ ٱلْهِمَّةِ نَظِيفَ ٱلْبَزَّةِ آنِفًا لِتَهَابَهُ ٱلْعَامَّةُ وَيَدْخُلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَاصَّةِ فَلَا تَجُجْهُ أَبْصَارُهُمْ سَخَ ٱلْيَدَيْنِ وَإِلَّا فَهُوَ كَمَا قَالَ ٱبْنُ أَبِي فَنَنٍ:

وَإِنَّ أَحَقَّ ٱلنَّاسِ بِٱللَّوْمِ شَاعِرٌ يَلُومُ عَلَى ٱلْبُخْلِ ٱلرِّجَالَ وَيَبْخَلُ

وَإِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى ذَهَبَ ٱلطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

أَأَلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَأَعْتَدِي لِلْبُخْلِ جَرْيًا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعَا

وَٱلشَّاعِرُ مَأْخُوذٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ لِٱتِّسَاعِ ٱلشِّعْرِ وَٱحْتِمَالِهِ كُلَّ مَا حُمِلَ مِنْ نَحْوٍ وَلُغَةٍ وَفِقْهٍ وَجَبْرٍ وَحِسَابٍ وَفَرِيضَةٍ وَٱحْتِيَاجِ أَكْثَرِ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ إِلَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكَيَّفٌ بِذَاتِهِ مُسْتَغْنٍ عَمَّا سِوَاهُ وَلِأَنَّهُ قَيْدٌ لِلْأَخْبَارِ وَتَجْدِيدٌ لِلْآثَارِ وَصَاحِبُهُ ٱلَّذِي يَذُمُّ وَيَحْمَدُ وَيَهْجُو وَيَمْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي ٱلنَّاسُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَا يَذَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِحُجَّتِهِ مَأْخُوذٌ. وَلْيَأْخُذْ نَفْسَهُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلنَّسَبِ وَأَيَّامِ ٱلْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُ ذٰلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ ٱلْآثَارِ وَضَرْبِ ٱلْأَمْثَالِ لِيُعَلِّقَ نَفْسَهُ بَعْضَ أَنْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طِبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا ٱلشَّاعِرَ مِنَ ٱلْمَطْبُوعِينَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضُلُ أَصْحَابَهُ بِرِوَايَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْأَخْبَارِ وَٱلتَّلَمُّذَةِ لِمَنْ فَوْقَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ يُرِيدُونَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ ٱلْمَقَاصِدَ وَسَهُلَ عَلَيْهِ مَأْخَذُ ٱللَّفْظِ وَلَمْ يَضِقْ بِهِ ٱلْمَذْهَبُ وَإِذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رِوَايَةَ ضَلَّ وَٱهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ ٱلْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ

وَهُوَ مَائِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لِضُعْفِ آلَتِهِ كَالْمُقْعَدِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْقُوَّةَ عَلَى النُّهُوضِ فَلَا تُعِينُهُ الْآلَةُ . وَقَدْ سُئِلَ رُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ عَنِ الْفَحْلِ مِنَ الشُّعَرَاءِ . فَقَالَ : هُوَ الرَّاوِيَةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى اسْتَفْحَلَ . قَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيِّدِ شِعْرِهِ مَعْرِفَةَ جَيِّدِ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُؤْبَةُ فِي صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرَا رِوَايَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرَا

وَاسْتَعْظَمَ حَالَهُ حَتَّى قَرَنَهَا بِالسِّحْرِ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ الشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ الشِّعْرِ فَحْلًا حَتَّى يَرْوِيَ أَشْعَارَ الْعَرَبِ وَيَسْمَعَ الْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ الْمَعَانِيَ وَتَدُورَ فِي مَسَامِعِهِ الْأَلْفَاظُ . وَأَوَّلُ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ الْعَرُوضَ لِيَكُونَ مِيزَانًا عَلَى قَوْلِهِ وَالنَّحْوَ يُصْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَالنَّسَبَ وَأَيَّامَ النَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذٰلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَثَالِبِ وَذِكْرِهِمَا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ . وَقَدْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ عَلَى فَضْلِهِ فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ يَرْوِي لِلْحُطَيْئَةِ كَثِيرًا وَكَانَ الْحُطَيْئَةُ رَاوِيَةَ زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرٌ رَاوِيَةَ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ وَطُفَيْلٍ الْغَنَوِيِّ جَمِيعًا . وَقَدْ تَرَكَ أَعْشَى بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ بِسُوقِ عُكَاظَ وَأَنْشَدَهُ فَقَدَّمَهُ . وَأَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَلَبِيدُ ابْنُ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذٰلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كُثَيِّرٌ رَاوِيَةَ جَمِيلٍ مُفَضِّلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ النُّمَيْرِيُّ وَاسْمُهُ الْهَيْثَمُ بْنُ الرَّبِيعِ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شِعْرًا وَأَنْظَفِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًّا بِالْفَرَزْدَقِ

آخِذًا عَنْهُ كَثِيرًا مُتَعَصِّبًا لَهُ . وَلَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُوَلَّدُ عَنْ تَصَفُّحِ أَشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ حَلَاوَةِ ٱللَّفْظِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ وَإِشَارَاتِ ٱلْمُلَحِ وَوُجُوهِ ٱلْبَدِيعِ ٱلَّذِي مِثْلُهُ فِي شِعْرِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ قَلِيلٌ وَإِنْ كَانُوا هُمْ فَتَحُوا بَابَهُ وَفَتَقُوا جِلْبَابَهُ . وَلِلْمُتَعَقِّبِ زِيَادَاتٌ وَٱفْتِنَانٌ . لَا عَلَى أَنْ تَكُونَ عُدَّةُ ٱلشَّاعِرِ مُطَالَعَةَ مَا ذَكَرْتُهُ آخِرَ كَلَامِي هٰذَا دُونَ مَا قَدَّمْتُهُ فَإِنَّهُ مَتَى فَعَلَ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ ٱلْمِنَّةِ وَفَضْلِ ٱلْقُوَّةِ مَا يَبْلُغُ بِهِ طَاقَةَ مَنْ تَبِعَ فَيُجَارِيَهُ . وَإِذَا أَعَانَتْهُ فَصَاحَةُ ٱلْمُتَقَدِّمِ وَحَلَاوَةُ ٱلْمُتَأَخِّرِ ٱشْتَدَّ سَاعِدُهُ وَبَعُدَ مَرَامُهُ فَلَمْ يَقَعْ دُونَ ٱلْغَرَضِ وَسَعَى أَنْ يَكُونَ أَوْثَقَ سِهَامًا وَأَحْسَنَ مَوْقِعًا مِمَّنْ لَوْ عَوَّلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمُحْدَثِينَ لَقَصَّرَ عَنْهُ وَوَقَعَ دُونَهُ . وَلْيَجْعَلْ طَلَبَهُ أَوَّلًا لِلسَّلَامَةِ فَإِذَا صَحَّتْ لَهُ طَلَبَ ٱلتَّجْوِيدَ حِينَئِذٍ وَلْيَرْغَبْ فِي ٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطُّلَاوَةِ رَغْبَتَهُ فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلْفَخَامَةِ . وَلْيَجْتَنِبِ ٱلسُّوقِيَّ ٱلْقَرِيبَ وَٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَرِيبَ حَتَّى يَكُونَ شِعْرُهُ حَالًا بَيْنَ حَالَيْنِ كَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ ٱلْأُمُورِ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذَلُولًا وَلَا صَعْبَا

وَأَوَّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّاعِرُ بَعْدَ ٱلْحَدِّ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ وَفِيهِ وَحْدَهُ ٱلْكِفَايَةُ حُسْنُ ٱلتَّأَنِّي وَٱلسِّيَاسَةِ وَعِلْمُ مَقَاصِدِ ٱلْقَوْلِ فَإِنْ نَسَبَ ذَلَّ وَخَضَعَ وَإِنْ مَدَحَ أَطْرَبَ وَأَسْمَعَ وَإِنْ هَجَا أَقَلَّ وَأَوْجَعَ وَلْتَكُنْ غَايَتُهُ مَعْرِفَةَ أَغْرَاضِ ٱلْمُخَاطَبِ كَائِنًا مَنْ كَانَ لِيَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهِ وَيُدَاخِلَهُ فِي ثِيَابِهِ فَذٰلِكَ هُوَ سِرُّ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَغْزَاهُ ٱلَّذِي تَفَاوَتَ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ تَفَاضَلُوا . وَقَدْ قِيلَ : لِكُلِّ

مَقَامِ مَقَالٌ. وَشِعْرُ الشَّاعِرِ لِنَفْسِهِ وَفِي مُرَادِهِ وَأُمُورِ ذَاتِهِ مِنْ مَدْحٍ وَغَزَلٍ وَمُكَاتَبَةٍ وَمُجُونٍ وَخَمْرِيَّةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ غَيْرُ شِعْرِهِ فِي قَصَائِدِ الْحَفْلِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا بَيْنَ السِّمَاطَيْنِ. يُقْبَلُ مِنْهُ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ عَفْوُ كَلَامِهِ وَمَا لَا يَتَكَلَّفُ لَهُ وَلَا أَلْقَى بِهِ بَالًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ فِي هٰذِهِ إِلَّا مَا كَانَ مُحَكَّكًا مُعَاوَدًا فِيهِ النَّظَرُ جَيِّدًا لَا غَثَّ فِيهِ وَلَا سَاقِطَ وَلَا قَلِقَ. وَشِعْرُهُ لِلْأَمِيرِ غَيْرُ شِعْرِهِ لِلْوَزِيرِ وَالْكَاتِبِ وَمُخَاطَبَتُهُ لِلْقُضَاةِ وَالْفُقَهَاءِ بِخِلَافِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هٰذِهِ الْأَنْوَاعِ.

وَالْمُتَأَخِّرُ مِنَ الشُّعَرَاءِ فِي الزَّمَانِ لَا يَضُرُّهُ تَأَخُّرُهُ إِذَا أَجَادَ كَمَا لَا يَنْفَعُ الْمُتَقَدِّمَ تَقَدُّمُهُ إِذَا قَصَّرَ وَإِنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ السَّبْقِ فَعَلَيْهِ دَرَكُ التَّقْصِيرِ كَمَا أَنَّ لِلْمُتَأَخِّرِ فَضْلَ الْإِجَادَةِ وَالزِّيَادَةِ. وَلَا يَكُونُ الشَّاعِرُ حَاذِقًا مُجَوِّدًا حَتَّى يَتَفَقَّدَ شِعْرَهُ وَيُعِيدَ فِيهِ نَظَرَهُ فَيُسْقِطَ رَدِيَّهُ وَيُثْبِتَ جَيِّدَهُ وَيَكُونَ بِالرَّكِيكِ مُطَّرِحًا لَهُ رَاغِبًا عَنْهُ. فَإِنَّ بَيْتًا جَيِّدًا مَقَامَ أَلْفِ رَدِيٍّ. وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ وَهُوَ أَوَّلُ مَا زَعَمُوا أَنَّهُ اخْتِيرَ لَهُ وَعُلِمَ بِهِ أَنَّهُ أَفْضَلُ الشُّعَرَاءِ وَالْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ:

أَذُودُ الْقَوَافِيَ عَنِّي ذِيَادَا ... ذِيَادَ غُلَامٍ جَرِيءٍ جَرَادَا
فَلَمَّا كَثُرْنَ وَعَنَّيْنَهُ ... تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ سِتًّا جِيَادَا
فَأَعْزِلُ مِرْجَانَهَا جَانِبًا ... وَآخُذُ مِنْ دُرِّهَا الْمُسْتَجَادَا

وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا نُوَاسٍ كَانَ يَفْعَلُ هٰذَا الْفِعْلَ وَيَنْتَقِي الْجَيِّدَ وَيَلْتَمِسُ لَهُ مِنَ الْكَلَامِ مَا سَهُلَ وَمِنَ الْمَعْنَى مَا كَانَ وَاضِحًا جَلِيًّا

يُعرَفُ بَدِيًا. فَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ: شَرُّ ٱلشِّعْرِ مَا سُئِلَ عَنْهُ. وَكَانَ ٱلْحُطَيْئَةُ يَقُولُ: خَيْرُ ٱلشِّعْرِ ٱلْحَوْلِيُّ ٱلْمُحَكَّكُ. اَخَذَ فِي ذٰلِكَ بِمَذْهَبِ زُهَيْرِ بْنِ اَبِي سُلْمَى وَاَوْسٍ وَطُفَيْلٍ. وَلَا يَجُوزُ لِلشَّاعِرِ كَمَا لَا يَجُوزُ لِغَيْرِهِ اَنْ يَكُونَ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ مُثْنِيًا عَلَى شِعْرِهِ وَاِنَّ فَضِيحَةً ظَاهِرَةً كَانَ غَنِيًّا عَنْهَا. وَكَانَ فِي ٱلْبُحْتُرِيِّ اِعْجَابٌ شَدِيدٌ اِذَا اَنْشَدَ يَقُولُ: مَا لَكُمْ لَا تَعْجَبُونَ مَا اَحْسَنَ مَا تَسْمَعُونَ. فَاَنْشَدَ ٱلْمُتَوَكِّلَ يَوْمًا قَصِيدَتَهُ:

عَنْ اَيِّ ثَغْرٍ تَبْتَسِمْ وَبِاَيِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ

وَاَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلصَّمِيرِيُّ حَاضِرٌ فَلَمَّا رَاَى اِعْجَابَهُ قَامَ حِذَاءَهُ وَقَالَ:

مِنْ اَيِّ سَلْحٍ تَلْتَقِمْ وَبِاَيِّ كَفٍّ تَلْتَطِمْ

فَوَلَّى وَهُوَ غَضْبَانُ. فَقَالَ: وَعَلِمْتُ اَنَّكَ تَنْهَزِمْ. فَضَحِكَ ٱلْمُتَوَكِّلُ حَتَّى فَحَصَ بِرِجْلَيْهِ وَاَعْطَى ٱلصَّمِيرِيَّ جَائِزَةً سَنِيَّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشحذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لَا بُدَّ لِلشَّاعِرِ وَاِنْ كَانَ فَحْلًا حَاذِقًا مُبَرِّزًا مُقَدَّمًا مِنْ فَتْرَةٍ تَعْرِضُ لَهُ فِي بَعْضِ ٱلْاَوْقَاتِ اِمَّا لِشُغْلٍ طَرَاَ اَوْ مَوْتِ قَرِيحَةٍ اَوْ نُبُوِّ طَبْعٍ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ اَوْ ذٰلِكَ ٱلْحِينِ. وَقَدْ كَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ

وَهُوَ فَحْلُ مُضَرَ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تَمُرُّ عَلَيَّ السَّاعَةُ وَقَلْعُ ضِرْسٍ مِنْ اَضْرَاسِي اَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ فَاِذَا تَمَادَى ذٰلِكَ عَلَى الشَّاعِرِ قِيلَ : قَدْ اَضْفَى كَمَا يُقَالُ اَضْفَتِ الدَّجَاجَةُ اِذَا اَنْقَطَعَ بَيْضُهَا وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لَهُ اَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِحَافِرِ الْبِئْرِ اِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ الْاَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ اَجْبَلَ . وَاُفْحِمَ الشَّاعِرُ عَلَى اُفْعِلَ وَقَالُوا : هُوَ مِنْ فَحَمِ الصَّبِيِّ اِذَا اَنْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ شِدَّةِ الْبُكَاءِ . فَاِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ اَهْتَرَ فَهُوَ مُهْتَرٌّ . وَقَدْ قِيلَ فِي الذُّبْيَانِيِّ اِنَّهُ كَانَ شِعْرُهُ نَظِيفًا مِنَ الْعُيُوبِ لِاَنَّهُ قَالَهُ كَبِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يُهْتَرْ وَاَكْثَرُ مَا جَاءَ الْاِهْتِرَارُ فِي صِفَةِ الْكَبِيرِ الَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ . وَقَوْلُهُمْ فِي شِعْرِ النَّابِغَةِ اِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى اَنَّهُ بِهٰذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ اَكْثَرِ النَّاسِ لَا لِقَوْلِهِ : « فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤُونُ » كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ . وَيُقَالُ اَخْلَى الشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ اَخْلَى الرَّامِي اِذَا لَمْ يُصِبْ مَعْنًى

وَيُحْكَى عَنِ الْبُحْتُرِيِّ اَنَّهُ قَالَ : فَاوَضْتُ عَلِيَّ بْنَ الْجَهْمِ فِي الشِّعْرِ وَذِكْرِ اَشْجَعَ السُّلَمِيِّ فَقَالَ : اِنَّهُ يُخْلِي . فَلَمْ اَفْهَمْهَا وَاَنِفْتُ اَنْ اَسَالَهُ عَنْهَا . فَلَمَّا اَنْصَرَفْتُ فَكَّرْتُ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شِعْرِ اَشْجَعَ فَاِذَا هُوَ رُبَّمَا مَرَّتْ بِهِ الْاَبْيَاتُ مَعْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ رَائِعٌ

ثُمَّ اِنَّ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعْدُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا الشِّعْرَ

فَتَشْحَذُ ٱلْقَرَائِحَ وَتُنَبِّهُ ٱلْخَوَاطِرَ وَتُلَيِّنُ عَرِيكَةَ ٱلْكَلَامِ وَتُسَهِّلُ طَرِيقَ ٱلْمَعْنَى لِكُلِّ ٱمْرِئٍ بِحَسَبِ تَدْبِيرِ طَبْعِهِ وَٱطِّرَادِ عَادَتِهِ. وَسَيَأْتِي ذٰلِكَ فِي أَقَاوِيلِ ٱلْعُلَمَاءِ بِمَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ فِيهِ هِدَايَةٌ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى

قَالَ بَكْرُ بْنُ ٱلنَّطَّاحِ ٱلْحَنَفِيُّ: ٱلشِّعْرُ مِثْلُ عَيْنِ ٱلْمَاءِ إِنْ تَرَكْتَهَا نَضَبَتْ وَإِنِ ٱسْتَهْتَتْهَا هَتَنَتْ. وَلَيْسَ مُرَادُ بَكْرٍ أَنْ تُسْتَهْتَنَ بِٱلْعَمَلِ وَحْدَهُ لِأَنَّا نَجِدُ ٱلشَّاعِرَ تَكِلُّ قَرِيحَتُهُ مَعَ كَثْرَةِ ٱلْعَمَلِ مِرَارًا وَتَنْزِفُ مَادَّتُهُ وَتَنْفَدُ مَعَانِيهِ فَإِذَا جَمَّ طَبْعُهُ أَيَّامًا وَرُبَّمَا زَمَانًا طَوِيلًا ثُمَّ صَنَعَ ٱلشِّعْرَ جَاءَ بِكُلِّ آبِدَةٍ وَأَتَى بِكُلِّ قَافِيَةٍ شَارِدَةٍ وَفُتِحَ لَهُ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلْفَاظِ مَا لَوْ رَامَهُ مِنْ قَبْلُ لَٱسْتُغْلِقَ عَلَيْهِ وَأَبْهَمَ دُونَهُ. لٰكِنْ بِٱلْمُذَاكَرَةِ مَرَّةً فَإِنَّهَا تَقْدَحُ زِنَادَ ٱلْخَاطِرِ وَتُفَجِّرُ عُيُونَ ٱلْمَعَانِي وَتُوقِظُ أَبْصَارَ ٱلْفِتْنَةِ وَبِمُطَالَعَةِ ٱلْأَشْعَارِ كَرَّةً فَإِنَّهَا تَبْعَثُ ٱلْجَسَدَ وَتُولِدُ ٱلشَّهْوَةَ. وَسُئِلَ ذُو ٱلرُّمَّةِ كَيْفَ تَفْعَلُ إِذَا ٱنْقَفَلَ دُونَكَ ٱلشِّعْرُ. فَقَالَ: كَيْفَ يَنْقَفِلُ دُونِي وَعِنْدِي مَفَاتِحُهُ. قِيلَ لَهُ: وَعَنْهُ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ. قَالَ: ٱلْخُلُوُّ بِذِكْرِ ٱلْأَحْبَابِ وَلَعَمْرِي إِنَّهُ إِذَا ٱنْفَتَحَ لِلشَّاعِرِ نَسِيبُ ٱلْقَصِيدَةِ فَقَدْ وَلَجَ مِنَ ٱلْبَابِ وَحَطَّ رِجْلَهُ فِي ٱلرِّكَابِ عَلَى أَنَّ ذَا ٱلرُّمَّةِ لَمْ يَكُنْ كَثِيرَ ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ وَإِنَّمَا كَانَ وَاصِفَ أَطْلَالٍ وَنَادِبَ أَظْعَانٍ وَهُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَهُ مِنْ طَبَقَةِ ٱلْفُحُولِ. وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ كَيْفَ تَصْنَعُ ٱلشِّعْرَ إِذَا عَسُرَ عَلَيْكَ. قَالَ: أَطُوفُ فِي ٱلرِّيَاضِ ٱلْمُشَعَّبَةِ فَيَسْهُلُ عَلَيَّ صَعْبُهُ وَيُسْرِعُ إِلَيَّ

أحسنُهُ . وقالَ الأصمعيُّ : ما استُدْعِيَ شاردُ الشِّعرِ بمثلِ الماءِ الجاري والشَّرفِ العالي والمكانِ الخالي . وقيلَ الخالي يعني الرَّوضَ

وحدَّثنا بعضُ أصحابِنا من أهلِ المهديَّةِ وقد مررنا بموضعٍ بها يُعرفُ بالكنديَّةِ وهو أشرفُها أرضًا وهواءً . قالَ : جئتُ هذا الموضعَ مرَّةً فإذا عبدُ الكريمِ على سطحٍ هنالكَ قد كشفَ الدُّنيا . فقلتُ : أبا محمَّدٍ . قالَ : نعمْ . فقلتُ : ما تصنعُ هاهنا . قالَ : القحُ خاطري وأجلو ناظري قلتُ : فهلْ نتجَ لكَ شيءٌ . قالَ : ما تقرُّ بهِ عيني وعينُكَ إنْ شاءَ اللهُ تعالى وأنشدَ شعرًا يدخلُ مسامَّ القلوبِ رقَّةً . قلتُ : هذا اختيارٌ منكَ اخترعتَهُ . قالَ : بلْ برأيِ الأصمعيِّ

وقالوا كانَ جريرٌ إذا أرادَ أنْ يؤيِّدَ قصيدةً صنعَها ليلًا يُشعلُ سراجًا ويعتزلُ أهلَهُ وربَّما علا السَّطحَ وحدَهُ وغطَّى رأسَهُ رغبةً في الخلوةِ في نفسِهِ . فحُكيَ أنَّهُ صنعَ ذلكَ في قصيدتِهِ الَّتي اخزى بها بني نُمَيرٍ

ورُوِيَ أنَّ الفرزدقَ كانَ إذا عصتْ عليهِ صنعةُ الشِّعرِ ركبَ ناقةً وطافَ وحدَهُ منفردًا في شِعابِ الجبالِ وبطونِ الأوديةِ والأماكنِ الخاليةِ فيُعطيهِ الكلامُ قيادَهُ . حُكيَ ذلكَ في قصيدتِهِ الفائيَّةِ :

عُرِفتَ بأعشاشٍ وما كدتَ تُعرَفُ

وذُكرَ أنَّ فتًى من الأنصارِ فاخرَ بأبياتٍ حسَّانَ بنَ ثابتٍ :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي الضُّحَى
وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَأَنْظَرَهُ سَنَةً فَمَضَى حَنِقًا وَطَالَتْ لَبْلَتُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ الصَّبَاحِ أَتَى جَبَلًا بِالْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابٌ فَنَادَى : أَخَاكُمْ أَخَاكُمْ يَا بَنِي لَبِينَا صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ نَاقَتِهِ فَأَنْشَالَتْ عَلَيْهِ الْقَوَافِي وَجَاءَ بِالْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ أَعْجَزَتِ الشُّعَرَاءَ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجُودَةً

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : وَلِلشِّعْرِ أَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا أَوَّلُ اللَّيْلِ قَبْلَ تَغَشِّي الْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ اللَّيْلِ وَقَبْلَ الْغِذَاءِ وَمِنْهَا يَوْمُ شُرْبِ الدَّوَاءِ وَمِنْهَا الْخَلْوَةُ فِي الْحَبْسِ . فَلِهَذِهِ الْأَسْبَابِ تَخْتَلِفُ أَشْعَارُ الشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ الْمُتَرَسِّلِ . وَحُكِيَ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ وَقَدْ سَأَلَهُ الْبُحْتُرِيُّ عَنْ أَوْقَاتِ صَنْعَةِ الشِّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هٰذَا لَا أَحْفَظُهُ وَلَا أَشُكُّ أَنَّ ابْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ أَقْتَدَى وَإِنْ كَانَ مِمَّا رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ الْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ الْفَلْسَفَةِ اسْتِلْقَاءُ الْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْفَلَ الْخَوَاطِرِ مِثْلُ مُبَاكَرَةِ الْعَمَلِ بِالْأَسْحَارِ عِنْدَ الْهُبُوبِ مِنَ النَّوْمِ لِكَوْنِ النَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ حِسُّهَا فِي أَسْبَابِ اللَّهْوِ أَوِ الْمَعِيشَةِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ وَإِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ جَدِيدَةٌ كَأَنَّمَا نَشَأَتْ نَشْأَةً أُخْرَى وَلِأَنَّ السَّحَرَ أَلْطَفُ هَوَاءً وَأَرَقُّ نَسِيمًا وَأَعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَشِيُّ كَالسَّحَرِ

وَهُوَ عَدِيلُهُ فِي ٱلتَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفَيِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لِدُخُولِ ٱلظُّلْمَةِ فِيهِ عَلَى ٱلضِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ ٱلضِّيَاءِ بِٱلسَّحَرِ عَلَى ٱلظُّلْمَةِ وَلِأَنَّ ٱلنَّفْسَ فِيهِ كَآلَةٍ مُرَيَّضَةٍ مِنْ تَعَبِ ٱلنَّهَارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى قُوتِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَمُتَشَوِّقَةٌ نَحْوَهُ فَٱلسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ. فَأَمَّا لِمَنْ أَرَادَ ٱلْحِفْظَ وَٱلدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فَٱللَّيْلُ. قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ ٱلْقَائِلِينَ: إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا. وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْهِ. وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِهِ. حَكَى ذٰلِكَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَالَ: ٱسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصَهْرَجٍ قَدْ غُسِلَ بِٱلْمَاءِ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقُلْتُ: لَقَدْ بَلَغَ بِكَ ٱلْحَرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا. قَالَ: لَا وَلٰكِنْ غَيْرُهُ. فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ: ٱلْآنَ ٱلْآنَ أَرَدْتُ. ثُمَّ ٱسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مَا كُنْتُ فِيهِ مُنْذُ ٱلْآنَ. قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

«كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ» زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْكَنَ ٱللّٰهُ مِنْهُ فَعَمِلْتُ:

شَرِسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ فَأَنْتَ ذَاكَ نَدًى
فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَتَ هٰذَا ٱلْحَاكِي لَتَمَّ هٰذَا ٱلْبَيْتُ بِمَا كَانَ دَاخِلَ ٱلْبَيْتِ لِأَنَّ ٱلْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَٱلتَّعَمُّلَ بَيِّنٌ. عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ اَبِي تَمَّامٍ وَاَشَدَّ مِنْهَا وَقَعَتْ لِمَنْ لَا يُتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ. صَنَعَ اَلْفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ:

فَقُلْتُ اَنَا اَلْمَوْتُ اَلَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ

بِنَفْسِكَ فَانْظُرْ كَيْفَ اَنْتَ مُحَاوِلُهْ

وَحَلَفَ بِالطَّلَاقِ اَنَّ جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَمَرَّغُ فِي اَلرَّمْضَاءِ وَيَقُولُ: اَنَا اَبُو حَرْزَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ اَبْيَاتٍ لَهُ مَشْهُورَةٍ:

اَنَا اَلدَّهْرُ يُفْنِي اَلْمَوْتَ وَالدَّهْرُ خَالِدٌ

فَحَيِّنِيَ مِثْلُ اَلدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهْ

وَكَانَ اَبُو تَمَّامٍ يَنْصِبُ اَلْقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيُعَلِّقَ اَلْاَعْجَازَ بِالصُّدُورِ وَذٰلِكَ هُوَ اَلتَّصْدِيرُ فِي اَلشِّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا اِلَّا شَاعِرٌ مُتَصَنِّعٌ كَحَبِيبٍ وَنُظَرَائِهِ وَالصَّوَابُ اَنْ لَا يَصْنَعَ اَلشَّاعِرُ بَيْتًا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ غَيْرَ اَنِّي لَا اَجِدُ ذٰلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا اَقْدِرُ عَلَيْهِ اَلْبَتَّةَ بَلْ اَصْنَعُ اَلْقَسِيمَ اَلْاَوَّلَ عَلَى مَا اُرِيدُهُ ثُمَّ اَلْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ اَلْقَوَافِي بَعْدَ ذٰلِكَ فَاَبْنِي عَلَيْهِ اَلْقَسِيمَ اَلثَّانِيَ اَفْعَلُ ذٰلِكَ فِيهِ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي اَلْبَيْتَ كُلَّهُ عَلَى اَلْقَافِيَةِ وَلَمْ اَرَ ذٰلِكَ يَبْخَلُ عَلَيَّ وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ اَلْقَسِيمِ اَلْاَوَّلِ اِلَّا فِي اَلنُّدْرَةِ اَلَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ اَلتَّنْقِيحِ اَلْمُفْرِطِ

وَمِنَ اَلشُّعَرَاءِ مَنْ يَسْبِقُ اِلَيْهِ بَيْتٌ وَاَثْنَانِ وَخَاطِرُهُ فِي غَيْرِهِمَا يَجِبُ اَنْ يَكُونَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِاَبْيَاتٍ وَذٰلِكَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَاَنْبِعَاثِ

خَاطِرِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُ قَافِيَةً بِعَيْنِهَا لِلْبَيْتِ بِعَيْنِهِ مِنَ الشِّعْرِ مِثْلَ اَنْ تَكُونَ ثَالِثَةً اَوْ رَابِعَةً اَوْ نَحْوَ ذٰلِكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذٰلِكَ الْمَوْضِعَ اِلَّا اَخَلَّ عَلَيْهِ نَظْمُ اَبْيَاتِهِ وَذٰلِكَ عَيٌّ فِي الصَّنْعَةِ شَدِيد وَنَقْصٌ بَيِّنٌ لِاَنَّ الشَّاعِرَ يَصِيرُ مَحْصُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مُضَيَّقًا عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ الْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ الشِّعْرُ تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ اِذَا اَخَذَ فِي صَنْعَةِ الشِّعْرِ جَمَعَ مِنَ الْقَوَافِي مَا يَصْلُحُ لِذٰلِكَ الْوَزْنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ اَخَذَ مُسْتَعْمَلَهَا وَشَرِيفَهَا وَمَا سَاعَدَ مَعَانِيَهُ وَوَافَقَهَا وَاَطْرَحَ مَا سِوَى ذٰلِكَ اِلَّا اَنَّهُ لَا بُدَّ اَنْ يَجْمَعَهَا لِيُكَرِّرَ فِيهَا نَظَرَهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا التَّخَيُّرَ فِي حِينِ الْعَمَلِ . هٰذَا الَّذِي عَلَيْهِ حُذَّاقُ الْقَوْمِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ اِذَا جَاءَهُ الْبَيْتُ عَفْوًا اَثْبَتَهُ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ فَنَّحَهُ وَصَفَّاهُ مِنْ كَدَرِهِ وَذٰلِكَ اَسْرَعُ وَاَخَفُّ عَلَيْهِ وَاَصَحُّ لِنَظَرِهِ وَاَخَفُّ لِبَالِهِ . وَآخَرُ لَا يُثْبِتُهُ اِلَّا بَعْدَ اِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِيفِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذٰلِكَ اَشْرَفُ لِلْهِمَّةِ وَاَدَلُّ عَلَى الْقَدْرِ وَاَظْهَرُ لِلْكُلْفَةِ وَاَبْعَدُ مِنَ السَّرِقَةِ . وَسَاَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فَقُلْتُ : مَا يُعِينُ عَلَى الشِّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ الْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ الْحَمَّامِ وَقِيلَ : اِنَّ الطَّعَامَ الطَّيِّبَ وَالشَّرَابَ الطَّيِّبَ وَسَمَاعَ الْغِنَاءِ يُرَقِّقُ الطَّبْعَ وَيُصَفِّي الْمِزَاجَ وَيُعِينُ عَلَى الشِّعْرِ . وَلَمَّا اَرَادَتْ قُرَيْشٌ مُعَارَضَةَ الْقُرْآنِ عَكَفَ فُصَحَاؤُهُمُ الَّذِينَ تَعَاطَوْا ذٰلِكَ عَلَى لُبَابِ

ٱلْبُرِّ وَسُلَافِ ٱلْخَمْرِ وَلُحُومِ ٱلضَّأْنِ وَٱلْخَلْوَةِ إِلَى أَنْ بَلَغُوا مَجْهُودَهُمْ .
فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ
أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا
لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ . يَئِسُوا مِمَّا طَمِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَخْلُوقٍ .
وَقِيلَ : مِقْوَدُ ٱلشِّعْرِ ٱلْعِتَابُ . وَذُكِرَ عَنْ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَنَّ مُتَشَرِّفًا
تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا « جَلَلًا كَمَا
بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَصْنَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعْضَ ٱلتَّوَقُّفِ
رَجَعَ بِٱلْإِنْشَادِ مِنْ أَوَّلِ ٱلْقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ ٱنْتَهَى مِنْهَا . وَقَالُوا :
ٱلْحِيلَةُ بِكَلَالِ ٱلْقَرِيحَةِ ٱنْتِظَارُ ٱلْحَمَّامِ . وَهٰذَا عِنْدِي أَجْمَعُ ٱلْأَقْوَالِ
وَبِهِ أَقُولُ وَإِلَيْهِ أَذْهَبُ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمُزَنِيُّ : لَا
تَكُدُّوا ٱلْقُلُوبَ وَلَا تُهْمِلُوهَا وَخَيْرُ ٱلْفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ ٱلْحَمَّامِ
وَٱشْحَذُوا ٱلْقُلُوبَ بِٱلْمُذَاكَرَةِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ إِصَابَةِ ٱلْحِكْمَةِ إِذَا
أَمْتَخَنْتُمْ بِبَعْضِ ٱلْإِسْتِغْلَاقِ فَإِنَّ مَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ ٱلْبَابِ وَصَلَ .
وَقَالَ ٱلْخَلِيعُ : مَنْ لَمْ يَأْتِ شِعْرُهُ مَعَ ٱلْوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ .
وَقَالُوا يُرِيدُ ٱلْخَلْوَةَ وَرُبَّمَا أَرَادَ ٱلْغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكُ ٱلْجِنِّ : مَا
أَضْفَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَمِمَّا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بِشْرُ بْنُ
ٱلْمُعْتَمِرِ ذَكَرَ فِيهَا ٱلْبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ ٱلْكَلَامِ وَٱلْفَصَاحَةِ يَقُولُ
فِيهَا : خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ فَرَاغِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ
قَلِيلَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ جِنْسًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلْأَسْمَاعِ

وَاَخْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَاَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَاءِ وَاَخْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغِرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ

وَاَعْلَمْ اَنَّ ذٰلِكَ اَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْاَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُجَاهَدَةِ وَبِٱلتَّكَلُّفِ وَٱلْمُعَانَدَةِ وَمَهْمَا اَخْطَاكَ لَمْ يُخْطِئْكَ اَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا اَوْ حَقِيقَةً عَلَى ٱللِّسَانِ سَهْلًا كَمَاءٍ خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدَنِهِ وَاِيَّاكَ وَٱلتَّوَعُّرَ فَاِنَّ ٱلتَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ اِلَى ٱلتَّعْقِيدِ وَٱلتَّعْقِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ اَلْفَاظَكَ . وَمَنْ اَرَاغَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَاِنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا اَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا وَعَمَّا يَعُودُ مِنْ اَجْلِهِ اَسْوَاَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ اَنْ يُلْتَمَسَ اِظْهَارُهُمَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ فِي مُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِّهِمَا وَكُنْ فِي اِحْدَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ فَاِنَّ اَوَّلَ ٱلثَّلَاثِ اَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اَوْ فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . اِمَّا عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ . اَوْ لِلْعَامَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ قَصَدْتَ وَٱلْمَعْنَى لَيْسَ يَشْرُفُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْخَاصَّةِ فَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَتَصَنَّعُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْعَامَّةِ وَاِنَّمَا مَدَارُ ٱلشَّرَفِ مَعَ ٱلصَّوَابِ وَاِحْرَازِ ٱلْمَنْفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْحَالِ وَمَعَ مَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ ٱلْمَقَالِ . وَكَذٰلِكَ ٱللَّفْظُ ٱلْعَامِيُّ وَٱلْخَاصِّيُّ فَاِنْ اَمْكَنَكَ اَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَاقْتِدَارِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى اَنْ تُفْهِمَ ٱلْعَامَّةَ مَعَانِيَ

الخاصّة وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تطفو عن الدهماء ولا تخفى عن الأكفاء فأنت البليغ التامّ فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أوّل نظرك في أوّل تكلّفك وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تسمح إلى قرارها وإلى حقّها من أماكنها المقسومة لها والقافية لم تحلّ من مركزها في نصابها ولم تتّصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على اغتصاب مكانها والنزول في غير أوطانها فإنّك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تكلّف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد. فإن أنت تكلّفتهما ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لشأنك بصيرا بما عليك ولك عابك من أنت أقلّ منه عيبا ورأى من هو دونك أنّه فوقك. فإن أنت ابتليت بأن تتكلّف القول وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع فلا تعجل ولا تضجر ودعه بياض يومك وسواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فربّما لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كان هناك طبيعة أو جريت في الصنعة على عرف فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل ومن غير طول إهمال فالمنزلة الثالثة أن تتحوّل عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفّها عليك

إلّا أنّ النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها عند الرهبة كما تجود به مع الشهوة والمحبّة. وقال بعض أهل

ٱلْأَدَبِ : حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ عَوْنًا عَلَى صِنَاعَتِهِ اَنْ يَجْمَعَ خَاطِرَهُ بَعْدَ اَنْ يُخْلِيَ قَلْبَهُ مِنْ فُضُولِ ٱلْاِنْفِعَالِ وَيَدَعَ ٱلْاِمْتِلَاءَ مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ ثُمَّ يَأْخُذَ فِيمَا يُرِيدُ. وَاَفْضَلُ مَا اسْتَعَانَ بِهِ ٱلشَّاعِرُ غِنًى اَوْ فَضْلُ طَمَعٍ وَٱلْفَقْرُ آفَةُ ٱلشِّعْرِ وَاِنَّمَا ذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ اِذَا صَنَعَ ٱلْقَصِيدَةَ وَهُوَ فِي غِنًى وَوُسْعَةٍ نَفَّحَهَا وَاَمْعَنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا عَلَى مَهَلٍ وَاِذَا كَانَ مَعَ ذٰلِكَ طَمَعُ غِنًى قَوَّى اَنْبِعَاثَهَا مِنْ يَنْبُوعِهَا وَجَاءَتِ ٱلرَّغْبَةُ فِيهَا فِي نِهَايَتِهَا مُحْكَمَةً. وَاِذَا كَانَ فَقِيرًا مُضْطَرًّا رَضِيَ بِعَفْوِ ٱلْكَلَامِ وَاَخَذَ مَا اَمْكَنَهُ مِنْ نَتِيجَةِ خَاطِرٍ وَلَمْ يَتَتَبَّعْ فِي بُلُوغِ مُرَادِهِ وَلَا بَلَغَ مَجْهُودَ نَعْتِهِ لِمَا يَخْفِرُهُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ وَٱلضَّرُورَةِ فَجَاءَ دُونَ عَادَتِهِ فِي سَائِرِ اَشْعَارِهِ وَرُبَّمَا قَصَّرَ عَنْ دُونِهِ بِكَثِيرٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ تُحْمِي ٱلْحَاجَةُ خَاطِرَهُ وَتَبْعَثُ قَرِيحَتَهُ فَيَجُودُ فَاِذَا اَوْسَعَ اَنِفَ وَصَعُبَ عَلَيْهِ عَمَلُ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلْيَسِيرَةِ فَضْلًا عَنِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱلْعَادَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ فِعْلٌ عَظِيمٌ وَهِيَ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ كَمَا قِيلَ فِيهَا

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اِخْتَلَفَ اَهْلُ ٱلْمَعْرِفَةِ فِي ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَطَالِعِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ ٱلْفُصُولُ وَٱلْوُصُولُ بِعَيْنِهَا. فَٱلْمَقَاطِعُ اَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ وَٱلْمَطَالِعُ اَوَائِلُ ٱلْوُصُولِ. وَٱلْفَصْلُ آخِرُ جُزْءٍ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْاَوَّلِ كَمَا قَدَّمْتُ

وَهُوَ ٱلعَرُوضُ أَيضًا . وَٱلوُصُولُ أَوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ ٱلقِسْمِ ٱلثَّانِي .
وَقَالَ غَيْرُهُم : ٱلمَقَاطِعُ مُنقَطَعُ ٱلأَبيَاتِ وَهِيَ ٱلقَوَافِي وَٱلمَطَالِعُ أَوَائِلُ ٱلأَبيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بنُ جَعْفَرٍ فِي بَعْضِ تَآلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ ٱلتَّصْرِيعَ وَهُوَ أَنْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ فِي ٱلبَيْتِ عَلَى سَجْعٍ أَوْ شَبِيهٍ بِهِ أَوْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي ٱلتَّصْرِيفِ . فَأَشَارَ بِهٰذِهِ ٱلعِبَارَةِ إِلَى ٱلمَقَاطِعِ أَوْ آخِرِ أَجْزَاءِ ٱلبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَجِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلمُرَصَّعِ مَا يَكُونُ سَجْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ أُمِّ مَعْدَانَ فِي مَرْثِيَةٍ لَهَا :

فِعْلُ ٱلجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ ٱلجَلِيلِ وَإِ ء م طَاءُ ٱلجَزِيلِ ٱلَّذِي لَمْ يُعْطِهِ أَحَدُ

فَٱلسَّجْعُ فِي هٰذَا ٱلبَيْتِ ٱللَّامُ ٱلمُطَّرِدَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَمَاكِنَ مِنْهُ وَآخِرُ ٱلأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱليَاءِ ٱلَّتِي قَبْلَ ٱللَّامِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُجْعَلَ ٱلسَّجْعُ هُوَ ٱليَاءَ ٱلمُلْتَزَمَةَ فَحِينَئِذٍ عَلَى أَنَّا لَا نَعْلَمُ حَرْفَ ٱلسَّجْعِ يَكُونُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلمَكَانِ وَمِثْلُ هٰذَا فِي أَنْوَاعِ ٱلأَعَارِيضِ كَثِيرٌ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ ٱلمَقْطَعَ وَٱلمَطْلَعَ أَوَّلُ ٱلقَصِيدَةِ وَآخِرُهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لِأَنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ ٱلنُّقَّادِ إِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ ٱلمَقَاطِعِ جَيِّدَةُ ٱلمَطَالِعِ . وَلَا يَقُولُونَ ٱلمَقْطَعِ وَٱلمَطْلَعِ . وَفِي هٰذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِأَنَّ ٱلقَصِيدَةَ إِنَّمَا لَهَا أَوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا أَوَائِلُ وَأَوَاخِرُ إِلَّا عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ ذِكْرِ ٱبتِدَاآتِ ٱلأَبيَاتِ أَوِ ٱلأَقْسِمَةِ وَٱنتِهَائِهَا

وَسَأَلْتُ الشَّيْخَ اَبَا عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدَ بْنَ اِبْرٰهِيمَ بْنِ السَّمِينِ عَنْ هٰذَا فَقَالَ : اَلْمَقَاطِعُ اَوَاخِرُ الْاَبْيَاتِ وَالْمَطَالِعُ اَوَائِلُهَا . قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ : حَسَنُ الْمَقَاطِعِ جَيِّدُ الْمَطَالِعِ اَنْ يَكُونَ مُنْقَطَعُ الْبَيْتِ وَهُوَ الْقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلِقٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهٰذَا هُوَ حُسْنُهُ . وَالْمَطْلَعُ هُوَ اَوَّلُ الْبَيْتِ وَجُودَتُهُ اَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَالتَّصْدِيرِ وَمَا شَاكَلَهُ . وَرَوَى الْجَاحِظُ اَنَّ حَبِيبَ بْنَ شُبَّةَ كَانَ يَقُولُ : اَلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ الْاِبْتِدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَاَنَا مُوَكَّلٌ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ الْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ . وَحَظُّ جُودَةِ الْقَافِيَةِ وَاِنْ كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً اَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ الْبَيْتِ اَوِ الْقَصِيدَةِ . حَكَاهُ الْجَاحِظُ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ الْمَقْطَعَ آخِرُ الْبَيْتِ اَوِ الْقَصِيدَةِ وَهُوَ بِالْبَيْتِ اَلْيَقُ لِذِكْرِ حَظِّ الْقَافِيَةِ

وَحُكِيَ اَيْضًا عَنْ صَدِيقٍ لَهُ اَنَّهُ قَالَ لِلْعَتَابِيِّ مَا الْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : كُلُّ كَلَامٍ اَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ اِعَادَةٍ وَلَا حُبْسَةٍ وَلَا اِسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِيغٌ . قَالَ : قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ الْاِعَادَةَ وَالْحُبْسَةَ فَمَا الْاِسْتِعَانَةُ فَقَالَ : اَمَا تَرَاهُ اِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ يَا هٰذَا اِسْمَعْ مِنِّي وَاَسْتَمِعْ اِلَيَّ وَاَفْهَمْ وَاَلَسْتَ تَفْهَمُ هٰذَا كُلُّهُ عِيٌّ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ الْكِتَابِ وَهٰذَا الْقَوْلُ مِنَ الْعَتَابِيِّ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ الْمَقَاطِعَ اَوَاخِرُ الْفُصُولِ . وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ الْجَاحِظُ عَنِ الْمَأْمُونِ اِنَّهُ قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَاللهِ اِنَّكَ لَتُصْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

مَقَاطِعِ كَلَامِي. وَإِذَا جُعِلَ ٱلْمَقْطَعُ وَٱلْمَطْلَعُ مَصْدَرَيْنِ بِمَعْنَى ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كَانَتِ ٱلطَّاءُ وَٱللَّامُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَإِذَا أُرِيدَ مَوْضِعُ ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كُسِرَتِ ٱللَّامُ خَاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ ٱلْقِيَاسِ

البحث السابع عشر

في المبتدإ او الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قِيلَ لِبَعْضِ ٱلْحُذَّاقِ بِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ لَقَدْ طَارَ ٱسْمُكَ وَٱشْتَهَرَ فَقَالَ لِأَنِّي أَقْلَلْتُ ٱلْحَقَّ وَأَصَبْتُ مَقَاعِدَ ٱلْكَلَامِ وَقَرَّظْتُ نُكَتَ ٱلْأَغْرَاضِ بِحُرِّ ٱلْقَوَافِي وَٱلْخَوَاتِمِ وَلُطْفِ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ ٱلِٱفْتِتَاحِ دَاعِيَةُ ٱلِٱنْشِرَاحِ وَمَطِيَّةُ ٱلنَّجَاحِ وَلَطَافَةَ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ سَبَبُ ٱرْتِيَاحِ ٱلْمَمْدُوحِ وَخَاتِمَةَ ٱلْكَلَامِ أَبْقَى فِي ٱلسَّمْعِ وَأَلْصَقُ بِٱلنَّفْسِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ بِهَا فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ وَإِنْ قَبُحَتْ قَبُحَ وَٱلْأَعْمَالُ بِخَوَاتِمِهَا. وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ ٱبْتِدَاءَ شِعْرِهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ ٱلسَّمْعَ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ أَوَّلٍ وَدَهْلَةٍ. وَقَدِ ٱخْتَارَ ٱلنَّاسُ كَثِيرًا مِنَ ٱلِٱبْتِدَآتِ سَأَذْكُرُ هٰهُنَا مَا أَمْكَنَ مِنْهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ نَحْوُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ « قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ وَقَفَ وَٱسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَٱسْتَبْكَى وَذَكَرَ ٱلْحَبِيبَ وَٱلْمَنْزِلَ فِي مِصْرَاعٍ وَاحِدٍ. وَقَوْلِهِ « أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي » وَمِثْلُهُ

قَوْلُ ٱلْقَطَامِيِّ « إِنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ اَيُّهَا ٱلطَّلَلُ » وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ ٱلْكَوَاكِبِ

وَقَوْلِهِ :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِٱلْجُمُومَيْنِ سَاهِرًا وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرًا

هٰذَا بَعْضُ مَا ٱخْتِيرَ لِلْقُدَمَاءِ وَمِمَّا ٱخْتِيرَ فِي ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ اَوْسِ ٱبْنِ حَجَرٍ :

اَيُّهَا ٱلنَّفْسُ اَجْمِلِي جَزَعًا إِنَّ ٱلَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وَمِمَّا ٱخْتِيرَ لِلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ « اَبَى طَلَلٌ بِٱلْجِزْعِ اَنْ يَتَكَلَّمَا » وَهُوَ عِنْدَهُمْ اَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ مُحْدَثٌ . وَقَوْلُ اَبِي نُوَاسٍ :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمِ

عَلَى طُولِ مَا اَقْوَتْ وَحُسْنَ رُسُومِ

وَقَوْلُهُ :

رَسْمُ ٱلْكَرَى بَيْنَ ٱلْجُفُونِ تَحِيلُ عَفَّى عَلَيْهِ بُكًا عَلَيْكَ طَوِيلُ

وَقَوْلُهُ :

اَعْطَتْكَ رَيْحَانَهَا ٱلْعُقَارُ وَحَانَ مِنْ لَيْلِنَا ٱنْسِفَارُ

وَقَوْلُهُ :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِٱلَّتِي كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

وَمِمَّا اَشْبَهَ ذٰلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ لَطَالَ وَكَثُرَ . وَلْيَرْغَبْ عَنِ ٱلتَّعْقِيدِ فِي ٱلِٱبْتِدَاءِ فَإِنَّهُ اَوَّلُ ٱلْعِيِّ وَدَلِيلُ ٱلْفَهَهِ . وَقَدْ حُكِيَ اَنَّ دِعْبِلَ

ابن علي الخزاعي ورد حمص فقصد دار عبد السلام بن رغبان ديك الجن فكتم نفسه عنه خوفا من قوارصه فقال : ما له يستتر وهو اشعر الجن والانس اليس القائل :

بها غير معدول فدا وحمارها وهل بعشيات الغبوق ابتكارها

فظهر اليه واعتذر اليه واحسن . ثم تناشدا فانشد ديك الجن ابتداء قصيدة :

كانها ما كانه خلل الخلة وقف الهلوك ان بغما

فقال له دعبل : اسكت فوالله ما ظننتك تتم البيت الا وقد غشي عليك او تشككت دماغك ولكانك في جهنم تخاطب الزبانية او تخبطك الشيطان من المس . وانما اراد الديك ان يهول عليه ويقرع سمعه عسى ان يزعجه او يروعه فسمع منه ما كره . ولعمري ما ظلمه دعبل ولقد ابعد مسافة الكلام وخالف العادة وهذا بيت قبيح من جهات منها اضمار ما لم يذكر قبل ولا جرت العادة بمثله فيعذر ولا كثر استعماله فيشهر مع احالة التشبيه على تشبيه ثقل تجانسه الذي هو حشو فارغ لو طرح من البيت كان احزم واستدعى قافية لا لشيء الا لفساد المعنى واستحالة التشبيه ما الذي يريد ببغامه في تشبيه الوقف وهو السوار ولم كان وقف الهلوك خاصة . ومثله قول محمد بن عبد الملك الزيات يصف ناقته في اول قصيدة مدح بها الحسن بن سهل :

كانها حين تناءى خطوها اجش موشي الشوى يرعى الطلل

فَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ فِي مُخَالَفَةِ الْعَادَةِ لَازِمٌ وَمَعَ ذٰلِكَ قَوْلُهُ « حِينَ تَنَاهَى خَطْوُهَا » فَقَصَرَ بِهَا وَهُوَ يَقْدِرُ اَنْ يَقُولَ « حِينَ تَدَانَى خَطْوُهَا » وَخَالَفَ جَمِيعَ الشُّعَرَاءِ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُمْ يَصِفُونَ النَّاقَةَ بِالظَّلِيمِ وَالْحِمَارِ وَالثَّوْرِ بَعْدَ الْكَلَالِ غُلُوًّا وَمُبَالَغَةً فِي الْوَصْفِ . هٰذَا هُوَ الْجَيِّدُ فَاِنْ لَمْ يَفْعَلُوا لَمْ يَذْكُرُوا اَنَّهَا بَذَلَتْ جَهْدَهَا وَاسْتَفْرَغَتْ جَمِيعَ مَا عِنْدَهَا بَلْ يَدَّعُونَ التَّاْوِيلَ مُحْتَمِلَ الزِّيَادَةِ . ثُمَّ قَالَ « تَرْعَى الْقُلَلَ » وَالثَّوْرُ لَا يَرْعَى قُلَلَ الْجِبَالِ وَاِنَّمَا ذٰلِكَ الْوَعِلُ لِاَنَّهُ لَا يُسْهِلُ وَالثَّوْرُ فِي السُّهُولِ وَمَوَاضِعِ الرِّمَالِ اِلَّا اَنْ يُرِيدَ بِالنَّبَاتِ اَعَالِيَهُ فَرُبَّمَا اَنْ يَكُونَ الْقُلَلُ نَبْتًا بِعَيْنِهِ اَوْ مَكَانًا فَقَدْ يُمْكِنُ وَمَا سَمِعْتُ بِهِمَا

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يَقْطَعُ الْمِصْرَاعَ الثَّانِيَ مِنَ الْاَوَّلِ اِذَا اَبْتَدَاَ شِعْرًا وَاَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذٰلِكَ فِي النَّسِيبِ كَاَنَّهُ يَدُلُّ بِذٰلِكَ عَلَى وَلَهِ وَشِدَّةِ حَالٍ كَقَوْلِ اَبِي الطَّيِّبِ :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ اِغْذَاءُ ذَا الرَّشَإِ الْاَغَنِّ الشَّيِّحُ

فَهٰذَا اعْتِذَارُ مَنِ اعْتَذَرَ لَهُ لَوْ وَقَعَ مِثْلُ هٰذَا فِي الرِّثَاءِ وَالتَّفَجُّعِ لَكَانَ مَوْضِعَهُ اَيْضًا وَكَذٰلِكَ عِنْدَ الْعَظَائِمِ مِنَ الْاُمُورِ وَالنَّوَازِلِ الشَّدِيدَةِ . وَلْيَحْتَرِسْ مِمَّا يَنَالُهُ فِيهِ زِيَادَةٌ اَوْ يَقَعُ عَلَيْهِ مَطْعَنٌ فَاِنَّ اَبَا تَمَّامٍ امْتَدَحَ اَبَا دُلَفٍ بِحَضْرَةِ مَنْ كَانَ يَكْرَهُهُ وَافْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ « عَلَى مِثْلِهَا مِنْ اَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ » وَكَانَتْ فِيهِ حُبْسَةٌ شَدِيدَةٌ . فَقَالَ الرَّجُلُ لَعَنَهُ اللّٰهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ اَجْمَعُونَ .

فَدَهِشَ أَبُو تَمَّامٍ حَتَّى تَبَيَّنَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَأْخُوذٍ بِمَا قِيلَ وَلَا هُوَ مِمَّا يُدْخِلُ عَلَيْهِ عَيْبًا. وَلَا يَلْزَمُهُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا أَنَّ ٱلْحَوْطَةَ وَٱلتَّحَفُّظَ مِنَ ٱلْحُجَّةِ ٱلْبَارِدَةِ أَفْضَلُ وَٱلتَّفْرِيطَ أَرْذَلُ وَأَخْبَثُ.

وَدَخَلَ جَرِيرٌ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَنْشَدَهُ « أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِي » فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ : بَلْ فُؤَادُكَ يَا ٱبْنَ ٱلْفَاعِلَةِ كَأَنَّهُ يَسْتَثْقِلُ هٰذِهِ ٱلْمُوَاجَهَةَ وَإِلَّا فَقَدْ عُلِمَ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا خَاطَبَ نَفْسَهُ

وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ بِعَيْنِهَا عَابُوا عَلَى أَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ لِكَافُورٍ أَوَّلَ لِقَائِهِ مُبْتَدِئًا وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يُخَاطِبُ نَفْسَهُ لَا كَافُورًا :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى ٱلْمَوْتَ شَافِيَا
وَحَسْبُ ٱلْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

فَٱلْعَيْبُ مِنْ بَابِ ٱلتَّأَدُّبِ وَحُسْنِ ٱلسِّيَاسَةِ لَازِمٌ لِأَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي هٰذَا ٱلِٱبْتِدَاءِ لَاسِيَّمَا وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي جُودَةَ ٱلِٱبْتِدَاءِ مِنْ أَجَلِّ مَحَاسِنِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ وَأَشْرَفِ مَآثِرِ شِعْرِهِ إِذَا ذُكِرَ ٱلشِّعْرُ.

وَدَخَلَ ذُو ٱلرُّمَّةِ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَٱسْتَنْشَدَهُ شَيْئًا مِنْ شِعْرِهِ فَأَنْشَدَهُ « مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا ٱلْمَاءُ يَنْسَكِبُ » وَكَانَ بِعَيْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ رِيشَةٌ فَهِيَ تَدْمَعُ فَتَوَهَّمَ أَنَّهُ خَاطَبَهُ أَوْ عَرَّضَ بِهِ فَقَالَ : وَمَا سُؤَالُكَ يَا جَاهِلُ عَنْ هٰذَا وَمَقَتَهُ وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ وَكَذٰلِكَ فَعَلَ ٱبْنُهُ هِشَامٌ بِأَبِي ٱلنَّجْمِ وَقَدْ أَنْشَدَهُ فِي أُرْجُوزَةٍ :

صَفْوَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلِ فَكَأَنَّهَا فِي ٱلْأُفْقِ عَيْنُ ٱلْأَحْوَلِ

وَكَانَ هِشَامٌ أَحْوَلَ فَأَمَرَ فَحُجِبَ عَنْهُ مُدَّةً وَقَدْ كَانَ قَبْلَ

ذٰلِكَ مِنْ خَاصَّتِهِ يَسْمُرُ عِنْدَهُ وَهُوَ يُمَازِحُهُ وَاِنَّمَا يَأْتِي الشَّاعِرُ بِهٰذِهِ الْاَشْيَاءِ اِمَّا مِنْ غَفْلَةٍ فِي الطَّبْعِ اَوْ مِنِ اسْتِغْرَاقٍ فِي الصَّنْعَةِ وَشُغْلٍ هَاجِسٍ بِالْعَمَلِ يَذْهَبُ مَعَ حُسْنِ الْقَوْلِ حَيْثُ ذَهَبَ. وَالْفَطِنُ الْحَاذِقُ يَخْتَارُ لِلْاَوْقَاتِ مَا يُشَاكِلُهَا وَيَنْظُرُ فِي اَحْوَالِ الْمُخَاطَبِينَ فَيَقْصِدُ مَحَابَّهُمْ وَيَمِيلُ اِلَى شَهَوَاتِهِمْ وَاِنْ خَالَفَتْ شَهَوَاتِهِ وَيَتَفَقَّدُ مَا يَكْرَهُونَ سَمَاعَهُ فَيَجْتَنِبُ ذِكْرَهُ. اَلَا تَرَى اَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ قَالَ لِاَحَدِ الشُّعَرَاءِ وَقَدْ اَوْرَدَ بَيْتًا ذَكَرَ فِيهِ «لَوْ خُلِّدَ اَحَدٌ لِكَرَمِ لَكُنْتَ مُخَلَّدًا بِكَرَمِكَ» وَقَالَ كَلَامًا نَحْوَ هٰذَا. فَقَالَ الْمَلِكُ: اِنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ وَلَنَا مِنْهُ نَصِيبٌ. غَيْرَ اَنَّ الْمُلُوكَ تَكْرَهُ مَا يُنَكِّدُ عَيْشَهَا وَيُنَغِّصُ لَذَّتَهَا فَلَا تَأْتِهَا بِشَيْءٍ مِمَّا تَكْرَهُ ذِكْرَهُ

وَمِنَ الْمَشْهُورِ اَنَّ النُّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذِرِ اَتَى شَجَرَةً ظَلِيلَةً مُلْتَفَّةَ الْاَغْصَانِ فِي مَرْجٍ حَسَنٍ كَثِيرِ الشَّقَائِقِ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا وَاِلَيْهِ اُضِيفَتْ فَقِيلَ شَقَائِقُ النُّعْمَانِ. فَنَزَلَ فَاَمَرَ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَاُحْضِرَا وَجَلَسَ لِلَذَّتِهِ. فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ الْعِبَادِيُّ وَكَانَ كَاتِبَهُ: اَتَعْرِفُ اَبْيَتَ اللَّعْنَ مَا تَقُولُ هٰذِهِ الشَّجَرَةُ. قَالَ: وَمَا تَقُولُ. قَالَ تَقُولُ:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ اَنَاخُوا حَوْلَنَا ... يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزُّلَالْ
عَطَفَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَثَوَوْا ... وَكَذَاكَ الدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالْ
مَنْ رَاَنَا فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ ... اِنَّمَا الدُّنْيَا عَلَى قَرْطِ الزَّوَالْ

كَاَنَّهُ قَصَدَ مَوْعِظَتَهُ فَنَغَّصَ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِيهِ وَاَمَرَ بِالطَّعَامِ

وَٱلشَّرَابِ فَرُفِعًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَٱرْتَحَلَ مِنْ فَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهٰذَا شَأْنُ ٱلْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ ٱكْثَرَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ ٱلْعُمْرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يُمْكِنُ فَقَالُوا: عِشْ اَبَدًا وَٱسْلَمْ مَدَى ٱلدَّهْرِ وَٱبْقَ بَقَاءَ ٱلزَّمَانِ . وَٱعْتَرَضَ ٱلنُّقَّادُ فِي ذٰلِكَ وَٱخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

يَا اَمِينَ ٱللّٰهِ عِشْ اَبَدًا دُمْ عَلَى ٱلْاَيَّامِ وَٱلزَّمَنِ
اَنْتَ تَبْقَى وَٱلْفَنَاءُ لَنَا فَاِذَا اَفْنَيْتَنَا فَكُنِ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَاِذَا خَرَجَ ٱلْكَلَامُ عَنْ حَدِّ ٱلْاِمْكَانِ فَاِنَّمَا يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ ٱلْغَايَةِ لَا غَيْرُ ذٰلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِاَبِي نُوَاسٍ ٱلَّذِي اَسَاءَ فِيهِ اَدَبَهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ اَنَّ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنَى دَارًا ٱسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَٱنْتَقَلَ اِلَيْهَا . فَصَنَعَ اَبُو نُوَاسٍ لِذٰلِكَ ٱلْحِينِ اَوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا وَيَقُولُ اَوَّلُهَا :

اَرْبَعْ اَلِلَى اِنَّ ٱلْخُشُوعَ لَبَادِ عَلَيْكَ وَاِنِّي لَمْ اَخُنْكَ وَدَادِي

وَخَتَمَهَا اَوْ كَادَ بِقَوْلِهِ:

سَلَامٌ عَلَى ٱلدُّنْيَا اِذَا مَا فَقَدْتُمُ بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي

فَتَطَيَّرَ ٱلْبَرْمَكِيُّ وَٱشْمَأَزَّ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ اِلَيْنَا اَنْفُسَنَا يَا اَبَا نُوَاسٍ فَمَا كَانَتْ اِلَّا مُدَيْدَةٌ حَتَّى اَوْقَعَ بِهِمِ ٱلرَّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمِ ٱلطِّيَرَةُ . وَزَعَمَ اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَصَدَ ٱلتَّشَاؤُمَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا اَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لِاَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ

ٱلَّذِي لَا أَشُكُّ أَنْ يُحْتَفَلَ لَهُ. ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَصْنَعَ ذٰلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا عَلَى مَنْ قَصَدَ إِلَيْهِ بِذٰلِكَ. وَلِلشُّعَرَاءِ مَذَاهِبُ فِي ٱفْتِتَاحِ ٱلْقَصَائِدِ بِٱلنَّسِيبِ إِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ ٱلْقُلُوبِ وَٱسْتِدْعَاءُ ٱلْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا فِي ٱلطِّبَاعِ مِنْ حُبِّ ٱلْغَزَلِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى ٱللَّهْوِ فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْرَاجٌ إِلَى مَا بَعْدَهُ. وَمَقَاصِدُ ٱلنَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ أَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ ذِكْرَانُ ٱلرَّحِيلِ وَٱلِٱنْتِقَالِ وَتَوَقُّعُ ٱلْبَيْنِ وَٱلِٱشْفَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ ٱلطُّلُولِ وَٱلْحُمُولِ وَٱلْإِبِلِ وَلَمْعِ ٱلْبَرْقِ وَمَرِّ ٱلنَّسِيمِ وَذِكْرُ ٱلْمِيَاهِ ٱلَّتِي يَلْتَقُونَ عَلَيْهَا وَٱلرِّيَاضِ ٱلَّتِي مِنْ خُزَامَى وَأُقْحُوَانٍ وَبَهَارٍ وَعَرَارٍ وَمَا أَشْبَهَ مِنْ زَهْرِ ٱلْبَرِّيَّةِ. وَأَهْلُ ٱلْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي ٱلصُّدُودِ وَٱلْهِجْرَانِ وَٱلرُّقَبَاءِ وَمَنَعَةِ ٱلْحَرَسِ وَٱلْأَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ ٱلشَّرَابِ وَٱلنَّدَامَى وَٱلنَّسْرِينِ وَٱلنَّيْلُوفَرِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّوَاوِيرِ ٱلْبَلَدِيَّةِ وَٱلرَّيَاحِينِ ٱلْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ ٱلتُّفَّاحِ وَٱلتُّحَيَّةِ بِهِ وَدَسِّ ٱلْكُتُبِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْفَرِدُونَ بِهِ

وَٱلْعَادَةُ أَنْ يَذْكُرَ ٱلشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَمَا أَنْضَى مِنَ ٱلرَّكَائِبِ وَمَا تَجَشَّمَ مِنْ هَوْلِ ٱللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ ٱلنَّهَارِ وَهَجِيرِهِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَغُؤُورِهِ. ثُمَّ يَخْرُجَ إِلَى مَدْحِ ٱلْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ ٱلْقَصْدِ وَذِمَامَ ٱلْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ ٱلْمُكَافَاةَ. وَكَانُوا قَدِيمًا أَصْحَابَ خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى آخَرَ فَلِذٰلِكَ كَانَ أَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ أَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ ٱلدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَٱبْنِيَةِ ٱلْحَاضِرَةِ فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ ٱلْحَضَرِيِّ ٱلدِّيَارَ إِلَّا مَجَازًا لِأَنَّ ٱلْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

ٱلرِّيحُ وَلَا تَنحُوهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعِيشَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْجِيلِ وَأَحْسَنُ مَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُوَلَّدُونَ ٱلْمُحْدَثُونَ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ:

سَقَى ٱللهُ قَصْرًا بِٱلرُّصَافَةِ شَاقَنِي ... بِأَعْلَاهُ قَصْرِيُّ ٱلدِّيَارِ رُصَافِي

أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلدُّرِّ قُمِّعَتْ ... يَوَاقِيتَ حُمْرًا فَٱسْتَبَاحَ عَفَافِي

وَكَانَتْ دَوَابُّهُمُ ٱلْإِبِلَ لِكَثْرَتِهَا وَعَدَمِ غَيْرِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى ٱلتَّعَبِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَٱلْعَلَفِ فَلِهٰذَا أَيْضًا خَصُّوهَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ يَرْضَى بِٱلْكَذِبِ فَيَصِفَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ أَلَا تَرَى أَنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ ٱلْبَرِيدِ وَٱلْفَرَانِقِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْإِبِلِ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ عَلَى ٱلسِّنَتِهِمْ فَقَالَ يَصِفُ رَحِيلَهُ إِلَى قَيْصَرَ:

إِذَا قُلْتُ رَوِّحْنَا ٱرَنَّ فَرَانِقٌ

عَلَى هَزِجٍ وَاهِي ٱلْأَبَاجِلِ أَبْتَرَا

عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ ٱلذُّنَابَى مُعَاوِدٍ

بَرِيدَ ٱلسُّرَى بِٱللَّيْلِ مِنْ خَيْرِ بَرْبَرَا

إِذَا رُعْتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كِلَيْهِمَا

مَشَى ٱلْهَيْدَى فِي دَفِّهِ ثُمَّ فَرْفَرَا

كَانَتِ ٱلْخَيْلُ ٱلْبَرْبَرِيَّةُ تُهَلَّبُ أَذْنَابُهَا كَٱلْبِغَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاخِلَهَا فِي خِدْمَةِ ٱلْبَرِيدِ وَلِيُعْلَمَ أَنَّهَا لِلْمَلِكِ. وَقَالَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ فِي ٱبْنِ هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أَمِيرًا:

جَاءَتْ بِهِ مُعْتَجِرًا بِبُرْدِهِ سَفْوَاءَ تَرْدِي بِنَسِيجِ وَحْدِهِ
تَقْدَحُ قَيْسٌ كُلُّهَا بِزَنْدِهِ

اِلَّا اَنَّ مِنْهُمْ مَنْ خَالَفَ هٰذَا كُلَّهُ فَوَصَفَ اَنَّهُ قَصَدَ اَلْمَمْدُوحَ رَاجِلًا اِمَا اِخْبَارًا بِالصِّدْقِ وَاِمَّا تَعَاطِيَ صَعْلَكَةٍ . قَالَ اَبُو نُوَاسٍ لِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى :

اِلَيْكَ اَبَا اَلْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى
عَلَيْهَا اَمْتَطَيْنَا اَلْخَضَرَمِيَّ اَلْمُلَمَّسَا
قَلَانِصُ لَمْ تَعْرِفْ خَبِيثًا عَلَى طَلًا
وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرْعُ اَلْفَنِيقِ وَلَا اَلْهَنَا

فَذَكَرَ اَنَّ قَلَانِصَهُمُ اَلَّتِي اَمْتَطَوْا اِلَيْهِ مَشْدُودَةٌ بِالنِّعَالِ وَاَخْرَجَهُ كَمَا تَرَى مُخْرَجَ اَللُّغْزِ وَاَتْبَعَهُ اَبُو اَلطَّيِّبِ فَقَالَ :

لَا نَاقَتِي تَحْمِلُ اَلرَّدِيفَ وَلَا بِالسَّوْطِ يَوْمَ اَلرِّهَانِ اَجْهَدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا زِمَامُهَا وَاَلشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا

وَقَالَ كَرَّةً اُخْرَى فِي مِثْلِ ذٰلِكَ يَتَشَكَّى :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي تَعْجِزُ عَنْهُ اَلْعَرَامِسُ اَلذُّلُلُ

وَلَوْ شَاءَ قَائِلٌ اَنْ يَقُولَ فَاِنَّ اَبَا نُوَاسٍ لَمْ يُرِدْ مَا ذَهَبَ اِلَيْهِ اَبُو اَلطَّيِّبِ لٰكِنْ اَرَادَ اَنَّهُ مَعَهُ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ قَصَدَهُ فِي حَاجَتِهِ مُحْتَذِيًا نَعْلَيْهِ لَكَانَ اَظْهَرَ وَجْهًا مَا لَمْ يَكُنِ اَلْخَضَرَمِيُّ مِنَ اَلْجُلُودِ مَخْصُوصًا بِهِ اَلْمُسَافِرُ دُونَ اَلْحَاضِرِ . وَظَاهِرُ اَلْكَلَامِ اَنَّ مَقْصَدَ اَلشَّاعِرَيْنِ وَاحِدٌ . وَقَدْ ذَكَرَ اَبُو اَلطَّيِّبِ اَلْخَيْلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ

وَكَانَ يُؤْثِرُهَا عَلَى ٱلْإِبِلِ لِمَا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مِنَ ٱلتَّهَيُّبِ بِذِكْرِ ٱلْخَيْلِ وَتَعَاطِي ٱلشَّجَاعَةِ . فَقَالَ يَذْكُرُ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ مِنْ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ ٱلْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ
أُرَاقِبُ فِيهِ ٱلشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ
وَعَيْنِي إِلَى أُذْنِي أَعَزُّ كَأَنَّهُ
مِنَ ٱللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ

وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ بَلَدِنَا خَاصَّةً شَيْءٌ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ إِلَّا مَا يُعَدُّ قِلَّةً فَٱلْوَاجِبُ ٱجْتِنَابُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ حَقِيقَةً لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْمَادِحُ مِنْ سُكَّانِ بَلَدِ ٱلْمَمْدُوحِ يَرَاهُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فَمَا أَقْبَحَ ذِكْرَ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْفَلَاةِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مُكَافَحَةً وَذٰلِكَ عِنْدَهُمْ هُوَ ٱلْوَثْبُ وَٱلْبَتْرُ وَٱلْقَطْعُ وَٱلْكَسْعُ وَٱلِٱقْتِضَابُ كُلُّ ذٰلِكَ يُقَالُ وَٱلْقَصِيدَةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ بَتْرَاءَ كَٱلْخُطْبَةِ ٱلْبَتْرَاءِ وَٱلْقَطْعَاءِ وَهِيَ ٱلَّتِي لَا يُبْتَدَأُ فِيهَا بِحَمْدِ ٱللهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ٱلْخُطَبِ كَمَا قَالَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ « إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَٱلنَّسِيبُ ٱلْمُقَدَّمُ » فَأَنْكَرُوا ٱلنَّسِيبَ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ هٰذَا ٱلْبَابَ وَفَتَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى أَبُو نُوَاسٍ بِقَوْلِهِ « لَا تَبْكِ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبْ إِلَى هِنْدِ » وَقَوْلِهِ عِنْدَ ٱلْحَاتِمِيِّ فِيمَا رَوَى بَعْضُ أَشْيَاخِهِ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ صَنَعَهُ شَاعِرٌ مِنَ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ :

أعِرْ شِعْرَكَ الأَطْلالَ وَالمَنْزِلَ القَفْرا
فَقَدْ طالَ مَا انْ رَابَهُ نَعْتُكَ الخَمْرا
دَعانِي إِلَى نَعْتِ الطُّلُولِ مُسَلَّطٌ
يَضِيقُ ذِرَاعِي انْ أَرُدَّ لَهُ أَمْرا
فَسَمْعًا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً
وَانْ كُنْتَ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرْكَبًا وَعْرا

فَجاءَ هُوَ بِأَنْ وَصَفَ الأَطْلالَ وَالقَفْرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ الإِمَامِ وَإِلَّا فَهُوَ عِنْدَهُ فَرَاغٌ وَجَهْلٌ. وَإِنَّ فِي اللِّسَانِ وَكَثْرَةِ وُلُوعِهِ بِالشَّيْءِ لَشَاهِدًا عَدْلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ أَبُو تَمَّامٍ « لِسَانُ المَرْءِ مَنْ خَدَمَ الفُؤَادَا » وَمِنْ عُيُوبِ هٰذَا البَابِ أَنْ يَكُونَ النَّسِيبُ كَثِيرًا وَالمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ أَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ إِلَّا ابْتِدَاءً وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ بَاقِيَ القَصِيدَةِ وَأَكْثَرُهُمْ فِعْلًا لِذٰلِكَ البُحْتُرِيُّ كَانَ يَصْنَعُ الِابْتِدَاءَ سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكُلَّمَا تَمَادَى قَوِيَ كَلَامُهُ وَلَهُ مِنْ جَيِّدِ الِابْتِدَاآتِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَالغَالِبُ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ أَنَّ القَاضِيَ الجُرْجَانِيَّ فَضَّلَ بِجُودَةِ الِاسْتِهْلَالِ وَهُوَ الِابْتِدَاءُ عَلَى أَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي الطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَّلَهُمَا بِالخُرُوجِ وَالخَاتِمَةِ وَلَسْتُ أَرَى لِذٰلِكَ وَجْهًا إِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَإِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهُمَا ابْتِدَاءً جَيِّدًا بِابْتِدَاءٍ لِأَرْبَى وَقَصَّرَا عَنْ عَدَدِهِ

وَأَمَّا الحَاتِمِيُّ فَإِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ أَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَحُورُ

عَلَيْهِ جَوْرًا بَيِّنًا لَا يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يُسَلَّمُ إِلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ فَخْمَ الْاِبْتِدَاءِ لَهُ رَوْعَةٌ وَعَلَيْهِ أُبَّهَةٌ كَقَوْلِهِ:

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارٍ فَحُذَارِ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حُذَارِ

وَقَوْلِهِ أَيْضًا:

اَلسَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ
فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وَقَوْلِهِ « يَا رَبْعُ لَوْ رَبَعُوا عَلَى ابْنِ هُمُومِ » وَالْغَالِبُ تَحْتَ اللَّفْظِ وَجَهَارَةُ الْاِبْتِدَاءِ

وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الْحَسَنُ بْنُ بِشْرٍ الْآمِدِيُّ يُفَضِّلُ ابْتِدَاآتِ الْبُحْتُرِيِّ جِدًّا وَهُوَ الَّذِي وَضَعَ كِتَابَ الْمُوَازَنَةِ وَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ الطَّائِيَّيْنِ وَنَوَّهَ فِيهِ بِالْبُحْتُرِيِّ أَعْظَمَ تَنْوِيهٍ وَمِنْ جَيِّدِ ابْتِدَاآتِهِ قَوْلُهُ:

عَارَضْنَا أَصْلًا فَقُلْنَا الرَّبَرَبُ حَتَّى أَضَاءَ الْأُقْحُوَانُ الْأَشْنَبُ

وَقَوْلُهُ « ضَمَانٌ عَلَى عَيْنَيْكَ أَنِّي لَا أَسْلُو » وَقَوْلُهُ « تَرَى عِنْدَهُمْ عِلْمًا بِشَجْوِي وَأَدْمُعِي » فَأَمَّا الْخُرُوجُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ شَبِيهٌ بِالْاِسْتِطْرَادِ وَلَيْسَ بِهِ لِأَنَّ الْخُرُوجَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ نَسِيبٍ إِلَى مَدْحٍ أَوْ غَيْرِهِ بِلُطْفِ تَخَيُّلٍ ثُمَّ تَتَمَادَى فِيمَا خَرَجْتَ إِلَيْهِ كَقَوْلِ أَبِي عِبَادَةَ الْبُحْتُرِيِّ:

سُقِيتَ رُبَاكَ بِكُلِّ غَيْثٍ جَاعِلٍ مِنْ وَبْلِهِ حَقًّا لَهَا مَعْلُومَا
وَلَوَ أَنَّنِي أُعْطِيتُ فِيهِنَّ الْمُنَى لَسَقَيْتُهُنَّ بِكَفِّ إِبْرَهِيمَا

وَاكْثَرُ النَّاسِ اسْتِعْمَالًا لِهٰذَا الْفَنِّ اَبُو الطَّيِّبِ فَاِنَّهُ مَا يَكَادُ يَشِذُّ عَنْهُ حَتَّى رُبَّمَا قَبُحَ سُقُوطُهُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ:

هَا فَانْظُرِي اَوْ فَظُنِّي بِي تَرَيْ حُرَقًا
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَالَا

عَلَّ الْاَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لِي
اِلَى الَّتِي تَرَكَتْنِي فِي الْهَوَى مَثَلَا

فَقَدْ تَمَنَّى اَنْ يَكُونَ الْاَمِيرُ لَهُ قَوَّادًا وَلَيْسَ هٰذَا مِنْ قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ:

سَاَشْكُو اِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هَوَانًا لَعَلَّ الْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

فِي شَيْءٍ لِاَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَنَا ثُمَّ اَتْبَعَ ذٰلِكَ ذِكْرَ الْمَاءِ وَالسَّحَابَةِ فَقَالَ:

اَمِيرٌ رَاَيْتُ الْمَالَ فِي نَقَمَاتِهِ ذَلِيلًا مَهِينَ النَّفْسِ بِالضَّيْمِ مُوقِنَا

وَكَاَنَّهُ اَشَارَ اِلَى اَنَّ جَمْعَهُ بَيْنَهُمَا بِالْمَالِ خَاصَّةً يَفْضُلُ عَلَيْهِ وَيُجْزِلُ عَطِيَّتَهُ فَيَتَزَوَّجُهَا اَوْ يَتَسَرَّاهَا. وَاَبُو الطَّيِّبِ قَالَ لِيَشْفَعَ وَالشَّفَاعَةُ رَغْبَةٌ وَسُؤَالٌ. ثُمَّ اَتْبَعَ بَيْتَهُ بِمَا هُوَ مُقَوٍّ لِمَعْنَاهُ فِي الْقِيَادَةِ فَقَالَ:

اَيَقَنْتُ اَنَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بِدَمِي لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرُّمْحِ مُعْتَقِلَا

فَدَلَّ عَلَى اَنَّهُ يَشْفَعُ فَاِنْ اُجِيبَ اِلَى مُسَاعَدَةِ اَبِي الطَّيِّبِ فَذَاكَ وَاِلَّا رَجَعَ اِلَى الْقَهْرِ وَالَّذِي يُشَاكِلُ قَوْلَ اَبِي نُوَاسٍ قَوْلُهُ:

اُحِبُّ الَّذِي فِي الْبَدْرِ مِنْهُ مَشَابِهٌ
وَاَشْكُو اِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

فَلَفْظَةُ ٱلشَّكْوَى تُحْمَلُ عَنْهُ كَمَا حُمِلَتْ عَنْ اَبِي نُوَاسٍ

وَاَوْلَى ٱلشِّعْرِ بِاَنْ يُسَمَّى تَخَلُّصًا مَا تَخَلَّصَ فِيهِ ٱلشَّاعِرُ عَنْ مَعْنًى اِلَى مَعْنًى ثُمَّ عَادَ اِلَى ٱلْاَوَّلِ وَاَخَذَ فِي غَيْرِهِ ثُمَّ رَجَعَ اِلَى مَا كَانَ فِيهِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ آخِرَ نَسِيبِ قَصِيدَةٍ اَعْتَذَرَ بِهَا اِلَى ٱلنُّعْمَانِ :

فَكَفْكَفْتُ مِنِّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا
عَلَى ٱلنَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهِلٌّ وَدَامِعُ

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ ٱلْمَشِيبَ عَلَى ٱلصِّبَى
وَقُلْتُ اَلَمَّا اَصْحُ وَٱلشَّيْبُ وَازِعُ

ثُمَّ تَخَلَّصَ اِلَى ٱلِاعْتِذَارِ فَقَالَ :

وَلٰكِنَّ هَمًّا دُونَ ذٰلِكَ دَاخِلًا مَكَانَ ٱلشَّغَافِ تَبْتَغِيهِ ٱلْاَصَابِعُ

وَعِيدُ اَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ اَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَٱلضَّوَاجِعُ

ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُ عِنْدَ مَا سَمِعَ مِنْهُ ذٰلِكَ فَقَالَ :

فَبِتُّ كَاَنِّي سَاوَرَتْنِي ضَئِيلَةٌ مِنَ ٱلرُّقْشِ فِي اَنْيَابِهَا ٱلسَّمُّ نَاقِعُ

يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ ٱلتَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلْيِ ٱلنِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ

فَوَصَفَ ٱلْحَيَّةَ وَٱلسَّلِيمَ ٱلَّذِي شَبَّهَ نَفْسَهُ بِهِ مَا شَاءَ ثُمَّ تَخَلَّصَ مِنَ ٱلَّذِي كَانَ فِيهِ فَقَالَ :

اَتَانِي اَبَيْتَ ٱللَّعْنَ اَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ ٱلَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا ٱلْمَسَامِعُ

ثُمَّ اَطَّرَدَ لَهُ ٱلْقَوْلُ مَا شَاءَ مِنْ تَخَلُّصٍ اِلَى تَخَلُّصٍ حَتَّى ٱنْقَضَتِ ٱلْقَصِيدَةُ وَهُوَ مَا اَشَرْتُ اِلَيْهِ غَيْرُ خَافٍ اِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . وَقَدْ

يَقَعُ مِنْ هٰذَا النَّوْعِ شَيْءٌ يَعْتَرِضُ فِي وَسْطِ التَّشْبِيبِ مِنْ مَدْحِ مَنْ يُرِيدُ الشَّاعِرُ مَدْحَهُ بِتِلْكَ القَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنَ النَّسِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى المَدْحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ بِمَدْحِهِ الَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذٰلِكَ فِي وَسْطِ النَّسِيبِ مِنْ قَصِيدَةٍ:

لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى
مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا الحُسَيْنِ كَرِيمُ
مَا زُلْتُ عَنْ سَنَنِ الوَدَادِ وَلَا غَدَتْ
نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذٰلِكَ:

بِمُحَمَّدِ بْنِ الهَيْثَمِ بْنِ شَبَانَةٍ مَجْدٌ إِلَى جَنْبِ التِّمَاكِ مُقِيمُ

وَيُسَمَّى هٰذَا النَّوْعُ الإِلْمَامَ. وَكَانَتِ العَرَبُ لَا تَذْهَبُ هٰذِهِ المَذَاهِبَ فِي الخُرُوجِ إِلَى المَدْحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنْ نَعْتِ الإِبِلِ وَذِكْرِ القِفَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيلِهِ دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِإِنَّ المُشَدَّدَةِ ابْتِدَاءً لِلْكَلَامِ الَّذِي يَقْصِدُونَهُ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ الشَّاعِرِ إِلَى المَدْحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْفَصِلًا بِقَوْلِهِ: دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَنَحْوِ ذٰلِكَ سُمِّيَ طَفْرًا وَانْقِطَاعًا. وَكَانَ البُحْتُرِيُّ كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ:

لَوْلَا الرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ الهَوَى لٰكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مُوَكَّلُ
إِنَّ الرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ مُذْ سَاسَهَا المُتَوَكِّلُ

وربّما قالوا بعدَ صفةِ النّاقةِ والمفازةِ إلى فلانٍ قصدتُ وحتّى تركتُ بفناءِ فلانٍ وما شاكلَ ذلكَ . وأمّا الإنتهاءُ فهوَ قاعدةُ القصيدةِ وآخرُ ما يبقى منها في الأسماعِ وسبيلُهُ أن يكونَ محكماً لا يمكنُ الزيادةُ عليهِ ولا يأتي بعدهُ أحسنُ منهُ . وإذا كانَ أوّلُ الشعرِ مفتاحاً لهُ وجبَ أن يكونَ آخرُهُ قفلاً عليهِ . وقد أربى أبو الطيّبِ على كلِّ شاعرٍ في جودةِ هذهِ الأبوابِ الثلاثةِ إلّا أنّهُ ربّما عقّدَ أوائلَ الأشعارِ ثقةً بنفسهِ وإغراباً على الناسِ كقولهِ أوّلَ قصيدةٍ :

وفاؤكما كالربعِ أنجاهُ طاسمُهْ بأنْ تُسعِدا والدمعُ أشفاهُ ساجمُهْ

فإنّ هذا يحتاجُ الأصمعيُّ إلى أن يفسّرَ معناهُ . ويقعُ لهُ في الخروجِ ما كانَ تركُهُ أولى بهِ وأشعرُ لهُ وإنّما أدخلهُ فيهِ حبُّ الإغرابِ في بابِ التوليدِ حتّى جاءَ بالغثِّ البارِدِ والتشنيعِ المتكلّفِ نحوَ قولهِ :

أحبُّكَ أو يقولوا جرَّ نملٌ ثبيراً وابنُ إبرهمَ ربيعا

فهذا من البشاعةِ ومن الشناعةِ بحيثُ لا يخفى على أحدٍ . وما أظنُّهُ سرقَ هذا المعنى الشريفَ إلّا من كذبةٍ كانَ أوردَها أبو العنبسِ الصّيمريُّ على لسانِ رجلٍ فزعمَ أنّهُ قالَ : رأيتُ رجلاً نامَ فجرَّهُ النملُ ثلاثةَ فراسخَ . وقد جعلَ أبو الطيّبِ مكانَ الرجلِ جبلاً وإن علمنا الإغرابَ في مرادهِ ولفظهِ . وقالَ أيضاً :

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سرجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ

وَبَحْرُ أَبُو ٱلْمِسْكِ ٱلْخِضَمُّ ٱلَّذِي لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبَابُ

يُرِيدُ وَخَيْرُ بَحْرٍ أَبُو ٱلْمِسْكِ وَهٰذِهِ غَايَةُ ٱلتَّصَنُّعِ وَٱلتَّكَلُّفِ. وَمِنَ ٱلْعَرَبِ مَنْ يَخْتِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فَيَقْطَعُهَا وَٱلنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ وَلَهَا مُشْتَهِيَةٌ وَيَبْقَى ٱلْكَلَامُ مَنْثُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ جَعْلَهُ خَاتِمَةً كُلُّ ذٰلِكَ رَغْبَةً فِي أَخْذِ ٱلْعَفْوِ أَلَا تَرَى مُعَلَّقَةَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ كَيْفَ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ ٱلسَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ ٱلْمَطَرِ:

كَأَنَّ ٱلسِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى غُدَيَّةً بِأَرْجَائِهِ ٱلْقُصْوَى عَنَابِيشُ عُنْصُلِ

فَلَمْ يَفْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ وَهِيَ أَفْضَلُهُنَّ. وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ خَتْمَ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلدُّعَاءِ لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ ٱلضُّعَفَاءِ إِلَّا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ يَذْكُرُ ٱلْخَيْلَ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ:

فَلَا هَجَمْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى أَمَلِ

فَإِنَّ هٰذَا يُشْبِهُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَغِيضٍ كَانَ يُصَايِحُ ٱلْأَمِيرَ فَيَقُولُ «لَا صَبَّحَ ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ» وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ «إِلَّا وَمَسَّاهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَيُمَاسِيهِ فَيَقُولُ «لَا مَسَّى ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِنِعْمَةٍ» ثُمَّ يَقُولُ «إِلَّا وَصَبَّحَهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَنَحْوُ هٰذَا فَلَا يَدْعُو لَهُ حَتَّى يَدْعُوَ عَلَيْهِ وَمِثْلُ هٰذَا قَبِيحٌ لَاسِيَّمَا مِنْ مِثْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ

فهرس

المقالات

وجه

القسم الاول في علم الخطابة ١

الفصل الاول في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها ١

البحث الاوّل في تحديد الخطابة وما تشتمل عليهِ بوجه الاجمال ١

البحث الثاني في تعريف الخطابة وموضوعها ٣

البحث الثالث في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة ٤

البحث الرابع في ان الخطابة تتحرّى للتصديق اكثر منها للتأثير ٥

البحث الخامس في فوائد علم الخطابة ٧

البحث السادس في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان ١١

الفصل الثاني في بلاغة الخطيب ١٢

البحث الاول في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب ١٢

البحث الثاني في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ ٢٥

الفصل الثالث في الاقاويل المقنعة ٢٨

البحث الاول في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة القياس وعلم المنطق ٢٨

البحث الثاني في الطريق اي الدليل وتقسيمهِ ٣٠

البحث الثالث في المواضع ٣١

البحث الرابع في التعريف والحدّ والرسم ٣٣

البحث الخامس في الكلي والجزئي ٣٧

البحث السادس في الجنس والنوع ٣٩

البحث السابع في تعريف العلّة والمعلول ٤١

وجه

الفصل الرابع في آداب الخطابة ٤٢

البحث الاول في آداب كلام الخطيب ٤٢

البحث الثاني في خصال الخطيب ٤٦

البحث الثالث في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة ٤٩

البحث الرابع في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم ٥٢

الفصل الخامس في الاخلاق والاهواء ٥٩

البحث الاول في تعريف الاخلاق ٥٩

البحث الثاني في الاخلاق الحسنة ٦٢

البحث الثالث في الاخلاق الرديئة ٦٩

البحث الرابع في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة ٧٤

البحث الخامس في الارتياض بمكارم الاخلاق ٧٩

الفصل السادس في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس ٨٩

وجه

البحث الاول في مبادىء الخطابة والافتتاحات ٨٩

البحث الثاني في القضية والقياس ٩٠

البحث الثالث في القياس واقسامه وانواعه ٩٢

البحث الرابع في ملحقات القياس ٩٥

البحث الخامس في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل ٩٧

البحث السادس في مقدمات القياسات الخطبية ١٠٢

الفصل السابع في التفنيد ١٠٨

البحث الاول في المناظرة والجدال ١٠٨

البحث الثاني في آداب المناظرة ١١١

البحث الثالث في الجوابات على الخصم ١١٤

البحث الرابع في المغالطة ١١٥

البحث الخامس في مقاطيع الكلام ١١٩

الفصل الثامن في التعبير ١٢٤

وجه

البحث الاول في خواص تعبير الخطيب ١٢٤

البحث الثاني في بلاغة كلام العرب وكلام العجم ١٢٦

الفصل التاسع في اجناس الخطابة الثلاثة ١٣٧

البحث الاول في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس ١٣٧

البحث الثاني في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها ١٣٩

البحث الثالث في مقدمات الجنس المشوري ١٤٢

البحث الرابع في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها ١٤٥

البحث الخامس في السبب الذي من اجلهِ يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة ١٥٠

البحث السادس في الفرق بين الخير والسعادة ١٦١

البحث السابع في اقسام الخير

وجه

والسعادة ١٦٢

البحث الثامن في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها ١٧٢

البحث التاسع في ايثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك ١٨١

البحث العاشر في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة ١٩٤

البحث الحادي عشر في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثبيتي وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذم وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة ١٩٨

الفصل العاشر في انواع الخطب ومن برع فيها ٢١١

البحث الاول في خطب التهاني ٢١١

البحث الثاني في خطب التقليد ٢١٢

البحث الثالث في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب ٢١٤

وجه

البحث الرابع في خطب الوعاظة ٢١٦

البحث الخامس في غاية الوعظ ٢٢١

البحث السادس في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن ٢٢٣

البحث السابع في الخطب عند العرب ٢٣١

القسم الثاني في علم الشعر ٢٤٠

الفصل الاول في تعريف الشعر وانواعه وفوائده ٢٤٠

البحث الاول في تحديد الشعر ٢٤٠

البحث الثاني في صناعة الشعر وانواع الاشعار ٢٤٣

البحث الثالث في المديح والهجو ٢٤٧

البحث الرابع في العلل المولدة للشعر ٢٤٩

البحث الخامس في وزن الشعر ولحنه ٢٥٣

البحث السادس في صناعة المديح واجزائها ٢٥٨

البحث السابع في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية ٢٦٦

وجه

البحث الثامن في اسطقسات الاقاويل الشعرية ٢٨٤

البحث التاسع في صناعة الاشعار القصصية ٢٩٤

البحث العاشر في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته ٢٩٥

البحث الحادي عشر في انواع المحاكاة غير المقبولة ٢٩٦

الفصل الثاني في معرفة الشعراء ٣٠٠

البحث الاول في القدماء من الشعراء ٣٠٠

البحث الثاني في المقلّين من الشعراء ٣١٢

البحث الثالث في المغلّبين من الشعراء ٣١٤

الفصل الثالث في فنون الشعر ٣٢١

البحث الاول في المطبوع والمصنوع ٣٢١

البحث الثاني في اقسام الشعر ٣٢٧

البحث الثالث في صناعة المديح ٣٢٩

البحث الرابع في الافتخار ٣٤٣

البحث الخامس في الرثاء ٣٤٧

	وجه
البحث السادس في الاقتضاء والاستنجاز	٣٥٤
البحث السابع في العتاب	٣٥٦
البحث الثامن في الوعيد والانذار	٣٦٢
البحث التاسع في الهجاء	٣٦٣
البحث العاشر في الاعتذار	٣٦٨
البحث الحادي عشر في سيرورة الشعر والحظوة في المدح	٣٧٢
البحث الثاني عشر في ما اشكل من المدح والهجاء	٣٧٦
البحث الثالث عشر في البديهة والارتجال	٣٨٠
البحث الرابع عشر في اداب الشعر	٣٨٥
البحث الخامس عشر في عمل الشعر وشحذ القريحة	٣٩٠
البحث السادس عشر في المقاطع والمطالع	٤٠١
البحث السابع عشر في المبتدا او الخروج والنهاية	٤٠٤

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0315317480

PJ
6161
.C5
v. 4

BOUND
JAN 1 1955
FEB 4 1955